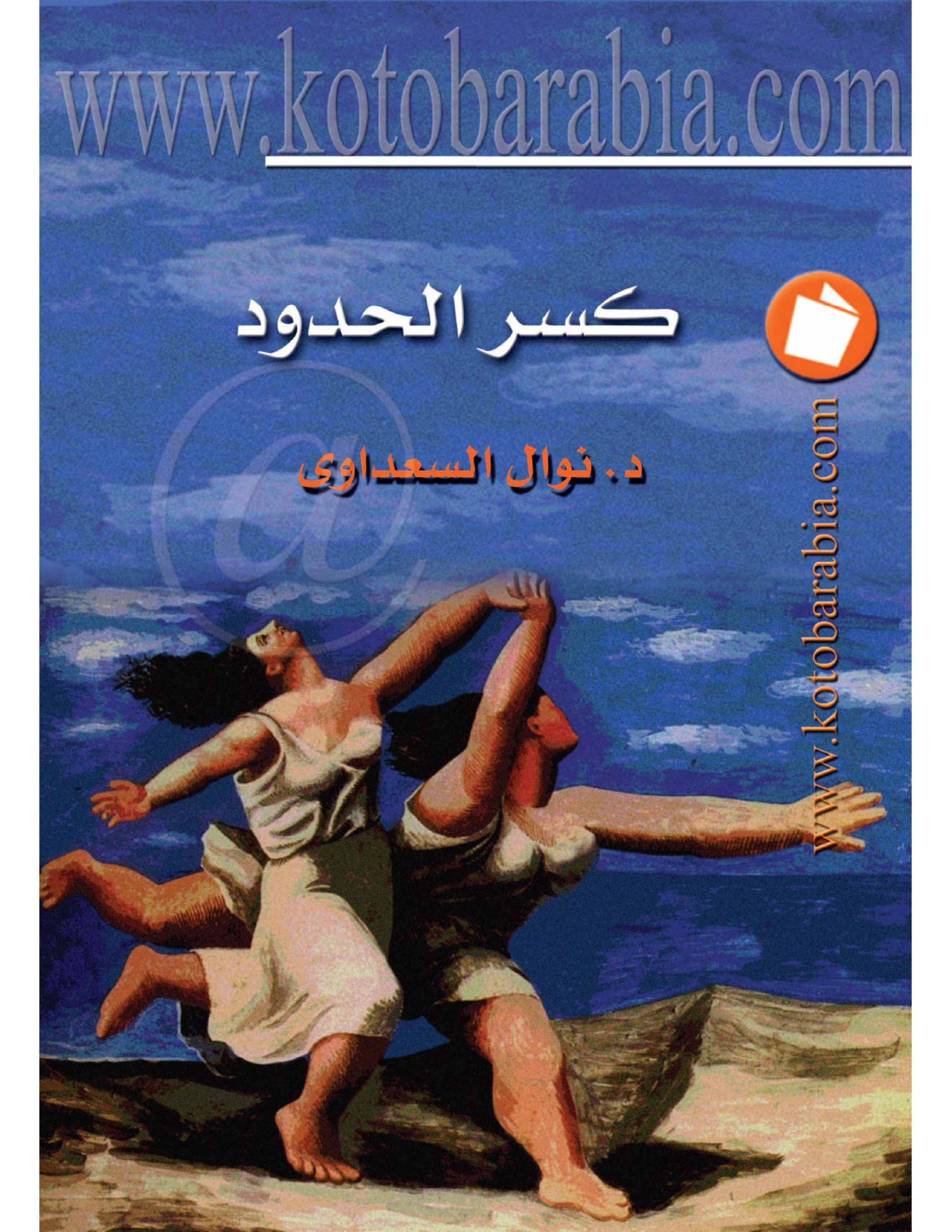


www.kotobarabia.com
كسر الحدود
د. نوال السعداوى
www.kotobarabia.com

كسر الحدود

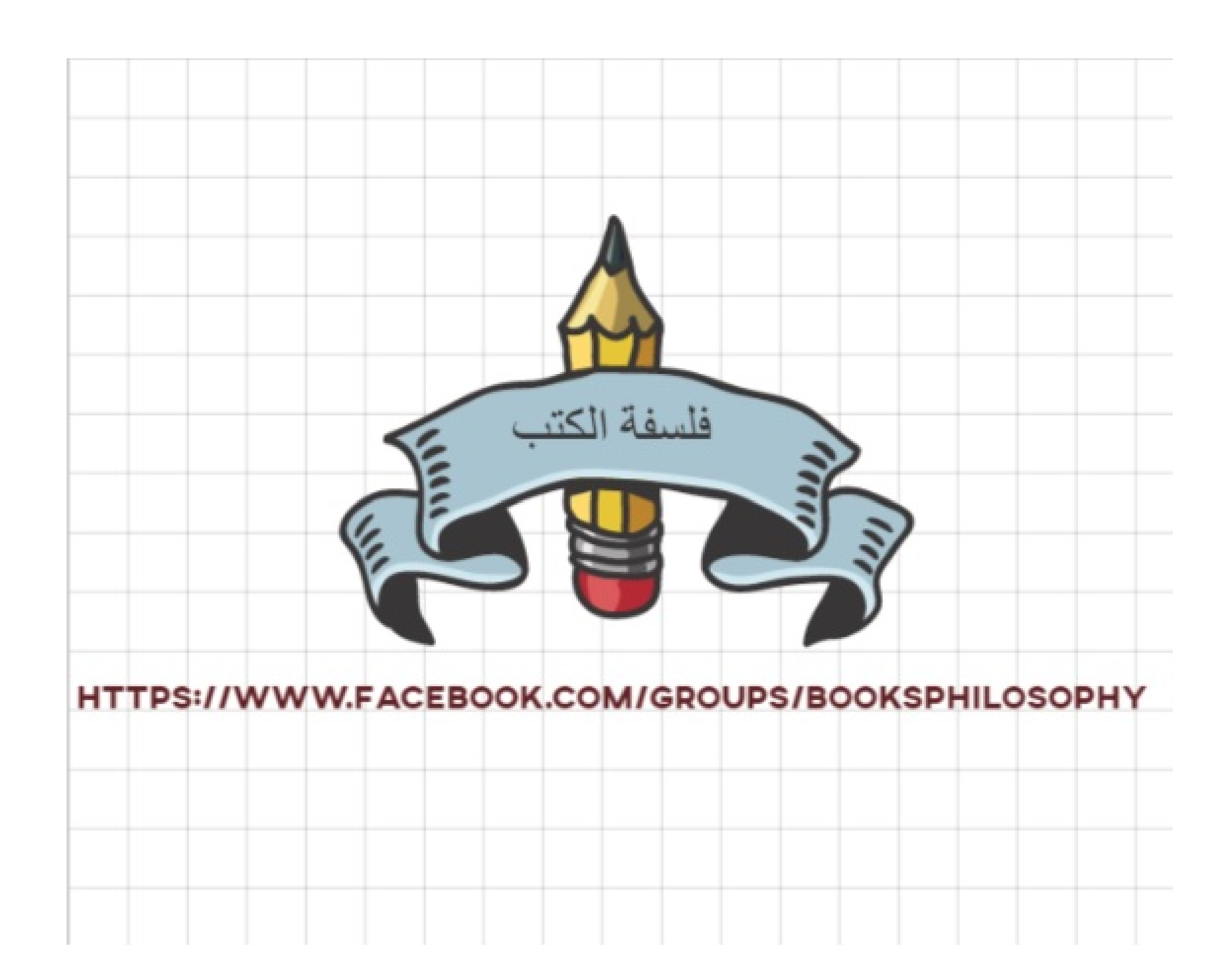
د. نـوال السعداوى

الإهداء

إلى النسـ ـاء والرجـ ـال الـ ـذين يكسـ ـرون
الحواجز الموروثة ويتجاوزون الخطوط الحمراء

نوال السعداوى

القاهرة– نوفمبر ٢٠٠٢



دكتورة نوال السعداوى

كسر الحدود

- نحو تحرير العقل المصري
- عالم تختفي فيه الحقيقة يسوده الوهم
- تكوين الضمي الإبداعي الحر
- تخبط النخبة المثقفة
- عن جورج بوش وتوني بلير
- الفتاة الفلسطينية التي تتحدي الحكومات العربية

كســــــر الحـــدود

المحتويات

الموضوع

من وحي سنوات الغربة

القيظ والغيظ في يونيو ٢٠٠٢

من وحي صحف ٥ يونيو ٢٠٠١

أمي المثالية

١٦قصيدة صغيرة

عن الذاكرة الجمعية المفقودة

تحت اسم التنمية

حجاب العقل

عن تقرير التنمية البشرية

١٢قصيدة صغيرة

تكوين الضمير الإبداعي الحر

الخيال الذكوري المبتور

أربع قصائد قصيرة

رحلة الصيف إلى الجنوب

تخبط النخبة المثقفة

عن استراتيجية جديدة للثقافة والإبداع

الاحتمال المفيد والاحتمال غير المفيد

مفهوم الوطن والحب في عيد الأم

عن هذا الكتاب

يتميز هذا الكتاب في أي مجال بأنه يكسر الحدود والقواعد السابقة عليه، بتجاوز الخطوط الحمراء كلها، ويأتي بالجديد من الأفكار والأشكال والتعبيرات التي لا تخطر على بال، لان الإبداع يعني الجديد والتمرد على القديم.

وخلال العشر سنوات الماضية كنت أستاذة زائرة في عدد من الجامعات غرباً وشرقاً. كنت أدرس مادة أعطيتها اسم " الإبداع والتمرد".تقوم على فكرة أن لا حد للإبداع ولا سقف للعقل البشري المبدع تحت أي حجة سياسية أو دينية أو غيرهما.

ولأنني طبيبة وأديبة في آن واحد فقد حاولت أن أكسر الحدود بين العلم والفن. أو بين الطب والأدب وفي كليات الطب في الجامعات المتقدمة أصبح الطلاب والطالبات يدرسون الموسيقي والأدب والشعر إلى جانب التشريح وعلم الأمراض والفيروسات والاقتصاد والسياسة والفلسفة وغيرها.

لقد تربينا منذ الطفولة على تقديس الحدود والخوف من تجاوز الخطوط الحمراء في كل مجال. خاصة مجال القوي السياسية والدينية المسيطرة.ولهذا السبب لم يخرج من بلادنا مبدعون أو مبدعات في مجال العلوم والفنون.

لقد تربينا على التقليد، والمحاكاة والنقل والترجمة عن الآخرين وليس الإبداع بعقولنا والمغامرة والخوض في المحرمات.

ومن المحرمات الموروثة في عالم الأدب هو الفواصل والحدود التي رسمت بين الرواية والقصة والشعر والمسرحية وغيرها، وكذلك الحدود بين العلم والفن، لكن اللغة الإبداعية تكسر هذه الحدود وتعبر عن نفسها بطرق جديدة ومختلفة ، الإبداع يحطم النظام السابق عليه ويخلق نظاماً جديداً، الذي لا يلبث أن يتحطم مع الإبداعات الجديدة المتكررة دون انقطاع.

يواجه المبدع أو المبدعة ما تسمي مرحلة " الفوضى" بين النظامين القديم والجديد، إنها المرحلة التي تسبق قيام النظام الجديد وتلي زوال القديم وهي مرحلة مؤقتة وقصيرة. إلا أنها مخيفة وضرورية لأي إبداع.

لقد أصبحت نظرية الفوضى في النظريـ ـات العلميـ ـة والفنية التي تكمل أي نظام فليس هناك نظام دون أن يكون هناك فوضى والفوضى لا تعني الجنون والخـ ـروج عـ ـن العقل، بل تعني كسر الجمود العقلي ، وتحرير العقل مـ ـن القواعد السابقة والمقدسات الموروثة في العلـ ـم والأدب أو الفن أو غيرها.

وهذا الكتاب هو مرحلة من مراحل كسر الحدود بـ ـين الرواية والقصة والشعر والمسرحية والمقال العلمـ ـي ، أو الأدب أو السياسة. إنه محاولة جديدة جاءت وحدها تلقائيـ ـا بعد أن شعرت بضرورة تواجدها. لأن الأشـ ـكال الأدبيـ ـة الموروثة لم تعد كافية للتعبير عما يجيش في الـ ـنفس مـ ـن تغيرات وتحولات في عالم يعيش التغيـ ـرات والتحـ ـويلات بأسرع مما نتخيل.

إن خيالنا يعـ ـيش فـ ـي خـ ـوف مـ ـن الإقـ ـدام علـ ـى الجديد ،والخيال جزء من العقل ، يرث الخـ ـوف والنفـ ـاق بمثل ما يرث الشجاعة والصدق.

نوال السعداوى

نوفمبر ٢٠٠٢

تجاوز الخطوط الحمراء

شبورة رمادية تغلف سماء القاهرة ، وفي الأفق البعيد السد .حابة السد .وداء ، الت .ي يتح .دثون عنه .ا ف .ي الصحف ،ويقولون إن لا أحد إلا الله يعرف أسبابها.

–العلم عند الله !

الجميع يقولون العلم عند الله ، أصبح الله هو الشماعة التي يعلقون على ها الأزمات والك وارث والم ذابح ف ي فلسطين والعراق و..........

خاصة في شـ ـهر رمضـ ـان حيـ ـث يزيـ ـد الإيمـ ـان المزيف،وتعج برامج الإعلام بالقرآن ونصائح شيخ الأزهر ومفتي الديار عن العفة وتحجب النساء والصلاة والصـ ـوم وزيارة قبر الرسول في المملكة السعودية.

ولا يزيد عن هذه البرامج الدينية إلا رقصات الـ ـبطن والأثداء والأرداف وتعرية أجساد النساء من أجل الترفيـ ـة عن الصالحين الصائمين في رمضان الكريم.

أكتب هذه الكلمات واليوم هو الأربعـ ـاء ٢٧ نـ ـوفمبر ٢٠٠٢م. الموافق ٢٢ رمضان ١١٤٢٣هـ . ، الموافق ١٨

هاتور ١٧١٩.........، وبعد شد هر واحد د، أي ف ي ٢٧ أكتوبر القادم سأبلغ من العمر سبعين عاماً (ويضاف إليه ا عامان)الرقم"سبعين" يرن في الأذن مهولاً مرعباً مفزعاً ما إن يسمعه أحد في الوطن الكريم حتى يقول عن ي عج وز شمطاء منذ قليل نشرت الصد حف المصد رية الحكومي ة (والمعارضة الشرعية) عن هذه العجوز الشمطاء التي يجب قطع رأسها لأنها تجاوزت الخطوط الحمراء وخرجت عن الدائرة المرسومة للمؤمنين والمؤمنات بالكت ب السد ماوية الثلاثة ،ولأنها لا تؤمن بتقبيل الحج ر الأسد ود المق دس، ولأنها سخرت من تقبيل رأس سد انت كاترين ا المق دس. ولأنها سخرت من إله التوراة الذي هو إله الإنجي ل وإل ه القرآن الكريم وقالت إنه منح بني إسرائيل أرض فلسد طين (أو كنعان) مقابل قطع غرلة القضيب أو ختان الذكور.

-يجب قطع رأسها أيها السادة.

-لماذا أيها السيد؟

-لأنها تصور الإله في التوراة كأنما هو إله بلا عقل.

-إزاي يا أخي؟

-تصور يا أخي.. إنها تكتب وتقول إن الله سبحانه وتعالي أمر بني إسرائيل في التوراة أن يقتلوا أهل كنعان ويغتصبوا الأرض مقابل ختان الذكور؟!تصور يا أخي هذه البجاحة!

-يا أخي هذه آية مكتوبة ومطبوعة في كتاب التوراة ،وهي لم تخترعها من خياليها ، ألم تقرأ التوراة؟!

-لا يا سيدي أنا لا اقرأ إلا القرآن ،وقال الله سبحانه وتعالي في القرآن أن.....

-أنصحك يا أخ أن تقرأ التوراة والإنجيل أيضا حتى تفهم القرآن، لأنك لا يمكن أن تفهم القرآن دون أن تفهم الكتب السماوية السابقة عليه.

-ما هذا الكلام يا أستاذة؟ لم أسمع بهذا الكلام من قبل! وأنا يا أستاذه تخرجت في الأزهر الشريف، وأصبحت أستاذا للفقه والشريعة الإسلامية ولم يطالبني أحد من قبلك بقراءة التوراة والإنجيل.

-ولكنك يا أستاذ لا يمكن أن تكون مسلما دون أن تؤمن بالكتب السماوية الثلاثة.

-نعم.

-كيف إذن تؤمن بكتب لم تقرأها؟!

-لقد خرجنا عن موضوعنا الأصلي يا أستاذ!

- ما هو؟

-قطع رأس هذه العجوز الشمطاء الكافرة.

-تاني!

***

الصحف الحكومية (والمعارضة الشرعية) تنشر كل يوم المذابح المتكررة للشعب الفلسطيني.

واليوم الأربعاء ٢٧نوفمبر ٢٠٠٢، تأتي عناوين الصحف الرئيسية كالآتي:

واصلت القوات الإسرائيلية اعتداءاتها بالأسلحة الثقيلة والدبابات وطائرات الهيلكوبتر الأباتشي المقاتلة في غالبية مدن ومناطق الضفة الغربية وفي منطقة دير البلح بقطاع غزة.........و.........

وطالب الرئيس الولايات المتحدة الأمريكية بالإسراع بالتدخل لمنع الكارثة الإنسانية التي يواجهها الشعب الفلسطيني.

وفي واشنطن ماذا حدث؟؟وكم مرة طالب الرئيس المصري وغيره من رؤساء الحكومات العربية وملوكها وأمراء نفطها ، كم مرة طالبوا أمريكا بالتدخل لإنقاذ فلسطين؟!

وتتدخل أمريكا بالطبع،فهي تزيد المعونات العسكرية والاقتصادية لإسرائيل وتكافئها على المذابح التي تقترفها في فلسطين(والعراق.. سنأتي للعراق بعد قليل).

ومع ذلك لا يكف الرؤساء في بلادنا العربية عن استجداء أمريكا بالتدخل لمنع الكارثة!

كيف هذا أيها السادة؟ ولماذا؟

من أجل استمرار المعونة الأمريكية التي ثبت أنها لا تفيدنا بشيء بل أضرارها أكثر؟!

هل لأن الرئيس المصري الراحل أنور السادات أفتى بأن أمريكا تملك ٩٩% من أوراق اللعبة؟! هل لأنه هو الذي بدأ الانفتاح على أمريكا وتلقي المعونة بدلا من الإنتاج والتنمية الحقيقية؟! هل لأنه بدأ عملية السلام المزيفة التي عرفت باسم كامب ديفيد الأولى ،والتي قادت إلى هذه المذابح التي نعيشها اليوم؟

ومتي يكشف التاريخ عن زيف عملية السـ ـلام هـ ـذه؟ وزيف حكاية المفتشين الدوليين الذين بدأوا اليوم في بغـ ـداد التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل في العراق!!

ألا يفتشون عن أسلحة الدمار الشامل فـ ـي إسـ ـرائيل أيضا؟ولماذا وافقت الحكومة المصرية على توقيع اتفاقيـ ـة نزع السلاح النووي على حين رفضت إسرائيل؟!

إنها الحكومة الأمريكية التي ضغطت وضغطت علـ ـى الحكومة المصرية حتى وقعت حكومة مصر على الاتفاقية وهذه كارثة الكوارث.

أن تصبح إسرائيل هي القوة المسـ ـلحة الوحيـ ـدة فـ ـي المنطقة التي نعيش فيهـ ـا ،وبعـ ـد أن تضـ ـرب فلسـ ـطين والعراق(بالتعاون مع أمريكا) سوف تضرب مصر وسوريا وأي بلد آخر.

ومع ذلك يستمر الخداع الصحفي والإعلامي واليـ ـوم يكتب الصحفيون في الحكومة المصرية أن معاهدة السـ ـلام للسلام أو زيارته للقدس عام ١٩٧٧ (١٩نوفمبر) تسـ ـاوي في أهميتها لحظة هبوط الإنسان على سطح القمر.

أجل أيها السادة، إنها لحظة تاريخية هامة، بدا فيه ا، انهيار العرب. أو ما يطلق على ها الأمة العربية. أصبحت كلمة الأمة العربية أو الوحدة العربية كأنما ه ي وصد مة عار. وأصبحت جامعة الدول العربية أضحوكة، أو نكتة ، هل سمعتم آخر نكتة عن قرارات الجامعة العربية؟!

كثير من المفكرين العرب والمصريين يتساءلون اليوم: هل تنقرض الأمة العربية ويحذف من القاموس السياس ي كلمة" العالم العربي" ويحل محلها " الشرق الأوسط" تحد ت سيطرة إسرائيل؟!

***

النفاق سيد الاخلاق والتجسس أيضا:

أحد كبار الصحفيين في مصر (ومعه عدد كبير م ن رجال ونساء الإعلام) يكت ب الش يء ونقيض ه حس ب التوجيهات القادمة من أعلى.

يتغير رأيه في جمال عبد الناصر حسب التوجيه ات المحلية و الدولية.

ويتغير رأيه في أنور السادات أيضا.

إنه يشعر بحقه في النقد لأن الديمقراطية تسـود فـي العهد الحالي ،وهو قادر على نقد الرؤساء الموتى فحسب ، أما الأحياء فهم....

***

وهو يكتب اليوم الأربعاء ٢٧ نـوفمبر ٢٠٠٢ بعـد المذابح الأمريكية الإسـرائيلية فـي فلسـطين والعـراق وغيرهما.."واشنطن تؤكد استمرار المعونـة الاقتصـادية والعسكرية لمصر".

أكد ريتشارد باوتشر المتحدث باسم وزارة الخارجيـة الأمريكية أن الولايات المتحدة لا تعتزم إجراء أي تخفيض في حجم المعونة لمصر خلال السنة المالية ٢٠٠٢، والتي سوف تصبح ٦١٥ مليون جنيه في السـنة التاليـة،وتقـدر المعونة العسكرية بمليار و٣٠٠ مليون دولار سنويا.

وأكد الرئيس جورج بوش أن على حكومـة مصـر وغيرها من الحكومات المتلقية للدعم أن تستمر فـي فـتح أسواقها للبضائع الأمريكية والخضوع للسياسة التي تفرضها واشنطن.

***

يظهر هذا الخبر الأخير بالبنط الصد غير ج داً نق رأ الآتي: زيادة معدلات الفقر في مصر وفشل مشروعات التنمية.

انخفاض الاستثمارات المحلية والأجنبية في مصر :يكشف التقرير (من مكتب رئيس مجلس الوزراء) أن حجم الاستثمارات المحلية هبط إلى ٢٣,٩مليار جنيه عام ٢٠٠٠، ثم هبط إلى ١٤,٦ مليار جنيه حتى أغسطس ٢٠٠٢ ، وانخفضت الاستثمارات الأجنبية إلى ٥٢٩ مليون دولار حتى أغسطس ٢٠٠٢ (وكانت ٤١٦٧ مليون دولا عام ١٩٩٩).

***

وضعت الحكومة المصرية في مشروع قانون الاتصالات الجديد نصا يسمح لجهات الأمن بالدخول على الشبكات للتنصت على المكالمات التليفونية. حسب المادة ٦٥ من مشروع القانون التي تبيح التجسس على المواطنين.

من الصحف المصرية في ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٢

***

-يا مواكب النفاق يا سبب الهزيمة.

-يا من تحولون الشيء إلى نقيضه.

-يا من تصنعون بطلاً وهميا.

-من الكلام والإعلام.

-وتمتلئ الصحف بالحبر المراق.

-عن البطل المغوار.

-الذي لم يدخل معركة واحدة.

-الذي يعيش في كنف السلطة.

-الذي شارك على مدى العقود.

-في الخضوع وتأييد التبعية.

-وفجأة يصبح فوق الورق.

-هو المقاتل ضد الصهيونية.

-وهو المعادي للتبعية.

-والمقاتلون الحقيقيون والمقاتلات.

-في السجن أو المنافي.

-أو في البيوت يدفنون.

***

-يقولون انهزمنا أمام الأعداء.

-أقول لهم لم تكن هي هزيمتنا.

-بل هزيمتكم أيها السادة.

-أيها المتنكرون داخل ثياب وطنية.

-وأسماء عربية.

-وبشرة سمراء أو قمحية.

-تقولون إنكم السادة ونحن الشعب.

-تسرقون أحلامنا وخبزنا وقطع الجبن.

-نفتش عن لقمة العيش في صفائح القمامة.

-وفي الأرض البعيدة الغربية.

-نعيش خارج الوطن غرباء.

-وغربتنا داخل الوطن أشد.

***

إلى أحد سجناء الرأي في مصر

٨ أغسطس ١٨٩٧ قبل سقوط الخديوي

-مواكب النفاق يا صديقي

-تجعلك كبش فداء.

-يتاجرون بالوطنية والأمانة.

-علي حسابك.

-بيوتهم من زجاج.

-كم رجل وامرأة اختلسوا وهربوا.

-بالمليارات.

-ومثلهم يعيشون حياة الأبطال.

-تحت اسم الدفاع عن فلسطين.

-أو العراق.

-أو حقوق النساء.

-أو التعددية والهوية والتنمية.

-لم يقدمهم أحد للمحاكمة.

-ولم يدافع أحد عنك.

-إلا الأغلبية الصامتة.

-اللاهية عنك.

-بلقمة العيش.

-وبقيت كلمة أخيرة.

-سيكون مشرفاً لك أن تبقى في السجن.

-عن أن تكتب التماسا بالعفو.

-من الخديوي ولي النعم.

***

ورقة لم تقدم في مؤتمر المرأة والإبداع

أكتوبر ٢٠٠٢

-ربما لا تري هذه الورقة النور.

-لأن الموضوع يتجاوز الخطوط الحمراء.

-وقد لجأت إلى الرمز والخيال.

-من أجل خداع السلطات.

-ولأن المنية عاجلتني.

-فلم أحضر المؤتمر.

-وهل يمكن أن تتحر النساء.

مقرفسين كالدجاج.

-والأبواب كلها مغلقة.

-والشرطة في كل مكان.

-ولأنهم عاجزون عن الاحتجاج.

-وهي تأتي دائما متأخرة.

وتجلس على العرش مزينة.

-كأنما هي مخلدة.

-ترمقهم من فوق المنصة العالية.

-بعين ناعسة.

-تري مسوحهم الزاهية.

-جهزوا لها كلمة بليغة.

-عن الإنجازات العظيمة.

-يتنافسون أمامها على إلقاء الخطب.

-عن تحرير النساء.

-وترتسم علامات الدهشة على وجوه الناس.

-وتخلو الطرق من البشر.

-ويعود الجميع إلى بيوتهم.

-وقد أصابهم الاكتئاب.

-لأن المؤتمر انتهى.

-دون أن يحدث شيء.

-ودون أن تتحرر النساء.

***

اكتبي يا ابنتي حتي لا تموتي

-كانت الكتابة محرمة.

-علي العبيد والنساء.

-لأن الموت مكتوب على هم.

-ولأن الخلود.

-فقط للآلهة.

-الذكور.

-وفي طفولتي كنت أخاف.

-ومن شدة الخوف أصبحت أطيع.

-أوامر الله والملك والوطن وأبي وأمي.

-كانت أمي تأتي دائما في النهاية.

-مع أنني لا أرى سواها.

-وكانت هي أول وجه رأيته وأول صوت سمعته.

-كانت هي البداية ومع ذلك دفعوها إلى الخلف.

-كانت تكتب في السر وتخفي كلماتها تحت الأرض.

-كانت مثلي تخاف حتى ماتت.

-لكنها قالت لي قبل أن تلفظ نفسها الأخير

-لا تكوني يا ابنتي مثلي.

-واكتبي.. اكتبي حتى لا تموتي.

***

في خريف عام ١٩٨١ حين كان التشاؤم يسود المسجونات معي في الزنزانة ويحوم شبح الموت حول

رؤوسنا ، إذ بالقصيدة تهب منتصبة داخلي كالمارد ، تقاوم اليأس تتحدي الموت،وأسمع صوتي الغاضب يقول: لن نموت، وإن متنا فلن نموت ساكتات لن نمضي في الظلمة دون ضجة ، لابد أن نغضب ونغضب ، نضرب الأرض ونرج السماء ، لن نموت دون أن نكسر قضبان الحديد،وإن متنا لن نموت صامتات.

مذكراتي في سجن النساء١٩٨١

***

وفي مفكرتي السرية عام ١٩٤٧،وأنا تلميذة في المدرسة الداخلية في حلوان ، ظلت هذه القصيدة مكتوبة بالحبر الأسود محفورة في ذاكرتي وفوق الورق:

–قبل أن أغيب في النوم كل ليلة، أقول لنفسي:

–سيأتي الصبح حتماً ولن أموت،وإن مت.

–فلن يؤلمني شيء بعد الموت.

–لا السقوط في الامتحان ،ولا الضرب.

–على أطراف الأصابع بالمسطرة.

–ولا زمهرير البرد ولا لهيب الشمس ولا نار الجحيم.

–لم أجد إلا صديقتي في العنبر لأسألها: هل نموت؟

-إن متنا هل يؤلمنا أن نموت؟ أين نحن؟

-الآن في عنبر الموتى، في اللا مكان واللا زمان.

-ولا وجود للحب إلا بعد أن نحترق في الحريق.

-ونصير كالرماد، كرمال الصحراء في حلوان.

-كأننا يا صديقتي متنا قبل الأوان.

-رأيت المشهد في الحلم، وعرفت أننا نمضي.

-إلى حيث لا ندري فهل أكون في الغد ما أريـ د أن أكون؟

.شاعرة أو ناثرة أو حتى آثمة؟

-هل أرى اسمي فوق كتاب ممنوع؟وأشق السماء.

بقلمي ، وأجعل المطر رهن مشيئتي؟

-والنهار والشعر والنثر.

-ينثال من خطيئتي، فليحرقني الله في نار جهنم.

-ولتشرب الأرض دمائي لكنني أبداً لن أموت.

حلوان الثانوية ١٩٤٧

***

هذا المقال لم ير النور

-لأن النور مملوك.

-لأن النور مملوك لخدام الملوك....

أدهشني مقال إبراهيم نافع في جريدة الأهرام ١١أغسطس ٢٠٠٠الصفحة الأولى تحت عنوان: كشف حساب العلاقات المصرية الأمريكية. يرد فيه على سؤال الصحفي الأمريكي الذي تساءل في جريدة أمريكية عما حصلت عليه أمريكا مقابل ما دفعته لمصر منذ عام ١٩٧٨ من معونة تبلغ ٣٠مليار دولار.

ما أدهشني أن مقال إبراهيم نافع يكشف عن حجم الخسارة الاقتصادية التي تكبدتها مصر بسبب المعونة الأمريكية ،وكان ذلك معروفا خلال ربع القرن الماضي. ليس لعلماء الاقتصاد فحسب،وإنما لرجل الشارع وامرأة الشارع التي تخرج لتشتري الطعام من السوق، فإذا بها تصرخ في البائع لأنها لم تعد قادرة على شراء السلع الأمريكية التي ملأ بها رفوف دكانه على حين اختفت السلع المصرية.

منذ منتصف السبعينيات وبعد ما سمي بالانفتاح الاقتصادي في عهد السادات أصبحت ضرورات الحياة عسيرة وشاقة ليس فقط على الملايين الكادحين. بل على الطبقات الأخرى الأكثر راحة، بدأ الفقراء يزدادون فقراً وظهرت القطط السمان وظاهرة أصحاب الملايين، ثم ظاهرة أصحاب البلايين إلى الحال التي وصلنا إليها الآن.

لقد كشف إبراهيم نافع أخيرا ومتأخراً ربع قرن عن حجم الخسارة المالية والاقتصادية لمصر منذ عام ١٩٧٥ م و منذ العلاقات المصرية الأمريكية ،وقبول الشروط الأمريكية المجحفة المدمرة للاقتصاد المصري والإنتاج المحلي مقابل تلك المعونة ،والتي كانت مجرد الطعم في شبكة الصياد،والتي بلغت ٣٠ مليار دولار (حسب قول الصحفي الأمريكي،وانخفضت إلى ٢٣مليار دولار فقط في قول إبراهيم نافع، خلال ربع القرن الماضي، أي بفارق ٧ مليارات دولار لم نفهم هذا الخلل الكبير في الحسابات.

المهم الآن أن خسارة مصر الاقتصادية من جراء المعونة والعلاقات الأمريكية أصبحت منشورة في الأهرام بقلم رئيس التحرير. وكان محظوراً نشر هذه الحقائق (إلا

في بعض صحف المعارضة الصغيرة المحدودة الانتشار) وأذكر أنني نشرت مقالا في أغسطس ١٩٨١م يشبه المقال الذي نشره إبراهيم في أغسطس ٢٠٠٠م من حيث نقد العلاقات المصرية الأمريكية وما تسببه من خسائر ليس مالية واقتصادية فحسب. إنما خسائر سياسية وثقافية وأدبية وهي في رأيي غير منفصلة عن الخسائر المالية بل ربما أخطر.

إن الخسائر الاقتصادية لاشك خطيرة وهي معروفة ومنشورة في الصحف الأوربية قبل الصحف المصرية المعارضة،ذلك أن اليسار الأوربي والقوى الاشتراكية في العالم كانت أكثر دراية بالاستعمار الأمريكي الجديد في الشرق الأوسط (والقارة الأفريقية)والذي حل محل الاستعمار البريطاني والفرنسي في عالمنا العربي والأفريقي.

لم تكن هذه الخسائر الاقتصادية المصرية مجهولة وقد كنت متاحة للنخبة المثقفة المصرية التي تقرأ الصحف الأجنبية، إلا أن هذه النخبة كانت عاجزة عن الكتابة في هذه الموضوعات المحظورة تحت اسم حماية الأمن القومي

أو المصالح العليا لمصر وعلاقاتها بالدول الصديقة وعل ى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية.

إلا القلة القليلة التي كتبت ودخلت السجون أو شد ردت أو تم تجاهلها وتهميشها حتى هاجرت أو عاش ت المنف ى خلال ربع القرن الماضي ،وطفا على سطح الحي اة ف ي بلادنا هؤلاء الذي يؤيدون السياسة الاقتصادية منذ الانفتاح في منتصف السبعينيات وحتى اليوم،والتي أدت إل ى ه ذا الفقر الخطير الذي يتحدث عنه الجميع اليوم على رأس هم هؤلاء الذي أيدوا السياسات التي أدت إليه.

ورب ضارة نافعة ،ومن تأزم العلاق ات المص رية الأخيرة (بسبب كامب ديفيد الثانية والت ي ه ي النتيج ة المنطقية لكامب ديفيد الأولى) أصبح في مق دور الش عب المصري أن يقرأ في جريدة الأه رام الي وم أن المعون ة الأمريكية لمصر خدعة كبيرة. أو أنها كانت لصالح أمريكا على حساب الصالح المصري ويكفي أن نعلم أن العج ز التجاري المصري (لصالح أمريكا) بلغ ٧٥% م ن قيم ة التجارة بين البلدين ، هذا الاختلال الخطير الاقتصادي منذ عام ١٩٧٤والذي يقول إبراهيم نافع إنه مس ئولية أمريك ا

وكأنما السياسة المصرية، وحققت أمريكا من ذلك أرباح اً وفائضا تجاريا بلغ أكثر من ٤٤ مليار دولار (أي ضـ عف المعونة الأمريكية لمصر خلال هذه الأعوام نفسها).

هذا من الناحية الاقتصادية فقط ،ولم يتعرض إبراهيم نافع للخسائر المصرية فـ ي المجـ الات الأخـ رى، إذ إن الاقتصاد غير منفصل عن السياسة وعن الأمـ ن القـ ومي وعن الإعلام والثقافة وغيرها من مجالات الحياة.

والسؤال الوارد الآن: ألم يصاحب الخلل الاقتصـ ادي خلل في المجالات الأخرى الهامة على رأسها الأمن القومي في مواجهة إسرائيل؟

ألم تصاحب الشـ روط التجاريـ ة المجحفـ ة لمصـ ر اقتصاديا شروط أخرى سياسية أدت إلى الخلـ ل الحـ ادث اليوم بين مصر وإسرائيل بالنسبة لواقع التسلح الاستراتيجي في الشرق الأوسط؟

أصبحت جريدة الأهرام تكشف عن هذا الخلل أخيـ را (لكن في انفصال عن الخلل الاقتصادي).

في الأهرام ١٢ أغسطس يظهر أخيراً مقـ ال تحـ ت عنوان: تقارير المخـ ابرات الأمريكيـ ة وواقـ ع التسـ لح

الاستراتيجي في الشد رق الأوسد ط ،بقلد م محمد د عبد د السلام،يكشف فيه عن الخلل الذي حد دث بد ين إسد رائيل ومصر عسكرياً. وفي الوقت الذي وقعت فيه مصر علد ى عدد من الاتفاقيات أو معاهدات حظد ر أو مند ع انتشد ار الأسلحة النووية (في ٢٦ فبراير ١٩٨١) ومعاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية (في ١٤أكتوبر ١٩٩٦)وسبق ذلك الموافقة على حظر تطوير الأسلحة البيولوجية أو إنتاجهد ا (في١٠ ابريل ١٩٧٢).

صدقت مصر على كل هذه المعاهد دة تحد ت ضد غط امريكا التي لم تضغط على إسرائيل ،وبالتالي لد م توقد ع إسرائيل على هذه المعاهدات مما أدى إلد ى خلد ل وعد دم توازن بين إسرائيل النووية ومصر النووية، بل لان مصر دولة محورية في العالم العربي والأفريقي. فقد أثرت مصر على هذا العالم الذي وقع مثل مصر على هذه المعاهد دات المجحفة،وتزايدت ترسانة إسرائيل النووية خلال الأعد وام الأخيرة ،بل أصبحت تملك طرازاً جديداً مد ن صد واريخ جيركو تم تطويرها وتحميلها برؤوس نووية أصحب فد ي

السنين الأخيرة إخطبوط متعدد الأذرع (حسب المقال في الأهرام).

أما الخلل الإعلامي والثقافي فهو معروف وأكثر ظهوراً من الخلل الاقتصادي أو العسكري أو غيرهما من المجالات الحساسة المحظور نشرها في معظم الأحيان.

وهل نقول إن التبعية الإعلامية والثقافية لا تنفصل عن التبعية الاقتصادية وغيرها من المجالات الحيوية في البلاد ،ألم تجف حلوقنا منذ ربع قرن ونحن نقول ذلك، حتى في المقالات عن قضية المرأة. ألم نربط الفقر المتزايد والقيود المتزايدة على النساء تحت اسم الدين والأخلاق؟ ألم يكن الإرهاب الديني وقهر النساء جزءاً لا ينفصل عن الإرهاب الاقتصادي والإعلامي. وما أكثر من يتكلمون اليوم عن ظاهرة تأنيث الفقر كأنما هي ظاهرة منفصلة في التاريخ وهابطة فجأة من السماء وليست نتيجة منطقية لما سمي الانفتاح الاقتصادي والذي أصبح يسمى اليوم الإصلاح الاقتصادي.

إن هذا الفصل بين المجالات هو ال ذي ي ؤدي إل ى التجهيل بما يحدث لنا ويعيش الشعب المصري نهباً لموارده المالية والمعنوية في آن واحد. بالإضافة إلى إخفاء الحقائق وعدم إظهارها في وقتها بل بعد فوات الأوان.

والسؤال: من المسئولون عن ذل ك؟ ف ي الماض ي والحاضر، ذلك أن الماضي لا ينفصل ع ن الحاض ر ولا ينفصل عن المستقبل.

***

فتاة الليل والكاتبة

وهذه ورقة أيضا لم تقدم في مؤتمر المرأة والإبداع الذي عقد بالقاهرة خلال أكتوبر ٢٠٠٢، لأنه:

صباح اليوم الأول للمؤتمر تم العثور على جثة الكاتبة الفاضلة (أ.د.المصري)، فوق دكة خشبية بحديقة كازينو النيل،وتم العثور بجوار الجثة على أوراق بخط يدها وقلمها الذهبي المعروف. مما يدل على أن الموت فاجأها بينما كانت تكتب الورقة المزمع تقديمها في المؤتمر ،وأمرت النيابة بالإفراج عن فتاة الليل التي رآها بعض شهود العيان جالسة إلى جوار الفقيدة الفاضلة فوق الدكة الخشبية.

فتاة الليل والكاتبة الكبيرة:

كانت الكاتبة الفاضلة(أ.د.المصري) تقضي الساعات جالسة فوق هذه الدكة تحاول أن تقتل الوقت بالكتابة، تحلق في الأوراق طويلا ثم ترفع رأسها وتحملق في الظلمة وفي

تلك الليلة من شهر أكتوبر كان الهواء البـ ـارد قادمـ ـاً مـ ـن الشمال، ينذر برياح متربصة على الأبواب وحرب موشكة على الهبوب.

الجـ ـو كـ ـان ملبـ ـداً بسـ ـحابة سـ ـوداء تزيـ ـد مـ ـن الظلمة ،وانقباض القلب،والتوجس من حـ ـدوث جريمـ ـة أو شيء آخر يزيد الرعب ،وقعقعة الهـ ـواء تمتـ ـزج بقعقعـ ـة الميكروفونات المثبتة فوق الجوامع والمآذن. تنطلق منهـ ـا الأصوات كالمفرقعات أو الرصاصات من فوهات المدافع.

كانت الكاتبة الفاضلة جالسة في يدها القلم،يلمع غطاؤه الذهبي في الظلمة تحوطها هالة من الرهبـ ـة مثـ ـل كبـ ـار الأدباء،لا يظهر منها إلا الرأس الملفوف بحجاب أبيض مثل هرم من الثلج، مطرقة قليلاً فوق أوراقها تكتب.

من قلب الظلمة تظهر فتاة صغيرة ، تسير ببطء شديد وإعياء واضح ، نحيفة الجسم ترتدي ثوبـ ـاً أسـ ـود ضـ ـيقا مكشوف العنق حتى الشق العميق بـ ـين النهـ ـدين ،تتوقـ ـف أحياناً لتلتقط أنفاسها ،تستدير برأسها الصغير يحوطه شعر كثيف أسود،منكوش قليلاً ، تتطلع إلى السماء تخاطب الرب بصوت غير مسموع يشبه التمتمة المكتومة.

تراقبها الكاتبة الفاضلة لحظة ثم تتكفئ فـ وق الورقـ ـة تكتب. تمر بها الفتاة دون أن تلاحظهـ ـا ثـ ـم تتنبـ ـه إلـ ـى وجودها ، فتعود إليها وتجلس على طرف الدكـ ـة بحيـ ـث تترك مسافة كبيرة بينها. ترفع الكاتبـ ـة (أ.د. المصـ ـري) عينيها نحوها بشيء من الفضول دون أن تقول شيئاً. الفتاة ترمقها بنوع من الاستطلاع الطفولي، تتأمـ ـل مـ ـن بعيـ ـد حروفها فوق الورقة، تبتسم قليلا ثم تقول:

الفتاة: يبدو أنك منشغلة بالكتابة يا سيدتي.

الكاتبة(بصوت خشن):آسفة أنا مشغولة جـ ـداً ولا أخاطب بنات الليل.

الفتاة(في حرج): عندك حق يا سيدتي أعتـ ـذر لك.

تهـ ـم الفتـ ـاة بـ ـالنهوض لتغـ ـادر المكان،لكن الكاتبة الفاضلة تشعر بتأنيب الضمير أو شيء من الشفقة.

الكاتبة: يمكنك الجلوس إن شئت.

الفتاة: سأستريح قليلاً ثم أواصل المشي.

الكاتبة:أنا لا أملك هذه الدكة ويمكنك الجلوس كما تشائين.

تعود الفتاة إلى الجلوس وهي تمسح حبات العرق عن وجهها بمنديل صغير أبـ يض. ترمقهـ ا الكاتبة الفاضلة بطرف عين. تتطلـ ع الفتـ اة إلـ ى السماء السوداء وتهمس مخاطبة الرب.

الفتاة:أنت شاهد على أنني لم أكن مـ ن بنـ ات الليل.

الكاتبة: كنت إذن فتاة شريفة؟

الفتاة(تبتسم):أشكرك على هذه الكلمـ ة الرقيقة،وإن كانت عن الماضي وليس الحاضـ ر ، في حياتي كلها لم أسمع هذه الكلمة "شريفة" يا لهـ ا من كلمة جميلة...

الكاتبة: تنصرف عنها إلـ ى كتابـ ة الورقـ ة، ترمقها الفتاة طويلا وهي تكتب ،يبـ دو أن الكاتبـ ة متعثرة قليلاً والقلم الذهبي لا يتحرك في يـ دها وإن كان يلمع في الظلمة.

الفتاة: هل تسمحي لي أن أسألك سؤالاً صغيراً يا سيدتي؟

الكاتبة:ما هو هذا السؤال؟(دون أن ترفع رأسها عن الورقة).

الفتاة: هل أنت كاتبة يا سيدتي؟

الكاتبة:ترفع وجهها ناحيتها وترد بصوت ينم عن الضيق قليلا :

بالطبع! ألا تعرفين ذلك؟ ألم ترين صورتي في الصحف وفوق شاشة التليفزيون؟

الفتاة: أعتذر لك يا سيدتي ، ليس عندي تليفزيون ولا أستطيع شراء الصحف.

الكاتبة:آه، هذا مفهوم بالنسبة لك.

الفتاة: لكني أحرم نفسي من الطعام أحياناً لأشتري كتاباً.

الكاتبة: لابد أنك قرأت كتابا من كتبي.

الفتاة:هل لك كتب يا سيدتي؟

الكاتبة(بحماس): عندي الكثير من الكتب وحصلت على جائزة الدولة ولقب كاتبة كبيرة.

الفتاة: أعتذر لك ع ن جهل ي ي ا س يدتي. لكن.....

الكاتبة: لكن ماذا؟

الفتاة: لابد أن عندك مكتب كبير وبيت جميل فيه مكتب أيضاً.

الكاتبة: بالطبع.

تصمت الفتاة مترددة ثم تق ول بش يء م ن الحرج:

الفتاة: أعتذر عن تطفلي يا س يدتي ، كي ف لكاتبة كبيرة مثلك أن تجلس في الليل ف وق ه ذه الدكة وتكتب؟

تطرق الكاتب ة وتع ود إل ى الورق ة ف ي صمت .الفتاة أيضا تصمت،وتشرد عيناه ا بعي دا وهي تهمس لنفسها:

الفتاة: في الماضي البعيد وأنا طلفة كان ل ي مكتب صغير في غرفة نومي ،وكانت لي مفك رة أكتب فيها.

الكاتبة: (دون أن ترفع رأسها عن الورقة): كنت تكتبين؟!

الفتاة (شاردة دون أن تنظر إليها): في الماضي البعيد حين كنت فتاة شريفة.

الكاتبة: آه،هذا مفهوم.

تحرك الفتاة رأسها نحو الكاتبة وتتسع عيناها السوداوان ويملؤهما بريق خاطف مع السؤال:

الفتاة: ما هو المفهوم يا سيدتي؟

الكاتبة الفاضلة: علاقة الكتابة بالشرف أتفهمين؟!

الفتاة: أبذل كل جهدي لأفهم ،وإن كنت لا أفهم ، فأنا مرهقة من طول المشي لا أستطيع أن أقول لك متي يبدأ المشي ومتي ينتهي ، يبدو أنه بلا نهاية ،خالد ،إلى الأبد مثل الرب.

الكاتبة:(في ضيق):أستغفر الله العظيم ، ألست مؤمنة وموحدة؟

الفتـاة: معـذرة يـا سـيدتي إن جرحـت إحساسك ،وقد تقولين عني غير مؤمنة كمـا قلـت عني غير شريفة ، لكن... آه من هـذه الكلمـات الجارحة إنها مؤلمة للجسم أكثر من الصفعات باليد أو بالقدم، آه من هذه الكلمات يـا سـيدتي ، إنهـا كارثة...

الكاتبة: ماهي الكارثة؟

الفتاة: نعم يا سيدتي ، الكلمات هي اللغة،وهي وسيلة الكتابة الوحيدة،ومع ذلك لا تسمح بها... نعم لا تسمح بها...

تصمت الفتاة وهي شاردة.. الكاتبـة الكبيـرة ترمقها باهتمام بعد أن كانت غير مبالية بها.

الفتاة: هل أضيع وقتك الثمين يا سيدتي بهـذا الكلام الفارغ؟

الكاتبة: لا... استمري.... أنا أستمع إليك.

الفتاة: أشكرك على حسن استماعك ، كل مـا أريد أن أقول إن الكتابة... آه ، هذه الكتابة أمرهـا عجيب ،أرجوك صدقيني، إنها ليست شيئا واضـحا

يمكن كتابته على الورق، كانت هي هكذا دائما منذ طفولتي ،ولم يكن هناك شيء يؤنسني في وحـ دتي إلا هي، أنا أحبها يا سيدتي لأنها تواسيني بطريقتها الخاصة،وأنـ ا بحاجـ ـة إليهـ ا وأنـ ا فـ ي الليـ ل وحدي،والريح تعوي كالـ ذئاب،وهـ ذه الأصـ وات المفرقات من فوهات الميكروفونات ولا شـ يء لا شيء. يبعث على الراحة ، وأنا أمشـ ي وأمشـ ي حتى أشعر بالإعياء ، فأستريح فوق أي دكـ ـة فـ ي الطريق، وأقول لنفسي كم أنا فتاة محظوظة ، لأنني أستطيع الجلوس في النهاية وأفتح مفكرتي الصغيرة منذ الطفولة ، وأكتشف حروفـ ي المختفيـ ـة بـ ين السطور والموسيقى الخافتة للكلمات...

تتوقف الفتاة عن الحديث ، يبدو على ها الإعياء الشديد تمسح حبات العرق عن وجههـ ا بالمنديل الأبيض الصغير تلتقط أنفاسها.

الكاتبة(باهتمام):لماذا توقفت؟ هذا حديث جميل يا ابنتي.

الفتاة(تبتسم): آه،هذه الكلمة " يا ابنتي " تثير حنيني إلى أبي.

الكاتبة: كنت أتصور أنني بصفتي امرأة أثير حنينك إلى الأم.

الفتاة: لم يكن لي أم يا سيدتي.

الكاتبة:آه آسفة لهذا.

تصمت الفتاة لحظة وهي تبتلع دموعها خلسة وتعدل من فتحة ثوبها لتخفي الشق بين نهديها ثم تقول:

الفتاة: وأنت يا سيدتي ، هل كان لك أم؟

الكاتبة(في أسى): نعم كان لي أم.

الفتاة:وأب؟

الكاتبة: نعم بكل أسف

الفتاة:وهل أنت متزوجة؟

الكاتبة:نعم بكل أسف.

الفتاة: أعتذر لك إن كانت أسئلتي تؤلمك.

الكاتبة:لا بالعكس،أشعر بشيء من الراحة في الحديث معك.

الفتاة: وهل بيتك بعيد؟

الكاتبة:لا ، بيتي قريب ،إنه هناك في الناحيـة الأخرى من هذه الحديقة وأنا أجلس هنا أطل علـى ه ، انظري ،إنه هناك،ذلك البيت الأبيض الكبير،إنه بيتي وأنا أنتظر ظهور الفجر لأعود إليه وأنام.

الفتاة تتطلع نحو البيت فـي صـمت طويـل وشرود ثم تقول:

الفتاة: آه،كم هو صعب الانتظار ،حتى طلوع الفجر ،أصعب شيء في حياتي هو الانتظار ، رغم التعب أنا أفضل المشي على الانتظار،ولهـذا أنـا اكتب يا سيدتي فالوقت يمضي بسرعة ونحن نكتب.

الكاتبة: هذا صحيح تماما،لكن كيف أدركـت كل هذا وأنت في مقتبل العمر؟!

الفتاة: كنت مجبرة على ذلـك، وقـد بلغـت العشرين من عمري منذ ثلاثة أيام،وأشعر كأنني في الستين أو السبعين ،وكلما أمشي أحس كأن قـدمي مقيدتان بسلسلة من الحديد.

الكاتبة: وأبوك أين هو؟

الفتاة: أبي تزوج امرأة شريفة تملك بيتاً،وه و بيت ضيق تجبره زوجته فيه على أن ينام على كليم فوق الأرض وهي تنام على السرير.

الكاتبة: ألا يمكنك النوم في بيت أبيك بدلا من هذه الدكة؟!

الفتاة: لا يا سيدتي ،أنا غي ر مسـ موح لـ ي بزيارة أبي.

الكاتبة: أليس لك أقارب أو قريبات ، عمتـ ك مثلا اوخالتك؟ ألا ترين أنك لا

تستطيعين الاستمرار هكذا؟

الفتاة: لم لا يا سيدتي؟ألست مثلي تقضين الليل فوق هذه الدكة؟

الكاتبة: نعم،ولكني عند الفج ر أع ود إلـ ى بيتي ،وأتناول طعام العشاء ،ثم أدخل

إلى الفراش بلا صوت حتى لا أوقظ زوجي.

الفتاة: أنت إنسانة حساسة، لكن مـ اذا يفعـ ل زوجك في الليل،أو يكتب مثلك؟

الكاتبة الكبيرة تصمت شد اردة بعينيها ف ي الظلمة،تمسح حبات العرق عن وجهها
بطرف حجابها الأبيض.

الكاتبة: لو كان يكتب ربما هان الأمر.

الفتاة: أرجو المعذرة ،لا تتكلمي إن كان ذل ك يؤلمك.

الكاتبة:بالعكس ربما أشعر بشيء من الراح ة لو حدثتك عن أشياء أخفيها عن نفسي.

الفتاة: هذا يذكرني بطفولتي حين كنت أعترف لمفكرتي بأشياء لا أعترف بها لنفسي وكنت أس مع من الناس أن أبي رجل غير شريف ،وأود أن أقتله لأمسح العار بالدم، لولا أنه كان يضحي بشرفة من أجل إطعامي.

الكاتبة: كلنا بشكل أو بآخر نتحمل الإهانة من أجل هدف نبيل.

الفتاة: وماذا كان هدف حياتك؟ الكتابة؟!

الكاتبة:آه، الكتابة، نعم يا ابنت ي ، لك ن م ا جدوى الكتابة إذا بقيت في الد درج دون أن ت ري النور؟ وهذا أمر بالغ الصعوبة ،أتفهمين ما أقول؟

الفتاة: نعم أفهم يا س يدتي ،وعن دي قص ة قصيرة لم يكن لها أن ترى النور إلا بعد أن قدمت نفسي لأحد الرجال، كانت الأبواب مغلقة في وجهي وليس أمامي طريق آخر ، أتق ولين عن ي غي ر شريفة؟

تصمت الكاتبة طويلا وه ي تمس ح وجهها بطرف طرحتها البيضاء ثم تقول متلعثمة:

الكاتبة: لا... لا أقول عنك هذه الكلمة القاسية، لأن هدفك كان نب يلاً ،وه و أن ت رى كلمات ك النور ،هذا هو حال الدنيا يا ابنتي.

الفتاة: أتقولين إن الدنيا نفسها غير شريفة؟

الكاتبة: نعم لا ، لا أعرف الحقيقة تماماً ولأن الله وحده هو الذي يعلم...

يبدو الإعياء الشديد على الكاتبة الكبي رة ، يسقط القلم من يدها والورقة

على الأرض تنظر في سـ اعة يـ دها بعينين غائمتين، أطراف أصابعها ترتعش،لا تكـ اد ترى أرقام الساعة.

الكاتبة (في إعياء شديد): لم أعد أرى الأرقام كما كنت انظري يا ابنتي كم تكون الساعة؟ لكـ ن الظلمة لا تزال شديدة والفجر لم يطلع بعد لأعـ ود إلى البيت.

الفتاة تساعد الكاتبة في تجميع الورق السـ اقط إلى الأرض. وأنفاس الكاتبة اللاهثـ ة تـ نم عـ ن الإعياء القريب من الإغماء، تساعدها الفتاة علـ ى تمديد ساقيها المتورمتين فوق الدكة، تستعيد الكاتبة أنفاسها مستريحة قليلاً. ترمق الفتاة البيت الأبـ يض في الناحية الأخرى من الحديقة وتسأل في حرج:

الفتاة: بيتك قريب ، هل آخـ ذك إلـ ى بيتـ ك لتستريحي يا سيدتي؟

الكاتبة: لا ،لا أريد العودة حتى يطلع الفجر.

الفتاة(في حيرة):ألا يمكنك العودة قبل ذلك؟

الكاتبة: يمكنني العودة في أي وقـ ـت ، لكنـ ـي أفضل البقاء هنا حتى يخلو البيت وينام زوجـ ـي ، أتفهمين؟

الفتاة: أبذل كل جهدي لأفهم يا سيدتي ، وهذا يذكرني بطفولتي حين كنت أفضل عدم العودة إلى البيت حتى يخلو تماما ويغيب أبي في النوم،ولابـ ـد أنك عرفت الحزن مثلي يا سيدتي.

الكاتبة: الحزن؟ نعم، ربما هناك علاقة بـ ـين الحزن والكتابة ، لكني قاومت الحزن حتى نجحت.

الفتاة: أنت سعيدة إذن يا سيدتي.

الكاتبة: وهي تغمض عينيها كأنما تروح فـ ـي الغيبوبة أو في النوم،وصوتها يهمس.

الكاتبة:الحمد لله علـ ـى كـ ـل شـ ـيء وسـ ـوف يعوضني في الآخرة عن آلام الدنيا،وأنا لم أضـ ـمر الشر لأحد حتى لهذه الفتاة اللعوب التي أكلت عقل زوجي بعد أن تجاوز السبعين،وكتب البيت باسمها الذي دفعت فيه مدخرات عمري،إنها في العشـ ـرين

من عمرها مثلك،وكانت من بنـ ـات الليـ ـل،واليـ ـوم أصبحت تحمل لقب السيدة الفاضلة حرم الوزير.

* * *

النهاية:

صباح اليوم التالي أذاعت الأنباء خبر وفاة الكاتبة الكبيرة(أ.د.المصري) حرم السيد الوزير لشئون النشر والطبع،وأقيم المأتم الكبير في المسجد الشهير في ميدان التحرير ، حضره جميع الوزراء والسفراء وكبار رجال الدولة،الذين جلسوا في الصوان الفخم، بالنظارات السوداء فوق العيون، الربطات السود حول الأعناق،والحديث الخافت يجري بينهم حول آخر الأنباء ، الحرب القادمة ، أسعار البورصة. والكتب المطبوعة في الأسواق.

على الدكة الخشبية في الليل كانت هناك فتاة الليل. وكانت هي الوحيدة التي تبكي.لكن...

القاهرة/ أكتوبر ٢٠٠٠

نحو تحرير العقل المصري

١-الفكر النظري المنفصل عن الواقع:

خلال السنوات الخمس التي كنت فيها استاذة زائرة في جامعة ديوك بمدينة ديرهام في ولاية نورث كارولاينا. التقيت مع بعض المفكرين الأمريكيين الماركسيين، وكـ ـان احدهم وهو فريدرك جيميسون زميلا لي في ديوك- وهـ ـو لا يزال استاذا في ديوك- وله عدد من المؤلفات في الثقافة ينقد فيها العولمـ ـة والرأسـ مالية الأمريكيـ ـة الأخيـ ـرة أو المتأخرة.

كان فريد (وهو اختصار اسم فريـ دريك جيميسـ ـون) يستمد سلطته الفكرية على الاساتذة الأخرىن في الجامعة من سلطته الادارية، فهو رئيس القسم الادبي والفني، وهـ ـو صاحب القرار بشـ أن تجديـ ـد عقـ ـود العمـ ـل للاسـ ـاتذة الأخرىن،كان الاساتذة من العالم الثالـ ـث يتحاشـ ـون نقـ ـد افكاره خوفا من عدم تجديد العقد.

لاشك أن بعض افكار فريد جيمسون متقدمـ ـة وناقـ ـدة بشدة لعيوب الرأسمالية الأمريكية والعولمة. إلا أن أفكـ ـاره تظل قاصرة عن فهم المشاكل الحقيقية قالت يتواجهها البلاد فيما يسمي العالم الثالث. أن التسمية نفسها (عالم ثالث)تؤكد النظرة الاستعلائية الأمريكية للبلاد الأخرى فـ ـي افريقيـ ـا واسيا وامريكا الجنوبية وبلادنـ ـا العربيـ ـة ،وكـ ـان فريـ ـد جيميسون يعتبر عقله وفلسفته هي الحقيقة غير الاوربيين أو اليابان وغيرهم مما يسـ ـمي العـ ـالم الاول. وهـ ـذه نظـ ـرة رأسمالية تعتبر المفكرين في العالم الثالث أدني من زملائهم في العالم الأول.

إلي جانب ذلك فإن افكار فريد جيميسون نفسها كانـ ـت مليئة بالثغرات غارقة في التجريدات والنظريات المنفصـ ـلة عن الواقع، فهو يعيش في أمريكا ،ولا يكاد يعرف شيئا عن الواقع في بلادنا ،رغم ذلك هو يتحدث معنـ ـا كأنمـ ـا هـ ـو يعرف عنا أكثر مما نعرف عن انفسنا وواقعنا الذي نعيشه.

وهو أيضا ورغم نقده للعولمة إلا انه يري انها حتمية مثل القضاء والقدر،وانه لا يمكن مقاومتها ، وبالتالي يسود جو من العجز واليأس ثم الاستسلام لهذا الإخطبوط الـ ـذي

اسمه العولمة، (بالطبع يتم تجاهل المقاومة الشعبية وغيرها من أنواع المقاومة الأخرى).

وقد انتقل هذا الفكر اليائس العاجز إلى النخبة المثقف ـة في بلاد العالم الثالث الذين يقرأون لفريد جيميسون وغيره من المفكرين الأمريكيين والأوربيين الماركسيين أو الناقدين للرأسمالية والعولمة.

بالإضافة إلى انتقال هذا العجز واليأس انتقل ـت إلين ـا أيضا الثغرات في هذا الفكر اهمها الفصل ب ـين الاقتص ـاد والثقافة ،والتركي ـز عل ـى الثقاف ـة فق ـط، أو الهوي ـة أو الخصوصية الثقافية أو الشخصية الأصلية ،،الاصالة مم ـا يقودنا بالضرورة إلى الأصولية الثقافية ثم الأصولية الدينية هكذا اصبحت الدعوة إلى الاديان والتقاليد والعادات القديمة لكل شعب هي الوجه الآخر لفلسفة فريد جيميسون وغي ـره من المفكرين الأمريكيين و الذي ينظر ال ـيهم المفك ـرون الماركسيون في العالم الثالث وكأنهم جابوا الديب من ديله، أو كأنهم يدافعون عن هويتنا وخصوصيتنا الثافية ،وعاداتنا وتقاليدنا والقيم التي درجنا على ها ول ـم تلوثه ـا الثقاف ـات

الأخرى ،خاصة الثقافة العربية الإباحية التـ ـي لا تراعـ ـي الاخلاق.

منهنا نري بعض المفكرين المتقدمين في بلادنا الـ ـذين يعارضون الامركة والرأسمالية والعولمة، إلا انهم يتمسكون بالتقاليد القديمة، ومنها بل وعلي راسـ ـها حجـ ـاب المـ ـرأة وختانها وعودة إلى البيت والأمومة.

وقد تبع هذا الفكر بعض المفكـ ـرات النسـ ـويات فـ ـي الغرب واللائي نادين بتحرير النساء في بلادهن ، إلا انهن تحت اسم احتارم الهوية و الأصالة والخصوصية الثقافيـ ـة لكل بلد فقط ايدن ختان النساء وحجابهن في بلادنـ ـا. وقـ ـد كان هؤلاء المستشرقات عدد غير قليـ ـل مـ ـن المفكـ ـرين الرجال والنساء في بلادنا.

٢-الهوية المصرية الاصلية:

باسم الهوية المصرية الاصلية ارتد كثير من المفكرين المتقدمين في بلادنا إلى الماضي والتراث القديم كمحاول ة لمقاومة ما سمي الغزو الثقافي الغربي ،ولم يمي زوا ب ين القديم الايجابي وبين القديم السلبي،وال ذي يس لب نص ف المجتمع حقوقهن الإنسانية الاساسية وغيرهن من الش رائح الضعيفة سياسياً واقتصادياً في المجتمع.

كانت هذه الرد محاولة لحماية الهوية أو الثقافة القديمة من التفكك تحت زحف الثقافة الأمريكية الإمبريالية وقيمها الاستهلاكية وأفلامها الرخيص ة القائم ة عل ى الج نس والجريمة،وهذا أمر طيب وضروري ،ولك ن المش كلة أن العودة إلى القديم لم تشمل إلا سلبيات الق ديم أو س لبيات التراث. وليس الايجابيات القائمة على العدالة والمس اواة بين الناس بصرف النظر عن دينهم أو جنسهم أو طبقتهم أو عقيدتهم. الخ....بل قامت الردة على التفرقة ب ين الن اس على هذه الأسس وشهدنا الانتكاسة ف ي حق وق النس اء والطبقات الأدنى في المجتمع،وازدادت الهوة بين الأثري اء والفقراء بمثل ازدادت بين الجنسين.

وقع المفكرون في بلادنا المعجب ون بأفك ار فري د جيميسون وأمثاله في تناقض جديد د تحـ ت اسـ م الهوي ـة المصرية والحفاظ على الخصوصية الثقافية ،وذلك لانه م نقلوا الفكرة النظرية المجردة عن الأخ رين دو ندراس ـة متعمقة للتراث اوالقديم وكأنما هذا القديم كلية وطنية مقدسة ثابتة وتعامل مع الطبيعة والجسد د الإنسـ اني والمجتمـ ع البشري على نحو لا يتيغر ولا يتفاعل مع غيره من القـ يم والثقافات الأخرى ، كأنما النظام الثقافي والقيمـ ي كتلـ ة لا تتفكك ولا تتغير وإن تفكك ت أو تغير رت فإنـ ه لايمكـ ن استعادتها بشكل آخر أكثر تقدماً أو أكثر عدالة ومساواة بين الناس.

إن العادات والتقاليد والقيم والهوي ـة والثقاف ـة كلهـ ا خاضعة للتغير والتطور مع حركة المجتمـ ع إلـ ى الامـ ام ومزيد من العدالة والحرية، أو إلى الـ وراء ومزيـ د مـ ن التفرقة بين الناس على اساس الجنس أو الدين أو الطبقة أو العرق الخ...، إن الحفاظ على القيم القديمة لا يعني الحفاظ على نسيج المجتمع الذي غزله عبر التاريخ كمال يقـ ول فريد جيميسون وغيره من المـ دافعين عـ ن هويتنـ ا ، لان

هويتنا ليست ثابتة وليست احادية بل متعددة الابعاد ،وثقافتنا المصرية لست احادية وليست نقية غير مخصـ بة بثقاف ـات أخري عربية وافريقية وآسيوية وأوربية وغيره ـا وكأنم ـا الحفاظ على نسيج الأمة المصرية يعني العودة إلى جـ ـزء فقط من التاريخ هو التاريخ العبـ ـودي اوالتـ ـاريخ الطبقـ ـي الأبوي ، الذي قيم الناس إلى الاسـ ـياد المـ ـلاك والعمـ ـال الاجراء وإلي نساء ورجال ، أو إلى التاريخ الديني الـ ـذي فرق بين الناس على اساس الدين.

٣-العودة إلى الاصوليات:

كان من نتيجة ذلك هذه الـ ـردة إلـ ـى الاصـ ـوليات الدينية والعرقية وما ادت إليه من حروب دينية وطائفية قتل فيها الملايين من النساء والرجال. خاصة الفقراء من العالم الثالث ، فالعودة إلى القديم والتراث والتاريخ تعنـ ـي عنـ ـد إسرائيل العودة إلى نصوص التوراة ومنها نـ ـص الأرض الموعودة. وإبادة الشعب الفلسطيني تنفيذا لامر الله ،والعودة إلى التراث عند بعض التيارات الاسلامية يعنـ ـي تحجيـ ـب

النساء وإطلاق اللحي وارتـ داء الجلبـ اب والتفرقـ ة بـ ين المسلمين والاقباط وقتل السياح الاجانب.

وعند التيارات المسيحية الاصولية فإن العـ ودة إلـ ى القديم تعني احتقار الاديان الأخرى وتقتل الاطبـ اء الـ ذين يقومون بعمليات الاجهاض التي تحتاجها النساء ،وتحـ ريم تدريس نظرية داروين وغيرها مـ ن النظريـ ات العمليـ ة المناقضة لنظرية خلق الكون في الكتاب المقدس و.....

أما الايجابيات المقدسة وتـ اريخ الثـ ورات الشـ عبية والنسائية والشبابية في مراحل التاريخ المختلفـ ة فقـ د تـ م حذفها ،بل أن الايجابيات في الحضارة المصرية القديمة قبل الغزو الروماني المسيحي فقد تم حذفها واعتبارها حضـ ارة وثنية متخلفة في حين انها كانت اكثر عدالة وإنسانية مـ ن القيم الجديدة التي فرضها الغزاة.

لاشك اننا في حاجة إلى نقد الفكر الذي نقرأه للمفكرين في الغرب اوالشرق وان كـ انوا متقـ دمين أو ماركسـ يين ينقدون الرأسـ مالية أو غيـ رهم ، لأنـ ا أدري بمشـ اكلنا منهم،ولأنهم لا يعرفـ ون الايجابيـ ات أو السـ لبيات فـ ي تراثنا ،ولأنهم يتأثرون أيضا بالفكر الإسرائيلي الذي يـ ؤثر

بشكل مباشر على المثقفين الأمريكيين وعلي الساسة خلال السنوات التي عشتها في امريكا أدركت مدي تغلغل الفك ر الإسرائيلي في الفكر الأمريكي، وحين عدت إل ى مص ر لاحظت أن المثقفين المصريين ينقل ون ع ن المفك رين الأمريكيين،وبالتالي يزحف الفكر الإسرائيلي إلى المفكرين في مصر والبلاد العربي ة، لاش ك أن معاه دة الص لح المنفردة–كامب ديفيد الاولي –لعبت دوراً في زحف الفك ر الاسرائيلي إلى المثقفين في بلادنا ،مع الس لع والبض ائع الاسرائيلية الأخرى.

أن اختلاط الثقافات هام وضروري، لكن القدرة عل ى النقد وفرز الافكار الصالحة لنا أيضا ضرور وهام.

من الأفكار التي أصبحت شائعة في بلادنا فكرة الهوية المصرية، من نحن؟ هل نحن عرب ام مصريون؟ هل نحن افارقة ام مصريون؟ هل ننتمي إلى ارض افريقيا وشعوبها الهمجية البربرية(في نظر المس تعمرين) ام ننتم ي إل ى حوض البحر المتوسط أوالشرق الاوسط. لاشك أن سياسة إسرائيل وأمريكا هي عزل مص ر ع ن قوته ا العربي ة والأفريقية،وبترها عن تاريخها العربي والأفريق ي ، م ن

أجل المشروع الشرق أوسطي ،والذي يقضي تماماً عل ى فكرة الوحدة العربية، ألهذا شاعت النغمة التي تتغني بمصر الفرعونية المصرية الأصيلة النقية مـ ن الـ دماء العربيـ ـة المتخلفة التي وردت إلينا من بدو الصـ حراء مـ ع الغـ زو العربي المصري؟

منذ أيام قليلة قرأت كتاباً صادراً عن: معهد شـ يلواح بقلم الإسرائليين جانوكوفسـ كي وجرشـ وني (والمنشـ ور بالعربية في القاهرة عن دار شرقيات ١٩٩٩).يؤكد الكتاب على هوية مصر المصرية الخالصة لا تشـ وبها عناصـ ر اخري عربية ويستشهد على ذلك بأقوال مثقفين مصـ ريين منهم العقاد،واحمد أمين وتوفيق الحكيم ونجيـ ب محفـ وظ وغيرهم و يصور لنا الكتاب كأنما هؤلاء كلهم ضد عروبة مصر، فهل هذا صحيح؟ ام انها الرؤية الإسرائيلية لتـ اريخ مصر وهويتها ممـ ا تفـ ق مـ ع مصـ الحها الاقتصـ ادية والعسكرية، ورغبتها في عزل مصر وبالتـ الي اضـ عافها وسلب وسائل المقاومة منها؟ ثم يبث فريد جيميسون وغيره من الفلاسفة الأمريكيين اليأس في نفوسنا لأننـ ا عـ اجزون

عن مقاومة الإخطبوط الاقتصادي والعسكري والنووي والعولمة.

٤-الصراح الديني المطلوب:

أليست قوة المقاومة نابعة من الوحدة العربية والوحدة الافريقية في مواجهة قو اسرائيل؟

اليس هذا هو مأزق ياسر عرفات اليوم بعد أن عاد من كامب ديفيد الثانية خاوي اليدين ،واصبح كالفرخ الذبوح يطير هنا وهناك من أجل المساندة والتأييد له والجميع يأخذونه بالأحضان دون عود بشئ، مجرد النصيحة بألا يعلن عن قيام الدولة الفلسطينية في ١٣ سبتمبر إلا بموافقة إسرائيل.

اصبحت البلاد العربية ممزقة منذ كامب ديفيد الاولي ،واصبح الاقتصاد المصري يعاني الازمات منذ الانفتاح الساداتي ،ومنذ حرب الخليج الاولي ثم الثانية انهارت القوة العربية الاقتصادية والعسكرية،وسادت الفتن الطائفية تحت اسم العودة للتراث والهوية وارتفعت الاصوات المنادية بعودة النساء إلى البيوت ودر و الأمومة

وانتشرت كل الافكار الرجعية تحت اسم مقومة الغزو الثقافي ،علي حين كان الغزو الفكري الاسرائيلي والأمريكي يغزونا في الواقع والحقيقة.

أليس هذا التضليل الثقافي هو سمة العولمة والرأسمالية الأمريكية؟ تحت اسم الهوية المصرية تسلب منا قوتنا العربية.وتحت اسم معاهدة السلام يسلب نمها السلام والقوة الضرورية للسلام وتصبح اسرائيل هي القوة العسكرية النووية والوحيدة في المنطقة ،وهي تهدد ياسر عرفات اليوم أن تضربه عسكرياً إنأعلن الدولة الفلسطينية في ١٣سبتمبر القادم. وقد انكمشت جميع البلاد العربية خوفاً وعجزاً عن المقاومة.حتي مصر التي أعلن وزير خارجيتها عن ضرورة عقد قمة عربية لمساندة عرفات، سرعان ماراحت الفكرة واندثرت بحكم الواقع العربي الممزق منذ كامب ديفيد الاولي.

الغريب أن المفكرين والكتاب في بلادنا ينظرون إلى ياسر عرفان ينتظرون ما يفعل ،كانما هو وحده المسئول وهم جميعا متفروجون يتسلون بالفرحة في سهراتهم بعضهم يقول له: انتحر يا اخي واعلن الدولة الفلسطينية في ١٣

سبتمبر ولا يهمك الترسانة النووية الاسرائيلية ،وبعضـ ـهم يقول له: أعقل ياخي واذهب إلـ ـى كامـ ـب ديفيـ ـد الثالثـ ـة والرابعة ولا يهمك حاجة ما دمت تعـ ـيش ويكفيـ ـك كـ ـلام الثوريين من منازلهم والذين ايدو السادات وهرولـ ـو إلـ ـى إسرائيل.

المعركة الأن تقلصت واصبحت حول القدس الشـ ـرقية فقط ، تم نسيان ما هو أهم عودة ثلاثة ملايين ونصف مـ ـن اللاجئين الفلسطينيين إلى وطنهم والمستوطنات التي تبنيهـ ـا إسرائيل يوماً وراء يوم ،....

وأصبحت قضية القدس كأنمـ ـا هـ ـي قضـ ـية دينيـ ـة فقط ،ولست عودةارض محتلة إلى اصحابها بصرف النظر عما فيها من أثار دينية إسلامية أو مسيحية اوغيرها، لقـ ـد وقع الجميع في هذا الفخ ، تحويل الصراع حـ ـول الأرض المسلوبة إلى صراع ديني وهو شكل الصراع الذي تريـ ـده اسرائيل وأمريكا ، لانه يؤكد علـ ـى الهويـ ـة الأصـ ـلية أو الهوية الدينية وإعادة الناس إلى الوراء ليعيشوا الوهم بـ ـأن القيم القديمة افضل من القـ ـيم الجديـ ـدة،،أن كانـ ـت تخلفـ ـا

وعنصرية وتفرقة بين لاناس على اساس الدين والجنس و و و....

لقد اشتعل حريق الفتنة الدينية حول أعادة القدس إلـ ى أصحابها الفلسطينين (وليس المسلمين اوالمسيحين) وقـ رار الامم المتحدة ٢٤٢ ينص على اعادة القدس الشرقية بمـ ا فيها من مساجد وكنـ ائس إلـ ى الفلسـ طينين لأنهـ ا أرض فلسطينية والارض لا دين لها ،وإذا اصبح للأرض هويـ ة دينية فماذا يحدث في العالم؟ هل تحتـ ل السـ عودية ارض الهند أوباكستان لان فوق ارضها مساجد اسلامية؟

وهل يحتل الفاتيكان بعض ارض مصـ ر لان فوقهـ ا كنائس؟ وهكذا نري الفخ الذي وقع فيه ياسر عرفات والبلاد العربية في دعوتها لعودة القدس. ومن هنا اصبح من حـ ق الفاتيكان أن يكون لهم حق الاشراف على القـ دس ولـ يس الفلسطينيين، ارادت امريكا واسرائيل تحويل الانظار مـ ن الحق المشروع وطنياً ودولياً ،وبقرار واضح مـ ن الامـ م المتحدة إلى مجرد مساجد وكنائس يمكن التنازع على هـ ا بين اصحاب الاديان المختلفة.

٥-الخديعة والهزيمة:

هكذا ندرك الخديعة الفكرية التي يلجأ إليها الاسرائيليون والامريكيون،ولان اغلب المفكرين في بلادنا لا يفكرون ولا يبدعون الأفكار من الواقع الذي نعيشه.بل ينقلوندائما عن المفكرين في امريكا واوروبا،وأخيراً أصبح المفكرون الاسرائيليون المرجع لبعض المثقفين في بلادنا.

وفي راي هذه هيب الهزيمة الاساسية التي اصابتنا ، الهزيمة الفكرية ، أو التبعية الفكرية ،وهي سمة غالبة في بلادنا تصيب المفكرين من اليسار الاشتراكي واليمين الراسمالي على حد سواء، وقد اصبح فريد جيميسون وغيره من المراكسة بين الأمريكيين مرجعاً لأغلب الماركسيين العرب والمصريين ، بعد ماركس ولينين وتروتسكي وجراميش والتوسير وغيرهم.

دائما اتساءل: لماذا لا يكون عندنا مفكرون وفلاسفة مبدعون لا ينقلون افكار الغير؟ أهي انعدام الثقة في النفس؟ أهو الخوف من التفكير الحر المستقل؟ حين وقفت في يجامعة ديوك وعارضت فريد جيميسون لم يندهش إلا زملائي العرب ،وقال احدهم مستنكراً: كيف أعراض

فيلسوفاً كبيراً مثل فريد جيميسون، وقلت له:وه ل فري د جيميسون عند عقل وانا ليس عندي عقل؟

حدث الشئ نفسه في محاضرة لجاك ديريدا في جامعة ديوك وأدركت أن المثقفين العرب والمص ريين ينظ رون بقدسية لهؤلاء المفكرين في الغرب،ويشعرون انهم اقل قدرة منهم على الابداع الفكري.

ربما هو نظام التعليم في بلادنا يسلبنا الق درة عل ى الابداع والتمرد على الاسياد الكبار الذي يملكون الس لطة في الدولة والعائلة. وربما هي عقدة النقص ف ي مواجه ة الغرب الاقوي الذي استعمرنا قديماً وحديثاً ،من ذ نش وؤ النظام الطبقي الابوي أو العبودية.

أتابع ما يحدث عل ى الس احة السياس ية والثقافي ة والفكرية في بلادنا واش عر أن المعرك ة امامن ا طويل ة طويلة،وهي معركة فكرية في الاساس. لان العق ل ال ذي يفكر بعقول الأخرين ليس عقلا مفكراً ب ل ن اقلا فق ط، والعقل الناقل بالضرورة عقل تابع، والعقل التابع يؤدي إلى وطن تابع واقتصاد تابع وسياسة تابعة وثقافة تابعة وأعلام تابع.

٦-الفكر والعمل:

كيف الخروج من هذا المأزق؟ إذا كان أغلب المفكرين المبدعين في بالدنا قد لزموا بيوتهم أو تمت مطاردتهم حتي هاجروا إلى الخارج أو إلى الداخل،وقد طغي على سـ طح الحياة الفكرية هؤلاء الذين يؤيدون كل مـ ن جلـ س علـ ى العرش،وقد رايت هؤلاء في اجتماعاتهم مع عبد الناصـ ر والسادات ومبارك، واستمعت اليهم وهم يتملقون كل حـ ـاكم يرفعونه إلى مصاف الإله المعصوم من الخطأ ، الإله الذي يوجه اليهم التوجيهات والاوامـ ر،ولا يكـ ون امـ ـامهم إلا الطاعة وإلا فقدو الامتيازات والمقاعد الجالسين فوقها.

المشكلة إذن مزمنة،وهي حادة أيضا وقابلـ ـة للعـ ـلاج واول مراحل العلاج هو التشخصي الصحيح للداء. ولعـ ـل هذا المقال محاولة متواضعة مني أو مساهمة قـ ـد تسـ ـاعد على تشخيص المرض والبحث عـ ن الاسـ باب الحقيقيـ ـة لغياب الفكر المبدع في بلادنا وندرة المفكرين الخلاقين من الرجال والنساء.

هل لنا أن نحرر المستقبل من الماضي؟ هـ ل لذ ـا أن نحرر الماضي من المستقبل؟ قد يكون الماضي اكثر تقـ دما من الحاضر أو المستقبل ، مثلا كانت أفكـ ـار مـ ـي زيـ ـادة وملك حفني ناصف أكثر تقدما من أغلب النساء المثقفـ ـات اليوم ،وكانت افكار طه حسين أكثر تقدما من أفكار أغلب المثقفين الرجال اليوم وكانت فلسفة ابن رشد اكثر تقدما من كثير من المفكرين اليوم،والماضي المصري القـ ـديم كـ ـان أكثر تقدما من المستقبل الروماني المسـ ـيحي الـ ـذي دمـ ـر الحضارة المصرية القديمة وحطـ ـم الآلاف مـ ـن تماثيلهـ ـا وآثارها وكتبها.

هذا في فترات الردة والهزيمة فقط. لكن في فتـ ـرات الازدهار فإن المستقبل يقترن بالتقدم والتحرر مـ ـن قيـ ـود الماضي ،ومن الافكار المتخلفة التي يثبت انها ضد التقـ ـدم العلمي والاكتشافات الجديدة،مثلا لقد انتصر علـ ـم الكـ ـون الجديد وعدم مركزية الأرض على الفكر اليهـ ـودي فـ ـي التوراة ونظرية الخلق الدينية التي سادت في الماضي.

المسألة إذن ليست الماضي أو الحاضر أو المسد تقبل وهي كلها عناصر مترابطة واحدة متداخلة،المسد ألة ه ي القدرة على الفرز والتمسك بالايجابيات ونبـ ذ السد لبيات سواء في الماضي أو الحاضر ،هذه القدرة تحتاج إلى عقول مفكرة شجاعة لا تتملق الثوابت المقدسـ ـة فـ ي الماضـ ي والحاضر. بل تخضعها للنقد والجدل في ضـ وء المشـ ـاكل التي يعيشها الناس ،ولس في ضوء مقولات هذا اوذاك من المفكرين في بلاد أخري. كما تحتاج إلى العمل مع النـ ـاس والمقاومة الجماعية وعدم فصل الفكر عن العمل.

لأن معظم البحوث العلمية في جامعاتنا تدور في جدل نظري عقيم حول مقولات ونظريات المفكرين في الغرب. ولا تنبع من اسئلة حول مشاكلنا الواقعية ، لهـ ذا لا تلعـ ـب الجامعات في بلادنا دوراً في الابداع الفكـ ـري أو تخـ ـريج المبدعين.

القاهرة ١٦اغسطس ٢٠٠٠

***

عالم تختفي فيه الحقيقة يسوده الوهم

هل وقعنا في الفخ أو فقدنا العقل؟
لماذا اذن نخاف النطق بالحقيقة؟
كيف تختفي من عالمنا الاسئلة الجوهرية؟
وتكمم الافواه وتراق الدماء
تحت اسم الحب والسلام والشرعية؟

أهو عالم من مالوهم وخدام النفس
بين الجسد والعقل والروح
بين الحاضر والواقع والدم
وذلك الآخر الغائب تحت اسم الاب والجد؟

عالم بلا قلب ولا عقل يعاني الحروب والقتل
وغاتصاب الجسد والوطن والام
يغيب فيه الحق واسم الام وراء اسم مستعار
يقوم فاعل وراء فاعل آخ ر ويصد بح الغائ ب ه و
الحاضر

والحاضر يصبح غائباً

تستأجر الأم بعرق جبينها زوجاً فظاً
من أجل مولودها المحتوم
وتشتغل دون أجر لترعي الابن والاب والجد
يكبر الابن على شاكله ابيه
يقوم بدور الرجل وهوطفل
يخلع عننفسه جسم امه واسمها
كأنما هو العار والاثم
تصبح الامومة بلا شرف ولا قيمة
إلا في الاغاني والكلام المرسل
بالمجاني.

في طفولتي كتبت اسم امي فوق كراستي
ومسحته بالاستيكة
اصحبت احمل فوق جسدي واغلفه كتبي
اسم رجل غريب مات بالبلهارسيا قبل أن اولد بقرن
انه الجد الاكبر لابي

الغائب الحاضر المنظم والمنظر لقوانين حياتي
والذي حرمنا من اللذة الاولي
وقف حائلا بيني وبين قانون الطبيعة
رغم غيابه في القبر
يتحكم من بعيد في حياتي بالريموت
مثل الروبوت
وراودني السؤال المكبوت
لحظة موت أمي
كيف تخلت عن نفسها وعني من اجل رجل غائب؟
طيف سمحت للأب الرمزي أن يحل مكانها؟
وكيف استباحت حقوقي من اجل وهم الحب؟

أليس هو الانفصام اوانشطار الذات
يزعزع الثقة في الإنسان ويفسد علاقة الذات بالأخر
اليست الأمومة هي اليقين
والأبوة هي الشك رغم تحاليل الدم؟
يسود المرضي النفسي وينتشر العنف والجنون
بسبب قلب الحقيقة وتحويل الفاعلة إلى مفعول بها

وتحويل الوالدة إلى مولودة بلهاء من ضلع اعوج

في طفولتي كنت أرمق من بعيد صدر أبي العاري

تبدو ضلوعهكلها عوجاء

وأسال امي: من أي ضلع خرجت؟

تضحك بسخرية على سؤالي ويغضب ابي

يقول عني ناقصة العقل والبرهان

كنت اصدق ابي كأنما يملك الحقيقة

حتي ماتت امي من الحزن

بعد موتها اصبحت احمل قبرها بين ضلوعي

وبعد موت أبي تحررت من ضلعه الأعوج

الذي كان في عيني كالقذي

يحجب عني الرؤية والبصيرة

أصبحت احمل امي الميتة في احشائي الدفينة

وضحكتها احملها ورائحة عطرها

احافظ على العالم الهش خوفا من شقوط الوهم

استبدل الصمت بالحب المختلس وراء القضبان

وأكف عن قول الحقيقة

تتداخل الذات مع الام في لحظة الموت الأخيرة

من أجل استعادة التواصل واللذة الاولي

دون جدوي دون جدوي

فالعالم بلا أم تسوده الكراهية والفوضي

يعلو فيه المجازي والخرافي على الحق والحقيقة

مع كل ذلك تستمر الانتفاضة والمقاومة

في الوطن المحتل والجسد المبتلور

أحاول علاج الجرح القديم منذ الطفولة

والجرح الجديد المتجدد عاما وراء عام

لأن حب الأم هو الحقيقة الوحيدة

في عالم يحرم كل شئ حتي الكتابو والنطق

وأقول لامي داخل صدري

ستظل ابنتك تقاوم حتي الموت

وقد اصبحت الحياة كالموت

فالمقومة يا أمي هي البديل الوحيد

في مواجهة القتل والجنـ ون المتخفـ ي تحـ ت قشـ رة

المخلص، وإله البركين والزلازال من وراء عمود الدخان.

تحميه القلاع والسلاح والمال والإعلام

إن الوهم يا أمي لا يقتله إلا الوهم

ولا شئ يعطيني الاحساس بالواقع إلا الدم

المراق على الأرض والطلف المنزوع منالام

لقد عجز العالم يا امي عن تحقيق العدل

في البيت والوطن والغربة وكل مكان

لا كرامة لارض تنتهك فوقها حقوق الامهات

وما من جنة لا تكون تحت أقدامهن.

***

-يعلمني الوطن إلا احب.

-وألا أعدل بين الناس.

-أن اسكت حين يزعق الكبير.

-يعلمني الوطن أن افقد السمع والبصر والفؤاد.

-فلا اسمع أنين الملايين.

-ولا أري الفقر ولا الموت ولا السجن.

-لا استطيع أن أخرج من عقلي لأحب وطني

-لا استطيع انادوس على كرامتي لأطيع

-زوجي أو الرئيس.

-لااستطيع العودة إلى بيت أمي وإلا تعذبت.

-وقد ماتت امي في عز شبابها.

-ولم يعد لي في الوطن.

-إلا مقبرة امي.

القاهرة ٣١مايو٢٠٠١

***

الي الذين يقولون عنها إرهابية

-حائرون هم هؤلاء النخبة

-لايعروفن الارهابية

-من المناضلة الشعبية

يصدقون النخبة في إسرائيل

وأمريكا الشمالية

-وصحف الحكومة و المعارضة

-الشرعية.

-وهي فتاة من الشعب الصامت

-الزاهد في الدولة والدين

-الساعي إلى قمة العيش

-غير التابع لحماس اوالمجاهدين.

-تحت اسم الدولة اوالدني

-الذين يحولون الصراع فوق الأرض

-الي صراع في السماوات

-بين الألهة والانبياء

-ويغضبون لان فلانا شتم النبي

-محمداً أو عيس اوموسي

-أو إبراهيم.

***

-أما هي فلا تبالي

-باسم النبي الفلاني

-ولا تشتمهذا ولا ذاك

-لأن وراءها مهمة

-أهم من هذا وذاك.

ثم

- جاءت الفتاة ووقفت امامي.
- لا يفصلها عني إلا سحابة رقيقة شفافه.
- مثل دمعة في العين.
- أمد يدي لأصافحها وهي واقفة.
- مثل تمثال من البرونز.
- بشرتها محروقة بلون الفخار.
- وأنفعها حاد مرتفع.
- مثل الإلهات القديمات.

***

- اقتحمت الفتاة غرفة نـ ومي قبـ ل شقشـ قة الفجر.
- يوم الاربعاء الخامس من يونيو عام ألفـ ين وأثنين.
- في الهدوء السابق لعاصفة الانفجارات.
- والظواهر الصوتية.
- والأبواق والإذاعات والمـ آذن وأجـ راس المدارس والكنائس.

وصفافير البوليس والإسعاف.

- وحناجر النخبة المثقفة في الفضائيات.

***

- أحملق في وجهها.
- وأتذكر وجهي في المرآة منذ نصف قرن.
- والعينان السوداوان واسعتان.
- تتسعان للحزن والفرح.
- ومياه البحر المالح تذوب في مـ ـاء النهـ ر العذب.
- والابتسامة مثل شعاع الشمس.

- تطفو فوق ورد النيل الميت.

***

- منذ نصف قرن كان يروادني حلم.
- أن أقتل العساكر الانجليز
- اهتف في الشوارع مع التلاميذ.
- الجلاء بالدماء.
- الاستقلال التام اوالموت الزؤام.
- وأمشي في النوم ملفوفة بالديناميت.
- ثما انفجر ومعي العساكر.

***

- كانت العساكر يسيرون امام بيتي.
- بشرتهم حمرءا منتفخة بالدماء.
- دماء جدتي وعماتي وابناء وبنات عماتي.
- الوجوه الممصوصة المحروقة بالشمس.
- والاصابع الخسنة المشققة بمقبض الفأس.
- والجفون تأكلت والعيون جفت بلا ماء.

***

- والفتاة تظل واقفة امامي.

- من حولها العساكر عن نقطة التفتيش.
- يخلعون عنها الملابس وهي واقفة.
- مثل تمثال من الجرانيت.
- قبل أن تتعري تماما تنفجر.
- مثل قنبلة نووية.
- فلا ألم مثل ألم الجسد المهان.

***

- أخذت أنزع عنها الجسد المحترق.
- وأغسل جورحها النازفة كطبيبة مدربة.
- ثم البستها ملابسها لتذهب إلى المدرسة.
- وهنا اوقفني النقاد وقالوا:
- أرهابية افسدت القضية.
- وأنا جاهلة بقواعد الأدب.
- موازين الشعر والقافية.

***

- أواصل الكتابة دون أن ارد على هم.
- فالفتاة واقفة امامي بجسمها المحترق.
- أحملها من خصرها قبل أن تنفجر.

- تتناثر اشلاؤها وهي واقفة.
- أو جزءاً من ذراع.
- أو ساقا أو جزءاً من هنا وهناك
- استيعد الشكل والجسد الذي كان الفتاة.

***

- رغم انف الارادات العليا والسفلي.
- والقوي العظمي والصغري.
- والقنابل الذرية والنووية والانشطارية.
- هذه الفتاة ستعيش وإن ماتت.
- أري اصبعها يتحرك قبل لحظة الموت.
- اصبع ثابت في يد لا ترتعش.
- وجسد باق لايزول وإن احترق.
- وأنف بكبرياء الإلهات مرتفع.

***

- هذه الفتاة هي حفيدتي.
- تعيش في ذاكرتي منذ نصف قرن.
- بالامس كانت طلفة تلعب بالكرة.
- تري نفسها في الحلم كاتبة أو طبيبة.

- أو شاعرة أو باحثة في علم الذرة.
- وعند نقطة التفتيش رأت العساكر.
- يخلعون عن امها الملابس.
- أصبحت الام واقفة في الشارع عارية.
- وبقيت الصورة في خيال الطفلة إلى الابد.
- فلا يبقي في الذاكرة إلا الحقيقة.
- ولا يكشف الحقيقة إلا الخيال.

القاهرة ٢٤ يونيو ٢٠٠٢

بعد أن رايت ذاتك في المرأة

كان صباحاً مظلما بشبورة كثيف ـة تحج ـب الشـ مس والسماء ورؤوس الاشجار،واسطح بيوت القري ـة يتـ راكم فوقها الحطب والجلة وزلع الجبنة الحادقة والمش ومخلـ ل الليمون والزيتون الاخضر.

أنه صباح العيد بعد شهر رمضان وانت راقـ د فـ ي الفراش الدافئ فوق الفرن تخفـ ي رأسـ ك تحـ ت العبـ اءة الصوفية الرمادية المهترئه ،لا تقارن هذه العبارة جسدك في الشتاء منذ نصف قرن، منذ كنت شاباً في العشـ رين قويـ اً مفتول الساعدين ، مفتول الشارب الاسود الكثيف الشـ عر، الممدود من صدغك الايمن إلى الايسر المبروم والمقـ وس إلى الخارج يمكنان يقف على ه الصقر.

لماذا كانت تخفي راسك تحت العباءة؟ لماذا لم تنضـ م في وجبة الفطور إلى اسرتك الكبيرة العدد ، اولادك وبناتك واحفادك وحفيداتك، لا تكاد تعرف عددهم أو اسماءهم ،إلا واحدة وهي حفيدتك حميدة الطفلة الشقية المرحـ ـة المليئـ ـة بالبهجة والامل لم تكن فرحة أو متألقة.

ولاحظت أمها أن حميدة ليسـ ـت هـ ـي حميـ ـدة التـ ـي عرفهته منذ ولدتها من ذعشرة اعوام كاملة ،وبالضبط ليلة العيد من عام ١٩٩١ بعد موت اخيها في حرب الخليج ،لقد رزقها الله بهذه الطفلة المتأججه بالحياة والذكاء عوضاً عن الابن الذي راح الحرب ولم يعد.

وهمست الام في أذن ابنتها:

-مالك يا حميدة ساكتة؟

ولأول مرة في حياتها تطرق الابنة برأسها ولا تنطق بكلمة واحدة هي التي لم تكن تكف عن الكلـ ـم والضـ ـحك واللعب مع الاطفال.

كأن ظلا اسود قاتما يطل من اعماقها ،وهي جالسـ ـة تضم ركبتيها ، تتقوقع حول جسدها الصغير في ركن بعيد عن العيون،تحملق في الفراغ دون حراك.

عندما قامت الام بترتيب فراش طفلتها وقـ ـع نظرهـ ـا على ـقع دم كانت ما تزال رطبة لم تجـ ـف. فرحـ ـت لاول وهله. تصورت أن الطفلة بلغت وادركها الحـ ـيض ، لكـ ـن أنف الام وخبرتها الطويلة اكدت لها انه ليس دم الحيض.

-أذا لم يكن دم الحيض فماذا يكون؟

سقط قلب الأم في قاع احشائها حت يطن قدميها، عاد إلى ذاكرتها رائحة بقع الدم في فراشها ليلة زفافها، لطم ت خديها كادت تسقط مغشية على ه ا، لكنه ا أفاق ت بع د لحظات.

عرفت الام على الفور من يكون الجاني،وكان يخفي راسه تحت عباءته المهترئة فوق الفرن،ربما كان يفكر في طريقة لمحو العار الذي س وف تجلبه ه حمي دة للأس رة يتلصص من فتحة في الجدار على بوابة الج امع ،حي ث كوم كبير من الحجارة تكفي لرجم امرأة بالغة وليس طفل ة في العاشرة ،وكان رجال القرية يخرجون من باب المسجد بع د ص لاة العي د، م نهم أبن اءه وإخوت ه وأعمام ه وأخواله.وكلهم رجال مفتولون الشوارب لن يتأجر اح دهم عن محمو العار بالدم.

لكن الام كانت اكثر ذكاء من الجد العج وز. بحك م شبابها، وبسبب الحب الكبير في قلبها لابنتها وكانت حميدة قرة عين امها، عوضتها عن ابنها المفقود ف ي الج يش ، ونساء القرية كلها مثل الام و قلوبهن تتبض بالح ب له ذه الطفلة المرحة الذكية تدوي ضحكاتها في سماء القرية مثل

ضوء الشمستقشع عنهن سحب الكآبة وذكريات الحزن منهن الحالات والعمات والاخوات والجدات والجارات القريب ات والبعيدات.

في هذا الوقت ،وبعد أن خرج الرجال م ن المس جد تجمعت النساء في الساحة الواسعة امام البوابة ،انقسمن إلى مجموعات قامت مجموعة بحراسة المسحد وتطويق ه م ن الخارج ،وقامت مجموعة بحراسة ك وم الحج ارة ام ام البوابة ، اطلقت على ه احدي الشابات اسم مستودع الاسلحة وكان يستخدم في الزمن القديم لمحو العار. لم تشهد القرية منذ قرون مشهداً واحداً مما كان يحدث في الأزمنة الغابرة لكن الجد العجوز اراد تحت اسم " الصحوة" أن يعيد إل ى الحياة عادة قديمة من عادات العبودية وان يخفي جريمت ه تحت وابل من الحجارة والغبار المتصاعد عنها.

توجهت الام إلى والد زوجها الراقد فوق الفرن تح ت العباءة المهترئة. دخلت إليه بجسمها الطوي ل الممش وق، قامت منتصبة وراسها مرفوع. عض لات عنقه ا قوي ة مشدودة قادرة على حمل الاثقاف ،رمته بنظرات ص ارمة بعد أن كشفت العباءة عن وجهة ، قرات فوق وجهه خطوط

الجريمة، وكانت الام تحمل لقب" العرافة" في القرية وبلهجة حادة كالسيف القاطع قالت له:

-إنهض فوراً وتعال معي!

بكل تثاقل تحركت كتلة اللحم المليئة بالتجاعيد والتي تنبعث منها راحئة التبغ والدخان ،ورائحة اخري يلتقطها انف الام المدربة على رائحة الدم.

علي الرغم من الظلمة في غرفة الفرن المغلقة دون نوافذ إلا فتحة صغيرة في الجدار استطاعت الام أن تلتقط بعينيها رجفة يديه المعروقتين ،وتبعها صامتاً محني الظهر واتجها صوب المسجد، حيث كانت حميدة راقدة في الداخل فوق سجادة سميكة من الصوف ،مشغولة بأدي النساء في القرية. إلى جوار حميدة كانت مجموعة من البنات زميلاتها في المدرسة الابتدائية وحكيمة القرية وشيخة معروفة بالحكمة.

وتشكلت على الفور مجموعة من النساء(وبعض الشباب من الابناء الذين نفروا من جريمة الرجل العجوز ،وقرروا الانضمام إلى امهاتهم واخواتهم ضد إرادة العمدة وكبار رجال القرية).

أخذت هذه المجموعة من النساء (وبعـ ضـ الشـ بـاب) الرجل العجوز إلى مساحة مـ ن الأرض الجـ رداء ،شـ به صحراء خارج حدود المزارع والحقول.

هناك أجلسوه على الأرض مفتوح الساقين مستنداً إلى وتد من الشخب،تماما ًكما كانت العادة في الـ زمن القـ ديم حينما يقرر الرجال محو العار رجما بالحجارة.

قيدت النساء الرجل العجوز بحبل سميك طويل يكفـ ي لوصوله إلى زير الماء وصحن الطعام ،الذي يقدم له كـ ل يوم،وقد جلست النساء (وبعض الشباب) على مسافة غير بنت النساء حوله اربعة حواجز من المرايا بحيث يسـ تطيع أن يري نفسه ،وامامه رسمن صـ ورة لحميـ دة ،بحجمهـ ا الطبيعي ،كما تركها بجراحها الدامية بين الساقين والظـ لال السوداء حول عيونها الطفولية، عيون تحدق في الفراغ دون حياة اوضوء بعد انهاء العمل قالت النساء له:

–انظر إليها، لقد تركتها هكذا ،وعندما تراها وتـ ري العار الذي فكرت أن تغسله بسفك دمها ، فانظر الآن إلـ ى

نفسك وقلـ ـب عينيـ ـك مـ ـراراً وتكـ ـراراً بـ ـين صـ ـورتك وصورتها ،وسوف ناتي كل يوم لنسمع ماذا تقول.

في صباح اليوم التالي شكا الرجل من بـ ـرودة الليـ ـل فأجابت النساء:

-هذا هو الصقيع الذي يحتل قلب حميدة.

وفي اليوم الثاني شكا لهيب الشـ ـمس علـ ـى جسـ ـده. خاصة المنطقة الحساسة بين ساقية، أجابته النساء:

-هذه الآلام الملتهبة في جسد الطفلة الجـ ـريح،والتـ ـي كانت تحلم بفطور الام وكعكة العيد.

كان الرجل يشكو الخوف الذي يجثم على صدره في ظلمه الليل حين يفكر، قالته له النساء:

-هذا هو ثقل جسدك الذي كتمت به انفاسه الطفلة.

وكان يشكو عفونةالرائحة تنبعث من تحته وهو يبـ ـول على نفسه وكان جواب النساء.

-هذه رائحة العار التي أردت أن تدفن فيهـ ـا جسـ ـدها البرئ.

كان الرجل يشكو كل يـ ـوم مـ ـن الأرواح الشـ ـريرة والاشباح السوداء التي تزوره في الليل. وترد علىـ ـه النساء

أن هذه الارواح الشريرة ذاتها التي امتلأت بها احلام حميدة منذ ليلة الجريمة.

في المرايا من حوله رأي الرجل نفسه عاريـ ـاً.ورأي العار ،ورأي الطفلة الفتاة وجرحها الدامي ، اراد أن يحطم المرايا دون جدوي فهي بعيدة عن متنـ ـاول يديـ ـه،أراد أن يرجم المرايا بحجر لكن الاحجار كلهـ ـا اصـ بحت تحـ ـت حراسة النساء وشباب القرية ومنهم شقيق حميدة التوأم الذي رفض إدانة اخته وطعنها من الخلف.

لقد سقط الرجل في خندق واحد مع مرآة ذاته ،كـ ـان ينادي على زملائه الرجال من أجل انقاذه ،لكـ ـن النسـ ـاء حوطته بسياج منيعه لا يخترقها احـ ـد إلا بتصـ ـريح مـ ـن مجموعة الحراسة ،وتضـ ـاعفت علـ ـى ه الآلام،والاشـ ـباح تراءت له بعنف اكبر ، نخرت الأرواح الشـ ـريرة جسـ ـده وروحه، كاد كيانه يتلاشي ،كـ ـادت نيـ ـران منبعثـ ـة مـ ـن بطنالأرض أن تقضي على ه وكان جسده يتمزق ويتحترق جلدهحتي نهايته ثم يعود من جديد، ليحترق في النار ذاتهـ ـا أو نار جديدة تشتعل ، ينفخها الهواء حتي تصير لساناً مـ ـن اللهب وهو يتبعثر اشلاء يشتتبه اليأس وأسئلة عديدة تغـ ـزو

دماغه تترك في راسه كتلة لزجه محترقة وتذوب وتتلاشي كالرماد ثم تعود من جديد.

وفي يوم تعالت صرخة من احشائه كأنما قادمة مـ ن بطن الأرض كان يخاطب ربه من تحت النيران:

-يا إلهي لماذا تركتني وحدي؟ يا إلهي: لماذا وضعت الشهوة في جسدي وتركتني؟ لماذا لم تضع حدوداً لسلوكي؟ يا الهي: لماذا سمحت لي أن اكون قاسياً وظالماً للنسـ ـاء؟! وتركتني كالبهيمة انتقل من أمراة إلى امرأة؟!

كان الرجل يرهف أذنيه ليسمع اجابة الرب علـ ـى ه. وحين هدأت النيرات قليلاً كان راس الرجل يصـ فو شـ يئاً فشيئاً ، حتي بدأت ذاته تصحو ،وفجاة راي نفسه طفلا في العاشرةمن عمره كعمر حميدةوكان يسمع كل يوم صـ راخ امه حين يضربها أبوه،ولطالما سـ مع نحيبهـ ـا فـ ـي الليـ ـل ونشيجها ،حين هجرها ابوه إلى زوجه اخري ، عاوده الألم الذي كان يجثم على صدره الطفولي ،يمزق قلبه وبسبب له آلاماً وأحزاناً.

مرت بذاكرته مشاعر الغضب حين كانت صد رخات أمه تخترق أذنيه وعظام رأسه وقبة السماء ،وتهبط إليه مرة اخري مع نحيبها لتخترق جسده ودماغه وقلبه.

لقد توقف قلب الطف عن الخفقان، وتعالي من أحشائه عواء خوف غامض من ابيه ودار حجر رحا خوفه فدفن ه تحته، بدا له أن تخلص من الخوف الدفين في قلبه منذ كان طفلاََ.

مرت ايام قليلة ثلاثة أو اربعة دون أن يتحرك أو يأكل أو يشرب ماء. كان مشغولاً مبهوراً بتلك الق درة الجدي دة المنبعثة من أعماقه ،والتي جعلته يدفن الحجر م ن تح ت جسده دون أن يطرف له جفن.

في اليوم التالي عاد إلى نفسه. كان وجهه ق د تغي ر وجسده تغير وطلب من النساء أن يري حميدة. تقدمت نحوه الطفلة بخطوات مترددة وجله ترافقها زميلاتها والنساء من الحارسات. توقفت على مسافة بعي دة من ه وان س معت صوته يقول:

–ارقد امامك عارياً غارقاً في عفونة ع اري الـ ذي جلبته لك. فأصبح شقاؤك هو شقائي ،وجراحك هي جراحي اخبريني ماذا افعل كي اخلصك من الألم والحزن وأرد إلى عينيك البهجة وضوء الشمس.

اقتربت الطلفة منه،حيث أمكنها النظر مباشـ ـرة فـ ـي عينيه. طلبت من النساء تغطية عورته وقالت:

–نظف نفسك مننفاياتك نفسك القديمة، ثم أذهب وحيدا في الصحراء واجمع اشلاء نفسك الجديدة المبعثرة وحـ ـين تري أن الوقت قد حان فأرجع إلى اخوانك الرجال واخبرهم بمعرفتك الجديدة فإن الرجال النبلاء هم القـ ـادرون علـ ـى تحمل مسئولية افعالهم وهم الوحيدون الذين يمكنهم تجـ ـاوز الحدود التي وضعت لهم عندما كانوا في سنة الطفولة ارجع وحدت اخوانك الرجال عن آلامك وانت طفل حـ ـين كنـ ـت تدفع عن امك الظلم كيف نسيت هذه الألام في سن الرجولة وبدأت تشعر بالعار من أمك ،حدثهم عن الظلـ ـم والقسـ ـوة والعار الحقيقي. تحمل نظراتهم الساخرة أو لكماتهم تحمـ ـل كلامهم وان اتهموك بالضعف أو الجنون أو فقدان الرجولة كن اميناً لقلبك الجديد ومعرفتك الجديدة وان كان ثمن ذلـ ـك

هو حياتك ، ادخل هذه المعركـ ـة المقدسـ ـة مـ ـع اخوانـ ـك واقاربك وجيرانك وأولادك. معركة بدون إسالة الدماء، لان العدل ستيغلب في ذلك الوقت على الظلم.

وكانت السماء تسمع صوت حميدة ،وقالـ ـت النسـ ـاء " السكوت علامة الرضا".

***

عالم جديد ممكن

علي منصة القضاء في المحكمة الشعبية العالمية للديون

حضرت الكاتبة المصرية نوال السعداوي أخيراً الملتقي العالمي الاجتم اعي الث اني ف ي بورت و اليغ ري ف ي البرازيل ،وجلست هناك على منصة القضاء ف ي محكم ة شعبية عالمية للديون.

في المقام التالي تصف الكاتبة تفاصيل حية م ن ذل ك اللقاء العالمي ،وهو يوازي لقاء دافوس وسائر قمم العوالم ة ومؤسساتها،والموازاة محاولة لاستشراق عالم جديد.

الشمس مشرقة وحرارتها القوية تذكرني بشمس مص ر في اوائل الصيف ونحن في اوائل شباط(فبراير) العام ٢٠٠٢ في مدينة بورتو أليغري في محافظة ريوغراند دي دوس ول جنوب البرازيل، والصالة الواسعة الضخمة ممت دة أم امي. عيون السناء والرجال والشباب تلمع كالنجوم،الوجوه س مر وبرونزية وبيض وسود وصفر وحمر ،وخمسة آلاف وج ه

امتلأت بهم القاعة غير هؤلاء الواقفين في الممرات، جـ ـاءوا من أنحاء العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوبـ ـاً ومـ ـن مـ ـدن البرازيل وقراها. الاعلام الملونة ترفرف،واللافتات تحمـ ـل أسماء المنظمات الشعبية وشعاراتها من البرازيل ومن جميع بلاد العالم ، يعلوها الشـ ـعار الرئيسـ ـي للملتقـ ـي العـ ـالمي الاجتماعي الثاني. يقول الشعار بمختلف اللغات:" عالم جديد ممكن".

Another word is possible
Un autre Munde edt possible
Aqui umotio Mundo e'oissuvel

وترتفع الاصوات بالهتافات بمختلف اللهجات واللغـ ـات تقول:

- يسقط الاستعمار الجديد
- لا نريد قروضا بل تجارة عالمية.
- لسنا مديونين بل منهوبين.
- موارنا لنا.
- لن نسدد ديوناً خادعة.
- لا للحرب والعدوان.

ألتقط وأنا جالسة فوق المنصة أصواتاً عربية ، وألم ح بين الأعلام المرفوقة عل ى فلس طين، بألوان ه الأحم ر والأبيض والأخضر والأسود ،ويحمله نساء ورجال من بلادنا العربية من مختلف الجنسيات في العالم، يهتف ون بص وت واحد: "وحاكموا شارون أيضاً" فهذه المنصة الت ي أجل س فوقها هي منصة القضاء الستة، ثلاث من النساء وثلاثة م ن الرجال، ج اؤوا م ن جن وب أفريقي ا: القاض ي دمي زا سيبازا،ومن البرازيل ديميترو فالانتيني، ومن شمال أفريقي ا والبلاد العربية ن وال الس عداوي، وم ن الفلب ين لوريت ا روزالي ،ومن الأرجنتين نورا كورتيناس،ومن الهند ش اندر سيكار.

إلي يمين منصة القضاء كانت منصة الم دعي الع ام أليخاندرو تيتلبوم من الأرجنتين، ومعه عدد من المس اعدين من أوغن دا،وم الي،والس نغال،والأك وادور،وجمهوري ة الدومينيك،ونيكاراغوا،والهند،وأنغولا،والبرازيل.

إلي يسارنا منصة هيئة المحلفين المؤلفة من أثني عشر من النساء والرجال، من الأرجنت ين،والإك وادور،وك وت

ديف . . . وار،وم . . . الي وجذ . . . وب افريقي . . . ا، تانزانيا،وفيجي،واندونيسيا،وكوبا،وهايتي،والصين،والفيليبين.

ذكري محكمة:

في كانون الثاني (يناير)سنة١٩٩١ شاركت كقاضية في محكمة شعبية نظمها وزير العدل الاميركي السسبق رامزي كلارك لمحاكمة جورج بوش الأب بعد أن ق ادت الولاي ات المتحدة حرب الخليج ضد العراق قتلت فيها أكثر م ن رب ع مليون شخص.

جلسنا لمدة يومين كاملين ١و٢ شباط ٢٠٠٢ نستمع إلى الشهود، ثمانية من قارة أفريقيا،وخمسة من آسيا،وخمسة من أميركا اللاتينية، نساء ورجال جاءوا إل ى ه ذه المحكم ة الشعبية العالمية الأولي من نوعها ، لتق ديم ش هادتهم عم ا أصاب بلادهم من جراء الديون الخارجية، من سياسات البنك وصندوق النقد الدوليين ومنظمة التجارة العالمية ،والشركات المتعددة الجنسيات في البلاد الرأسمالية الكبري،وعلي رأسها الولايات المتحدة الاميركية.

عقدت هذه المحكمة الشعبية العالمية ضد من الفاعليـات الاساسية للملتقي العالمي الاجتماعي الثاني في مدينة بـ ورتر أليغري،والتي عقد فيها الملتقي العـالمي الاجتمـاعي الأول العام الماضي ٢٠٠١ ، لقد أصبحت هذه المدينة في جنـوب البرازيل شعلة الحركة الشعبية العالميـة الجديـدة المقاومـة للعولمة والاستعمار الجديد،،التي تحمل أسم: " العولمة مـن أسفل"globalization from below وقد نشـأت كحركـة شعبية عالمية لمقاومـة المؤسسـات الاقتصـادية الدولـةي واجتماعاتها العلوية في دافوس، في سويسرا،ونحـن نتـذكر كيف نجحت هذه الحركة الشعبية العالمية في نهايـة العـام ١٩٩٩(في مدينة سياتل) في عرقلة إجتماع منظمة التجـارة الدولية، وكيف تتالت هذه التظاهرات الشعبية مـن مختلـف أنحاء العالم وفي عدد من البلاد شرقاً وغرباً، ضد ما يسمي " الملتقي الاقتصادي الدولي" الذي اصبح عاجزا عن انجـاز أعماله واجتماعاته إلا في حماية الشرطة،والذي انتقـل مـن دافوس إلى مدينة نيويورك، إذ تشتد قبضة الشـرطة ضـد التظاهرات الشعبية المنادية بسـقوط الرأسـمالية العالميـة

ومؤسساتها الاقتصادية على رأسها البنك الدولي ومنظمة التجارة الدولية.

ضد دافوس:

نشأ الملتقي الاجتماعي العالمي لمقاومة الملتقي الاقتصادي العالمي وبسبب تزايد قوة الشرطة والبطش في مدينة نيويورك، فقد عقد الملتقي الاقتصادي العالمي يوم السبت ٢ شباط ٢٠٠٢ من دون مشكلات كبيرة من المتظاهرين من النساء والرجال الذين حوصروا بعيداً عن اجتماع القمة الاستعمارية التي تحكم العالم بقوة السلاح والإعلام المضلل.

في مدينة جنوي تجمع أكثر من ٣٠٠ ألف من النساء والجرال في تظاهرة ضخمة هاجمتها الشرطة بالغازات المسيلة للدفموع والضرب والاعتقال،وقتل احد المتظاهرين في المعركة ،ومن هنا كان لابد من عقد الملتقي الاقتصادي الدولي في البلاد الأكثر ديكتاتورية،والتي تشكل فيها قوة الشرطة عنصراً مهماً لإخماد التظاهرات.

بعد أحداث أيلول (سبتمبر)٢٠٠١ وضرب مركز التجارة العالمي في نيويورك تصاعدت قوات الشرطة والقوات العسكرية للولايات المتحدة تحت اسم "محاربة الارهاب" مما أدي إلى خفوت صوت الحركة الشعبية العالمية المقاومة للاستعمار والعولمة. إلا أن الملتقي الاجتماعي العالمي الثاني في بورتر أليغري- في نهاية كانون الثاني وأوائل شباط٢٠٠٢- نجح في أحياء هذه المعركة. تجمع في هذه المدينة ما يقرب من سبعين ألف أمرأة ورجل من مختلف أنحاء العالم،كانت الحركة النسائية مشاركة بكل قواتها مع حركات الشباب والعمال والفلاحين من مختلف المنظمات في العالم بما فيها مصر وفلسطين وسائر البلاد العربية.

وتدربت هذه الحركة الشعبية العالمية على العمل على رغم الصعوبات،وأخذت تعيد قوتها، وتعبر عن نفسها بطرق أكثر تنوعاً وإبداعاً ،تأثيراً. وأنها حركة تعتمد تجاوز الفروق المفروضة على البشر تحت أسم الجنسية أو الجنس اوالدين أو اللون أو العرق أو غيرها ،وهي تعتمد مختلف أنواع

التعبير الديموقراطي،والعصيان المدني السلمي، حركة شعبية عالمية تكسر الحواجز بين السناء والرجال، وبـ ين الشـ باب والكهول،وبين الطلاب والاساتذة، وبين العمـ ـال والفلاحـ ين والمهن الأخرى، حركة تناضل ليس فقـ ط ضـ د العولمـ ـة الرأسمالية الاستعمارية. ولكن تناضل أيضا ضد الحركـ ـات الإرهابية التي تدعي المعارضة تحت اسـ م ديـ ن معـ ين أو جماعة تستخدم وسيلتي العنف والقتل للمعارضة.

منظمات شعبية عالمية:

شارك في تنظيم هذا الملتقي الاجتمـ ـاعي العـ ـالمي ٢٢ منظمة شعبية من قارات العالم، منهـ ـا الاتحـ ـاد البرازيلـ ـي المركزي للعمال،والاتحادات البرازيلية الأخـ ـرى للفلاحـ ين والنساء والشباب، المجلـ س الاستشـ ـاري الـ دولي للملتقـ ـي الاجتماعي العالمي، والشبكات الاجتماعية من أجل العدالـ ـة وحقوق الإنسان وغيرها من مختلف الهيئـ ـات والتنظيمـ ـات الشعبية الديموقراطية.

وشارك في تنظيم المحكمة الشعبية العالمية للديون عدد آخر من المنمظمات الشعبية في أفريقيـ ـا وآسـ ـيا وأميركـ ـا

اللاتينية منها منظمة" جوبيل ساوثت"South jubilees في جنوب أفريقيا والفيلبين وفي البرازيل وفي كندا، مع الاتحاد الاميركي للعاملين في مجال القانون.

منظمات شعبية ديموقراطية في معظم بلاد العالم نبعث من معاناة الملايين من الفقر والقهر بأيدي القوي الاستعمارية القديمة والجديدة، يمثلون الشعوب بفئاتها المختلفة. لا فرق بين رجل وإمرأة، أو عامل أو فلاح أو أستاذ، حركة شعبية واعية أدركت خطورة اللعب بورة الاديان في مجال السياسة، أو ورقة الثقافة وما يسمي الاختلافات الثقافية وغيرها من الاختلافات بين الناس، التي استغلتها القوة الاستعمارية لتمزيق الشعوب وتفتيت الوحدة تحت اسم احترام الاديان واحترام الثقافات المحلية.

وأنا جالسة فوق منصة القضاء أقوم بدور القاضي (أو القاضية) مع خمسة آخرين من العالم، أشعر بالفخر لأنني اخترت بواسطة هذه الحركة الشعبية العالمية لأمثل بلادنا العربية ومنطقة شمال افريقيا، ولأجلس يومين كاملين أستمع إلى تقارير الشهود من أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية ، كيف

أدت سياسات البنك الدولي وصـ ندوق نقـ ده إلـ ى تخريـ ب الاقتصاد فـ ي هـ ذه الـ بلاد وتـ راكم الـ ديون الخارجيـ ة والداخلية،وكيف أدت القروض إلى نهب موارد هذه الـ بلاد (أو ما يسمونه العالم الثالث) وذلك بسبب فرض السياسـ ات والمشاريعالمؤدية إلى اختلال الميـ زان التجـ اري،وتـ راكم العجز، وتزايد الهوة بين الفقراء والاغنياء و وحرمان البلاد من ثرواتها الطبيعية ومن قدراتها الإنتاجية فـ ي الصـ ناعة والزراعة،وربط عملتها بالـ دولار الأميركـ ي،وكيـ ف أدت سياسة الخصخصة للشركات والبنوك والخدمات المحلية إلى حرمان الشعوب من ضرورات الحياة ،وانتشار المجاعـ ات والأمراض.

كذلك تستخدم القروض وسائل للضغط على الحكومات المحلية وإخضاعها للسياسات الأجنبية ودفعها للمشاركة فـ ي حروب لمصلحة الولايات المتحدة الأميركية وغيرهـ ا مـ ن البلاد الاستعمارية الكبري.

وأوضحت الشهادات التي توالت على المنصـ ة مـ ن ممثلي البلاد المختلفـ ة كيـ ف أن الـ بلاد (اوالمسـ تعمرات

الجديدة) التي تتلقي القروض،كيف انها تدفع مبلغاً يصل غلي ثلاثة عشر دولاراً أميركياً في مقابل دولا واحد تقترضه.

وقدم الدكتور شريف حتاتة (من مصر) شد هادته ع ن تاريخ الاستعمار وعلاقته بالديون الخارجية والحربو كيف أن الاستعمار البريطاني دخل مصر في السبعينيات من الق رن التاسع عشر من طريق القروض،و" احتل بلادنا" وفي الع ام ١٩٥٦ رفض جمال عبد الناصر شروط البنك الدولي لفرض مراقبة على الاقتصاد المصري في مقابل القرض لبناء السد العالي، ما دفع عبد الناصر إلى تأميم قناة السويس،وما حدث بعد ذلك من حرب ١٩٥٦ ،واعتداء جيوش إنكلترا وفرنس ا وإسرائيل على بورسعيد.

وأشار حتاتة أيضاً إلى أن مصر دفعت إلى المشد اركة في حرب الخليج (كانون الثاني ١٩٩١) التي أدت إلى مزيد من تفتيت القوي العربي ة ، وتثبي ت القبض ة الأميركي ة العسكرية والاقتصادية على " بلادنا العربية" وكان الإغراء الذي قدم لمصر هو خفض الدين الخارجي بمق دار س بعة بلايين دولار، سرعان م ا اس تعادتها الولاي ات المتح دة

الاميركية من طريق العجز في الميزان التجاري، وكان الدين الخارجي لمصر في نهاية السبعينيات من القرض الماضي لا يتجاوز ثلاثة بلايين دولار، وصل في زمن حرب الخليج إلى ما يقرب من خمسة وأربعين بليون دولار، وارتف ع س عر صرف الدلولار بالجنية المصري من ٣٤ قرشاً ف ي مطل ع السبعينيات إلى ٥٦٠ قرشا في السوق السوداء حالي اً،وه ذا يعكس مدي التخضم الذي يعاني منه الشعب المصري الي وم بجميع فئاته،وتتحمل النساء الفقيرات الع بء الأكب ر م ن المعاناه بسبب ضعفهن السياس ي والاقتص ادي ووض عهن اللأدنى في الاسرة والمجتمع.

عالم متشابه:

أثناء الاستماع إلى بقية الش هود م ن أفريقي ا وآس يا وأميركا اللاتينية اتضح لنا أن هذه الصورة تكاد تكون واحدة في جميع البلاد. ونظراً إلى أهمية ه ذه المحكم ة الش عبية العالمية الأولي من نوعها فقد حضرها حاكم محافظة جنوب البرازيل واسمه أوليفيو دوترو قبل أن يلقي كلمته أو شهادته

عما تعانيه البرازيل من جراء الرأسمالية العالمية والاستعمار الجديد.

وفي النهاية أصدرت هيئة المحلفين قرارها مـ ن أربـ ع صفحات و١٠ بنود بإدانة البنك الـ دولي وصـ ندوق نقـ ده، ومنظمة التجارة العالمية والشـ ركات المتعـ ددة الجنسـ يات والحكومات في البلاد الرأسمالية الكبري،والحكومـ ات فـ ي أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية المتعاونة مع هـ ذه الهيئـ ات والحكومات.

وافقنا، نحن القضاة الستة(هيئة المحكمة) ، على قرار هيئة المحلفين على أن يبلغ به المسؤولون فـ ي الحكومـ ات والهيئات،وسماع دفاعهم في جلسة مقبلة ستعقد فـ ي شـ هر نيسان(أبريل)هذا العام في مدينة واشنطن.

كانت هذه المحكمة الشعبية خطوة مهمة لتعبئـ ة الراي العام الشعبي ضد السياسات التي تؤدي إلـ ى تـ راكم الديون وتخريب اقتصادات بلادنا وتضر بمصالح الشـ عوب نساءً ورجالاً في بلاد الجنوب.

بورتو أليجري

البرازيل – فبراير ٢٠٠٢

***

من وحي اجتماع القمة مع النخبة

(التصفيق)

التصفيق يدوي في أذنيك ،بقايا حلم لا ينقط ع بمج يء الصباح ، تأتيك الدعوة المذهبة الح واف إل ى الاجتم اع، منقوش على ها الرمز الأبدي منذ الفراعنة، الموعد في تمام الساعة العاشرة في قاعة الاجتماعات الكبري قب ل المو عد بساعة ونصف بالملابس الرسمية وربطة العنق.

تلفين حول عنقك ربطة على شكل الإيش ارب. ح ول راسك تلفين الطرحة على شكل التيربون، يحختفي ش عرك عن عيون الرجال جميعاً، إلا عينيه، يغمضها ويتثاءب ثلاث مراتو يبتلع احلبة الزرقاء بقليل م ن الم اء،ويع ود إل ى النوم،يواصل الحلم مع س كرتيرته الحس ناء ت دق عل ى الكومبيوتر، تشبه المتدربة الشقراء في البيت الأبيض.

تبتلعين اللعاب الم ر ف ي حلق ك، تبلغ ين الخامس ة والأربعين من عمرك بعد يومين،ي رن ال رقم ف ي أذني ك مرعبا ، يسمونه سن اليأس ، يكبرك بثلاثين عام اً ويبتل ع

الفياجرا دون يأس ، تزوجك وأنت في الثامنة عشر، تحلمين بالغلام من عمرك، المولود معك في يوم واحد عاد الهزيمة.

تفرضين العزلة على نفسك وراء الحجاب، والرج ـال في كل مكان ، في الشوارع والباصات ونوافذ الجيران وفي احلامك يتنافسون على ك، يجذبهم اليك التأجج فـ ـي عيني ـك المكحلتين،والنداء المكبوت بين شفتيك الحمراوين، تضغطين على هما بإصبح الروج قبل أن تجرجي من البيت، تمـ ـرين بالفرشاة فوق خديك،وظلال خفيفة فوق جفني ـك، وقط ـرات العطر ترشينها تحت إبطيك.

تسيرين بخطوة بطيئة مثل الوزيرات، يـ ـرتج جسـ ـمك المربع فوق كعبـ ـك العـ ـالي و تشـ ـدين عضـ ـلات ظهـ ـرك وعنقك،فوق رأسك يدور التيربون بإحكام، لا تفلـ ـت شـ ـعرة واحدة للعيان، كل شئ مباح لك إلا ظهور هذه الشعرة أمـ ـام عيون الرجال.

تتأهبين لحضور الاجتماع الهام، ترتدين التايير الجديـ ـد من الصوف الإنجليزي لونه أزرق سماوي ، منقوش على ه ورود حمراء،انجذبت إليه عيناك وانت تسرين فـ ـي شـ ـارع

ريجنت،حين حضرت مؤتمر الأدبا ان منذ عامين في اكسفورد ، تحتفظين به معلقاً داخل الدولاب. ملفوفاً بالنايلون الشفاف، لا يخرج إلى النور إلا في المناسبات،ترشقين فوق صدرك البروش الذهبي بالفص الالماظ، تثبتين بالدبابيس حبات اللؤلؤ حول التيربون، وبعض جواهر قليلة حول العنق والمعصمين.

تهبطين السلالم الرخامية في الفيلا الجديدة ، تسمعين صوت كعبك الرفيع يقد الأرض ، تنظرين إلى ساعتك الذهبية بحركة متوترة ، تخافين التأخر عن الوصول في الموعد ،تتحسين الدعوة داخل القيبة تحت إبطك، منقوش على ها اسمك الثلاثي ولقبك الوزاري ومنصبك العالي في المجلس المنتخب والمعين بقرار واحد.

يفتح لك السائق باب سيارتك الطويلة السوداء،نوافذها محكمة الإغلاق، لا ينفذ منها ضجيج أو تراب، زجاجها داكن اللون لا يكشف الداخل ،ويبقي الخارج مكشوفاً امام عينيك ، تشعرين بلذة الرؤية دون أن يراك أحد ، مثل الوزراء والسفراء والملوك والرؤساء، ممن يركبون السيارات الشبح السوداء.

من وراء الزجاج الاسود ترين الأشـ باح تمشـ ي فـ ي الضباب، وجوههم شاحبة ممصوصة أو مترهلـ ـة بالشـ حم، عيونهم نصف مغلقة فيما يشبه الغيبوبة،والجـ دران العاليـ ـة تتغطي بالاعلانات، أجسـ ـاد نسـ ـاء عاريـ ـة يـ ركبن فـ وق السيارات، في أيديهن المسدسات ، بـ ين شـ فاهن سـ يجارة دانـهيل.

منذ الزواج اصابك الزهد في كل شئ ، الجنس وقصص الحب وقزقزة اللب في السينما، يمتد بك الزهد إلى الصـ مت عن الكلام، لا يبقي أمامك من ملذات الدنيا إلا الأكل وانلهـ م للشراء، لكن ملذات الآخرة هي الأبقي ، تشرئب عيناك فـ ي الحلم إلى القصر في الجنة،وأباريق الفضة يطوف الغلمـ ـان ، تنجذب عيناك إلى الغلام من عمرك، يحـ وم طيفـ ـة حـ ول سريرك طول الليل ، تحاولين طرده بقراءة آيـ ـة الكرسـ ي تطرد الجان والشياطين إلا هذا الغلام من عمرك.

تتوقف سيارتك عند حاجز الأمن ، يحوطـ ـه الحـ راس وعيون السلطة والبصاصون من وراء النظارات السـ وداء ، تقفين في الطابور الطويل ضمن ثلاثمائة آخرين، تندهشـ ين لهذا العدد الكبير من المدعويين ،تصورت أن النخبة هي القلة

و فإذا بهم كثيرون ،يحمل كل منهم لق ب المفك ر الكبي ر، يصلون قبل الموعد بساعتين، يرتدون البدل المكوي ة م ن الصوف المستورد ، تتهدل عضلات سيقانهم تحت البنط ال المشدود، حول أعناقهم تدور الربطة المعقودة بإحكام ،شـ عر رؤوسهم مصبوغ بلون أسـ ود ف اقع ،عي ونهم المتغضـ نة وجفونهم المتورمة تكشف عمرهم الحقيق،تملع انوفهم بنشوة الفياجرا، يسيرون بخطي وئيدة بطيئة،وامام الباب يتق افزون على الدخول كالتلاميذ المتنافسين.

والباب صغير ضيق يشبه أبواب السـ جون، لا يسـ مح بدخول الجسم والرأس مرفوع لا يتسع لدخول الفرد الواحـ د إلا بالجنب ،وانت واقفة في مؤخرة الطابور،تصورت انـ ك اول الواصلين فإذا بك آخرهم، تشبقك النخبة دائماً إلى حيث تذهبين ، يلتقوطون قبلك رائحة السلطة حيثما تكون، بحكـ م الموروث منذ عصر البيد، وخريطـ ة الجيذ وم الـ ذكوري المدرب عبر القرون.

تجدين رأسك ينحني عند الـ دخول، وجسـ دك ينثنـ ي ويلتوي، تبتلعين المهانة لعابك المر ، لا شئ يواسيك إلا انك لست وحدك،وإذا كان الوباء عاماً فليس على ك حرج، امامك

في الطابور جميع الوجوه التي تظهر في الصد حف،وف وق الشاشات وأغلفة المجلات والكتب.

مراسم الدخول طويلة بطيئة، بسبب الزحـ ـام وتعط ـل العين الإلكترونية،وحرص رجال الامن على التفتيش الدقيق، يجردونك من ملابسك دون أن تخلعيها ،وتدخلين بعد افحص إلى القاعة الكبيرة،يعلوها الوجه بحجم الكرة الأرضية، معلق قرب السقف، مثبت بالمسامير مثل ثوابت الأمة ، يختفي مثل الإله وراء عمود من الدخان ونظاره سوداء فوق العينين.

الصفوف الأمامية كلها محج وزة ، مقاعـ ـدها مذهب ـة الحواف من القطيفة الحمراء، فوق ظهر كل مقعـ ـد قطعـ ـة ورق، مكتوب على ها الاسم واللقب، يجلسون في الصد فوف حسب الدرجة، يـ أتي فـ ـي المقدمـ ـة الـ وزراء والسـ فراء والمستشارون.ورجال الدين والشرطة والإعلام، يأتي بعدهم المطربون والمذيعون والمـ ـذيعات ،والنـ ـاخون فـ ـي الآلات، وبعض العلماء والمنجمون والأطباء النفسـ ـانيون وضـ ـاربوا الودع، يأتي بعدهم الأدباء والروائيون الواقعيون والحالمون، لا يمكن أن يتخلف احد ،وان كان نزيل المستشـ في لتغيير ر

صمامات القلب، سرعان ما يفيق من المخدر وي اتي قب ل الموع د بس اعتين، مرت دياً البدل ة الرس مية وربط ة العنق،والازرار مغلقة حول قفصه الص دري، يجل س م ع القادين مكتوف الذراعين والساقين ، ق دماه داخ ل الح ذاء اللامع مشبوكتان تحت المقعد ، تتورمان من طول الجلوس، تمر الساعة وراء الساعة دون الخ روج لقض اء الحاج ة، فالأبواب كلها أصبحت مغلقة ولا احد يدخل ولا احد يخرج.

ثم تدوي الصيحة العالي ة ، تن تفض الأجس اد واقف ة والأيادي ترتفع بالتصفيق،تجدين نفسك واقفة تصفقين،ي دك اليمني تضرب يدك اليسري في قوة دون توق ف ، ال دقات تحت ضلوعك تفقد انتظامها، صدرك يعلو ويه بط بحرك ة مرئية ، تنتقضي الدقائق والتصفيق مس تمر،وتمت د أي دي سحرية تفتح باباً خفياً في الجدار ،تتعل ق العي ون بالب اب المفتوح والأنفاس مكتومة ، ثم يبدأ الموك ب ي دخل عل ى مهل ، يأتي الحرس الخاص في المقدمة ب الملابس المدني ة ويظل الباب مفتوحاً دون أن يظهر أح د و ي دب الص مت العميق بضع لحظات كأنما كل شئ ماتز

ثم تظهر الكتلة المتلألئة بالأضواء ، تومض الفلاشـ ـات والعدسات والآلات اللاقطة، لا يمكن للعين أن تري الوجـ ـه وإن امتد العنق إلى آخره، الاضواء الفضية تـ ذوب داخـ ـل نسجي البدلة المكوية، الكتفان المحشوان والصدر العـ ـريض يشبه الدرع.

تجلسين في الصف الخلفي تحملقين نحوه، يكـ ـاد يشـ ـبه الوهم، رغم المسافة الويلة تبدو الملامح قريبـ ـة، عضـ ـلاته متهدلة يكاد يشبه زوجك،الجفون متورمة مع انتفاخ الخـ ـدين والشفتين وما تحت العينين ،نظراته هائمة ما بـ ـين السـ ـقف والجدران ولا تستقر على وجه ، كأنما الضوء يعميها عـ ـن الرؤية.

يستمر التصفيق يدوي وأنت نائمة، لا ينقطـ ـع بمجـ ـئ الصباح، لا تعرفين الحقيقة من الحلم، وأنت جالسة تصـ ـفقين مع الجالسين، الأيادي كلها مرفوعة تصفق، لا احد يشذ عن المجموع ، تشعرين بالمهانة وانت تصفقين، تبتلعين المهانـ ـة مع لعابك المر، لا شئ يواسيك إلا أن الجميع يصفقون، وإذا كان الوباء عاماً وشاملاً فليس على ك حرج، تدور عيناك في القاعة تبحثين عن شخص واحد لا يصفق ترينه جاليـ ـاً فـ ـي الطرف البعيد من الصف الأخير، الغلام من عمرك المولود

معك عاد الهزيمة، يداه إلى جواره لا ترتفعان،ه و الوحيد د الذي لايصفق.

القاهرة ١٩٩٨

***

من وحي قرار مفتي الديار المصرية

وإذا أفتي المفتي ما ذا يكون؟

إذا أفتي مفتي مصر الدكتور أحمد الطيب بأن الزوجة وحدها التي تعاقب بجريمة الزنا والخيانة الزوجية،وان الزوج لا يعاقب إن قام بالجريمة ذاتها، فهل يكون حكمه هذا حكماً أخلاقياً أم إسلاميا؟

ورد هذا السؤال في عقلي وانا أقرأ الصحف المصرية في ٨ تموز (يوليو) ٢٠٠٢، عما حدث في مجلس الشعب (البرلمان) في اليوم السابق عند عرض مشروع جديد لتعديل قانون العقوبات من أجل معاقبة الزوج على جريمة الزنا بالحبس لمدة لا تزيد عن سنتين ، وقد إرسل المشروع إلى المفتي الذي تشاور فيه مع "مجمع البحوث الإسلامية" التابع لمؤسسة الأزهر، ثم جاء حكمه برفض المشروع.لماذا؟ لأن الاصل في القضية هو تجريم الزنا ،كما جاءت به النصوص الشرعية. وبناء عليه فإن دار الافتاء المصرية تري عدم الموافقة على المشروع بتجريم

الاصل ،وهو جريمة الزنا". هذا هو نص ما قاله المفتي رداً على المشروع.

خلال المناقشات داخل مجلس الشعب رفضت وزارة العدل المشروع بحجة أن الزوج له الحق في تعدد الزوجات،ولذلك يمكنه ان يتزوج المرأة التي ضبطتها زوجته معه لكن هذه الحجة باطلة قانونا. لأن القانون يلزم الزوج إبلاغ زوجته الأولي بزواجه من امرأة أخري.

لقد تخرج ابي في الأزهر ودار العلوم والقضاء والشرعي،وقد اشتغل قاضيا شرعياً بعض الوقت، وحكم ضد الأزواج الخائنين،وكأن يقول: الخيانة ليست من الأخلاق الرفيعة أو الإسلام الصحيح ، لان المسؤولية تتناقض مع الخيانة، لأن الحرية تعني المسؤولية وليس الفوضي.

في مصر اليوم حملة كبيرة من اجل النهوض بالتربية والتعليم، وقد اصبحنا نشهد كل يوم مظاهر التدهور الاخلاقي أو الفساد داخل الأسرة أو خارجها في المجتمع المصري أو المجتمع الدولي. وهل هناك فساد أكثر من ذلك الفساد الدولي الذي يتبني الازدواجية الأخلاقية، فيعاقب العراق مثلاً

بالحرب أو بالعقوبات الاقتصادية على حين يبرئ إسرائيل التي تذبح الشعب الفلسطيني أما أعيننا كل يوم؟

إن مبدأ الأخلاق الصحيحة هو العدل،وهو المسؤولية في حالة الزوج الذي يخون زوجته ثم يخرج بريئاً؟ أليس في ذلك إهدار للأخلاق، بل إهدار للأسرة وتشجيع الرجال على عدم المحافظة على ها؟

وهل تكون المرأة هي المسؤولة الوحيدة عن الأخلاق وعن الحفاظ على الأسرة. على رغم انها لا تملك أي سلطة ويملكها الرجل؟!

قرأت في جريدة "الأهرام" (٨ تموز/ يوليو٢٠٠٢) عن تلك الزوجة المصرية التي منحت زوجها كل مالها ليخرج من أزمته المالية، وأخلصت له ثلاثين عاماً، إلا أنه تنكر لها وتزوج من فتاة صغيرة السن، وطرد الزوجة إلى الشارع بلا مأوي ، مع ذلك خرج هذا الزوج بريئاً في نظر القانون، لان الزوجة لم تأخذ إيصالاً مكتوباً من زوجها عن مالها،لان القانون لا يحمي المغفلين الذين يجهلون القانون. وخرج الزوج بريئاً أيضاً في نظر رجال الدين، باعتبار انه يمارس حقه الشرعي في تعدد الزوجات.

وفي الوقت الذي يتم فيه التساهل الأخلاقي الشديد مع الرجال إلى حد الفوضي وعدم المسؤولية ، فإن التشديد والتزمت هما من نصيب النساء فقط، وفي الوقت الذي يتمسك فيه رجال الدين بحرفيه الشرع في ما يخص المرأة فإنهم يتسأهلون مع الرجل تحت اسم الاجتهاد وأعمال العقل.

وفي جريدة" الاهرام"(٢٨حزيران/ يونيو٢٠٠٢ص٣٦) يعلن المفتي أن وجود حجاب المرأة المسلمة في الثوابت الشرعية،ليس فيه اجتهاد أو إعمال للعقل، لماذا؟ لأن حجاب المرأة يدخل في إطار التوجيه الإسلامي العام المؤسس على مراعاة الفطرة المستقيمة والأخلاق وهل غطاء الرأس دليل الأخلاق. ام استقامة السلوك والأفكار؟ولماذا لا يحكم المفتي بالمثل في ما يخص جريمة الزنا للرجال؟! وهل تدخل جرمية الزنا أو خيانة الزوج لزوجته في إطار الاخلاق أو التوجيه الاسلامي العام؟(الذي يساوي بين الرجل والمرأة التي ضبط معها؟! ألا يشبه ذلك تبرئة الرجل الذي يغتصب فتاة إذا تزوجها؟!

وفي جريدة " اخبار اليوم" (٦تموز/يوليو ٢٠٠٢ص١٥) تحت عنوان " نبت الجريمة" نقرأ قصة الفتاة (سلوي) التـ ي اغتصبها رجل وحملت منه واضطرتها اسرتها للزواج منـ ه حتي لا تجلب العار لأشقائها وأمها،ولكن بعد شـ هرين فقـ ط هرب الزوج تاركا لها ورقة الطلاق،تحملت سلوي الجـ رائم الثلاث:الاغتصاب ثم الزواج ثم الطلاق، وكان من الطبيع أن تكره الجرل والجنين الذي منه، فأقدمت على قتل مولودها. وأحيلت سلوي على النيابة التي قررت حبسـ ها وتقـ ديمها للمحاكمة العاجلة بتهمة" القتل " وقد اتهمت سلوي بأنها فاقدة" الامومة" أيضا ، فيكف تقتل أم طفلهـ ا أو طفلتهـ ا؟ وتغنـ ي الكثيرون بـ ." الأمومة" ، أما " الأبـ وة" أو مسـ ئوولية ذلـ ك الرجل الذي اغتبصبها ،ويقولون أنه تزوجها وطلقها حسـ ب القانن والشرع، فهو إذن برئ،اما هي فتستحق الاعدام!

وكم من الأمثلة التي نشـ هدها كـ ل يـ وم مـ ن هـ ذا النوع،والتي تكشـ ف لنـ اعن مـ دي الفسـ اد الاخلاقـ ي أو الازدواجية الاخلاقية التي تسود في مجتمعاتنا تحـ ت اسـ م القانون وكم من محاولات لتعديل مثل هـ ذا القـ انون، إلا أن

غالبية القيادات الدينية تقف ضد أي تعديل للقانون تحت أسم الشريعة أو الثوابت أو حسب مبدأ " لا اجتهاد مع النص".

والسؤال الآن هو:أين ذلك الـ نص الـ ذي يبـ يح هـ ذه الازدواجية الاخلاقية؟!

دراسة القرآن تؤكد أن هذا النص غير موجود، وعلـ ي رجال الدين في بلادنا أن يقولوا لنا أين هذا الـ نص ومـ اذا يقول؟ أن هذا هو التحدي الذي أمامهم الآن. (نرجو إخـ راج هذا النص إلى الوجود أيها السادة، إن استطعتم!).

وسؤال آخر: إذال كان تعدد الزوجات من الثوابت غير القابلة للتغيير و فلماذا تم تعديل القانون في عدد من الـ بلاد الإسلامية ،وألغي تعدد الزوجات تماماً،وكذلك حق الطلاق إلا امام القاضي ولسبب معقول،وليس لمجرد النزوة الجنسية أو الخيانات الزوجية والزنا.

علي رغم الدراسات الاجتماعية المتعددة والتي كشـ فت عن مآسي المطلقات في المحاكم وتشريد الأطفـ ال وتفكيـ ك الأسرة بسبب تعدد الزوجات أو ضـ ربهن،أو هجـ رانهن أو مجرد التخلي عن مسئوولية الأبوة، على رغم كل ذلك فـ إن

قانون الاسرة أو قانون العقوبات لم يعدلا بالقدر الكافي الذي يعاقب الرجل الذي يتخلي عن مسؤولية الأبوة.

لا تزال القيم الاجتماعية والتعليمية والإعلامية في بلادنا قائمة على تحميل المرأة وحدها المسد ؤولية تحـ ت اسـ م " الامومة" المقدسة العظيمة.

أما " الأبوة" فهي لا تزال قاصرة أو محدودة بالاتفاق ، أو غائبة تماماً في ما يخص المسؤولية والأخلاق.

ونحن نشهد اليوم حملة كبيرة للنهـ وض بـ التعليم فـ ي مصر ،هل ينفصل التعليم عن التربية؟ وهـ ل تقـ وم التربيـ ـة الصحيحة على شئ آخر إلا المسؤولية الأخلاقية؟

* * *

تتحمل المرأة وحدها في بلادنا مسؤولية الأخلاق؟

لأن الرجل لا يعيبه إلا جيبه،ولأنه يستطيع أن يخـ ون ويزني ويظل شريفاً بريئاً وهذا هو الـ دليل علـ ى انعـ دام الأخلاق في بلادنا.

يوليو ٢٠٠٢

* * *

من وحي عيادتي الطبية بالجيزة

وسقطت جميع الأمهات

- من حواء إلى مريم العذراء كان التحول.
- في الأدب والشعر والدين.
- كان الخيال سليماً في الحضارة القديمة.
- والروح داخل الجسد داخل العقل.
- انفصلت الروح منذ مقتل الام.
- وانفصل خيال الرجل.
- أنا والله واللذة والشرف.
- وأمي تقول لنفسها.
- أنا والشيطان والألم والعار.
- انحدرت من ربة المعرفة.
- إلي العذراء بلا شهوة.
- من مبدأ اللذة إلى مبدأ الألم.
- سقطت جميع الأمهات.

عام١٩٥٩

***

من وحي قرار شيخ الأزهر:

" حجاب المرأة واجب في الاسلام"

- الي الذين يتحدثون عن الحجاب.
- من السادة لارجال.
- يتنافسون على الورق والشاشة.
- وأصواتهم عالية.
- قال بعضهم كلمة" الخمار" وردت في الكتاب.
- وفلسطين السليبة لن تعود بنزع الحجاب.
- وهو حق واختيار بإرادة النساء.

***

- وقال بعضهم إنه ليس من الدين الصحيح.
- بل من الجماعات الدينية.
- الذين قتلوا الأبرياء.
- وكفروا المؤمنين من طه حسن إلى قاسم أمين.

- واعتبروا الفن إثماً.
- يستجوب التوبة.

***

- وقال بعضهم إن الحجاب،
- موجود في كل البلاد.
- الشال والطرحة والبونيه والقبعة.
- ضمن الأزياء الوطنية.
- باختيار النساء.
- لأن " الوطن" لا يفرض شيئاً.
- لا الشابو ولا الفولار ولا القبعة العسكرية.
- فقط الزي الاشتراكي للطبقة العاملة.
- وعمليات الأخصاء للعبيد في بيزنطة.

***

- وقال بعضهم ما جدوي تغطية رؤوس النساء؟
- والمرأة هي المرأة!
- ما أن ينام زوجها حتي تصحو.
- وإن كان هو الجني الأسود.

- أو شهريار أو شاه زمان.
- بنات حواء يا إخواتي.
- يخرجن الراهب المتعبد من صلاته.
- وإن ارتدين الخمار الاسود.

***

- ترتفع اصوات الرجال والنساء صامتان.
- أو مطرقات إلى الأرض في حياء
- أو باسمات برقة وإغراء
- رؤوسهن ملفوفة بالطرحة اوالبونيه،
- من آخر طوراز أو موضه،
- من الاستاذة إلى الضكطورة.
- نري صورهن على الورق والشاشة،
- يتنافسن في الحديث عن فلسطين السليبة.
- وأنف" أبو الهوال" المسروقة.
- وأصحاب نظرية العودة إلى الايمان.
- من أفلاطون إلى عباس العقاد.
- ومن أليزداير ماكنتاير إلى هنري لنك.

***

- ترتفع أسماء الجرال والخواجات،
- وتدفن أسماء النساء.
- من عائشة التيمورية إلى مي زيادة،
- وملك وكوكب حفني ناصف.
- ودرية شفيق وسهير القلماوي وأمينة السعيد،
- وغيرهن من الكاتبات اللائي تقدمن عن
- طه حسين أو العقاد أو قاسم أمين.
- وبعضهن على قيد الحياة يدفن.

***

- أيها السادة الرجال،
- أقول لكم:
- لماذا لا ترون الاشياء البسيطة الواضحة؟
- وضوح الشمس.
- لماذا يرتدي الإنسان القبعة في الشتاء.
- ويخلعها في الصيف؟
- لماذا يتعري الغنسانتحت خط الاستواء.
- بصرف النظر عن الجنس؟

- ولماذا يرتدي راكـ ـب الموتسـ كل الخـ ـوذة الحديدية
- أو الجندي في القتال؟

***

- أيها السادة والسيدات.
- إن رأس الإنسان ليس عورة.
- لأنه يحتوي العقل.
- والعقل أشرف ما في الإنسان.
- فهل المرأة إنسان؟
- يا من تتحدثون عن الحجاب؟

***

وأعلنت أحدي الزعيمات النسائيات المحجبات أن النساء السافرات ملعونات وإلي نار جهنم ذاهباتو ثم نشرت تـ ـاريخ عائلتها الكريمة:

القاهرة يوليو ٢٠٢

***

التاريخ العائلي لزعيمة نسائية محجبة

١- تحسين الصورة:

- من حقي أيها السادة أن أكتب،
- تاريخ عائلتي.
- لأنه تاريخ الوطن والعروبة والإسلام.
- ولأن أبي وخالي وعمي وجدي الكبير.
- من أكبر الرجـ ـالات الـ ـوطنيين العـ ـروبيين الإسلاميين.
- وكلها وجوه لعملة واحدة.
- وكان زوج خالتي يتكلم عشر لغات.
- أما أبي فلم يكن حاصلاً على الابتدائية.
- واشتغل موظفاً بسيطاً في محكمة.
- فوق عينيه نظارة سميكة.
- يفـ . ـك بهـ . ـا الخـ . ـط والتوقيـ . ـع علـ . ـى العرضحال،والاختام الملكية.

- ويقف تعظيم سـ ـلام لحاجـ ـب المحكمـ ـة أو مندوب السراي.
- وكانت أمي لا تعرف القراءة ولا الكتابة
- لكنها كانت تحتفظ بكل ورقة يكتبها أبي.
- ومنها كمبيالة المهر وقائمة العفش.
- تأميناً لها إن طلقها إبي بغتة.
- أو تزوج إمراة أخري دون علمها.
- وقد تعرضت اختها وابنة خالتها وجارتها.
- لمثل هذه المشاكل في المحاكم الشرعية.
- وخرجت كل منهن على باب الله.
- لأن القانون لا يحمي الجهلات به.
- اللائي لا يحتفظن بإيصالات العفش.
- والكمبيالات.
- بخط الزوج الجميل أو القبيح.
- وكان ابي دائم التحسين لخطه العربي.
- فهو عروبي إسلامي.
- وهو يعرف حقوقه الكاملة الشرعية.

- ومنها حق المطلق في الطلاق والزواج بأخري
- دون علم الزوجة الأولي.
- ورثت عن امي إيصالات واوراقاً كثيرة، أما ابي فلم يكن لديه أوراق ولا كتب ولا مكتبة.
- أبي كان مولعاً بأنواع الأختام الرسمية والخطوط.
- لم يكن يضيع وقته في القراءة.
- ولكن في تحسين خطه وصورته.
- وكان الشعار الملكي يشبه الشعار الجمهوري اليوم.
- "تحسين الصورة".
- وأصبح أبي جميل الصورة جميل الخط والصوت.
- يكاد يشبه الملك في طفولتي.

***

٢- تشوية الصورة:

- ورثت عن ابي شعار تحسين الصورة.
- لا أعرف كيف تغلغل هذا المبدأ داخلي.
- وأصبح مقدسا.
- والأهم تأثير أمي ،وكانت متفرغة في البيت
- للأمومة المقدسة.
- والحفاظ على الاسرة من التفكك وعبث
الأبوة غير المقدسة.
- وكانت امي تؤمن بالشهادة،
- الدكتوراه أو الماجيستير.
- وحين تزوجت رجلاً غير متعلم سألتني
- شهادته إيه؟
- وغضبت أمي من زوجي لأنه لا يعرف
- إلا اللغة الشعبية العامية.
- وقعت أمي في التناقض والتطرف
- وكانت أمراة شعبية.
- لا تعرف اللغة الفصحي ولا تعرف الكتابة.
- وتركت أمي بصامتها على عقلي وجسمي
وروحي.

- ورثت عنها التناقض والتطرف.
- وورثت عن أبي شعار تحسين الصورة.
- والصوت أيضا.
- وأصبح حلم حياتي أن أكون
- الصورة المثالية للمرأة المصرية.
- ولأنني عروبية إسلامية مثل أبي
- فقد أصبحت المثالية لنساء مصر
- في ظل العهود الملكية والجمهورية.
- وعصور الاشتراكية والرأسمالية،
- والليبرالية الجديدة.
- ونشرت صد ورتي بـ البنطلون الأمريك ي الجينز.
- أيام الانفتاح والحرية.
- وفي العصر الحالي تنشر صورتي بالحجاب.
- في الصحف الاسلامية،
- والصحف الوطنية المعارضة
- وأحزاب العولمة الجديدة والكوكبة.

- وأحمل لقب زعيمة نسائية إسلامية عروبية وطنية مناضلة ضد الباطل بكل صلابة وعنف.

- ومع ذلك ايها السادة،

- فإنا طفلة رقيقة جداً، وعاشقة لكل الصور الجميلة والخطوط العربية والفارسية وتحسين صور الإسلام في عيون الأجانب.

- ولهذا أغضب بعنف وأضرب بقبضة يدي راس الشيطان.

- والذين يشوهون صورة الاسلام.

- وعلي رأسهن ذوات الرؤوس غير المحجبة.

- النساء السافرات لعنة الله على هن!

القاهرة٩ يوليو ٢٠٠٢

* * *

عن الخوف

- الخوف يجعلنا نموت في كل لحظة.
- إن نسينا واحد من الاحباء.
- أو هجرنا واحد من الازواج.
- وإن عارضـ .نا السـ .لطة وهـ .ددتنا بالحبس أو النفي.
- وإن لم نعارضـ ـها اصـ ـبحنا مـ ـن المنافقين الموتـي.
- نموت من الحب ومن الكره.
- ونموت إن غاب الحب وإن غـ ـاب الكره.
- نموت بسبب العيال والولادة وحمي النفاس.
- ونموت لأننا بلا عيال.
- نموت من الخوف من العقـ ـاب فـ ـي الدنيا.
- ونار جهنم الحمراء بعد الموت.

- نموت من الخ وف آلاف الم رات. ملايين المرات.
- لكن الشجاعة وحدها تجعلنا نم وت مرة واحدة.

***

قالت رابعة العدوية: أنا لا اخاف نار جهنم الحمراء و، لا أطمع في جنة عدن الخضراء.

سألوها: الجنو النار وردت ا ف ي الق رآن والإنجيل والتوراه، ألا تؤمنين بالكتب السماوية؟!

قالت: أنا لا أقرأ ولا أكتب ، وإذا سد عيت إلى الله فلأنه العدل وليس كتاباً.

***

من وحي مذبحة سبتمبر ١٩٨١

المكان الأمين:

- | في الظلمة جاءوا واخذوني.
- سألت أين تأخذوني؟
- قالوا نأخذك إلى مكان أمين.
- قلت من أعطاكم الأمر؟
- قالوا صاحب الجلالة رئيس البلاد.
- قلت إذا كذب صاحب الجلالة.
- فمن يقول الصدق؟
- وذهبت معهم إلى المكان الأمين.
- فإذا بي داخل السجن.
- قلت لهم رئيسكم كذب على كم
- قالوا نعم.
- ثم سكتوا إلى الابد.

***

من وحي الحراسة

إنقاذ النفس من براثن الحب والحماية:

- في ظلمة الليل جاءوا حاملين البنادق.
- قلت لهم من أنت؟
- قالوا الحراس.
- سألتهم وماذا تحرسون؟
- قالوا حياتك.
- قلت حياتي في خطر؟
- قالوا نعم؟
- سألت من يهدد حياتي؟
- قالوا لا نعلم.
- عرفت من عيونهم أنهم يكذبون.
- أصبحت أصحو حين ينامون
- وأنام حين يصحون.
- أحرس حياتي من رصاص حراسي.
- وأنقذ نفسي من برائن الحب والحماية.

القاهرة يونيو ١٩٩٢

❋ ❋ ❋

من وحي سنوات الغربة

- الغربةخارج الوطن قاسية.
- وأقسي منها.
- الغربة داخل الوطن.
- الرسائل تأتيني رغم المسافات.
- من الأهل والأصدقاء.
- والصديقات.
- مع حركة الطائرات تزداد المسافات.
- والحزام مربوط حول جسدي.
- وعقلي مشدود إلى هنا.
- حيث تكون فلذة الكبد.
- وحيث يكون الحب.
- من وراء البحر والمحيط.
- تلوح لي الأيدي والعيون.
- تلمع في الظلمة كالنجوم.
- تشدني إليهما من قاع الموت.
- بلا قطرة دم ولا دموع.

- أعانقهم وأضمهما إلى صدري.
- أعود بهما إلى رحم الأم.
- رغم المسافاتا.
- أنا أمهما نوت أو نون.
- أو أي اسم.
- ذكر أو أنثي.
- لا يهم.
- المهم أنهما متساويان.
- ابنتي وابني يتساويان عندي.
- وإن غضب إله السماء والبراكين.
- وإن زمجر بصوت الرعد.
- أو أعلن الحربز
- علي النساء والشباب والأطفال.
- تحت اسم الأرض الموعودة.
- أو محاربة الأرهاب.
- والدعوة إلى الفضيلة.
- جسدي رغم الحزاب المربوط بالمقعد.
- يحلق فوق السحبز

- فوق الحدود المصنوعة بين البلاد.
- والتقسيمات بين البشرز
- علي اساس الدين أو الجنس أو الجنسية.
- يكسر الحواجز والخرائط المرسومة.
- في كتب التاريخ والجغرافيا.
- والكتب السماوية.
- أحملق من فوق السحب في عين الإله.
- دون حياء أو خجل.
- حتي تطرف عيناه ويغض البصر.
- ويسالني الحارس عن جواز السفرز
- واسم أبي وجدي.
- وأقول لا أعرف من الاسماء.
- إلا اسم امي.
- وأتجه نحو باب الخروج.
- رافعة راسي في شموخ.
- وينطلق الرصاص خلف ظهري.
- وأنا أسير لا أتوقف.
- لا يخترق الرصاص جسدي.

- يفرقع في الفضاء
- مثل فقاعات الهواء.
- وأسير نحو الباب وأدخل.
- وتسألني ابنتي كيف دخلت؟
- وأقول لأن إله الزلازل والبراكين.
- أصبح مشغولاً بغيري.
- أحملق في عينيه فوق السحب.
- أحملق دون حياء أو خجل.
- حتي تطرف عيناه.
- ويغض البصر.

ديرهام. نورث كارولينا ١٩٩٥

***

القيط والغيظ في يونيو ٢٠٠٢

أمامي صحف الاحد ٩ يونيو ٢٠٠٢ باللغ ة العربي ة ولغات أخري. الحدث الواحد يتغير من صحيفة إلى اخ ري. تتحول الهزيمة السياسية أو العسكرية إل ى نص ر عظ يم ويتحول القزم إلى عملاق حسب موقع البلد والجريدة. إلا أن صورة الرئيس الأمريكي "ب وش" وص ديقه الإس رائيلي "شارون" تحتلان المساحات الأكبر ، فيم ا ع د الص حف العربية ، حيث تشتغل الصحفة الأول ي ص ورة ص احب الجلالة أو صاحب الفخامة أو صاحب السيادة.

اليوم ٩ يونيو ٢٠٠٢، في مثل هذا اليوم من ذ عش رة اعوام تم اغتيال كاتب مصري امسه فرج فودة، اختفي اسمه تحت الرماد والنسيان مثل كثيرين من المقتلوين الذين يدفعهم حماسهم الوطني اوالديني إلى الموت، من أجل الله أو الوطن أو العدالة الغائبة ، ثم يرقدون في قبورهم يطويهم النسيان.

منذ عام تقريباً كنت غائبة عن الوطن ، أقوم بت دريس مادة "الإبداع الفكري" ف ي جامع ات بعيد دة وراء البح ار

والميحط. والعقل أو الفكر أو الابداع لا يكون حاضراً حيث تكون الحريات غائبة.

منذ أيام قليلة عدت إلى بيتي في مدينة القاهرة، المقهورة منذ نشوب العبودية والفراعنة، رأيت الوجوه الحزينة الشاحبة، والبيوت الغارقة تحت طبقة من الرماد، والغضب المكبوت داخل الصمت أو الضجيج، كالمرجل يغلي تحت النار، ومكبرات الصوت تتفجر ليل نهار، بإيقاع الطبل في حفل زفاف، أو الآلات النحاسية في الديسكو، أو التراتيل الدينية في المآتم ، والميكروفونات فوق المآذن العالية الواطئة تتنافس لإيقاظ النومي تحت وطأة القيظ. أو الموتي كمداً من شدة الغيظ، فقد صدرت الجرائد الصباحية بالخبر المغيظ، لا نعرف إن كان نصراً ام هزيمة:"تطابق الرؤية المصرية الأمريكية". أي رؤية؟ وأي تطابق؟

أمامي الجريدة باللغة العربية تعلن اننا حققنا نصراً عظيماً في المفاوضات مع الرئيس الأمريكي. وأمامي الصحف بلغات أخري تقول أن لاشئ تغير في الموقف الأمريكي. وأن " بوش" يرفض الالتزام بأي جدول زمني

لنشوء الدولة الفلسطينية، وأنه يستمر في الرؤية المغلوط ـة التي تجعل الضحية المقتلولة من الش ـعب الفلس ـطيني ه ـي الجاني ـة الإرهابي ـة المس ـئولة ع ـن العن ـف،وان إرييـ ـل شارون(رئيس الحكومة الإسرائيلية والمذابح الكبري) لا يفعل شيئاً إلا حماية الأمن والمطالبة بالسلام.

في الصور الداخلية نري الدبابات تجتاح المدن والقري الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة،تهدم البيوت وتقتل النساء والرجال والشباب والاطفال، تدفنهم أحياء في قب ـور جماعية،ويرفض شارون قرار مجلس الأمن بالتحقيق في هذه المذابح،ويعلن "بوش" براءة "شارون" دون تحقي ـق ويواج ـه الإدانه إلى الأطفال والبنات الفلس ـطينيات اللائ ـي يفج ـرن أجسادهن بالديناميت من شدة الغيظ والكمد.

ويمتد الغيظ والكمد إلى وأنا جالسة في بيتي في القاهرة، يزيد منه القيظ في يونيو والاحساس بالعجز ف ـي مواجه ـة السلاح الأمريكي والإسرائيلي النووري، كيف تحولت دول ـة إسرائيل إلى ترسانة نووية ،وكيف تحولت بلادنا إلى شعوب

يائسة تعاني الفقر والبطالة، لا تتغذي إلا بمبكرات الصوت. تنقل الخطب السياسية والدينية؟

اليست هي سياسة الحكومة المتتالية في بلادن ا تح ت الرعاية الأمريكية؟! وأين ه ي المعارض ة أو الأح زاب الأخرى غير الحكومية؟ هل عادت إلى بطن الحكومة كم ا خرجت منها منذ ربع قرن؟ وهل يمكن للغ ازات المس يلة للدموع أن تقضي على الثورات الشعبية؟!

تطالعني الأنباء في الصحف وأنا أكتب هذه الكلم ات، أقاوم الحزن كلما تطلعت إلى وجوه الشباب والش ابات ف ي بلادنا، آلاف العقول المعطلة بلا عمل ، بلا فكر ولا إب داع ولا أمل ، إلا الهجرة إلى بلاد غنية بالنفط أو اله امبيرجر ، آلاف الرؤوس المحجبة والعقول،والعيون المتطلعة إلى بارقة أمل دون جدوي ،وأدرك الصلة الوثيقة بين الحجاب ال ديني والسياسي،بين الختان العقلي والجسدي، وبين القوي المحلي ة والدولية،وبين الاستعمار القديم والجديد وتلك الكلمة المتداولة حديثاً "العولمة"، وكم من كلمات جديد للتغطية على الحقيق ة المؤلمة،كم من كلمات غامضة مراوغة مزدوجة المع اني ، توحي بالتقدم نحو الإنسانية العالمية ثم تأخذنا إل ى ال وراء

لنعاني المزيد من الفقر والقهر تحت نير الف تن والحـ روب العسكرية والدينية.

تلعب العولمة الحديثـ ـة دوراً مزدوجـ ـاً، فهـ ـي تكسـ ـر الحواجز بين البلاد من أجل تسهيل التجارة الحرة في السوق وهي حرية العبيد في الخضوع لأصحاب المـ ـال والسـ ـلاح والإعلام.حرية الدول الإرهابية النووية في قلـ ـب الحقـ ـائق، وإخفاء الصراعات حول المال والنفط والأنابيـ ـب والتجـ ـارة بأجساد النساء والأطفال ، تفوقت أرباح التجاريـ ـة العالميـ ـة بالدعاة الجنسية،وزادت عن سبعة ملايـ ـين دولار أمريكـ ـي سنوياً، حسب تقارير الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٠

(Refugees-UN-HCR-vol.٢ no.١١٩،٢٠٠)

تساوت ارباح الرأسمالية الدولية مـ ـن بيـ ـع الكتـ ـب الدينيـ ـة والأحجبة النسائية مع أرباح بيـ ـع أدوات الزينـ ـة والكحـ ـل والرموش والاعضاء الجنسية الصناعية والاقلام الأمريكيـ ـة والعقاقير المخدرة.

أصبحت أجساد البنات الصغيرات مثل السمك أو اللحـ ـم المعلب في سوق العولمة الرأسمالية. تقوم الـ ـدول العظمـ ـي والشركات الكبري عابرة القارات بدور "القواد" في الماضـ ـي

القريب،وتشحن البنات الفقيرات من أجل الخدمة في البيوت أو الإمتاع الجنسي للذكور الكهول الاثرياء، الذين ينفقون أموالهم في شراء حبوب الفياجرا أو غيرها. ارتفعت أرباح العولمة الرأسمالية من تجارة السلاح وحبوب الفياجرا على حد سواء. ذلك أن الرجال يعانون من العولمة الرأسمالية مثل النساء. وأن اختلف شكل أو درجة المعاناة،ويمرض الرجال بالقلق لفقدان الانتصاب الجنسي ، بمثل ما تمرض النساء من انقطاع الطمث ، هذا فيما يخص رجال ونساء الطبقات الوسطي والعليا أما الرجال والنساء من الطبقات الدنيا فلا شئ يشغلها إلا البحث عن عمل يسد الرمق.

ويلعب الأعلام العولمي دوره في إخفاء الحقيقة، وتحويل الصراعات حول ماديات الحياة إلى صراعات روحانية بين الأديان أو بين الحضارات، يروج لها المفكرون والصحفيون من اتباع الرأسمالية المحلية والدولية ، وكيف يمكن لجماهير القراء في مختلف البلاد أن يخترقوا هذه العبارات المتراكمة من الكذب والالتواء ، وهذه الكلمات المراوغة غير المحددة المعني ،مثل إعلان الرئيس الأمريكي"بوش" عن إنشاء دولة فلسطينية دون تحديد معني

وأين تكون هذه الدولة،وكأنما هي مجرد قصـ ـر يبنـ ـي فـ ـي الهواء، أو في جنة الخلد، هذا الخداع المـ ـزمن منـ ـذ نشـ ـوء العبودية لإقناع المقهورين والمقهورات بالتعويض عن آلامهم فيما بعد الموت.

إنه الأمل الكاذب أو الوهم،ويختلف عن الأمل الحقيقـ ـي الذي ينبع من العقل والوعي،وإبداع الافكار والوسائل لمقاومة الاستغلال والخداع والقهر.

وتؤدي " العولم‘" كما أدت" التنمية" إلى مزيد من الفقـ ـر للفقراء.ومزيد من القهر للنساء ،وادي ما سمي " بالاصـ ـلاح الاقتصادي " إلى النتيجة نفسها، وتصبح النساء الفقيرات في أي بلد هن الضحايا وكبوش الفداء أو " الصيد السهل" في أية أزمة عسكرية اواقتصادية، وهـ ـل ننسـ ـي صـ ـور النسـ ـاء المقتولات تحت اسم الشرف والأخلاق أو الدين في أفغانستان وإيران والأردن والجزائر والسودان ومصر وغيرها؟ وتتعدد أسباب القتل للنساء في أوقات الحرب أو السـ ـلم،وقـ ـد تقتـ ـل المرأة نفسها لمجرد الخلاص من الألم أو الهوان فـ ـي ظـ ـل زوج طاغ أو احتلال أجنبي.

وقد حل الإرهاب الإسلامي محل الإرهاب الشيوعي في عصر العولمة أو الاستعمار الجديد ،واصبح السلاح الديني اشد فتكاً بالمقهورين والمقهورات من السلاح العسكري، وأقل تكلفة،يكفي طبع وتوزيع الكتب الدينية مع إعادة تفسيرها بما يخدم مصالح النظام الطبقي الأبوي الممتد منذ العبودية إلى يومنا هذا تحت أثواب وألوان جديدة.

وأصبحت التيارات الدينية الإسلامية أو المسيحية أو اليهودية أو الهندوكية أو غيرها، والتي عرفت باسم"التيارات الأصولية" هي الوجه الآخر الديني أو الثقافي للعولمة الاقتصادية الرأسمالية.

أصبح تحجيب النساء تحت اسم الدين أو الاخلاق هو الوجه الآخر لتعرية اجسادهن تحت اسم التجارة في السوق الرأسمالية الحرة.

ودخلت العولمة شركات جديدة لبيع المواليد في سوق التبني الدولية،وضحاياها هم الأطفال الفقراء والنساء من مختلف الطبقات الفقيرة أو الوسطي ،وكم من امرأة بلا أطفال دفعت لهؤلاء التجار مقابل الحصول على طفل أو طفلة وكم من امراة فقيرة مثقلة بالحمل والولادة وكثرة الأطفال باعت

من أطفالها لهؤلاء التجار مقابل الحصول على الطعام أو المأوي ،وفي ظل النظام الطبقي الأبوي تصبح عبئاً ثقيلاً على النساء الفقيرات ،وحلما بعيد المنال للنساء العاقرات وكلاهما نوع من القهر والإذلال.

إنها انواع من التجارة الجديدة في السوق الرأسمالية القائمة على الربح؛ والتي يسمونها السوق الحرة،وهي حرية العبيد في نظام أطفالهم من أجل سد الرمق،هي حرية الأمهات المكلومات في البكاء والولولة على ضياع أطفالهن أوتحطيم بيوتهن،وقد اصبح "الفقر مؤنثاً" حسب تقارير الأمم المتحدة ،وتدفع النساء في العالم ثمن الفشل في المشاريع الحديثة أو ما تسمي " التنمية "،وتدفع النساء عبء الديون الخارجية والداخلية الناتجة عن سياسات البنك الدولي وصندوق النقد ومنظمة التجارة العالية وغيرها، ألهذا السبب تزايدت أعداد النساء والمنظمات النسائية المشاركة في المظاهرات العالمية ضد العولمة؟

وكم شهدنا من هذه المظاهرات الجديدة التي شملت النساء والرجال والشباب والأطفال من مختلف البلاد، اشهرها المظاهرة الشعبية في مدينة سياتل في نهاية عام

١٩٩٩،ومن بعدها لم تكف هذه المظاهرات ف ي عواصـ م العالم ضد المؤسسات الاقتصادية للرأسمالية الدولية.

وقد اشتركت في بعض هذه المظاهرات خلال الشـ هور الماضية، منهـ ا مظـ اهرة بـ ورتو أليجـ ري فـ ي فبرايـ ر ٢٠٠٢،ومظاهرة برشلونة فـ ي مـ ارس ٢٠٠٢ ومظـ اهرة واشنطن في إبريل ٢٠٠٢، حيث التحمت المظـ اهرة ضـ د العولمـ ـة مـ ـع المظـ ـاهرة المؤيـ ـدة لحقـ ـوق الشـ ـعب الفلسطيني،ولذلك في مظاهرة لندن في مايو ٢٠٠٢ وغيرها من المظاهرات التي تابعت أحداثها في الصحف،مما يؤكد أن الشعوب المقهورة قادرة دائماً على الثورة والمقاومـ ـة ،وأن الأمل النابع من هذه المقاومة والحركة لا يمكـ ن أن ينطفـ ئ وأن الانتصار على الظلم والقهر سوف يتحقـ ق للشـ عوب المناضلة من النساء والجرال والشباب والأطفال.

إن الأمل"قوة" تنتشل البشر من الياس أو الحزن النـ اتج عن عدم الفعل، هذا الأمل هو الشعلة الجديدة التـ ي يحملهـ ا الآلاف من النسـ اء والرجـ ال فـ ي المظـ اهرات العالميـ ـة والمحلية ،وفي التنظيمات السياسـ ية الجديـ دة التـ ي تلغـ ي

الفوارق بين البشر،وتكسر حواجز اللغة والا دين والجـ نس
والجنسية والعمر والعرق واللون والمهنـ ـة وغيره ـا، هـ ذه
الفوارق المصنوعة بين الناس من اجل تقسيمهم حتي يسـ ـهل
التحكم فيهم، حسب المبدأ الاستعماري المعروف:"فرق تسد".

هذا الأمل الجديد هو العمل السياسي المنظم داخل كـ ـل
بلد ،وهذا الوعي المتزايد بضرورة التوحيد بين الشعوب في
مواجهة الحكومات الطاغية في الغرب والشـ ـرق والشـ ـمال
والجنوب، والكشف الدائم عن الترابط بينهم،إنها حركة شعبية
محلية وعالمية في آن واحد تتبئ بعالم جديد يتبدي في الافق.

***

من وحي صحف ٥ يونيو ٢٠٠١

(الذكري الرابعة والثلاثين للهزيمة)

توقفت عيناي على صورتها المنشورة

السيدة الرقيقة ذات العقل والجمال والفضيلة

ترتدي التيجان الثلاثة فوق شعرها المصفوف بعناية فائقة

والمكياج المتقن إلى حد الشفافية

جالسة في وقار مضمومة الركبتين في الصف الأول

بين أصحاب السمو أمراء النفط ورجال الاعمال والعولمة

وهي المرأة الوحيدة بينهم

تحمل لقب الاميرة والعبقرية الفريدة

الحاصلة على كل الجوائز في الشعر والأدب والعلم

ورثت عن أبيها أو زوجها رصيدها في البنك

تتنقل بطائرتها الخاصة مابين الخليج والمحيط

ليس لديها عمل داخل البيت أو خارجه

إلا الاستهلاك والصرف على ادوات الزينة المستوردة
والكحل واليشمك أو الحجاب الشفاف لإثبات الهوية
والخصوصية الثقافية واحترام التراث والقيم
وكل هذا جائز ومشروع
طالما العقل العربي مقموع

ثم قلبت الصفحة إلى صفحة أخري في الجريدة
توقفت عيناي على صورة امرأة في صفحة الحوادث
محكوم على ها بالكفر والفسق والرذيلة
تحمل الاحكام الثلاثة فوق رأسها ثقيلة
أثقل من براميل النفط والهطيئة الأنثوية الأولي
واقفة وراء التخشيبة
بين أصحاب السوابق وجرائم الرأي
والشباب العاطلين بلا عمل ولا أمل
تنتقل من سجن إلى سـ جن مكتوفـ ـة اليـ دين مكتومـ ـة الصوت
يتباري الرجال في قذفها بالحجارة
واصحاب الاقلام المدفوعة الاجر

في الصحف الصفراء والخضراء والزرقاء والحمراء
يأكلون لحمها أو يشاركون في الصمت
ثم يهرولون إلى حيث السلطة تكون
يجلسون في الصفوف الأولي يبربشون
وبالقضايا الوطنية يجعجعون
أو قضايا اخري في الصين واليابان
والدماء أمام عيونهم تسيل
في الشوارع والأزقة والبيوت المهدومة
شباب ونساء وأطفال بلا مأوي يموتون
وهم عن الجعجعة لا يكفون
ضد كل من خالفهم الراي

وفي الصفحة الأخيرة كان الإعلان عن الغسول الأمريكي الجديد منعاً لسقوط الشعر،والحجاب المستورد الأنيق درءاً للفتنة، ثم الإعلان عن تأسيس المؤسسة الكبري للفكر العربي الأصيل برأسمال عشرين مليون دولار.

* * *

أمي المثالية

لماذا غمرني هذا الهدوء الغريب، كالشعور الذي يسبق فقدان الوعي، عند تلقي ضربة مفاجئة على الرأس ، اطفئ النور واتمدد فوق السرير. أغمض عيني وأروح فيما يشد به الغيبوبة. كم مرة في حياتي تخيلت هذه اللحظة حين يصد بح الوهم حقيقة مادية احسها في جسدي وليس فك رة مج ردة يطردها عقلي كأنما لن تحدث أبداً.

بالأمس احتفلت وحدي بعيد ميلادي الخمس ين، ال رقم يرن في اذني غريباً! خمسين؟! لا يصح للم رأة أن تبل غ الخمسين دون أن تك ون ج دة، تزوج ت وأنجب ت أولاداَ واحفاداً، وذهبت إلى الحج لتكفر عن ذنوبها وعادت تحم ل لقب " الحجة".

وأنا لم أتزوج ولم أنجب ولم أذهب إلى الحج،وإن ناداني احد في الشارع " ياحجة" اصحح الخطأ بصوت غاضب" انا مش حاجة" وحين يناديني احد في النادي الرياضي ويقول"يا مادام" أصحح الخطأ بصوت غاضب أيضاً وأقول" أنا م ش مدام". وقد يسألني احد بالصفاقة التي يخاطبون بها النساء في

سن الخمسين، "وماذا تكونين يا مدام؟" وأقول بغضـ ب: أنـ ا أستاذة محامية!

كل شئ في حياتي يبدو غريباً لأني امرأة لـ م يشـ غل حياتها رجل. لم يشغلها الجنس ولا الشهوة ولا الزواج. امرأة عفيفة طاهرة. بلغت الخمسين دون أن يترهل جسـ دها. دون أن تظهر التجاعيد على وجهها وبطنها المشدود. خطوتهـ ا فوق الأرض سريعة نشيطة. عيناهـ ا مملوءتـ ان بـ البريق والسعادة.امرأة بلغت الخمسين تبدو شابة في الثلاثين أو حتي العشرين. لم يكسر قلبها رجل. تحاول من خلال المحاماة أن تحقق العدل. كان لها مكتب في شارع صغير متفـ رع مـ ن ميدان التحرير. تلجأ إليها النساء المكلومات والمضـ روبات والمهجورات والمطلقات والمخدوعات والباحثات عن العدالة. كانت العدالة عمياء بلا عيون مثل كائن يضرب في الظلام.

كنت طفلة في السادسة من عمري حين تزوج أبي أمرأة اخري دون أن تعرف أمي، طلب مني ألا أقـ ول الحقيقـ ة. عودتني أمي على الصدق. قلت لها. أعطاني أبـ ي علقـ ة ساخنة وطلق امي عقاباً لي. أصبحت أعيش معها بلا أهـ ل

ولا معاش.كات امي من أجل ابي قد تركت اهلها وعمله ا. فقدت وظيفتها بالشهادة العليا ولم تستطع العودة إليه ا بعد د الطلاق. اشتغلت امي عاملة نظافة. لم يعد لحملة الش هادات العليا قيمة.

أصبحوا من عمال النظافة وهو مجال غير نظيف ،لكن امي لم يكن يهمها إلا أن تعيش ابنته ا حي اة نظيف ة ، وإن توسخت هي ، لا شئ يبقي من الوسخ بعد الغسيل.

تقدم لامي رجلال يطلبون الزواج منها. رفضد تهم دون أن يطرف لها جفن. كان شرط الزواج أن تتخلي عد ي. لا يطيق الرجل أن يشاركه احد قلب زوجته وإن كاذ ت فل ذة كبدها. أدخلتني امي المدرسة والجامعة. عشنا في حي نظيف تسكنه العائلات حيث يكون الأب هو المسئول عن الإنف اق. تكذب أمي على الناس وتقول أن أبي ينفق على ذ ا ،،اذ ه رجل مستقيم لم يطلقها ولم يتزوج على ها دون أن تع رف، وتقول أمي للناس أنها موظفة في الحكومة، تتقاضي راتبا كل شهر مثل الموظفين. وكانت امي موظفة فعلا لكن تحت كادر العمال الأدني. تشتغل ضد عف الس اعات الت ي يشد تغلها

الموظفون من الكادر المتوسط، وتحصل على نصف ما يحصلون عليه.

في الليل تعود أمي إلى ابيت مهوكة القوي،وتخرج عند الفجر وأنا نائمة في الفراش ، تجهز الطعام فوق المائدة،اللبن الحليب الدافئ في الصبح مع العسل النحل وفطيرة ساخنة في الفرن. اقضمها بأسناني وأبكي كأنما أقضم على جسد أمي المنهوك ، لا أعرف كيف أرد لها الجميل، وهي لا تطلب مني أي رد، تفرح بنجاحي كل سنة كأنه نجاحها،وحين تقدم أحد الاساتذة ليتزوجني اشرق وجهها، قالت تزوجي يا ابنتي واسعدي في حياتك. قلت ، كيف أتزوج يا أمي وأتركت أنت التي رفضت الزواج وعشت من أجلي ، كيف أتركك يا أمي؟ من يرعاك في لليل إن مرضت؟ كم سهرت إلى جواري وأنا مريضة؟ كيف أتركك وحدك وأعيش مع رجل؟ قالت أمي ، ستعيشين احلب يا ابنتي والزواج ويكون لك اسرة، وأنا سوف أوت يوماً ما وتصبحين وحدك وقلت يا أمي أنت شابة في الأربعين وسوف نعيش معاً حتي يأتي رجل غير أناني ويقبل أن تشاركينا الحياة، قالت أمي، يا ابنتي لا يقبل الرجال الاساتذاة أن يعيشوا الحياة مع الزوجة وامها ، فتزوجي يا

ابنتي ولا تفكري في،قلت يا أمي كيف لا افكر فيك وأنت لم يشغلك في حياتك إلا انا؟ أين العدل واين المنطق يـ ـا أمـ ـي؟ قالت يا ابنتي إن الحياة غير منطقية وغير عادلة وإلا ما فعل أبوك ما فعل، وليس هو الرجل الوحيد الـ ـذي يفعـ ـل ذلـ ـك كثيرون من الرجال يا ابنتي يفعلون ذلك و قلت إنه القـ ـانون غير العادل يا أمي وليس الحياة، لهذا سابقي معك وأعـ ـيش من أجلك كما عشت من أجلي ، قالت أمي ، يا ابنتي علـ ـى الأم أن تعطي حياتها لأولادها وبناتها،وليس علـ ـى هـ ـم أن يعطوا حياتهم للأم، قلت يا أمي هذا ظلم لا اقبهل ، لقد امنت بالعدل الذي هو الله ،ولا يمكنان اتخلي عنك من اجل رجل.

كان ذلك وأنا طلبة بكلية الحقوق،وتقـ ـدم لـ ـي أسـ ـاتذة آخرون يرغبون في الزواج، لكن ما أن أذكـ ـر أمـ ـي حتـ ـي يتلاشون. أدركت أن الحب وهم والزواج وهم والاسرة وهم، ولا شئ حقيقي إلا انانية الرجل، عرفت هذه الحقيقة وأنا في السادسة من العمر حين تركني أبي مع أمي وتـ ـزوج امـ ـرأة أخري،فتحت عيني في الصباح فلم أجد أبـ ـي، اختفـ ـي مـ ـن حياتنا كما يختف يالوهم. أدركت في طفولتي أن كل ما يتعلق بالجرال مصنوع من الـ ـوهم ، الـ ـزواج والحـ ـب والاسـ ـرة

والأبوة،وكل شئ من هذه الاشياء ليس إلا خيالا يتبدد في لحظة خاطفة وتجد المرأة نفسها وحيدة ولا شئ يضمن لها الحياة النظيفة إلا عمل غير نظيف.

جاءت أمي ذات ليلة منهوكة القوي يللها العرق والدمع. تم الاستغناء عنها مع عدد من عاملات النظافة. زاد الإنفاق الحكومي على الحفلات وتعليق الزينات في اعياد النصر وسفر الكادر الاعلي إلى الخارج. ولم تعد الميزانية تكفي أجور الكادر الأدني.

لم اكن تخرجت بعد من كلية الحقوق،واصبحنا بلا معاش،وأسمع أمي تبكي وانا نائمة،وفي ليلة تحول بكاؤها إلى صوت غريب أشبه بحيوان جريح، ونهضت من فراشي حافية امشي على اطراف اصابعي، رايتها في الصالة العارية مستلقية تحت جسد غليظ يطأ جسدها المنهوك بعنف غريب كأنما هي ممسحة بلاط وفي الصباح ناولتني الورقة ذات العشرة جنيها لادفع القسط الأخير من مصاريف الكلية.

كانت ورقة مهلهلة غير نظيفة تفوح منها رائحة عرق وتعب وبصمات دم قديم. أخفيتها داخل ورقة نظيفة من كشكول المحاضرات. لم ألمسها بيدي،كأنما في لحظة

التلامس ستنتقل إلى عدوي مرض جلدي ، خبأته ا داخ ل حقيبتي الجلدية بين الكشاكيل ثم تخلصت منها ف ي مكت ب شئون الطلبة. ألقيت بها في يد الموظف المس ئول وس ددت القسط الاخير ، احس بخزي غريب يغمرني ، كالشعور الذي يسبق فقدان الوعي بعد ضربة فوق الـ رأس ،وامش ي ب ين زميلاتي في فناء الكلية منكسة صامتة لا يصدر عني صوت، اقول لنفسي، سأطوي السر في طيات اعماقي العميقة بحيـ ث لا يصل إلى إنس ولا جن. كم مرة فكرت بلحظة كهذه منـ ذ سمعت بكاء أمي في الليل،كنت سأواجه اللحظة حين تـ أتي ، ها هي تأخذني على حين غرة ، كنت واثقة أن امي شريفة اشرف امرأة في العامل. منذ تركنا ابي لم اشعر انها شريفة كما اشعر الان اكتم الصوت في اعماقي الذي يريد أن يهتف ويقول امي اشرف نساء العالمين مثل العذراء مريم، أضغط بيدي على فمي حتي لا يخرج صوتي، زميلاتي مشغولات عني بحكايات عن الحب والرجل والزواج، تشـ ع عيـ ونهن بريق الفرح والأمل ، اكاد أقول لهن إنه الوهم ولا شـ ئ إلا الوهم لكن صوتي محبوس ، انسحب من بينهم وأختفي ف ي دورة المياة، أعود إلى البيت مبكراً والوذ بالصمت ، اعرف

اني سأستيقظ في الليل كما أفعل حين أخفي شيئا يدق قلبـ ي خوفاً من تلك اللحظة ، أنام نـ وم متقطع ـاً مليئ ـاً بـ ـالاحلام المخيفة. استيقظ. أنظر إلى الساعة فوق معصمي، منتصـ ف الليل إلا خمس دقائق.

أتمدد على ظهري واغمض عيني. اسمع صوت بـ وق سيارة في اشراع وفرملة شديدة، واصطدم شيئ؟! أنتقض من الفراش. أتكون هي أمي؟ أمشي حافية إلى غرفتها.سـ ـريرها يخلو منها كأنما راحت ولن تعد. قلبي يغوص في أعمـ ـاقي. السؤال الذي اخفيته يطفو إلى سطح الوعي. إذا كانت أمـ ـي فماذا أفعل؟ أسمع دقات قلبي. امنع نفسي من التفكير. السؤال يلح على . احاول التنفس العميق المنظم. اعد على أصابعي واحد اثنين ثلاثة. كأنما سيحدث شئ قبل أن اصل إلى رقـ ـم عشرة. اسقط في غيبوبة النوم. اسمع الصـ ـوت الغريـ ـب ، أنيني الحيوان الجريح. أنهض من الفراش حافية امشي على أطراف اصابعي. رأيته في الصالة العراية ، إنه أبي بجسده الضخم، عنقه الغليظ من الخلف، شعره الاسود المجعد، راقد فوق فتاة ليست أمي ، يطأ جسدها المنهوك بعنـ ـف غريـ ـب كأنما هي ممسحة بلاط. امسكت السكين من المطبخ ،رفعتـ ـه

إلى أعلي ما استطعي وهويت به على عنق ابي من الخلف، اصحوا من النوم مبللة بالعرق.يداي غير ملوثتين بالدم.ك م مرة رايت هذا الحلم منذ طفولتي. رايته المرة وراء الم رة مائة مرة ألف مرة منذ تركنا ابي.

اختفي تحت الاغطية أرتجف كأنما بالحمي. اسقط ف ي عيبوبة النوم ثم اصحو الساعة الواحدة صباحاً. أتذكر ف يملاً رأيته الشهر الماضي. كان الابن يعيش مع امه. ابوه طل ق امه ليتزوج امرأة أخري. اشتغلت أمه عاملة نظافة لتدفع ل ه مصاريف المدرسة،وطعامه وملابسه وحذاءه الجدي د ب دل القديم المهترئ. رفضت الزواج وعاشت من أجله. تعرضت للهوان لتضمن له الكرامة. تلاشي كل ذلك كأن ل م يك ن. امسك السكين وقتلها حين رآها مع رجل.

اختفي تحت الاغطية ارتجف كأنما ب الحمي. أغم ض عيني وأمنع نفسي من التفكير. أعد على أص ابعي واح د اثنين ثلاثة. كانما سيحدث شئ قب ل أن أص ل إل ى رق م عشرة.كانما سيتفكك عقلي إلى ذراتمبعثرة ف وق الوس ادة.

كأنما السكين في يد الأبن يقطع جسدي أنا. بقع دم أراها في الفراش. هل اقترفت الجريمةوانا نائمة؟

أسناني تصطك ودقات قلبي تتصاعد. لا اعرف الحلم من الحقيقة. لا أعرف هل انا القاتلة ام المقتولة. انشج بلا صوت في صمت الليل. لا اريد العطف من احد أو الاشفاق. لا اريد الإدانة ولا أريد البراءة. ولا الاحترام ولا الاحتقار، لا احد يستطيع مساعدتي في محنتي. لا احد يقتسم الألم في جسدي.

أسمع صوت المفتاح يدور بالباب. أرهف السمع لوقع القدمين الحافيتين على بلاط الصالة. هل خلعت أمي حذاءها لتذوب في الصمت؟ أخفي راسي تحت الغطاء انا الآن في الوضع الذي كان فيه الأبن. أسمع الأنين المكتوم في صدر الحيوان الجريح،واصطدم الجسدين بالارض. لا أكاد أميز صوت الرجل من صوت أمي. ألغي عقلي المصنوع بكلام الناس. احاول الغاء اللحظة الراهنة واستبدالها بلحظة اخري زال عنها العار. كلمة العار تخرق أذني كالسيخ المحمي في النار.

الألم! الألم يسري في عقلي ، يفككه يعيد تفكيكه، يصبح عقلاً آخر، اكثر صفاء،عقلا مولوداً نظيفاَ، أغفو عند الفجـ ر ثم استيقظ.ضوء الشمس يبدد الظلمة. اسـ مع صـ وت أمـ ي يناديني لأشرب حليب الصبح. اليوم أول الربيع،وعيد الأم،انا الأن عند لحظة الحقيقة، اقوم إلى الحمام. أنظر في المـ رآة. تطالعني العينان المليئتان بضوء الشمس

***

هنالك رجل

- هنالك رجل تتهافت على ه النساء.
- يكتب كل يوم في الجريدة الكبري عمود.
- يحمل لقب الكاتب الكبير أو المفكر أو خلافه.
- تظهر صورته داخل البرواز يبتسم أو يكشر
- بالوجه أو بالبروفيل.
- يبلغ الهاوية بعد الهاوية حين يعلو.
- يقتل فينا الضحية ويكافئ الجاني.
- يمشي وراء الأباطرة مثل النعامة.
- أو الحمل الوديع.
- يحفر في التاريخ اسمه واسم ابيه وجده.
- قال لي يوماً احبك.
- قلت له اظهر ما عندك.
- ولم يكن عند شئ
- إلا ذلك الذي بين الفخذين.

القاهرة ١٩٧٥

***

نصف رجل

- صديقتي زوجة لرجل له زوجان.
- يقسم حياته بينهما بالعدل والقسطاس.
- نصف لصديقتي والنصف الآخر للمرآة الأخرى.
- وجاءني رجل متزوج وقا لي أحبك.
- قلت ماذا تريد؟
- قال زوجة شرعية على سنة الله والرسول.
- قلت أنا امرأة كاملة ولا اقبل نصف رجل.
- امتقع لونه واتهمني بالكفر.
- صوب مسدسه نحو رأسي قائلاً
- الموت لمن لا تعرف الله.
- صوبت مسدسي نحو رأسه وقلت
- الموت لأنصاف الرجال.
- هكذا تراجع وعاد إلى زوجته.

القاهرة ١٩٦٣

***

الذين رأوا اللّه

- قال احد الحكام إنه راي الله.
- رد على ه احد منافسية قائلا:
- أنا رأيت الله قبل أن تراه انت.
- رد اخر ينافسهم الحكم:
- بل انا الذي رأيته قبلكم.
- أمسكوا بتلابيب بعضهم البعض.
- كل منهم يصرخ أنا رأيت الله قبل هذا المدعي.
- قلت كلهم يدعون رؤية الله وما رآه احد.
- قالوا ألم ير الله احد؟
- قلت بل أنا رأيته في طفولتي وأمي رأت ـه ف ـي ش بابها وجدتي رأته في كهولتها.
- قالوا كلامك كفر فالله لا يظهر للنساء.

القاهرة ١٩٧٧

* * *

مكافأة الجاني وعقاب الضحية مرتين

- كان يشتهي فتاة صعبة المنال.
- لها عقل في رأسها تعتز به أكثر
- من أي شئ في جسدها.
- تعقبها حين خرجت من باب المدرسة
- وخطفها مع ثلاثة آخرين.
- في منزل مهجور اغتصبوها واحد وراء الآخر.
- ثم ألقوها في الطريق.
- أصدرت المحكمة قراراً بإعدامهم الثلاثة.
- إلا أن واحداً منهم تقدم للزواج منها.
- هكذا عوقبت الضحية مرتين وكوفئ الجاني.
- وأطلق سراح الثلاثة دون كفالة.
- حسب المادة ٢٩١ من القانون الحالي.

القاهرة ١٩٩٨

***

المحرم

- كان مثل الأزواج سريع الغضب.
- يقذف في وجه زوجته يمين الطلاق بلا سبب.
- ألو لأن رئيسه في العمل شخط فيه.
- يصرخ بأعلي صوته طالق طالق طالق.
- تصبح زوجته طالقاً بحسب القانون.
- ثم يعيدها إليه حين يروق مزاجه.
- أو حين يبتسم الرئيس في وجهه.
- وفي مرة اراد اعادتها فوقف المشرع ضده.
- لا يا اخ لا يمكن إعادتها اليك دون محرم عقاباً لك على سرعة الغضب.
- سألت المرأة لماذا أنام مع رجل آخر لا أريده؟
- هذا عقاب لي وليس لزوجي.
- فأنا التي ستنام معه وليس زوجي.
- إلا أن المشرع لم يكن يسمع ما تقوله المرأة.

القاهرة ١٩٧٦

***

امرأة مختلفة

- أنا امرأة كاملة الأنوثة.
- لا أخضع لقانون الطاعة.
- لا انتف حاجبي.
- لا اتكحل ولا اتأرجح.
- فوق كعبي.
- كلمتي شرف لا أخون العهد.
- إستقبل أول شعاع في الصبح.
- أشرب فنجان قهوتي.
- وأكتب قصيدتي.
- ثم أمشي في المدينة قبل غروب الشمس.
- أحمل شمعتي.
- أبحث عن شخص واحد يصون الوعد.
- يأتي في موعده ولا يتأخر.
- ولا يتخلف مثل بقية الناس.
- لا يقف مكتوف اليدين.
- ولا يطأطئ الراس.
- أمام الرئيس.

القاهرة ١٩٨٣

لصوص الشرف

- لصوص الشرف رجال لا حديث لهم
- إلا عن الشرف.
- يمارسون الجنس داخل الزواج وخارجه.
- ويدعون الشرف.
- يخونون زوجاتهم مع زوجات أخري.
- وعشيقات وجواري سوداوات وخادمات.
- وأجنبيات بيضاوات وسكرتيرات.
- ثم يدعون الشرف والولاء
- لله والوطن.
- ولا احد يعاقبهم
- لأن القانون معهم
- والشرع والدستور.

القاهرة١٩٩٠

***

تحت عيون الجميع

- كان لي طفلة اسمها شجاعة.
- تركتها مريضة في بغداد.
- ترتجف في برد الشتاء.
- بلا غذاء ولا دواء ولا غطاء.
- فتحت الصحف بالأمس.
- رأيت الأمريكي المريض بالجنس.
- يتهمها بعدم الطاعة.
- لقانون الشرعية الدولية وقرارات الامم المتحدة.
- وملجس الامن ولجنة التفتيش.
- ضربها بصاروخ كروز
- تحت عيون الجميع.
- يتابعون المشهد بقلق.
- حكامنا العرب.
- يتقابلون في السر مع القوي العظمي.
- ويأخذون المعونات.
- كالشحاذين.

- وأنا مربوطة في سريري بالقيود.
- منزوعة السلاح مكتومة الصوت.
- وطلفتيي شجاعة تموت.
- تحت عيون الجميع.

القاهرة ١٩٩١

* * *

حكام العرب

- أشعر بالخزي حين أراهم جالسين مؤدبين.
- أمام رؤسائهم خارج الوطن.
- كالبنات العذراوات يبتسمون في حياء وخفر.
- يسمعون الكلام يطيعون لا يرفعون الصوت
- إن تكلموا.
- لا يرفعون الساق إن جلسوا.
- وإن وقفوا يضعون أيديهم معقودة فوق قلوبهم.
- وإن عادوا إلى الوطن تنمروا.
- يرفعون عقيرتهم من خلال الأبواب ومكبرات الصوت.
- يجلسون متغطرسين واضعين الساق فوق الساق.
- يكاد كعب حذائهم أن يخرق عين الجالس.
- عن يمينهم أو عنيسارهم.
- يحمل الواحد منهم لقب خادم الشعب.
- وهو ليس إلا
- جلاد الشعب.

القاهرة ١٩٩٣

حكام العرب مرة أخري

- رجال في أبهي الثياب لا يجمعهم احد
- إلا الرئيس الأمريكي.
- يحرضهم بعضهم على بعض.
- يدخلون الحرب معه ضد بعضهم البعض.
- وضد شعوبهم.
- تحت اسم الشرعية الدولية أو الديموقراطية.
- يدفع لهم لإسقاط بعضهم البعض.
- يورطهم في خطته تحت وهم المعونة.
- يتنافسون لإرضائه وتجويع بلادهم.
- وترويع رجالهم ونسائهم.
- يندمون بعد فوات الأوان.
- يعقدون اجتماعاً تحت اسم
- القمة العربية.
- ثم يذهبون من حيث أتوا.
- وتتكرر القصة.

القاهرة ١٩٩٩

***

قالوا لنا إنك عورة

- امنا التي ولدتنيا وأطعمتينا ودفعت حياتك
- بال مقابل كي نعيش.
- كوني رحيمة بنا لأننا تخلينا عنك.
- لأننا ضعفنا أمام سلطة أبوية لا ترحم.
- وسلطة الدولة الأكثر قسوة.
- ورجال العائلة الواحد بعد الآخر.
- طمسوا جميعاً اسمك من ذاكرتنا.
- أرادو أن ننساكي إلى الأبد.
- ولا نفخر بك.
- ولا يشرفنا أن نحمل اسمك.
- قالوا لنا أنك عورة.
- يجب أن تختفي عن الأعين.
- وحرمة يجب ألا يكون لها صوت.
- لقد ضاق هذا الكون الواسع بوجودك يا أمنا.
- مع انك اصل الوجود.
- خذينا إلى حضنك الدافئ الحنون.

- إلي أول قطرة دماء وأول قضمة خبز.
- إلي كلمتك الأولي عن الحب والعدل.
- بعدها أصبحت الكلمات خنـ ـاجر تعتالنـ ـا الواحـ ـد وراء الآخر.

القاهرة ١٩٨٤

***

الإثم المعلق في التاريخ

- في شهادة ميلادي كتبت أمي اسمي
- حواء.
- قال لأن كل شئ حي يخرج من حواء،
- لأن الفضيلة والشرف والخير يخرج من حواء.
- لأن حواء هي الأولي التي ذاقت طعم المعرفة.
- ولأن زوجها آدم تخلف عنها.
- ولم يذق من المعرفة شيئاً إلا بعدها.
- وبعد أن ألحت على ه وشجعته.
- لولا حواء ما جاءت الإنسانية.
- وما جاءت المعرفة.
- لماذا إذن تلقي آدم من ربة كلمات فتاب على ه.
- بالمفرد وليس بالمثلي ليشمل حواء معه؟!

القاهرة ١٩٩١

***

من وحي قرار شيخ الأزهر

" عمليات إعادة العذرية شرعية"

لن أعيد بكارتي:

- في طفولتي فقدت بكارتي.
- في الحقيقة وفي الحلم فقدتها.
- ومن ذاكرتي خلعتها.
- بدأت أبتسم لإشراقة الشمس كل صبح.
- أكتب قصيدتي وأنشرها على الناس.
- أعزف لحني كما تعزف الطيور ألحانها.
- إلا أنهم جاءوا وسألوا:
- أين بكارتك؟
- قلت فقدتها في الطفولة.
- قالوا سنعيدها إليك بمشرط الجراح.
- قلت لن اعيدها ايها السادة.
- حرية اعادة بكارتكم.

القاهرة ١٩٩٩

ابنة ايزيس المصرية

- أنا امرأة ولدتني امي وتركتني طفلة.
- تحت سيطرة الدولة.
- وكان لي أب شديد العداء الملك والإنجليز.
- كان له أصدقاء وزملاء شباب يهتفون.
- ضد النظام.
- تعلمت كل كلام ضد النظام.
- أصبح لي سجن بدون نافذة.
- وبين داخله رجل يشبه السجان.
- ولي حلم خطفه النسر.
- ولي عقلي الخاص ونجمة في السماء.
- هي نجمتي.
- وشجرة أعانقها في فناء السجن.
- وتعلمت أن أكسر القاعدة والمألوف.
- وأخرج عن النص والموروث.
- فإنا امرأة من مصر.

القاهرة ١٩٨٨

جدتي

- كانت لي جدة في طفولتي.
- تحكي لي أول قصص الحب.
- تفتح الباب عند الفجر وتخرج إلى الحقل.
- تستقبل الندي على وجهها المكشوف.
- تزرع وتروي وتعود تحمل المحصول.
- أشم في جلبابها رائحة نوارات القطن.
- وزهر البرتقال والتين والتوت.
- عند الشروق تتصاعد رائحة خبزها.
- وعند الغروب تملأ صحني بمرق الدجاج.
- أدفن راسي في صدرها وأنام.
- لا أخشي الغزاة ولا أخشي الطغاة.
- وأدوس بقدمي على صورة الملك.
- وأهتف ضد الإنجليز.

القاهرة ١٩٩٢

***

أمي

- من وضع العداوة بين وبينك؟
- من جعلني أمد بصري إلى السماء
- فلا أراك؟
- وأمد بصري إلى التاريخ
- فلا أجدك؟
- وأمد بصري إلى الدنيا والدين والدولة
- فلا أعثر على اسمك؟
- لماذا يشطبون على اسمك يا أمي؟
- وإن قلت انا ابنتك يغضبون ويقولون:
- أنت ابنة أبيك تحملين اسمه من المهد إلى اللحد.
- وإن طلق أمك فهو ولي أمرك.
- فالمرأة لا ولاية لها.
- وإن حملت لقب الوزير أو الرئيس.

القاهرة ١٩٩٧

***

عن الذاكرة الجمعية المفقودة

١- مطلوب تظافر الجهود والنقد أيضاً:

قرأت في الأيام الأخيرة عدداً من المقالات بأقلام كبيرة في صحف الحكومة وغير الحكومة ، تكشف عن الخلل الكبير في العلاقات المصرية الأمريكية ، وحجم خسارة مصر الاقتصادية بسبب هذه العلاقة ، أو ما سميت الصداقة أو العلاقة الخاصة بأمريكا ، ثم الاعتراف في الصحف الحكومية أخيراً أن ما سميت المعونة الأمريكية لم تكن إلا ستاراً يتسلل تحته الاستعمار الجديد، بأشكاله المختلفة (ومنها العولمة).اخيراً نشرت الأرقام الحقيقية للخسارة الاقتصادية التي تكبدتها مصر خلال ربع قرن الماضي منذ عام ١٩٧٥ وبداية ما سمي بالانفتاح في عهد السادات.

كان معروفاً على الستوي الشعبي المصري ،وعلى مستوي المعارضة السياسية أن هذه العلاقة مع أمريكا سوف تؤدي إلى تدمير الإنتاج المحلي المصري ، المادي الاقتصادي والثقافي والفني على حسد سواء،وسوف تغرق

السوق المصرية السلع الأمريكية الباهظة الأثمان والرديئ ة، بل والضارة صحيا ،أذكر انني نشرت في اح دي صد حف المعارضة في صيف عام١٩٨١ مقالاً أشرت فيه إل ى أن التسمم الغذائي للشعب المصري يحدث تح ت اس م الأم ن الغذائي ،وان تسليح إسرائيل يتم تحت إسم معاهدة السلام، إن حمائم السلام التي يخطب عنه ا الس ادات تتخف ي تحته ا الطائرات الحربية والسلاح الأمريكي الجديد الذي يشحن إلى إسرائيل بما في ذلك السلاح النووي وان الاستبداد والعن ف السياسي والديني يتخفي تحت اس م الديمقراطي ة وتع دد الاحزاب.

نشر هذا المقال في جريدة الشعب التي كانت تصدر عام ١٩٨١ عن حزب العمل الاشتراكي (والتي تغيرت فيها بع د وسيطر على ها التيار الديني المحافظ) أذكر أن هذا المق ال ومقالات اخري في تلك الفترة ، ادخلتني سجن السادات ف ي سبتمبر ١٩٨١ ،وأذكر أن المدعي الاشتراكي حقق معي في هذا المقال باعتباره مقال يضر المصالح العليا للبلاد،وانن ي أتآمر لقلب نظام الحكم مع دولة أجنبية هي بلغاريا.

بعد اغتيال السادات بشهرين سقطت هذه التهمة عني وخرجت من السجن مع اكثرمن الف معارض مصري سجنوا جميعاً لمجرد كشفهم للخسارة الاقتصادية أو الثقافية أو العسكرية التي سوف تتكبدها مصر من جراء تلك العلاقات المصرية الأمريكية.

وقالوا لنا لا داعي لنقد ماضي في عهد السادات،والمطلوب تضافر الجهود من أجل مصر. وقتل وقال غيري إن نقد الماضي ضروري حتي لا تتكرر الاخطاء ،وحتي يتصحح المسار، تلافياً للخسارة في المستقبل ،وان هذا النقد للماضي جزءاً لا يتجزأ من العمل على تضافر الجهود ،والوحدة الوطنية مع الجدل والحوار واحترام الآراء المخالفة للسلطة الحاكمة.

لكن هذا لم يحدث، استمرت الأحوال كما كانت، والتف حول السلطة الحاكمة هؤلاء الذين أيدوا السادات في كل خطواته دون نقد، إنه الداء الذي ينخر في النخبة المثقفة في بلادنا ، داء تأييد الحاكم في حياته والخوف من نقده، وإلا ضاعت الميزات والمناصب العليا وجوائز الدولة.

التقيت بالأمس بأحد القيادات الفكرية في بلادنا الي وم، وكان من أكبر المؤيدين للملك فاروق ، ثم أصبح من أكب ر المؤيدين لجمال عبد الناصر. ثم السادات ،ثم مب ارك،ولان الناس في مصر تفقد الذاكرة فإن هذا المثقف يحم ل لق ب المفكر الكبير.

وأنا مع هؤلاء الذي يدعون إلى التسامح وتضافر القوي على اختلافها، لكني لست مع استمرار عمليات النفاق ف ي كل عهد، وإخفاء الحقائق الهامة في كل عهد ح ت يف وت الوقت وتضيع فرص الإصلاح الحقيقي.

كما أنني ضد تلميع المنافقين في كل عه د ،وتهم يش هؤلاء الذين يزهدون في المناصب والمزايا والج وائز م ن أجل كلمة حق واحدة.وهؤلاء الناس في بلادن ا كثي رون إلا انهم يتوارون بعيداً عن السلطة والأضواء بحكم الثق ة ف ي النفس والكرامة والتعفف عن المكاسب.

أكثر ما أدهشني في هذه الايام الاخيرة التي تأزمت فيها العلاقات المصرية الأمريكي ة بس بب التعن ت الأمريك ي والإسرائيلي الواضح في مفاوضات كامب ديفيد الثاني ة. إن هذا التعنت معروف وواضح منذ أكثر من ثلاثين عامًا. ول م

نكن في حاجة إلى كامب ديفيد أخري لنعرف أن العلاق ات المصرية الاسرائيلية (منذ كامب ديفيد الأول ي) ل م يك ن نتيجتها إلا الخسارة الفادحة لمصر، ليس في مجال الاقتصاد فحسب،ولكن أيض اً ف ي السياس ة وف ي الثقاف ة وف ي الاعلام ،وفي الأمن القومي والتسلح العسكري ف ي الش رق الأوسط. لقد اصبحت إسرائيل هي القوة النووية العظمي في المنطقة ، إنها تتفاوض معنا من منطلق القوة،ولهـ ذا يضـ يع الحق على الدوام، وتزيد التنازلات عل ى ال دوام ،حت ي أصبحت كلمة الوحدة العربية كأنما هي عي ب أو ع ورة لا يصح النطق بها.

أن حجم الخسارة الاقتصادية أصبح منشوراً في صحف الحكومة مثل الأهرام ،بفضل الأزمة الاخيرة في العلاق ات المصرية الأمريكية ، عرف الش عب المص ري الي وم أن المعونة الأمريكية لمصر كانت خدع ة لاس تغلال مص ر اقتصادياً، كانت المعونة لصالح اقتصاد امريكا على حساب مصر، مثال واحد: اصبح الكعج ز العتج اري المص ري لصالح امريك اً ٧٥% م ن التج ارة ب ين البل دين من ذ ١٩٧٤ ،وحققت أمريكاً أرباحاً وفائضاً تجارياً بلغ أكثر م ن

٤٤مليار دولار ، تكاد تبلغ ضعف المعونة الأمريكية لمصر خلال هذه المدة ذاتها.

وقد صاحب هذا الخلل الاقتصادي الكبير بـ ين البلـ دين خلل في المجالات الحيوية الأخرى ومنها الأمن القومي فـ ي مواجهة إسرائيل. لم توقع اسرائيل علـ ى معاهـ دة حظـ ر انتشار الاسلحة النووية على حين وقعت مصر على عـ دد من هذه المعاهدات(تحت الضغط الأمريكي) منها المعاهدة في ٢٦ فبراير ١٩٨١ ،والمعاهـ دة فـ ي ١٤ أكتـ وبر ١٩٩٦ ، والمعاهدة في ١٠ إبريل ١٩٧٢ ،وقد سارت عدد من الـ بلاد العربيـ ـة والأفريقيـ ـة وراء مصـ ـر ووقعـ ـت مثـ ـل هـ ـذه المعاهدات،اصحبت بلادنا العربية والأفريقية محظور على ها القوة النووية حتي في الأغراض العلميـ ـة والسـ لمية، أمـ ـا إسرائيل فقد انطلقت في تطورها النووي العسـ كري حتـ ي امتلكت طرازاً جديداً من صـ واريخ جيرك و تـ م تحميلهـ ـا برؤوس نووية أخطر،وإلي جانب البرنامد الإسرائيلي العلني أرو مع أمريكا، أصبح لإسرائيل ترسـ ـانة نوويـ ـة متعـ ددة الاذرع، يمكن لذراع اسرائيل أن يطوي أي بلد في المنطقـ ـة تعصي أمرها.

وفي المجال الثقافي والفني هل يمكن لاحد أن يحسب خسارة مصر منذ بداية العلاقات المصرية الأمريكية عام ١٩٧٤ وحتي اليوم؟

ويتساءل احد النخبة المثقفة في صحيفة حكومية كبيرة عنسبب تدهور الاقلام المصرية وهتو بالطبع لا يربط بين ركود الثقافة في بلادنا وركود الاقتصاد،وكان أحد المدافعين منذ ١٩٧٥ عن العلاقات المصرية الأمريكية وعن الانفتاح الساداتي ، ثم به يسبق الأخرىن في الأزمة الأخيرة للتنديد بالعلاقات المصرية الأمريكية،وكيف غزت الأقلام الرديئة السوق المصرية، حتي الأقلام المنتجة في مصر أصبحت مثل الأقلام الأمريكية المنحطة القائمة على الجنس والجريمة والإضحاك الرخيص السطحي القائم على النكت السوقية،والخالي من أي موضوع اجتماعي مفيد.

بل إن مشكلة تزايد الفقر والبطالة هي النتيجة المنطقية للسياسة الاقتصادية منذ ١٩٧٤ فقد اصبح الجميع يكتبون عنها دون إرجاعها لأسبابها الحقيقية،وكأنما تزايد الفقر والبطالة ظاهرة منفصلة في التاريخ عن أسبابها في الماضي.

كأنما هذا الماضي مقدس ،ولا يجوز لأحد أن يذكره أو ينقده لأنه ينقد شخصية مقدسة عند البعض.السادات مـ ثلا أو بعض اعوانه الكبار الذي يمتلكون كثيراً من النف وذ حتـ ي اليوم.

لكن النقد ضروري للماضي. لان الحاضر بيني علـ ى الماضي،والمستقبل بيني على الحاضر ولا يمكـ ن الفصـ ل بينها الثلاثة. إن النقد لا يعني الانشـ قاق والحـ رب اوعـ دم التضامن من انقاذ بلادنا من الركود الاقتصـ ادي والثقـ افي والفكري ومن الخضوع للشروط الأمريكيـ ة والإسـ رائيلية المجحفة.

إن الوحدة الوطنية مطلوبة. لكن النقـ د البنـ اء أيضـ ا مطلوب. ولابد أيضاً من كشف المنافقين في كل عهد حتي لا تتكر الاخطاء وندور في تلك الحلقة المفرغة،ولا تكاد تعرف من المسئول عن هذا الخطأ أو ذاك ويختلك الحابل كما هـ و حالنا اليوم.

٢-عن تاريخ الفدائيين عام ١٩٥٢:

دهشت حين قرأت مقال سعد زغلول فؤاد في جريدة الأهرام ١٢ أغسطس ٢٠٠٠ ص ١٠ ، تحت عنوان: سراج الدين والكفاح الشعبي المسلح،فهو يسوق لنا معلومات مغلوطة عن العمل الفدائي ضد الإنجليز في التل الكبير ومدن القنال قبل حريق القاهرة ٢٦ يناير ١٩٥٢ ،ولأنني عشت هذه الفترة وعاصرت كتائب الطلبة الفدائيين في كلية الطب خلال ١٩٥١، ١٩٥٢،وانعكست مأساة الفدائيين على حياتي الشخصية ، إذ إن زوج الأول الدكتور أحمد حلمي،والذي كان زميلاً لي في كلية الطب، قد تطوع في كتائب الفدائيين،وسافر إلى الحرب في القنال في تلك الفترة التي شجعت فيها حكومة الوفد الشباب على الكفاح المسلح ضد الإنجليز في منطقة القنال،لقد قتل من الفدائيين في هذه الحرب أكثر من مائتي فدائي(كما ذكرت التقارير التي نشرت عام ١٩٨١ ، بعد ثلاثين عاماً من الأحداث)ومن هؤلاء زميلي في كلية الطب أحمد المنيسي وفدائي آخر اسمه عباس الأعسر وآخرين.

لقد مات الدكتور أحمد حلمي ليس في الحرب أو أثنـاء المعارك التي نجا منها بأعجوبة،وإنما مات احمد حلمي نفسياً (قبل أن يموت جسدياً) بسبب تخلي الحكومة المصرية عـن الفدائيين في القنال بعد حريق القـاهرة، أصـبح الفـدائيون يواجهون الجيش البريطاني وحدهم،وكان من الممكن سحقهم جميعاً لولا قدرتهم النضالية بأقل الأسلحة ،ولولا حماية أهل القنال لهم وتدعيمهم بالمؤن والسلاح.

من هنا ندرك أن مقال سعد زغلول فؤاد في الاهرام لم يقل الحقيقة ، لانه أغفل ما حدث فـي الواقـع، ربمـا اراد بالمقال ان يرفع فؤاد سراج الدين إلى البطل الوطني العظيم بمناسبة وفاته ،وكما هي عادة المصريين من تقديس الموتي، وذكر محاسنهم فقط ولا احد ينكر أن حكومة الوفـد ومنهـا سراج الدين كان لها مواقف وطنية مهمة في تلك الفترة بعـد الغاء معاهدة ١٩٣٦ ،ولكن لا يمكن أيضا أن ننكـر تعـاون حكومة الوفد مع السراي والإنجليز ضـد مصـالح الشـعب المصري، وتخاذلها بل وضربها العمل الفدائي الـذي كـان تشجعه، هذا التناقض معروف عند جميع الحكومات،ولـيس حكومات الوفد فقط.

لكن ما حدث للفدائيين في القنال في شتاء ١٩٥٢ ك ان خطيراً،ولم يحاول أحد أن يراجع التاريخ بحيث نعرف م ن المسئولين عن مأساة العمل الفدائي واختفاء أسماء المق اتلين الحقيقيين الذين قتلوا جسدياً أو نفيساً ،واندثرت أسماؤهم ف ي التاريخ. على حين برزت أسماء أخري أصبحوا هم أبط ال العمل الفدائي. ومنهم وزير الداخلية فؤاد سراج الدين وأسماء أخري كبيرة في السلطة شملت أنور السادات ووجيه أباظ ة وايضا بعض ضباط البوليس السياسي الذين ارسلتهم الحكومة ليكونوا ضمن الفدائيين كعيون للحكومة.

هناك حقائق كثيرة غابت في مقال سعد زغلول فؤاد في الاهرام ، يستمد سعد زغلول فؤاد سلطة لأنه صد حفي ف ي الاهرام يمكن أن ينشر شئ ويغير في التاريخ كما يشاء دون أن يرد على ه احد دن أن يرد على ه احد فهذ اك حصد انة للصحفي في الاهرام ،وقد رفض المحرر في الاهرام نش ر ثلاث مقالات لي ارد فيها على بعض الكتاب المعينين ف ي الاهرام ومنهم رئيس التحرير.

المسألة إذن هي القوة وليس الح ق ،وه ي الاس تبداد بالرأي وليس الديموقراطية،والغري ب أيض ا أن الص حف

الأخرى تمتنع عن نشر هذه المقالات تحت اسم عدم الوقوع في مشاكل مع جريدة كبيرة ولها سلطة ضخمة مثل جريـ دة الأهرام، فإين إذن يمكـ ن نشـ ر الآراء المخالفـ ة لهـ ؤلاء المحصنين داخل السلطة الصحفية في بلادنا.

القاهرة اكتوبر ٢٠٠٠

***

١-تحت اسم التنمية

نشرت الصحف المصرية الحكومية المعارضة الشرعية هذا الخبر يوم الاربعاء ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٢:

صدر تقرير عن اللجنة النقابية للحقوق والحريات إلـ ى تزايد عدد العمال الذين تم تسريحهم من القطاع العام منذ عام ١٩٩٥ حتي وصل إلى نصف مليون عامل. بالاضافة إلـ ى عمال اقطاع الخاص الذين تم تشـ ريدهم بسـ ـبب الاغـ ـلاق والإفلاس وهروب رجال الاعمال للخارج.

تم إغلاق مئات المصانع وتصفية مئات الشركات العامة ونسيج ومحالج، تزيد عن ٣٠٠ شركة منذ عام ١٩٩٥ تزداد الأزمة الاقتصـ ـادية مـ ـع ازديـ ـاد الهـ ـوة بـ ـين الاثريـ ـاء، والفقراء ،وتزايد البطالة والمخدرات بين الشباب والشابات.

أصحبت الصحافة المصـ ـرية الحكوميـ ـة والمعارضـ ـة الشرعية مثل الصحافة الأمريكية تكشف عن الفساد اليـ ـومي لرجال الإعمال وهروب الاموال وانهيار الشركات تحت اسم الديمقراطية. مجر كلام على الورق ينفس عـ ـن الغضـ ـب

الشعبي ويستمر الحال على ما هو عليه بل يزيد التدهور والفساد يوماً وراء يوم.

***

٢-تحت اسم التنمية

- تحت اسم التنمية والإصلاح الاقتصادي
- يزيد الفقر والبطالة والحروب
- وتحجيب النساء والعقول
- وأنا امرأة من الجنوب
- بشرتي سمراء محروقة بالشمس
- لا انتي إلى اللون الصحيح
- ولا الجنس الصحيح
- ولا الجنسية الصحيحة
- أنا من الجنوب حيث تتم الإبادة الجماعية
- لأرواح لا تنتمي إلى البشر
- نساء وأطفال وشباب ورجال
- يموتون بالجملة
- بقنابل اللزر وصواريخ توماهوك
- واسلحة جديدة تحت الاختبار
- نحن فئران التجارب للبحوث البيولوجية
- لفيروس الإيدز وآلة القتل الدولية
- والبنك الدولي وصندوق النقد

- ندفع دماءنا ومواردنا
- رخيصة للقوي الحاكمة داخلياً وخارجياً
- تحت اسم برامج التنمية وتحديث الاقتصاد
- نموت في الحرب وفي السلام
- كما نموت بالايدز والجوع

حجاب العقل

طلعت على نا الصحف الحكومية صباح يوم الخمـ يس ٢٨نوفمبر ٢٠٠٢بعناوين ضخمة تزيد من كثاف ـة حجـ ـاب العقل، وأنقل بعض عناوين الصفحة الأولي:

البنك الدولي يساعد مصر في تنفيـ ـذ بـ ـرامج التنميـ ـة وتحديث اقتصادها.

الوضع الاقتصادي المصري يتحسن باستمرار.

المعونات الأمريكية لمصر تحقق فائدة مشتركة وليست ورقة ضغط.

الولايات المتحدة الأمريكية ترغب في تحسين صورتها في العالمين العربي والإسلامي من خلال منع المعونات.

امام مصر فرصة عظيمة لتحقيق مصلحتها من خـ ـلال هذه المعونات.

–القروض الاجنبية لا تزيـ ـد عـ ـن ١,٢ مليـ ـار دولار سنوياً.

مصر تطلب فترات سماح وآجال طويلة وفائدة بسـ ـيطة حتي تستطيع أن تسترد الديون المتزايدة.

***

طائرات حربية أمريكية تحرتك إلى العراق.

أربع حاملات طائرات امريكية تحركت إلـ ـى الشـ ـرق الأوسط واحتلت مواقعها لتضرب العـ ـراق فـ ـي منتصـ ـف ديسمبر المقبل.

وفي نيويورك أعرب كوفي عنان الأمين العـ ـام للأمـ ـم المتحدة عن ارتياحه لاستئناف مهمة المفتيشين فـ ـي العـ ـراق وقال إن عمليات تفتيش المواقع العراقية شهدت بداية طيبة.

***

السادات مظلوماً:

في ديسمبر ١٩٧٩ توجه ابراهيم نافع إلى بيت السادات في الجيزة لأول مرة بعد تعيينه رئيسـ ـا لتحريـ ـر الاهـ ـرام المصرية،وسوف ينشر سلسلة من المقالات تحـ ـت عنـ ـوان " السادات مظلوماً".

وفي مقاله الأول الصادر بجريـ ـدة الاهـ ـرام فـ ـي ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٢ الصفحة الاولي يقول عـ ـن مذبحـ ـة سـ ـبتمبر ١٩٨١ حين اصدر السادات قراراب اعتقال ١٥٣٦ شخصـ ـا

في يوم، (كنت واحد منهم) بتهمة التأمر مع جه ات أجنبي ة والخيانة الوطنية:

يكتب إبراهيم نافع:

" السادات كان إنسانا محبا للخير... لا يشعر ب المرارة تجاه احد،وحين يغضب يعبر عن غضبه بعنف وحدة،ويخرج كل ما في صدره من أبخرة مكتومة ،وكان ت ذروة غض به بسبب توحش الجماعات المتطرفة في اواخر عهده، انفلاتها وتهديدها الأمن والسلام الاجتماعي والوح دة الوطني ة... وتأثيرها السلبي في عملية السلام(كامب ديفيد)... ولهذا ف لا مفر من أن يتصدي لهذه الجماعات بقوة... ويحتجز قياداتها (في السجون)... غير أن أيدي اخري تدخلت... وأض افت إلى (قوائم المسجونين) اشخاصا آخرين...ل م يكون وا ف ي حساب السادات(حين أعد القوائم)...وق ال ل ي الس ادات بالحرف الواحد:"هؤلاء الاشخاص ال ذين أض يفوا للق وائم سيفرج عنهم فور استكمال الانسحاب الاسرائيلي من س يناء في فبراير التالي...".

والسؤال الآن: ما هذه الايدي الأخـ رى الخفيـ ـة التـ ـي اضافت اسمي آخرين لم يكونوا في حسبان السادات ولم ترد أسماؤهم في القوائم الاصلية؟

أذكر أن ضابط المباحث قال لي وانا سـ جينة بزنزانـ ـة الشحاذات بسجن النساء بالقناطر الخيريـ ـة خـ ـلال سـ بتمبر ١٩٨١:"والله العظيم يا دكتورة نوال ، اقسم لك أن اسمك لـ ـم يكن موجوداً في القـ ـوائم الأصـ ـلية التـ ـي عرضـ ـت علـ ـى السادات،وكلنههو الذي اضاف اسمك فبي آخر القائمة،ولهـ ـذا فإن رقمك في الحبس هو ١٥٣٦ ،وهو الرقم الاخيـ ـر فـ ـي القائمة التي دخلت السجون في ٣ سبتمبر ١٩٨١.

***

اصبح من الواضح بعد عشرين عاما منن معاهدة السلام (كامب ديفيد الاولي) أنها لم تكن معاهدة سلام ولم تحقق أي سلام ، بل قادت إلى المذابح التي نشهدها لشعوب المنطقـ ـة الشعب الفلسطيني ،والشعب العراقي ،وسوف تسـ ـتمر الآلـ ـة الحربية الأمريكية الإسرائيلية في هذه المذابح لتشـ ـمل بقيـ ـة

الشعوب ومنها الشعب المصري، الذي يتعرض للموت الاقتصادي قبل أن يتعرض للموت العسكري.

وفي معاهدة كامب ديفيد الأولى دخل الاستعمار الأمريكي دخل الاستعمار الارميكي الاسرائيلي بلادنا تحت اسم المعونة، المنصوص عليها في اتفاقيات كامب ديفيد،ومع المعونة بدأ فتح الاسواق المصرية للبضائع الأمريكية تحت اسم الانفتاح،وبدات القوي الاسرائيلية (الأمريكية) تحاصر الشعب الفلسطيني في جنوب لبنان واشتعلت الحرب والمذابح حتي اليوم.

***

من يرد على مقالات إبراهيم نافع في جريدة الأهرام؟!

ومنذ بدات الرد عليه (بعد نشرة مقاله في ١١ أغسطس ٢٠٠٠) تم وضع اسمي في القائمة السوداء أو القائمة الرمادية ،وأصبحت عاجزة على نشر مقالاتي في الصحف الحكومية أو المعارضة الشرعية... لماذا؟

لان رئيس تحرير الاهرام قوة كبيرة على اتصال وثيق بالقوي الحاكمة وتتردد صحف المعارضة (يسار ويمين ووسط) في نقد ابراهيم نافع.

ربما يكون نقد رئيس الدولة أو رئيس الوزراء أسهل من نقد رئيس تحرير الاهرام والجميع (رجالاً ونساءً) من النخبة المصرية يتنافسون على الكتابة بجريدة الاهرام، أو على الاقل نشر اخبارهم مع الصورة داخل البرواز في الصفحة الاخيرة التي تسيطر عليها احدي الصحفيات، ابنة أحد كبار الصحفيين بالأهرام.

***

من اخبار الصباح-جريدة الأهرام- مع صورة داخل برواز للاستاذة الكاتبة الكبيرة عضو حزب اليسار وعضو الحزب الحكومي، وعضو المجلس القومي للمرأة، برعاية السيدة الأولي حرم السيد الرئيس ،ورئيسة مجلس إدارة الفنانات المصريات لدي الهيئة الدولية في وشنطن،تلقي الاستاذة الكبيرة كلمة في مؤتمر المرأة العربية المزمع عقده في بيروت خلال ديسمبر ٢٠٠٢ والدعوة عامة للشعب.

***

الفراغ السياسي والثقافي في مصر أصبح خطيراً ولم يعد الشباب متحمساً لأي عمل سياسي أو ثقافي،وهم يرون

الجهلاء يصبحون هم النخبة أو انصاف الجهلاء أو انصاف المتعلمين.

كان أبي يقول:"المنافقون يلجأون إلى النفاق لأنهم بلا موهبة حقيقية في أي شئ وبلا ثقة بالنفس، لأن نظام التعليم الفاسد يسلبهم الثقة والذكاء الفطري الذي يتمتع به الرجال والنساء الذين لا يقرأون ولا يكتبون".

منوف عام١٩٤٧

***

الفراغ وقد اصبح جورج بوش(الابن) يتحدث عن ترحير النساء في أفغانستان وفلسطين والعراق ومصر وغيرها من البلاد ، لان العقبة امام التنمية هي تخلف المرأة بسبب التقاليد البالية ومنها ختان الإناث.

ويشترك بعض النخبة من بلادنا مع بعض النخبة الأمريكيين في أصدار تقرير عن التنمية البشرية في بلادنا ويؤكد التقرير أن من العقبات أمام التنمية هو تخلف المرأة.

اصبح " تخلف المرأة" هو الشماعة الجديدة التي يعلق عليها فشل مشاريع التنمية في بلادنا وليس سياسات البنك

الدولي والحكومة الأمريكية التي تغ زو بلادن ا اقتص اديا (وعسكرياً) في ظل حماية الحكومات المحلية التابعة لها.

***

عن تقرير التنمية البشرية في بلادنا

اشتغلت بالامم المتحدة لمدة عـ امين" مـ ن ١٩٧٨إلـ ي ١٩٨٠"مستشارة لبرامج المراة العربية والأفريقية في اللجنة الاقتصادية للأمم المتحدة في بيـ روت وفـ ي أديـ س أبابـ ا، وأدركت في هذين العامين زيف مشاريع التنمية التي تقوم بها الأمم المتحدة. وقد دلت التقارير على تزايد الفقر في بلادنا العربية والافريقية مع تزايد مشاريع التنمية،بما فيها المشاريع الخاصة بالنساء،ولهذا السبب قدمت اسـ تقالتي مـ ن الأمـ م المتحدة ،وعدت إلى مصر لأكتـ ب الروايـ ات والقصـ ص الأدبية، افضل من العمل في مشاريع فاشلة.

وإذا كانت الامم المتحدة قد أصـ بحت منظمـ ة تابعـ ة للولايات المتحدة الأمريكية ، مثل البنك الـ دولي وصـ ندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية ،إلي الحد الذي أصبحنا نسميها اليوم" الأمم المتحدة الأمريكية" ، فهـ ل يمكـ ن لهـ ذه المنظمة التابعة أن تفعل شيئاً مستقلاً عن الفكـ ر الأمريكـ ي المهيمن على العالم؟

وإذا كانت الأمم المتحدة هي التي شرعت استخدام القوة العسكرية الأمريكية لضرب العراق في حرب الخليج يذ اير ١٩٩١،وهي التي تتخل ي الي وم ع ن مناصد رة الش عب الفلسطيني الذي يذبح امام عيونها كل يوم،ومع ذل ك تظ ل عاجزة عن فعل أي شئ بل إنها تتراجع عن إنصاف الشعب الفلسطيني بسبب الاعتراض الأمريكي، ويتخلي مجلس الامن بالأمم المتحدة عن واجبه الأول وهو مطالبة إسرائيل بإيقاف المذابح الجارية لسكان الضفة الغربية وغزة والانسحاب من الأراضي العربية المحتلة، حسب ق رارات الام م المتح دة ذاتها.

وهل يمكن فصل قرارات مجلس الإمن عن تقارير الأمم المتحدة فيما يخ ص التنمي ة الإنس انية أو الاجتماعي ة أو الاقتصادية في عالمنا العربي؟!

إلا أن بعض النخب العربية والمصرية ينظ رون إل ى تقرير الأمم المتحدة عن التنمية في بلادنا كأنه " كتاب مقدس" أو على الأقل كتقرير علمي موضوعي غير خاضع للفك ر الأمريكي ومؤسساته السياس ية والاقتص ادية والعس كرية والإعلامية.

خضوع للمنطق الأمريكي:

لقد دهشت: كيف يخضع أغلب النخب في بلادنا للمنطق الأمريكي – الاسرائيلي، الذي يري أن تخلفنا الاقتصادي وهزائمنا المتكررة ترجع إلى خطأ في الشعوب العربية نساءً ورجالاً ،لماذا؟ لأننا عجزنا عن مواكبة عصر الانترنت ،والكمبيوتر!! إن مقياس التقدم في تقرير الأمم المتحدة هوكم رجلاً وامرأة يمتلكون الكمبيوتر؟ وكم منهم يستخدمون الإنترنت؟(نصف في المائة فقط من الشعوب العربية) ومقياس آخر هو: كم عدد الكتب التر ترجمت إلى اللغة العربية ، فقط ٣٣٠كتاباً مترجماً سنويا في العالم العربي ، أي خمس ما تترجمه اليونان،ومقياس اخر هو وجود ٦٥ مليون عربي لا يعرفون القراءة والكتابة أغلبهم نساء (الثلثان) ،رغم أن تعليم النساء العربيات– حسب التقرير –ذاته تضاعف ثلاث مرات، هذا الذي لم تنتج عنه معرفة أو مهارات للعمل في السوق الحرة والانفتاح على العالم اوالسير مع العولمة. هذا هو الجانب البارز في التقرير ،والذي أبرزه أكثر الاعلام الأمريكي والعربي

وبعض الصحف المصرية،وهو يصور جزءاً مـ ن الحقيقـ ـة فقط.

وربما تكون مجلة " النيوزويك" الصادرة في ١٦ يوليو ٢٠٠٢ باللغة العربية نموذجاً للإعلام الأمريكي الذي يـ روج لفكرة أن الخطا فينا نحن الشعوب العربيـ ـة أو الخطـ أ فـ ي الحكومات العربية المستبدة بشعوبها، والعاجزة عن منحهـ ا الحريات السياسية والاجتماعية. وقد أفردت هذه المجلة (في ذلك العدد ١٦ يوليو) مساحة كبيرة لعـ رض تقريـ ر الأمـ م المتحدة للتنمية البشرية في العالم العربي تحت عنوان:"انبعاث جديد". ونشرت صورة ضـ خمة علـ ى صـ فحة ونصـ ف الصفحة"ص١٢ و١٣" تصور مظاهرة من الشباب العربـ ي وتحت الصورة هذه عبارة " حريات سياسية مفقودة..

بعض الحكومات العربية تكفل حريـ ـة التظـ اهر ضـ د إسرائيل،ولكن هناك حرية للتظاهر ضد الحكومات العربيـ ـة نفسها؟!

انبهار بتقرير" نيوزويك":

من هذه العبارة والصورة يحاول الاعـ ـلام الأمريكـ ـي توجيه الشعوب العربية للتظاهر ضدالحكومات المحلية وليس ضد إسرائيل ،وهذا أمر منطقي لأن الإعلام الأمريكي يخدم السياسية الأمريكية لإدارة جورج بوش الابـ ـن الـ ـذي يؤيـ ـد عدوان إسرائيل على الشعب الفلسطيني ويستخدم حق الفيتو في الأمم المتحدة للاعتراض على أي قرار ينصف الشـ ـعب الفلسطيني وتم اعتماد ٢٠٠٠مليون دولار أمريكي مكافأة أو مساعدات إضافية لإسرائيل بعد مزبحة غزة الأخيرة تحـ ـت اسم محاربة الإرهاب الفلسطيني!!

مع ذلك فإن بعض النخب العربية والمصرية تنظر إلى موضوع " النيوزويك" عن تقرير التنمية في بلادنا كأنما هو الحقيقة العلمية أو الموضوعية،وفي جريدة "الاهرام" الصادر بالقاهرة في أول اغسـ ـطس ٢٠٠٢ ص ١١ ، نشـ ـر كاتـ ـب مصري مقالات تحت عنوان: " محاسبة الذات" مشـ ـيداً بمـ ـا جاء في "النيوزويك" ويقول الآتي: "الصعب على الانسـ ـان العربي بعد قراءة هذا التقرير انيظل على منطـ ـق تحميـ ـل الغير مسئولية نكباته وتخلفه".

إن كاتب المقال يحمل لقب" دكتور" ومع ذلك وقع تحت تأثير الانبهار بما نشرته مجلة " النيوزويك" عن تقرير التنمية في بلادنا،وكتب يقول:" إن معوقات التنمية في بلادنا ليسـ ـت نقص الموارد والثروات(عدد العرب ٢٨٠مليون نسمة لكـ ـن مجموع الدخل القومي ٥٣١مليار دولار)- اقل مـ ـن دخـ ـل اسبانيا- ومعدل النمو سنويا اقل من نصف في المائـ ـة لكـ ـن معوقات التنمية هي النقص في الحريـ ـة والمعرفـ ـة،ونقـ ـص مشاركة الطاقات النسائية في العمل. والحرية والديمقراطيـ ـة غائبتان.. والتعليم مازال يقوم على التقليـ ـد.. ولازال يزيـ ـد مستخدمو الإنترنت على واحد ونصف الواحد فـ ـي المائـ ـة، ولا يزيد عدد مقتني الكمبيوتر.. الخ. هذا جزء مـ ـن مقـ ـال الدكتور المصري.

جريدة" الاهرام" لم تنشر مقالي الذي خالفت فيـ ـه هـ ـذا الكاتب رأيه، ورأي آخرين ممن يقودون الرأي العـ ـام فـ ـي بلادنا ،والذين يتصورون أن الخطأ في التنمية يرجع إلينـ ـا" نحن" أو " القصور الذاتي". بالطبع أنا مع النقد الـ ـذاتي، لأن القصور الذاتي موجود فعلاً. سواء في الحكومـ ـات العربيـ ـة المستبدة أو في الشعوب العربية التـ ـي تعـ ـودت الخضـ ـوع

والخوف والتردد وعدم الثقة بالنفس.. وكم دخل السجون في بلادنا من المفكرين والباحثين من مختلف التيارات.

لا يمكن لاحد أن ينكر أن الحرية والديمقراطية غائبتان في بلادنا العربية ، لكن السـ ؤال هـ و: مـ ن يسـ اند هـ ذه الحكومات العربية المستبدة بشعوبها؟

إليست هي الحكومـ ـة الأمريكيـ ـة التـ ي تشـ جع هـ ذه الحكومات المحلية على الاستبداد وغض الطرف وغمـ ض عينها عن هذا لأن هذه الحكومة تابعة لها أو مطيعة لأوامرها الاقتصادية والاعلامية والعسكرية والسياسية وغيرها؟!

تسجيع الارهاب:

وحين جاءتني مندوبة مجلة "النيوزويك" إلى منزلـ ـي ، يوم ٥ يونيو ٢٠٠٢ شرحت لها وجهة نظري بدقـ ـة وكـ ـان معها جهاز تسجيل ،واستغرق الحوار ساعة تقريباً ،طلبـ ـت منها ألا تحذف شيئاً، وخاصة الجزء الذي اربط فيـ ـه بـ ـين تزايد الفقر في بلادنا وفشل مشاريع التنمية وبين الاسـ تعمار الأمريكي الراسمالي الجديد ،والأحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية وأرض فلسطين،وبين غيـ ـاب الحريـ ـات واسـ تبداد

الحكومات العربية الخاضعة للسياسة الأمريكية في المنطقة العربية،وأن هذه السياسة الأمريكية بالتعاون مع الحكومات العربية ومنها حكومة " السادات" في مصر قد شجعت التيارات الدينية المسماة بالتيارات الأصولية،وهي التي مولتها بالأموال والسلاح، ودربتها على القتل والإرهاب تحت اسم محاربة الأرهاب الشيوع في أفغانستان،وفي بلادنا أيضا.

إلا انني دهشت حين قرات مجلة " النيوزويك" في عددها ١٦ يوليو ٢٠٠٢، أدهشني هذا البتر لما قلته للسيدة الصحفية،بما قام بالبتر المسؤولون الكبار في المجلة وهي محررة شابة مندوبة عن هذه المجلة في القاهرة.

١-كيف تجاهلت " النيوزويك" جوهر الموضوع؟

كنت أدرك تماما بحكم خبرتي مع الاعلام الأمريكي والأوروبي أن " النيوزويك" لن تنشر عن موضوع التنمية في بلادنا العربية إلا ما يخدم المصالح الأمريكية والإسرائيلية،ولهذا أكدت على المحررة أن تستخدم جهاز التسجيل،وأن تنشر جوهر ما أقول فيما يخص التنمية في بالدنا وهو "الربط" بين القوي الخارجية والداخلية،بين

الحكومات العربية المحتلة وبين الاستعمار الأمريكي الجدي د ودولة اسرائيل،وتطرقت أيضا لقضايا النساء العربيات ،وأثر العولمة على هن ومشكلة"تأنيب الفقر". وتقديم المرأة" ك بش فداء" للتيارات الأصولية الدينية،ليس في أفغانستان وفي بلادنا العربية وحدها ،بل في الولايات المتحدة الأمريكي ـة ايضـ اً، تق .دم النسـ .اء الأمريكي .ات " كبـ .وش "فـ .داء لليمـ .ين الأمريكي ،وجورج بوش والتيارات المسيحية الأصولية التي يمولها ويشجعها.

المشاكل.. صناعة عربية!

أدركت المحررة تماما ما أقول ووافقتني. إلا أن ما نشر في " النيوزويك" كان مبتوراً وجاء كالآتي:"يؤكد تقرير الأمم المتحدة عن التنمية البشرية في العالم العربـ ـي أن اخـ ـتلال إسرائيل غير المشروع للأراضي العربية هـ ـو مـ ـن أكثـ ـر العقبات استشراء امام الامن والتقدم في المنطق ـة ،بـ ـل إن بعض المنشقين في المنطقة كانوا تـ ـواقين لاسـ ـتخدام ذلـ ـك كأسهل تفسير لما يمر به العرب من حـ ـال اليـ ـوم. نـ ـوال السعداوي ،وهي كاتبة مصرية بارزة تدافع عن حقوق المرأة

وتعرضت مراراً لتهديد الأصولين ،تضع قدراً مساويا مـ ن اللوم على واشنطن وإسرائيل، كما على إخفاق حكومتها في تفسير المعضلة التي تعاني منها مصر اليوم". وتقـ ول:" إن الحكومة تشعر بالعجز ،في حين تصبح الدولة ضعيفة مقعدة فإنها تصبح أكثر سلطوية ،وتتزع إلى السيطرة بصورة أكبر على الناس".وتواصل " النيوزويك" كلامها:"ولكـ ن النبـ رة العامة للتقرير تشير إلى أن المشكلات هي مـ ن صـ نع يـ د العرب أنفسهم".

المشكلات هي من صنع العـ رب انفسـ هم شـ عوباً أو حكومات ،اما واشنطن وإسرائيل فهما بريئتان من الـ ذنب ، ولا علاقة لهما بمشاكل العرب بالاضافة إلى انهما تستخدمان كلمة " المنشقين" وهي كلمة ترن في الأذن "سلبية" لتصـ فني وتصف امثالي الذي ينهبون إلى دور واشنطن وإسرائيل في النكبات التي تحدث في بلادنا ونحن لسنا منشقين فحسب في رأي " النيوزويك" بل نحن أيضا نلجأ إلى اسهل تفسير لمـ ا يمر به العرب من مشاكل.وهذا تمويه وخداع كبير لاننا أولاً لسنا" منشقين" بل نحن نعبر عن الاغلبية الصـ امتة التـ ي لا يصل صوتها لمنـ ابر الإعـ لام العربـ ي إلا نـ ادراً ، امـ ا

الاستسهال فهو من نصيب الأخرىن الذي نشد رت المجلـ ـة آراءهم باعتبارها الآراء العظيمة التي يجب على نا اتابعه ـا ومنها رأي بعض المعلقين الأمريكيين مثل: توماس فريد مان في صحيفة " نيويورك تايمز" الذي مدح التقريـ ـر:" وشـ ـعر بالتشجيع لأن لديه شركاء عرباً ليبراليين، من أجـ ـل تغييـ ـر العالم العربي". وإذا لم يرفع أكبر عدد من الناس أصـ ـواتهم بمثل ما يقوله"توماس فريد مان" فإن تقرير التنمية القادم عن العالم العربي قد يكون أكثر قتامة من التقرير الحالي.

وهذا هو ختام الموضوع في مجلة " النيوزويك" وهـ ـو ختام يتفق تماماً مع أهداف اليسار ـة الأمريكيـ ـة والإعـ ـلام الأمريكـ ـي ،وسـ ـواء كـ ـان فـ ـي " النيويـ ـورك تـ ـايمز."أو " النيوزويك"،اوعدد كبير من الصحف والمجلات المنتشـ ـرة في بلادنا العربية ، أو التي يكتب فيها اغلب النخب والمثقفين العرب.

وهنا آتي إلى النقطة قبل الأخيرة في مقالي وهي:

٢-انخفاض وعي النخبة العربية:

ربما لا يختلف تقرير الامم المتحدة كثيرا عن تقـ اريـر أغلب النخب العربية عن التنمية في بلادنـ ا أو مشـ اريعهم للنهوض بالامة العربية من كبوتها الراهنة وقد تأثر اغلـ بهم بالكتب الأمريكية التي نشرت مؤخراً ومنهـ ا كتـ اب"لـ ويس برنار" بعنوان:"ما هو الخطأ في علاقة الإسلام بالغرب؟".

وكم انبهرت النخب العربية بهذا المفكـ ر الأمريكـ ي ، لأنهلا يعتبر الخطأ في الدين الإسلامي" كما يفعل صـ مويل هانتنجتون وفرانسيس فوكاياما وسلمان رشدي وغيرهم"، بل يعتبر الخطا في العرب أنفسهم.. في المسلمين،ويقـ ول فـ ي كتابه ما يلي:

"لقد انتهي الاستعمار منذ نصف قرن واصبحنا نعـ يش عصر ما بعد الاسـ تعمار post-colonial لكـ ن العـ رب والمسلمين يعلقون المشكلة على الغير ويتساءلون دائما: من فعل بنـ ا هـ ذا؟ كـ أنهم ضـ حايا طـ ول الوقـ ت للقـ وي الخارجية ،والمفروض أن يسألوا أنفسهم: ما الخطأ فينا نحن؟

وماذا نفعل لتغيير أنفسنا؟ أما أن يحملوا الخطأ على غيرهم فهذا هو الخطأ ".

وهذا الكلام فيه جزء من الحقيقة، إلا انه ينطوي عل ى خداع كبير، ذلك أن عصر الاستعمار لم ينته ،كم ا يق ول لويس برنار، ونحن نعيش عصر الاستعمار الجدي د -New Colonial وليس عصر ما بعد الاستعمار أو م ا يس مونه باللغة الانجليزية ما بعد الكولونيالية post-colonial.

ويسود الجامعات الأمريكية والأوربي ة ه ذا التعبي ر الخاطئ والذي تنقله الجامعات العربية والنخب العربي ة دون تحليل أو نقد.

كما أن لويس برنار يفصل ب ين العوام ل الخارجي ة والعوامل الداخلية أو العوامل الدولية والمحلية وه ذا أم ر " غير علمي" لأنه مستحيل نحن نعيش في عالم واحد تحكم ه حكومة دولية مركزية في وشنطن ،وحكومات محلية تابع ة تدور حول المركز فكي ف يمك ن الفص ل ب ين المرك ز والأطراف ،أو بين الرأس والجسد الواح د وب ين الس اقين او القدمين؟

حرب الاقوياء:

وتدافع اغلب النخب العربية عن تقرير الام م المتحد دة وعن موضوع" النيوزويك" عن ه ذا التقري ر ويشد عرون بالسعادة لان التقرير لا يدين الإسلام، أو التراث الاسد لامي العربي، بل يدين العرب انفسد هم (الشد عوب والحكوم ات) وغياب الديمقراطية والحريات وانتش ار الفسد اد وتزوي ر الانتخابات وعدم تقرير الكفاءات، بل الاعتماد على الواسطة والعلاقات الشخصية،وقهر النساء وع زلهن ع ن السياس ة والحياة العامة،هذه كلها حقائق موجودة في بلادن ا العربي ة ونقرأ عنها كل يوم في الصحف الحكومي ة قب ل صد حف المعارضة إلا انها موجودة أيضا في الـ بلاد خ ارج الع الم العربي،فهي ليست مشاكل خاصة بالعرب فقط لانهم ع رب أو مسلمون ،إنها ليست نتاج عرق معين أو دي ن مع ين أو جنسية معينة ،بل هي شائعة في العالم أجمع عل ى رأس ه الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها،وقد عشت فيها سنين طويلة وقمت بالتدريس في جامعاته ا، وأدرك ت أن الرأس مالية الأمريكية سوف تسقط قريباً، أقرب مما نتص ور ،ومعه ا

الرأسمالية الإسرائيلية والأوروبية واليابانية وغيرها،وهنـ ـاك بوادر هذا السقوط، وتفكك النظام الطبقي الأبوي ، الذي يحكم عالمنا الإنساني من خلال الشكرات عابةر القـ ـارات التـ ـي تتهاوي الواحدة وراء الأخرى ومنها شركة" إنـ ـرون" التـ ـي اعلنت إفلاسها في شهر ديسمبر ٢٠٠١،إثر اختفـ ـاء ديـ ـون قدرها ٢٣ مليار دولار، وشركة "وولد-كوم"إثـ ـر اكتشـ ـاف مشروعات مزيفة قيمتها ٣٩ مليار دولار،وشركة " تيكو" إثر اختفاء ٩مليارات دولار من اوراقها،وشركة " زيروكس" التي زورت في اوراقها لتهرب من سداد مليارا ونصف المليـ ـار دولار كانت على ها للضرائب وما يحدث في سـ ـوق المـ ـال والبورصة وحتي " وول ستريت" في نيويورك مـ ـن نصـ ـب معروف في الصحف وما يكشـ ـف عـ ـن فسـ ـاد الشـ ـركات الرأسمالية في بلاد أوروبية مثل فرنسا وبريطانيـ ـا وإيطاليـ ـا وأسبانيا وغيرها ،ويمس الفسـ ـاد اكبـ ـر راس فـ ـي العـ ـالم الرأسمالي وهو الرئيس الأمريكي جـ ـورج بـ ـوش " الابـ ـن" وعلاقته بشركة "إنرون" معروفة ،ونائبه"ديك تشيني" وعلاقته بشركة" هاليبورتون" وغيرها من الفضائح المالية التي تنتشر في الصحف الأمريكية والأوروبية كل يوم.

ولأن الفساد الرأسمالي الطبقي الأبوي " واحد" في العالم فإن الفساد في الولايات المتحدة الأمريكية لا يختلف كثي راً عن الفساد في بلادنا العربية وفي مصر لا تك ف صد حف الحكومة والمعارضة عن الكشف عن الفساد لكب ار رج ال الدول .ة ف .ي مجل .س الش .عب أو ف .ي التليفزي .ون والبورصة،وشركات القطاع الخاص والعام،ونواب القروض والذين هربوا بأموالهم.

يقوم الفساد الراسمالي على منطق" الربح" في الس وق الحرة وفي حرية الأقوياء لل بطش بالض عفاء ، أو حري ة السلاح النووي في اغتصاب أي أرض من أصحابها ال ذين يعيشون على ها،وإعلان الحرب على أي بلد لا تركع على ركتبيها امام الإله الأمريكي وتابعه في اس رائيل وبريطاني ا وغيرهما من دول العالم.

وتستخدم الرأسمالية الدولية والمحلي ة ورق ة الادي ان لتخلق " الصراع" ب ين الأدي ان اوب ين الثقاف ات أو ب ين الحضارات ،كنوع من التموية وإخفاء الصراع الحقيقي حول الأموال والبترول والأرض والأنهار والأس واق التجاري ة

ومشاكل الخصخصة وتزايد الفقر والجوع والأم راض ف ي جميع بلاد العالم وليس في بلادنا العربية فقط.

٣-كلمة اخيرة عن حوار الحضارات:

تتصور بع ض النخ ب العربي ة أن كلم ة" ح وار الحضارات" أفضل من كلمة " صراع الحضارات" في ح ين انهما وجهان لعملة واحدة ، عملة النظام " الطبقي الأب وي" الرأسمالي" ما بعد الحديث الذي يشغل الناس باللغة والكلمات. سواء كانت صراعا اوحواراً ،واذ ا لس ت ض د اللغ ة أو الكلمات أو الندوات الثقافية والأدبية والفنية ،وكم تكون الكلمة الصادقة حاسمة مثل طلقة الرصاص ،إن قيلت ف ي وقته ا ومكانها دون خوف من النار أو طمع في الجنة.

نحن في حاجة إلى كلمات صادقة من هذا النوع لكن أن يرتكز المشروع النهضوي في بلادنا العربية على الح وار بين الحضارات أو الحوار بين الأديان؟ فهذه خدعة كبي رة ، لأن الفروق الجوهرية بين الأديان؟ فهذه خدع ة كبي رة لأن الفروق الجوهري ة ب ين الأدي ان طفيف ة ج داً أو غي ر موجودة،وكذلك الفروق الجوهرية بين الحضارات طفيفة جداً

أو غير موجودة ، لاننا نعيش حضارة واحدة فـ ي الشـ رق والغرب هي الحضارة الرأسمالية الطبقيـ ـة الأبويـ ـة، وهـ ـي حضارة غير متحضرة لأنها قادمة على القوة وليس الحق أو العدل.

أصبحت كلمة العدل من الكلمات الثانوية في مشـ ـاريع النهضة النخبوية العربية ،كأنما العدل شئ ثانوي ، اما الشئ الاساسي فهو الامن اصحبت كلمة الأمن هي السائدة في لغة الحوار أو لغة الصراع سيان كلاهما واحد.

إلأمن هو المطلوب ومن هنا اصبح الارهاب الفلسطيني هو خطر العالم ولس الأرهاب الأمريكي – الاسرائيلي، لأن القوة هي التي تحدد الأمن ، امن من؟ ونحـ ـن نحكـ ـم بلغـ ـة وسلاح رجال الأمن و"البزنس" ورجال البورصة والاعمـ ـال والنخب المثقفة التابعة لهم.

القاهرة/ يوليو ٢٠٠٢

***

احتواء

- شاعت كلمة احتواء على لسان النخبة في مصر من الرجال والنساء
- يقول احدهم: السياسية الأمريكية الجديدة هي السيطرة واحتواء العالم تحت قوتها العسكرية.
- وتقول امرأة من رائدات تحرير النساء ورئيسة إحدى الجمعيات الخيرية:
- الرجولة الحقيقية هي الاحتواء.
- ما معني الاحتواء يا أستاذة؟
- الرعاية والحماية.
- مثل الحماية البريطانية على مصر ،والرعاية الأمريكية لنا عن طريق المعونة والمساعدات؟
- ليه لأ؟ الاحتواء يعني الحماية والسيطرة والرجولة فيها سيطرة،وإلا ماالفرق بين الرجولة والأنوثة؟!
- أتقولين إن الأنوثة هي الخضوع؟
- نعم.
- مثل الخضوع لأمريكا وإسرائيل؟!
- ليه لأ؟

القاهرة نوفمبر ٢٠٠٢

اسمي بدرية

- اسمي بدرية.
- علي اسم القمر.
- كل ليلة أحلم أني اغني.
- أطير في السماء وأمسك الشمس.
- أطير في السماء وامسك الشمس.
- أعزف لحن حياتي على العود.
- وتغني معي البنات اول يوم العيد.
- نحلق معاً في الافق ونقول:
- أغنيتي حريتي.

***

وهل الوطن للجميع كما تدعون؟

- إذا كان الوطن للجميع.
- والمواطنون متساوون امام القانون.
- فماذا تمنعون عن جواز السفر.
- لغياب تأشيرة ولي أمري؟
- وإذا كنت بالغة الرشد وفي الستين من العمرز
- فكيف أظل قاصراَ وفي حاجة إلى وصي؟
- وإذا كنت أستاذة وجاءتني دعوي للسفر
- لألقي كلمتي ويسمع العالم صوتي.
- فلماذا تمنعوني من الخروج؟
- لماذا تسألوني عن موافقة الزوج
- ولا تسألوه عن موافقتي؟
- ألأنه رجل مثلكم والوطن لكم وحدكم.
- ولس للجميع؟

* * *

ومازال في اليأس أمل

- في ليلة الاحتفال بالقرن الجديد
- رأيت حفيدتي ملفوفة بحجاب أبيض
- يشهب الكفن
- لم ار منها إلا ثقب تطل منه نصف عين
- قالت هذا أمر الله
- ثم أغلقت فمها وصمتت.
- أما حفيدتي الثانية فكانت نصف عارية
- تغطي وجهها بطبقة من المساحيق.
- أذناها خرومتان بحلق كبير ثقيل.
- قدماها مقوستان فوق كعب عال رفيع.
- تتكلم الفرنسية بلكنة أمريكية وتقول:
- الرجال يدللونني.
- ولا توجد للمرأة قضية.
- تبتسم بإشراق الشمس وتقول:
- ومازال في اليأس أمل.

القاهرة ٢٠٠

***

حتي نهارية الطريق سأمشي

قالوا لي ما من كاتبة مبدعة وإلا وانتحرت.

- "مي زيادة" انتحرت في المستشفي النفسي،"اروي صالح"،
- "وفيرجينيا وولف" قتلت نفسها بعد أن وصموها بالجنون.
- وأنت يا أنت ماذا تنظرين؟
- قلت لهم لن انتحر ايها السادة بل اترك لكم
- إن شئتم هذا المصير.
- إما انا فسوف أمشي وأمشي حتي نهاية الطريق.
- إلي آخر مدي سأمشي ولا أتوقف.
- إلي آخر خط في الأفق عند الشروق والغروب.
- فما عدت أخسر من شئون الدنيا إلا الموت.
- بعد أن خسرت طفولتي وخسرت شبابي وكهولتي.
- لم تربحني الكتابة إلا السجن وتشويه السمعة.
- مع ذلك سأمشي في الطريق حتي نهايته.
- أقول لكم ايها السادة حتي نهاية الطريق سأمشي.
- وأفعلوا انتم ما تشاءون.

القاهرة ٢٠٠١

النقاد

- قلت من يعين النقاد في مناصبهم؟
- قالوا الملك أو الرئيس أو الوزير أو رئيس التحرير.
- قلت ما علاقتهم إذن بي؟
- قالوا ألست كاتبة واديبة ولك مؤلفات؟
- قلت نعم ،وماعلاقة ذلك بموظفي الدولة؟
- انا اكتب للناس.
- قالوا لنتصل كتبك إلى الناس.
- قالت لكن كتب وصلت إلى الناس.
- قالوا وكيف يعيش النقاد بدون مؤلفات يكتبها غيرهم؟
- لن تأمني أبداً شرهم.
- هكذا اصابني من هجوم النقاد ما ليس له مثيل.
- إلا مدحهم للملك أو الرئيس أو الوزير.

القاهرة ٢٠٠١

***

نصف المجتمع

- أيولد نصف المجتمع داخل مقرة؟
- أتقطع رؤوسهن على مقصلة؟
- أتقطع ظهورهن بالموس؟
- ألا يحق لنا أن نعيش مرفوعات الرؤوس؟
- وأن نموت حين نشتهي أن نموت؟
- لماذا تدفنوننا بالحياة تحت اسم الحماية؟
- وتقتلوننا في أول الصبا تحت اسم الحب؟
- وتهجروننا في المضاجع وتضربوننا.
- وتقولون هذا هو أمر الله إليكم.
- أليس هذا ما تقولون؟
- أليس هو كلامكم أيها السادة.
- ثم تدعون.
- أنه كلام الله؟

القاهرة ١٩٩٨

***

انا جدير بأجمل رجل

- جاءني رجال كثيرون في شبابي
- وفي كهولتي.
- ينشدون الأنثي ذاتها في زمن الجواري.
- يمشون بالخطي ذاتها في عصر العبيد.
- يدقون بابي فلا افتح لهم.
- يسألونني ألا تشربين النبيذ؟
- ألا تشعرين بالبرد وحدك في الليل؟
- ألا تحنين إلى ذراعي رجل؟
- قلت لأني أحب الشعر لأ أعرف إلا الدفء.
- ولأني لا أعرف الوحدة فإنا لا ابرد في الشتاء.
- ولأني لا اتزين ولا اتكحل ولا ينقصني شئ
- فإنا جديرة بأجمل رجل
- يأتي أو لا ياتي.
- فهو هنا وحيث أكون.

القاهرة ١٩٩٩

***

أستطيع الكلام في الجنس

- سأتكلم عن الجنس واكشف
- غياب القيم والاخلاق
- تحت اسم القيم والاخلاق.
- سأكشف عن اوامر لا تأتي من السماء.
- بل من رجال يمشون على الأرض.
- يدوسون بكعوبهم على الزرع.
- ويأكلون حقوق الناس.
- ينتهكون الاعراض والشف.
- باسم الشرف.
- ويغتصبون البنات والنساء
- يدخنون السيجار.
- ويأكلون الكافيار.
- ولكل واحد منهم امرأتان على الاقل.
- واحدة في البيت وواحدة في المكتب.
- ويقولون عني فاسدة.
- لأني اكشف فسادهم.

القاهرة ١٩٩٨

***

وتحظي الموؤودة بحبهم

- لا شئ يثير غضبهم أكثر من أمرأة طبيعية.
- تعيش حياتها.
- تقاوم الوأد والموت وتعيش.
- تقاوم اليأس والحزن وتضحك.
- لا شئ يثير رغبتهم في المرأة
- إلا موتها.
- وأنينها عند الاحتضار ودموعها
- ودماؤها تنزف.
- وصوتها الذليل ينادي يستجدي.
- الرحمة من الآلهة.
- حينئذ فقط تكون هي الانثي.
- ووجبه العشاء الشهية.
- فلا شئ يثير شهوتهم.
- مثل امرأة موؤودة.

القاهرة ١٩٨١

***

والابنة الضالة تعيش

- هي صاحبة قلم تشير به إلى الجناة.
- تخلع القناع عن الأنوثة ولارجولة والامومة والأبوة.
- تكشف عن الوجوه المليئة بالندب.
- ذهبت إلى الحب في اول شبابها.
- وعادت شبحاً لا ترفع وجهها إلى الضوء.
- استقلت قطار الحرب في منتصف الليل.
- وماتت فداء الوطن.
- ثم افاقت على حفنة من قطاع الطرق.
- هاجمت مع زميلاتها الجشع والظلم.
- أدانوها وقالوا انها الابنة الضالة.
- فضحت مؤامرة اغتيالها في الظلمة.
- صنعت لنفسها مكانة.
- الابنة الضالة لم تولد لتقتل.
- بل ولدت لتكشف عن القتلة.
- وتفتح الطريق امام بناتهن وابنائها حتي النهاية.

القاهرة ١٩٩١

***

لي رجال كثيرون

- فوق كل شبر من الأرض هناك رجل ينتظرني.
- له وطن وبيت وأم وزوجة وعيال وكل شئ.
- لكن ينقصه شئ.
- لا يكتمل إلا بوجودي.
- ليس هو الحب ولا الجنس ولا المال ولا المجد.
- شئ ليس له اسم.
- ليس حروفاً تدخل المطبعة.
- ولا سطور نقرأها في الكتب.
- ولا لغة بشرية نشأت في التاريخ.
- إنها لغة أخري.
- تفهمها الطيور حين تغرد.
- وأوراق الشجر حين تتقبل قطرات الندي.
- وبسمة المولود أو المولودة حين تري وجه الأم.
- وإشراقة الشمس بعد أن يشقشق الفجر.

القاهرة ١٩٩٦

***

تكون الضمير الابداعي

من يحكم على العمل الابداعي في بلادنا ، فيق ول
هذه الرواية تجاوزت المحرمات الدينية أو الاخلاقيـ ـة أو
السياسية؟!وبالتالي لابد أن تمنع من النشر ،ولاب د م ن
عقاب مؤلفها؟

هذا السؤال هام ومطلوب عمل حوار فكري عمي ق
حوله لانه يمس اهم شئ في حياتنا وهو العقل الاب داعي
الذي يمكن أن يكتشف الجديد في العلم أو الادب أو الف ن
اوالفلسفة أو السياسة أو الاقتصاد... الخ.

إنه يمس صميم الأزمة الفكرية التي تع اني منه ا
بلادنا ،والتي تجلنا مستهلكين للاكتشافات العلمية والفني ـة
في العلام وعاجزين عن إنتاجها أو المشاركة في إنتاجها.

والمشكلة تكمن في راي في كلم ـة واح دة ه ي "
الخوف" الذي نتربي على ه من الطفولة ، الخ وف م ن
العقاب في الـ دنيا أو الأخ ـرة أن تجاوزنـ ـا المحرم ـات
الموروثة والمفروضة على نا تحت اسم السياسة اوالـ دين
أو الاخلاق.

إن كان اكتشاف علمي أو فني جديد قد اصطدم على نحو ما بالثالوث المحرم:

"السياسة والدين والجنس".

لقد حرق الفلاسفة والعلماء في تاريخ البشرية الذين تجرأوا على الكنسية والنظام السياسي الحاكم ،تم اه دار رد المفكرين من النساء والرجال في جميع انحاء العا لم تحت اسم الدين أو الاخ لاق ، أو السد لام الاجتم اعي والسياسي.

وقد ثبت انهؤلاء المبدعين والمبدعات الذين ادينوا في حياتهم (من نظمهم السياسية والدينية) أنهم ك انوا أكث ر أخلاقاً وأكثر فضيلة من هؤلاء الذين حكموا على هم.

لان الاخلاق والفضيلة هي العدل والحرية والحب. إن النظم السياسية أو الاجتماعية أو الدينية التي لا تقوم على العدل والحرية والحب هي التي تعادي الفضيلة وهي الت ي تنتهك الاخلاق والمحرمات. ولس البمدعين أو ذوي العق ل الابداعي الحر.

وفي بلادنا هناك فصل غريب بين ما يسمي الحري ة والعدل. وبين ما يسمي الديمقراطية. لازالت بلادنا العربية

محكومة بنظم سياسية واقتصادية وثقافية بعيدة كل البعد عن العدل والحرية ومع ذلك تسمي نفسها بلاداً ديموقراطية.

كأنما الديموقراطية هي فقط تكوني أحزاب وانتخابات. وقد ثبت في العالم اليوم أن هذه الديموقراطية زائفة ، لأنها لا تقوم على الحرية الحقيقيـ ـة أو العـ ـدل الحقيقـ ـي بـ ـين المواطنين نساء ورجالاً. فقراء وأغنياء حكاما ومحكومين.

الحرية بدون عدل مثل السلام بدون عدل.نحن نـ ـري هذه الخدعة التي تقوم بها إسرائيل وأمريكا تحـ ـت اسـ ـم السلام لسلب الشعب الفلسطيني من حقوقه العادلة. هذه هي الديموقراطية العربية الزائفة، وقد كشفت تماماً ولـ ـم تعـ ـد صالحة. وهم يبحثون الأن عن خدعـ ـة جديـ ـدة لتضـ ـليل الشعوب.

وبالمثل في الأعمال الإبداعية فإن مفهوم الحرية فـ ـي بلادنا غير مفهوم ، لأن الحرية والمسئولية همـ ـا وجهـ ـان لشئ واحد.

إذا تربي الإنسان المبدع منذ الطفولة عل ى الحري ة فإنه يكون مسئولاً عن عمله الإبداعي وليس في حاجة إلى الحكومة أو وزارة الثقافة لتفرض على ه الوصاية.

إن الطفل الذي يتعود على الوصاية وانتظار الأوامر والتوجيهات يصبح حين يكبر هو ال وزير ال ذي ينتظ ر الأوامر العليا، والتوجيهات من السيد الرئيس.

إن الطفلة أو الطفل الذي يتربي في جو م ن الحري ة والجدل والمناقشة ،بدلاً من القمع والطاعة ينشأ مبدعاً حراً ومسئولاً في آن واحد عما يفعل وعما يكتب.

هذه الازمة الفكرية في بلادنا تؤكد التن اقض ال ذي نعيش ،أو الازدواجية الاخلاقية والسياسية والديني ة الت ي تسود مجتمعاتنا.

في الوقت الذي نقدس فيه الشعب في موسم الانتخابات ونعطيه حرية اختيار ممثليه في مجلس الشعب. ف إن ه ذا الشعب يصبح قاصراً وعاجزاً عن اختيار م ا يق رأ م ن روايات؟!

لاش ك أن الحكوم ة أو وزارة الثقاف ة (اوأي وزارة أخري) ليس من حقها أو واجبها محاكمة المبدعين أو الحكم

على الاعمال الابداعية. لان الضـ مير الابـ داعي لـ دي موظف الحكومة(وإن كان وزيرا) ليس أكثر وعيا أو حرية أو مسئولية من ضمير المبدعين من الرجال أو النساء.

لكن السؤال: كيف يتكون الضمير الابداعي إذا غابت الحرية؟ وكيف يتكون الاحساس بالمسئولية " تجـ ـاة الـ ذات والاخر" أن غابت الحرية في البنوك والمدارس والجامعات والاحزاب والجمعيات؟!

هذه المعركة الاخيرة بين وزارة الثقافة والمثقفين تؤكد اننا في حاجة إلى طرح السؤال مرارا وتكرارا: من يحكـ ـم على العمل الابداعي؟

أليس هو ضمير المبدع واحساسه بالحرية والمسئولية تجاه القراء والقارئات من الشعب؟!

إن القراء هم الحكم على الرواية أو العمل الابداعي. وكثيرا من الاعمال الادبية أو الروايات تسقط وحدها بسبب إعراض القراء والقارئات عنها. ذلك أن القارئ والروائـ ـي وجهان لشئ واحد ،كلاهما حر ومسئول في آن واحد. ومن هنا ذلك المفهوم الجديد لما نسـ ميه "القـ ـارئ المبـ دع" أي القارئ الذي يستطيع أن يكون قارئا وناقداً والـ ذي تربـ ـي

على حرية الاختيار ،وبالتالي مسئولية الحكم بنفسه عل ى العمل الأدبي، ولا ينتظر القرارات الادارية أو التوجيه ات من أعلي.

إن الابداع يتعلق بالخيال والاحلام والافكار المسكوت عنها بسبب الخوف من العقاب أو الطمع في جائزة. هك ذا نري كم نخطئ في حق انفسنا،وكم نلعب دورا ف ي قت ل الضمير الابداعي الحر حين يكون العقاب(اوالجوائز) ه و الطريق الذي نتبعه للحكم على الأعمال الإبداعية.

نحن في حاجة إلى فصل وزراة الثقافة عل ى م نح الجوائز الادبية أو الابداعية لان الثواب والعق اب وجه ان لشئ واحد،والذي يمنح جائزة من حقه أيضـ ا أن يعاق ب فيجب الجائزة أو يصدر قراراً بإقالة المبدع وكلهما عقاب.

نحن في حاجة إلى فلسفة جديدة للأخلاق والتربية تق وم على الحرية والمسئولية،وعلي الجدل والنقد وتكوين العق ل النقدي. لا،ه هوالعقل الإبداعي.

وهذا يعني في النهاية" عدم الخوف".كيف ينشأ الطف ل والطفلة على الشجاعة والإقدام ،وعدم الخ وف م ن نق د

السلطة الأعلي في البيت أو المدرسة أو الجامعة أو الحـ زب أو الوزارة أو المؤسسة التي يعمله بها؟!

لكن نحن نتربي على الخوف ، نولـ د فـ ي الخـ وف ونموت في الخوف، نحن نخاخف السـ لطة التـ ي تحكمنـ ا، ويمكن أن تشردنا وتجوعنا وتحبسنا، لكن السجن قد يكـ ون أخف وطأة من تشويه السمعة الأدبيـ ة أو الإبداعيـ ة لمـ ن يتجاوزون الخطوط الحمراء في الثالثوث المحمر.

القاهرة/١٥يناير ٢٠٠١

***

الزوجة المطيعة

- قال لي أبي وأنا طفلة.
- أن مريم العذراء كانت طاهرة.
- حملت لقب زوجة الإله وأم الإله.
- قال أبي كوني مثلها.
- ولا تكوني مثل حواء الآثمة.
- هكذا أطعت أبي وتزوجت الإله وأنجبت الإله.
- إلا أن الناس رجموني بالحجارة.
- قطعوا رأسي فوق المقصلة.
- دقوني بالمسامير فوق الصليب.
- وناديت الإله زوجي وأنا أنزف النفس الأخير.
- وقلت يا إلهي لماذا تخليت عن زوجتك المطيعة؟!
- كما تخليت من قبل.
- عن ابنك المسيح.

***

أحلامها لم تتغير

جلست لأكتب وشريط الذكريات يعـ ود بـ ي إلـ ى طفولتي، منذ دخلت المدرسة لأول مـ رة، وطلـ ب منـ ا المدرس أن نكتب أسماءنا فوق الكراسة، كتبـ ت اسـ مي نوال ،وإلي جواره كتبت اسم أمي زينب، هكذا دربتنـ ي أمي على الكتابة قبل أن أدخل المدرسة. لكنم المـ درس انتقض غاضبا حين رأي اسم أمي. أمسك القلم وشـ طب علىـ ه بالحبر الأحمر بلون الدم. وقال لي: يا حمارة اسم الأم لا يكتب. أكتبي أسم ابيك وجدك والد ابيك.

كتبت كلمة " السعداوي" ويدي ترتعش بالعغضـ ب. إنه اسم جدي الذي مات قبل أولد رجل غريب عنـ ي لا أعرفه،وأمي التي أعرفها واحبها يشطبون على اسمها.

منذ تلك اللحظة بدأت أحلم بعالم آخر لا يشـ طبون فيه على اسماء الأمهات،ولا احد يسألني من هو أبوك؟ وماهو دينك؟ وماهو جنسك؟ وماهي جنسيتك؟ وما هـ ي هويتك؟ وماهي عائلتك؟ وغيرها من الأسـ ئلة التـ ي لا نكف عن سماعها منذ أن نولد حتي نموت.

في قريتي وأنا طلفة كنت ألري الأطفال يرتعش ون ويموتون كالكتاكيت قبل أن يبلغوا العام الأول من العمر، من حولي أري وجوه النساء ضامرة مش ققة محروق ة بالشمس ، أجسامهن داخل الجلابيب الس وداء المترب ة، يخرجن قبل الفجر إلى الحقول حافيات، يشتغلن بالفئوس في الأرض ثم يعدن عند غ روب الش مس. أش هدهن عائدات على الطريق الزراعية مع البهائم، ما أن يدخلن حتي يشعلن الفرن، أو الكانون،ويبدأن الط بخ والخب ز والغسيل والكنس، ثم يحملن الزلع فوق رؤوسهن لي دلبن الماء من النيل، وقد العش اء يجل س الرج ال والأولاد والذكور يأكلون، بعد أن ينتهوا ويشبعوا تجل س النس اء والبنات ليأكلن ما بقي من الرجال والأولاد.

وفي أول أيام العيد أري النساء داخ ل جلالي بهن السود المتربة سائرات إلى المقابر حي ث يبك ين عل ى الموتي، تبكي الأم طفلها الذي صعدت روحه إلى السماء بسبب الجوع اوالمرض،وتبكي الزوجة زوجها الذي مات بالبلهارسيا ، أو أخاها أو أباها الذي ذهبالي الحرب ول م

يعد، أو ضربته سيارة مسرعة على الطريق، أو مات في السجن أو هاجر ولا تعرف له طريقاً.

كان ذلك في القرن الماضي في الاربعينيات. اليوم نحن في القرن الواحد والعشرين وبداية الألفية الثالثة. رغم ذلك حين أزور قريتي تبدو وجوه النساء كأنما لم تتغير،وجلاليبهن السوداء المتربة هي التي رأيتها منذ ستين عاماَ،وبكاؤهن ونحيبهن. في المقابر أول يوم العيد هو البكاء وهو النحيب. كأنما لم يتغير شئ في القرية. إلا أن مساحات الخضرة أصبحت أقل مما كانت،زحفت المباني من الطوب كالأورام السرطانية،وأكلت الزرع والحقول.لم تعد الشمس تدخل بيوت القرية كما كانت تدخل وأنا طفلة. أصبحت النوافذ مسدودة بجدران البيوت المجاورة. أصبح الهواء ثقيلاَ بالدخان والغبار،والأزقة الضيقة أصبحت مسدودة بالسيارات المستوردة من كل نوع أمام كل بيت من الطين سيارة وكوم من السباخ أو القمامة.

ابة عمتي زينب تبدو أمرأة عجوز مجعدة الوجه ضامرة الجسم متورمة المفاصل تجلس في يمدخل البيت

أمامها جهاز تلفزيون فوق منضدة خشبية مشققة. تت ابع بعينها المضعضعتين فيلماً امريكياً تتلوي فيه أجساد نساء نصف عاريات يطلق الرصاص في كل اتجاه. وتع ض القرية بأصوات عشرات الرجال يؤذنون للصلاة من فوق مآذن الجوامع ركبت على ه ا الميكروفون ات، ترتف ع أصواتهم إلى الس ماء، لا ينافس ها ف ي الارتف اع إلا الاعلانات عن سجائر مالبورو وكوك اكولاً وس فن أب وسبرايت على أعمدة الطرق الزراعية.

يتخلل عرض الفيلم مقاطع م ن الإعلان ات ع ن غسول الشعر الأمريكي سان سيلك، تظهر أمراة عاري ة تحت ال دش تغس ل ش عرها بالش امبو ذي الرغ وة الغزيرة،تطل ساقاها البيضاوان من تحت الماء، يلي ذلك فقرة قصيرة دينية، يظهر شيخ وق ور ي تكلم بص وت رصين، يمتدح حج اب الم رأة وطاعته ا لزوجه ا، واحتشامها درءاً للفتنة ثم تعود الفقرة الإعلاني ة وذ ري أمرأة لها شفتان مغيريتان تحركهما ف ي دلال وتض غط على هما بقلم روج أحمر مستورد.

طوال هذا الوقت كله تجلس ابنة عمتي زينب امـ ـام الشاشة، تشهد الصور المتعاقبة أمام عينيها، ومن بـ ـاب الزريبة المفتوحة تطل البقرةً أيضاً تتابع الصـ ـور فـ ـوق الشاشة المضيئة. تمسح زينب حبات العرق فوق جبينهـ ـا بطرف طرحتها السوداء. مفاصل أصابعها متورمةمشققة بمقبض الفأس حفرت به الأرض السنين. أكثر من نصف قرن.

عيناها سقطت رموشها. جفت فيها الدموع. تقـ ـرب فمها من أذني وتهمس:"من ستين سنة وأكثر لما كنتعليـ ـه صغيرة في المدرسـ ـة الابتـ ـدائي كـ ـان نفسـ ـي ابقـ ـي ضكطكورة علشان أهرب من العيشة السودة دي ، لكـ ـن خلاص الحلم راح، اشتغلنا زي العبيد في الأرض عشان نعلم أولادنا في المدارس،ودخلوا الجامعة واتخروجوا بعد التعب والشـ ـقا فـ ـي المـ ـذاكرة ،وتعبنـ ـا وشـ ـقانا فـ ـي الأرض،وأهم زي ما انتي شايفاهم، قاعدين جنبنـ ـا فـ ـي البيوت من غير شغل، أو واقفين صايعين في الشوارع، ما فيش شغل ولا وظايف، ولا الأرض بقت تجيب تمنها ولا تمن الشغل فيها، زمان كنا بنـ ـزرع أكلنـ ـا ونأكـ ـل

عيشنا، دلوقتي بقينا نشتري العيش ونشتري الأكل، حتي الفول المدمس اللي كنا بنزرعه في أرضنا بقينا نشد تريه في علب جاية من بلاد بره ، بيقولوا على ها كاليفورنيا.

أراها ترمقني بعينيها الذابلتين كأنم ا تس ألني،ولا أعرف ماذا أقول لها،وماهي أحلام ي الت ي يمك ن أن احدثها عنها في بداية الألفية الجديدة؟ هل أقول له ا إن هناك نهاية لهذا البؤس الذي تعيشه وأهل القري ة؟ ه ل أقول لها أن الأحوال تزداد سوءاً عام اً وراء ع ام؟ أن مصر تنوء تحت عبء الديون الخارجية،وأن هناك عجز في الميزانية العامة، في التجارة والصناعة والزراعة، إن مص .ر تس .تورد طعامه .ا ، إن الفق .راء ي .زدادون فقراً،والاغنياء يزدادون ثراء،وإن الفقر يص يب النس اء أكثر لأنهن الشريحة الأض عف، الش ريحة الأض عف ،الشريحة التي تطرد من سوق العمل بأجر بسبب البطالة ، تحت اسم العودة إلى حظيرة الدين ، هل أقول له ا أن العالم يحكمه نظام فاسد قائم على القوة وليس الحق،وأن ٤٤٣رجلاً فقط في العالم يملكون نصف ما يملكه س تة بليون من سكان الأرض؟ وأن ه ؤلاء ال ذين نتج ون

ويتاجرون في الأسلحة يشعلون الحرب والفتن بين الناس تحت اسم اختلاف الدين اوالعرق أو الاثنية أو الهويـ ـة؟! وأنهم هم الذين يتاجرون بالمخدرات والعقاقير والأديـ ـان والبترول وصدام الحضارات؟ وأن الحكومات المحليـ ـة تعمل معهم ضد مصالح الأغلبية من البشر. هل أطلـ ـب منها أن تعمل أكثر هي التي لم تكف في حياتها عنالعمل كل يوم من الشروق إلى الغروب؟

هل أقول لها أن المقهورات والمقهورين في بـ ـلاد العالم قد بدأوا يخلعون عن عقولهم الحجاب، يكتشـ ـفون الخديعة ويثورون ضد النظام العالمي الجديد والقديم، إن مظاهرات سياتل تتكرر في كل بلد،وإن الحـ ـواجز بـ ـين البشر سوف تسقط ويسقط معها النظام الدولي؟!

هل أشرح لها ماذا حدث في سياتل؟ هل أقول لهـ ـا إن أحلامي منذ الطفولة هي أحلامي ،وأنني حـ ـين أنـ ـام اشهد سقوط هذا النظام غير العادل؟ هل أقول لها أنهـ ـا هي زكية بطلة روايتي "الإله يموت في حضن"، زكيـ ـة المرأة المكلومة الثكلـ ـي التـ ـي اسـ ـتطاعت أن تتحـ ـدي

العمدة،وتكشف الصلة الخفية بـ ين السـ لطة السياسـ ية والسلطة الدينية في القرية؟

ثم دق جرس التليفون فوق مكتبي. جاءني صـ وت المحررة من لندن تسألني عن المقال. قلت لهـ ا كتبـ ت نصفه فقط وباللغة العربية. قالت أرسليه بالفاكس،وسوف نجد له مترجماً،ويمكنك إرسال النصف الباقي غداً حتـ ي يمكن نشر المقال بعد غد.

إلا أنني لم أكتب النصف الآخر من الماقل. كنـ ت أعرف أنني قلت ما أريد في النصف الأول. إن أحلامي لم تتغير منذ كنت طفلة صغيرة في القرية، تحلم بالحرية تحلم أن الفروق بين البشر قد اختفت ، فلا شـ يئ يفـ رق المرأة عن الرجل ،أوالاب عن الأم، أو الولد عن البنت ، أو المسلم عن القبطي ، أو العامل عن الفلاح عن العمدة.

ألسنا جميعًأ أولاد وبنات تسعة- كما كانت جـ دتي الفلاحة تقول-.(تسعة يعني تسعة شهور حمـ ل داخـ ل الرحم).يستوي في ذلك الملك والغفير والغنـ ي والفقيـ ر والرجل والمراة. صوت جدتي لا زال يسري في اذني – رغم مرور أكثر من ستين عاماً"ربنا هو العدل عرف وه

بالعقل" وإذا كان الله هو العدل فما الفرق بين دين ودين؟ لماذا لا تلغي إذن خانة الدين من بطاق ات الشخص ية؟! ولماذا يشطبون على أسماء الأمهات ف وق ك راريس التلاميذ والتلميذات؟! السؤال الملح لم يفارق عقلي من ذ دخلت المدرسة.

القاهرة ٢٠٠٠

***

الخيال الذكوري المبتور

في الأدب الشائع

الخيال المبتور في نظري أكثر خطورة من الجسد المبتور الاعضاء. وقد كثر الكلام في بلادنا عن بتر جزء من الجسم في عمليات الختان الشائعة للإناث والذكور. لكن نارداً ما يتكلم أحد عن بتر الخيال في الأعمال الأدبية الشائعة.

لاشك أن بتر الجسد عمل غير إنساني أو عمل إجرامي. خاصة إذا وقع على طفل أو طفلة لا تملك القوة للدفاع عن نفسها أو عن نفسه.

لكن بتر الخيال أخطر، لأن الناس ترى الجسد وتتألم لألمه ، لكن الخيال لا يراه أحد. الخيال لا ينزف الدم عند البتر ،ولا يتحدث عنه أحد ، رغم أن الجسد بدون خيال جسد ميت أو شبه ميت،والمجتمع بدون خيال جسد مجتمع عاجز عقيم، فالخيال هو القوة الدافعة وراء الأبداع في الحب والعلم والطب والأدب والسياسة

والاقتصاد والجنس والفلسفة. الخيال هو قوة اكتشاف المستقبل والتنبؤ به.

حرية الخيال وسلامته واكتماله هي الوقاية الحقيقية للمجتمع من قوي العنف والإرهاب،وحركات القهر والعودة إلى التخلف والوراء.

الخيال هو مشروع التمرد والثورة ضد الظلم والجهل وفساد الضمير ،وازدواج المقاييس. والثنائيات الباطلة، التي نشأت منذ عصور العبودية حين انقسم المجتمع إلى أسياد وعبيد. واندرجت النساء مع الماشية تحت بند العبيد.

خطرت لي هذه الأفكار وأنا اقرأ رواية الأعشاب التي ثارت حولها الضجة في مصر في الشهر الماضي، ثار بعض الناس وتظاهروا ضد الرواية. لأن فيها بعض عبارات قالوا إنها تمس المقدسات الدينية.

حين قامت الضجة لم أحاول الحصول على نسخة من الرواية أو الكتابة عنها لكني وقفت بالفطرة والطبيعة مع حرية الإبداع وإطلاق العنان للخيال دون حدود أو

قيود. إن هذا هو شرط تاريخي في مجالات الاختراعات العلمية والفنية على حد سواء.

كنت على يقين أن الضجة سوف تنتهي ، بعـ د أن تنتصر حرية الإبداع والخيال على كل مـ ا يعوقهـ ا أو يقيدها تحت مسميات أخلاقية ودينية.

ثم وقعت تحت يدي بالصدفة نسخة مـ ن الروايـ ة. جاءتني هدية من شابة سورية. أرادت أن تعرف رايـ ي في الرواية. لهذا قرأتها باهتمام شـ ديد، أدركـ ت بعـ د قراءتها أنها لا تمس المقدسات الدينيـ ة، لكنهـ ا روايـ ة مبتورة الخيال،تتحول فيها الإنسانة المرأة إلى مجرد أنثي تملكم فخذين من الرخام الناعم. سـ واء كانـ ت عشـ يقة محتقرة أو حبيبة مقدسة.

تبدأ الرواية في أول صفحة تقول: أنا الصياد الـ ذي لا يرتاح أبداً،والتي اقصدها تطير أمامي ، تقودني إلى ما وراء الجبال، عبر بحار بـ لا شـ موس، داخـ ل الليـ ل والموت. يقتبس المؤلف هذه الكلمات من رجـ ل اسـ مه هومان ملفيل. في اول صفحة نري بطل الرواية يجـ ري وراء فتاة ترفع الريح ثوبها عن فخذين كالرخام ناصعي

البياض مكتنزين باللحم، يناديها باسم طفلتي الملائكيـ ـة ، اسمها آسيا الاخضر ، بطل الرواية اسمه مهدي جـ ـواد، له أيضا عشيقة اسمها فلة، يصفها بالشهوانية والدمامـ ـة والاحتقار، امرأة يقلو عنها ثرثارة مبذولة،وقد رأي مـ ـا بين فخذيها وهي تصعد الشجرة فأثارت شهوته.

منذ الطفولة ندرك أن مهدي جواد ممتلـ ـئ برغبـ ـة عارمة في الصيد وقتل الطيور ولاحيوانات،وقدامتـ ـدت نزعة الصيد إلى جنس النساء في شبابه مع ذلـ ـك يقـ ـدم نفسه كماضل وطني يؤمن بالاشتراكية والعدالة في حياة البشر ، لكن خيال المؤلف مبترو لا يري من البشـ ـر إلا نصفهم فقط وهم الرجال الذكور ،لان النساء في الرواية مجرد كائنات خلقها الله من أجل إشباع الغريزة الجنسية عند بطل الرواية وزملائه المناضلين الذين هربوا مـ ـن الاستبداد والقمع في بلـ ـدهم العـ ـراق ،وهـ ـاجروا إلـ ـى الجزائر.

يدور الحوار بينهم كالتاليك

– خلق الرجل للمبيت في أكثر من عش تلـ ـك رغبة ربنا وأنبيائه والمرسلين.

- أي عش يفضل وريث الأنبياء
- الدافئ والضيق.

تتعدد العلاقات الجنسية في حياة الرجل منهم تحت اسم الطبيعة الذكورية والدين، رغم سخرية البطل مـ ن بعـ ض التناقضات في القيم الدينية والسياسية التي تحكمهـ م. إلا أن خياله عجز عن إدراك التناقض فـ ي علاقتـ ه بالنسـ اء ، أو إدراك ما هي الطبيعة الأنثوية، فالرجل في نطره له طبيعـ ة الإنسان الذي يفهم القضايا السياسية الكبري ، اما المرأة فهي ليست إنساناً، ولا تفهم هذه القضايا السياسية ،وهي إما طفلة ملائكية لإشباع عاطفة الرجل العذرية المبتـ ورة، أو أنثـ ي محتقرة شيطانية متعددة العلاقات بالرجال.

حين تبكر هذه الطفلة الملائكية تصبح جسداَ أنثوياً ناعماً أو مؤخرة حريرية وحمله ثدي ، رغم أن هذه الفتاة أمسـ كت السكين وكادت تقتل عمها من أجل مهدي جواد ،لكن مهـ دي جواد لا يدرك هذا الفعل الانساني الكبير من ناحيتها ، ويظل يراها مجرد جسد انثوي ، ويـ دوس عنـ د الغضـ ب علـ ى كرامتها،ويمارس الجنس مع غيرها من النساء دون أن يشعر

بالخطأ ،ويتحدث عن العدالة في كل شـ ـئ إلا العدالـ ـة فـ ـي علاقته الخاصة بالنساء. يعجز خياله الذكوري عن تصـ ـور علاقة عادلة ديمقراطية بين الرجل والمرأة ، مع ذلك يتحدث عن غياب الديموقراطية في الدولة التي هرب منها، لا يدرك أن غيـ ـاب الديمقوقراطيـ ـة تحـ ـت قبـ ـة البرلمـ ـان تـ ـرتبط بالديموقراطية في غرفة النوم.

تمتلئ غرف نوم الرجال فـ ـي الروايـ ـة بالدكتاتوريـ ـة ،والأحادية الفكرية ،والانفصام بين لاحياة العامـ ـة والحيـ ـاة الخاص، دون أن يدرك أحدهم (بما فيهم بطـ ـل الروايـ ـة) أن هذا التناقض في حياتهم ينبع من خيـ ـال ذكـ ـوري مبتـ ـور موروث منذ نشوء العبودية أو ما يسـ ـمي النظـ ـام الطبقـ ـي الأبوي، رغم سخريتهم من الدين في حياتهم العامـ ـة فـ ـإنهم يستخدمون الدين في حياتهم الخاصـ ـة لتبريـ ـر الازدواجيـ ـة الاخلاقية في علاقتهم كان مهدي جواد يحـ ـارب الاسـ ـتبداد والطغيان في العراق، إلا أنه في الفراش لا يري طغيانه، إنه ذكر متضخم الذكورة مستبد في ذكورته، سواء مع الحبيبـ ـة الصغيرة ذات الفخذين من الرخام ، أو مع العشيقة الدميمـ ـة الزفرة المرذولة.

يقول البطل عن النساء كل النساء أن لا شئ يهمهن في الرجل إلا هذا (يشير إلى ذكورته).وينطق ألفاظ اً جارحـ ـة بالنساء، أكثر فظاظة من تلك التي يصف بها الحاكم المستبد في بلده، فهو يخاف منه رغد البعد، وهو يخاف أيضـ ـاً مـ ـن الله، رغم كونه في السماء البعيدة أبعد من الحاكم في العراق، أو رجال الشرطة في الجزائر ، ربما لأن عقابهم أقرب إليـ ـه وأسرع من عقاب الله. إن عقاب لرجال الشرطة يتجسد فـ ـي البنادق والرصاص والهراوات، لكن العقاب بعد المـ ـوت لا يتجسد إلا في الخيال.

حدث مرة أن تعارك الرجال المهاجرون فـ ـي سـ ـاحة بونة، اشتبكوا في معركة يضربون بعضهم البعض بالسكاكين والشوك وزجاجات البيرة، أصيب مهيار صديق مهدي جواد بجراح وهو يدافع عن مهدي في غيابه وقال مهيـ ـار لبطـ ـل الرواية:نحن ندافع عنك في ساحة بونة ونجرح ،وانت تعانق حبيبتك آسيا الاخضر على البحر؟!

يضحك مهدي جواد ويسخر من حبيبته أسيا الاخضـ ـر ومن كل النساء، يعبر عن احتقاره لعلاقـ ـه الحـ ـب وعلاقـ ـة الجنس مع الحبيبة الملائكية والعشيقة الشيطانية علـ ـى حـ ـد

سواء،ويقول لمهيار:وهل تركوا لنا أولاد القحبة غير ذل ك؟ كلمة "ذلك" تعني العلاقة بالنساء، أما اولاد القحبة فهم أعوان الحاكم المستبد في العراق ، الذين حالوا بينهم وبين النش اط السياسي المحترم ،ولم يبق أمامهم إلا النشاط الجنس ي م ع النساء.

تمتلئ الرواية بكلمات من نوع آخ ر، أولاد الزوان ي، أولاد القحبة،يتوجه السباب في معظم الأحيان إل ى الم راة القحبة أو الأم الوالدة واعضائها، اوالم رأة الزاني ة الت ي يمارسون معها الجنس في الليل ثم يلفظونها كالبص قة ف ي النهار.

أليس هذا هو الخيال الذكوري المبتور ال ذي لا ي ري الرجل إلا حيواناً سياسياً، أو حيواناً جنسياً،وليس ل ه نش اط آخر في الحياة.

يقول احدهم في الرواية عن العشيقة" فلة" التي تم ارس معهم الجنس، تشبع حاجتهم وحنينهم إلى الوطن والأم، تعالج جروحهم في المعركة في ساحة بونة بالغسيل والمطه رات، تزيل عنها الصدير والدم ، تسهر بجانبهم طول اللي ل وه م مرضي بين الحياة والموت، يدفنون رؤوسهم المتعب ة ف ي

صدرها الكبير الحنون كصدر الأم، لكن ما أن يتماثلوا للشفاء وينهضوا من الفراش حتي يلفظونها كالبصقة ،يقولون عنها امرأة مرذولة ، أمرأة مبولة،وعاد لتفريغ التوتر وما هو زائد عن الجسم ، يقذفون فيها كل ما تطرده أجسادهم.

يظهر واضحاُ في الرواية أن العلاقة الإنسانية الوحيدة هي بين الرجل والرجل، الحب الوحيد المحترم هو بين مهدي جواد وصديقه مهيار، هذا الحب اكثر عمقاً وأكثر صدقاً واحتراماً من حبه لآسيا الأخضر الحبيبة الملائكية!

أما العشيقة" فلة" فهي على علاقة أيضاً بكوميسار الشرطة في العراق ، إنه صديقها من " النوع السرير" بلغتهم التهمكية على المرأة التي ترعاهم كالأم ،مع ذلك يلجأون إليها لتتوسط لدي الكوميسار لحمايتهم من الشرطة.

هذه المرأة الساقطة في نظرهم تمنحهم الحب والحنان، تعرض نفسها للخطر والموت من أجل إنقاذ حياتهم، أما هم فلا يبذلون أي جهد لحمايتها،بل يضحون بها مثل كبش الفداء من أجل إنقاذ أنفسهم،ويقولون عنها امرأة سرير ساقطة مرذولة تمارس الجنس معهم ومع رجال الشرطة. بعضهم

يتشكك في كونها جاسوسة وربما تفشي أسرارهم إن سـ ألها الكوميسار عن علاقتها بهم.

يخاطب هؤلاء الرجال بعضهم البعض بكلمة يا حل وف ،ربما يعرفون بعضهم البعض أكثر مما تظهره الروايـ ة،أما الفتاة الطفلة الملائكية حبيبة بطل الرواية فهي تقدم له الحـ ب والجنس واللذة في سرير الحب النظيف ،وهي الطعـ م فـ ي السنارة الذي يأكله السمك، هي تقع في المصيدة لأنها أحبـ ت مهدي جواد بصدق وإخلاص، يطاردها رجال اسرتها حتـ ي تشهر السكين في وجه عمها، تدافع عن مهدي جـ واد حتـ ي آخر نفسومع ذلك لا تحظي آسيا الأخضر بما يحظـ ي بـ ـه صديقه مهيار من الاحترام أو الصداقة أو حتي الحب ،هـ و يراها مجرد أداة لتفريغ ما هو زائد عن الجسد، وسيلة لنسيان الهزيمة والاحباط والقمع السياسي، وهي تراه إنساناً كـ املاً عاقلا شريفاً مناضلاً وطنياً، يختلف عن الرجال الشرقيين.

كلمة" الشرقيين" هنا تعبر عن رؤية مهدي جواد للشرق ، كأنما الشرق هو المسئول عن تخلف الرجال وليس النظام الطبقي الأبوي الذي يحكم الشرق والغرب على حد سواء ، يعجز خيال الرجل عن إدراك حقيقـ ـة الظلـ م فـ ي الشـ رق

والغرب، يقع في هذه الثنائية الباطلة التي تقسم العالم إلى شرق وغرب ،وتجعل الغرب أعلي مكانة من الشرق لمجرد انه غرب، بمثل ما تجعل الرجل أعلي مكانة من المرأة لمجرد انه ذكر.

رغم ما يعلنه بطل الرواية أنه غير مؤمن بالمقدسات الموروثة. إلا انه في الحقيقة مؤمن بها فيما يخص العلاقة بين الرجال والنصف الآخر من المجتمع وهن النساء، إنه يؤمن بالثنائيات البطالة ويعجز خياله عن إدراك التناقضات فيها.

أخطر ما في الرواية أنها تؤكد الازدواجية الاخلاقية، والنظرة الدونية لنصف البشرية من النساء ،هذه الرواية تبتر الخيال أكثر مما تبتر إنسانية المراة،وإذا كان الخيال الأدبي مبتوراً أصبح المستقبل مبتوراً يمشي على ساق واحدة. وينظر إلى الأمور بعين واحدة هي عين الذكر.

القاهرة ٢٠٠٠

***

ذاكرة النسيان

- كم اتسعت المسافة بيننا وبين نفسنا.
- لم تعد نفسنا هي نفسنا.
- أصبحنا نحمل نفوساً أخري.
- وعقولاً أخري.
- وأسماء لا تدل على نا.
- ونحن نساء ولسنا رجالا.
- فلماذا يخاطبوننا بصيغة المذكر؟
- ولماذا نحمل فوق أجسادنا اسماء ذكور؟
- يقولون أبنة فلان أو حرم فلان أو أم فلان.
- ويطلبون منا أن نشكرهم ونشعر بالفخر.
- والرجل منهم إن حمل أسم امه يشعر بالعار.
- وإن حمل اسم زوجته يموت من الخزي.
- فماذا نفعل نحن النساء يا نساء؟
- ألا نعود إلى أنفسنا؟
- نتذكر أسماءنا وتاريخنا.
- ونستيعد ذاكرة نسياتنا.

القاهرة١٩٨٢

متي أشك في نفسي؟

- رأيتهم يتنافسون لمصافحة المسئول الكبير.
- يدوسون على أقدام بعضهم البعض.
- يسيل لعابهم بكلام معسول.
- أو مسموم.
- يعملون في الحكومة والمعارضة وكل شئ.
- يجلسون في الصفوف الأمامية.
- يقبضون الماهية والعمولة والحوافز.
- يحصدون الجوائز.
- في الادب والعلم والدراسات السياسية والاجتماعية.
- رجال ونساء ينطقون الفصحي بلكنة أمريكية.
- يعيشون خارج الوطن وداخله.
- يحملون لقب مفكرين أو مثقفين أو غير ذلك.
- ويسألونني أين أنت يا أنت؟
- وأقول لهم لن أحصل أبداً على جائزة.
- وإن حصلت على ها في يوم
- فسوف أبدأ الشك
- في نفسي.

القاهرة١٩٩٨

***

النفقة للرجل

- سمعت زوجها يهددها بالطلاق.
- أو يصفعها على وجهها مهدداً
- بقطع النفقة.
- وهي تتمسح عند قدميه مثل قطة جائعة
- من أجل النفقة.
- يفرض على ها الطاعة مقابل الانفاق.
- وتدوخ في المحاكم السبع دوخات.
- السبع سنين
- لتحصل على الملاليم.
- وجاءني الزوج يحمل الهدايا والمهرز
- أعدتها كلها إليه وقلت:
- الهدية رشوة والمهر إهانة.
- وجاءني الزوج الثاني يهددني بالد خول ف ي بي ت الطاعغة.
- كانت نكتة ضحك لها الجميع.
- وقلت له خلعتك عني حسب قانون الخلع.
- ولتذهب أنت إلى المحكمة إن شئت
- وتطلب النفقة.

القاهرة٢٠٠٠

***

سأمشي حتي النهاية

- سأمشي حتي النهاية.
- لن أتوقف أبداً في منتصف الطريق.
- ولن أعود أدراجي إلى الوراءز
- لأقول نعم.
- إلي آخر المدي سأمشي.
- مرفوعة الراس.
- لا أخشي قطعها.
- لن أفقد بموتي
- إلا الإغلال
- وإن اختفي اسمي في التاريخ
- وإن أهالوا على التراب.
- فهناك من يحلمون بصمتي.
- وكلمتي وصورتي.
- لأنني امرأة لم تلد عيالاً
- ترسلهم إلى الحرب
- ليموتون.
- بل ولدت كباراً عاشوا

- رغم الحروب
- ونساءً مبدعات
- غيرن العالم
- والتاريخ.

القاهرة ١٩٩٨

رحلة الصيف إلى الجنوب

أندهشت صديقتي الكاتبة المصرية البارزة حين قلت لها إنني مسافرة إلى الجنوب الإفريقي، كانت هي تعد حقائبها إلى الساحل الشمالي حيث الفيلا الكبيرة على بحرية مارينا. إن الحر في القاهرة لا يطاق في شهر أغسطس مع زيادة الرطوب. لم تكن المكاتبة البارزة (الحاصلة على درجة الدكتوراة في الجغرافيا أو التاريخ) تعرف أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس،كمااعتقد بعض الآلهة القدماء،وان المدار الذي تدور فيه الأرض له شكل بيضاوي مائل ،وحين تكون الشمس رأسية حامية فوق ارض مصر خلال شهر أغسطس فإنها تصبح فوق الجنوب الإفريقي مائلة حانية حنان الأم أو الأب الذي يفهم معني الأبوة الحديثة ، قلت لصديقتي الكاتبة البارزة التي تدرس لطلاب الجامعة الجغرافيا أو التاريخ" اغسطس هو شهر الشتاء في الجنوب الافريقي وليس الصيف". اندهشت الكاتبة وقالت:" أهكذا تنقلب فصول السنة فوق القارة الواحدة؟".

كانت الدعوة قد جاءتني لحضور معرض الكتـ ـاب الدولي الذي يعقد في زيمبابوي كل عام خـ ـلال أجمـ ـل الشهور في الشتاء،وهما يوليو وأغسـ ـطس ، لـ ـم تكـ ـن صديقتي (الاستاذة الجامعية والكاتبة المعروفة) تعـ ـرف أن " هاراري " هي عاصمة زيمبابوي،وانها تقـ ـع فـ ـي اقصي الجنوب الإفريقي شمال مدينة جوهانسبرج. نطقت كلمة اهاراري بطرف لسانها وقلب الراء إلى الغاء (مثل بنات الارستقراطية المصرية الفرنسية القديمة) وقالت يا عزيزتي لن يكون لإفريقيا وجود فوق خريطة العالم في القرن الواحد والعشرين، إنها تغرق في الجهل والمرض والحروب الأهلية. قلت لها:"وماذا عن مصر؟"، انتقضت وصاحت:"لا! مصر حاجة تانية! مصر ليست في إفريقيا يا عزيزتي! مصر في الشرق الأوسط وحـ ـوض البحـ ـر الأبيض المتوسط!".

قلت لها: " مصر في إفريقياأو في شـ ـمال افريقيـ ـا أنظري إلى الخريطة!!".

إلا أن صديقتي الكاتبة البارزة و الأستاذة الجامعية لم تكن تريد الاعتراف بالجغرافيا والواقع والحقيقة ،وظلت تقول مصر ليست من البلاد الافريقية.

علاقتي بإفريقيا أشبه ما تكون بالعلاقة العضوية، تجذبني إلى منابع النيل رائحة الأرض والماء والزرع، كأنما ولدتني أمي في قلب أدغال أوغندة على أحد شواطئ بحيرة فيكتوريا، وقد عشت في قلب أفريقيا حين اشتغلت بالأمم المتحدة في اللجنة الاقتصادية لإفريقيا عام ١٩٧٩ وكان مقري اديس أبابا،واقتضى العمل أن اسافر في جميع البلاد الإفريقية شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وكان الانتقال من بلد إفريقي إلى بلد إفريقي آخر لابد وأن يمر بإحدي العواصم الأوروبية. ولكي أصل من أديس أبابا إلى السنغال أو النيجر وساحل العاج لابد أن أطير شمالا إلى القاهرة ثم أجتاز البحر الأبيض المتوسط إلى باريس،ومن باريس أركب الطائرة إلى داكار في السنغال. لكن اليوم،وبفضل مصر للطيران اصبحنا نظير

مباشرة من القاهرة إلـ ى هـ ـاراري دوذ ـالمرور علـ ى أوروبا.

أول مرة سافرت إلى هاراري عاصمة زيمبـ ـابوي كان في شهر يوليو ١٩٨٥،بعد انتهاء المـ ؤتمر الـ دولي للمرأة الذي عقد في نيروبي ، كنا مجموعة من الكاتبات الإفريقيات تزيد عن الثلاثين كاتبة وأديبة وشاعرة، قررنا أن نؤسس معاً جمعية للكاتبات الإفريقيـ ـات،وتم اختيـ ـار مدينة هاراري لتكون مصر اللقاء الأول،وسافرنا معاً من نيروبي إلى هاراري ، وفي فندق "مونو موتاب" (باسـ م إحدي الإلهات الإفريقيات القديمات) جلسنا في قاعة

" إنـ .دابا" وأعلنـ .ـا إنشـ .ـاء جمعيـ .ـة الكاتبـ .ـات الافريقيات،وقد مضي على هذا اليوم أربعة عشر عامـ ـاً حين وجدنا انفسنا مرة أخري في القاعة ذاتها والفنـ دق ذاته.وربما الوجوه والاسماء ذاتها، زاد على نـ ـا بعـ ض الشابات الكاتبات مـ ـن الكـ ـاميرون وناميبيا،وبوتسـ وانا، وغانا،ومالي، وتنزانيا،وزامبيا، وأوغندة والصـ مال،بلغ عددنا أكثر من خمسـ ـين كاتبـ ـة،وبحثنا عـ ـن الجمعيـ ـة القديمةالتي أقمناها عام ١٩٨٥ فلم نجد لها أثـ ـراً ،ايـ ـن

راحت؟! قالت الكاتبة الإفريقية من غانا واسمها" آما آثـ ـا اودو"،"لقد تفرقنا يا نوال ،وتبعثرنا في القرات من امريكا الشـ ـمالية إلـ ـى اسـ ـتراليا،وكندا،هرباً مـ ـن الحكومـ ـات الدكتاتورية في بلادنا الإفريقية". إنهـ ـا"آمـ ـا آثـ ـار وأود" إحدي الكاتبات اشهيرات الإفريقيات التي كانت وزيـ ـرة للثقافة في غانا، وبانقلاب الحكم اضطرت إلى الرحيـ ـل إلى أمريكا الشمالية حيث أصحبت أسـ ـتاذة زائـ ـرة فـ ـي جامعة بولاية نيويورك. وأيضاً الكاتبة الإفريقية من كينيا واسمها" ميشيري موجو"التي هربت من الاضطهاد فـ ـي كينيا وبحثت عن عمل خارج وطنها في كند واسـ ـتراليا، ثم استقر بها الحال في جامعة سـ ـيراكيوس بالولايـ ـات المتحدة،والكاتبة " سيذيو ماجونا" من جنوب إفريقيا التي هربت من حكومة الآبار ثايد العنصرية، وحلصت علـ ـى وظيفة بالأمم المتحدة في جنيف وغيرهن الكثيرات مـ ـن الأدبيات المبدعات في إفريقيا اللائي أنقذن حياتهن مـ ـن براثن الاضطهاد في أوطانهن،وهـ ـاجرن إلـ ـى بـ ـلاداالله الواسعة ، حيث أثبتن كفاءتهن الأدبية أو العلمية وحققـ ـن

شهرة عالمية أو مكانة بارزة في العالم، لـ م يحـ ظ بهـ ا بعض حكامهن.

قلت لآما آثا أودو وميشيري موجو وسينيو ماجونا: "لمـ اذا لا نعيـ د تأسـ يس جمعيتنـ ا القديمـ ة للكاتبـ ات الأفريقيات؟ ".وفعلاً جلسنا في القاعة ذاتها التي جلسـ نا فيها منذ أربعة عشر عاماً،وأعلنا قيام جمعيـ ة الكاتبـ ات الافريقيات،عدد المشاركات في التأسيس الجديد خمسـ ة وستون كاتبة،والتاريخ ٢أغسطس ١٩٩٩.

تلفت حولي أبحث عنكاتبات من إفريقيا الشمالية فلم أحد كاتبة من المغرب أو تونس أو ليبيا أو الجزائر ،ومن مصر لم يكن هناك إلا انا.

وقلت: " أين الكاتبات في الشمال الإفريقي؟!"،وقالت ميشيري موجو:"المشكلة أن الكاتبات في شمال إفريقيـ ا يكتبن باللغة العربية،وقليل جداً من تترجم أعمالهن إلـ ى الإنجليزية أو الفرنسية".

كانت الكاتبة" تي تسي داجا ريبمو" (من زيمبابوي) قد قامت بحثاً في إحدي ندوات معرض الكتاب الـ دولي ٩٩ عن " مشكلة اللغة فـ ي التواصـ ل بـ ين الكاتبـ ات

الافريقيات"، إن معظم الكاتبـ ـات مـ ـن إفريقيـ ـا اللائـ ـي يشتهرن عالمياً يكتبن باللغة الإنجليزية أو الفرنسية ، اما اللائي يكتبن باللغات الإفريقية المحلية فلا مكان لهن فوق خريطة العالم.بعض آثار الاستعمار القديم والجديد.

لهذا كان أول هدف من الأهداف التـ ـي وضـ ـعناها لجمعية الكاتبات الإفريقيات هو:

١- العمل على ترجمة أعمال الكاتبـ ـات مـ ـن اللغـ ـات المحلية إلى اللغات العالمية.
٢- تشجيع الكاتبات على الكتابة باللغة المحلية حتي لا تتعزل الكاتبة عن أهل بلادها ،ومن بعـ ـد الكتابـ ـة باللغات المحلية يمكن الترجمة بعد ذلك لمن تشاء.
٣- عقد الندوات الادبيـ ـة المشـ ـتركة بـ ـين الكاتبـ ـات الإفريقيات على الأرض الإفريقية وليس في اوربا وأمريكا.
٤- مناقشة الأعمال الأدبيـ ـة التـ ـي تنتجهـ ـا الكاتبـ ـات الإفريقيات،وليس يتجاهلها النقاد الرجال.

أحدي الندوات في معرض الكتـ ـاب الـ ـدولي ٩٩ فـ ـي زيمبابوي ناقشت سرتي الذاتية" أوراق حياتي" التي رتجمـ ـت

إلى الانجليزية بعنوان" ابنة إيزيس" وقد دهشت حين علم ت أن هذه السيرة الذاتية قد نالت الاهتمام الادبي من معظم النقاد في القارة الغفريقية (والأوربية والأمريكي ة) إلا الاص دقاء النقاد في مصر،رغم أنها صدرت باللغ ة العربي ة من ذ ٣ سنوات عن دار الهلال،وصدر الجزء الث اني منه ا الع ام الماضي عن دار المستقبل العربي مع ذلك لم يهتم به ا ف ي بلدنا إلا النادر القليل ، بل إن جمعية الكاتب ات المص ريات رفضت عقد ندوة أدبية لمناقشة هذه الس يرة الذاتي ة،وقالت أحدي المسئولات بها " يا خبر إسود!دي سيرة ذاتية خطيرة".

منذ ثلاثين عاماً(وبالضبط عام ١٩٦٩) ، ط رأت ل ي فكرة إنشاء جمعية للكاتبات المصريات عرضت الفكرة على بعض الصديقات الكاتبات.وبدأنا تسجيل الجمعي ة ب وزارة الشئون الاجتماعية عام ١٩٧٠ ،وفعلاً ولدت الجمعية إلا أن انقلاب السياسة في عهد السادات في أدي إلى تجميد نش اط هذه الجمعية لأكثر من عشرين عاماً،ولم تستأنف عمله ا إلا في السنين الأخيرة.

تذكرت هذا التاريخ وأنا أشارك في ندوة معرض الكتاب الدولي في زيمبابوي واستمع إلى كبار النقـاد فـي العـالم يناقشون سيرتي الذاتية. تذكرت أيضا أن معـرض الكتـاب الذي يعقد بالقاهرة (كل عام في بداية الشتاء) لم يعقد نـدوة واحدة لمناقشة أي كتاب من كتبي ،ولم يسـمع شـيئاً عـن سيرتي الذاتية أو غيرها مؤلفاتي، وقد رفـض عقـد نـدوة أتحدث فيها لرواد معرض الكتاب مـن الشـباب والشـابات ،وقال احد المسئولين عن إقامة المعرض: يا خبر إسود ندوة لنوال السعداوي؟! دي كاتبة خطيرة!

أجمل ما شهدت في مدينة هاراري هذا العام هم أطفـال المدارس الذين تجمعوا في مسرح" شيباوو" الإفريقي يـوم ٣ أغسطس ١٩٩٩ ، فوق خشبة المسرح صعدت طفلـة فـي الثانية عشر من عمرها وراحت تقرأ بعض الفقرات من أحد كتبي المترجم إلى اللغة الانجليزية ، ثـم شـاركها بعـض الاطفال من البنات والأولاد،وراحـوا يقـدمون مسـرحيات قصيرة مأخوذة من روايات الاديبات الإفريقيات ومنها بعض رواياتيز

وسط التصفيق الذي ملأ القاعة الفسيحة التي تضم أكثر من ألف طفل وطفله وقفت وقفلت: " هذا يوم من أجمل أيـ ـام حياتي،لانه يقع أرض إفريقية،ولأني أري أمـ ـامي وجوه ـاً نضرة سمراء البشرة عيونها تلمع بالفرح، وتذكرني بطفولتي في قريتي على ضفاف النيل".

هاراري–زيمبابوي

* * *

تخبط النخبة المثقفة

رأيت صور الفتاة في الصحف التي فقدت عينها في مظاهرات الإثنين ٨ مايو ٢٠٠٠ بجامعة الأزهر،وهي لم تقرأ الرواية للمؤلف السوي التي أثارت المظاهرات،ولا تعرف شيئاً عن المعركة السياسية الدائرة تحت شعارات دينية.

ثم قرأت أن البوليس سيطر على الموقف ،وتم حبس بعض الشباب رهن التحقيق.

إزاء هذه الأزمة التي تراق فيها الدماء وبعضهم صغار السن وأبرياء أود مصارحة القراء والقارئات بكثير من الهواجس وعلامات الاستفهام التي تدور في عقول الكثيرين:

١- ألا تعرف الحكومة الرؤوس الكبيرة التي حرضت الشباب على المظاهرات؟

ألا تظل هذه الرووس الكبيرة حرة طليقة تكتب في الصحف، وتخطب على المنابر وفي الاحزاب وفي اجهزة الإعلام المحلية والعربية والدولية؟!

٢- ألا تشترك النخبة المثقفة في هـ ذه اللعبـ ـة السياسـ ية الدينية، سواء النخبة في الحكومـ ـة أو المعارضـ ـة أو الهيئات غير الحكومية، أو ما يطلقون على انفسـ ـهم " المستقلون"؟!

٣- ألم تتكرر هذه الأحداث المؤسفة الدامية،والتي يـ ـروح ضحيتها الأبرياء وينزف المغمورون الـ ـدماء، علـ ـى حين تزداد النخبة تألقاً تحت الأضواء، يريقون الحبر الاسود فوق الورق بدلاً من الدماء الحمراء.

مما يدل على تخبط الحكومة والنخب المثقفـ ـة أسـ ـوق إليكم الأمثلة ،وأمامي الآن ثلاثة من الصحف الهامة الصادرة من مختلف الهيئات الحكوميـ ـة أو الحزبيـ ـة المعارضـ ـة أو المستقلة خلال الأيام الثلاثة ٩، ١٠، ١١ مايو ٢٠٠٠:

(أ) تعلن الحكومة ومؤسساتها الثقافية انها لم تصدر أي كتاب يمس الدين أو المقدسات ،بل العكس هو الصحيح، لقد تم نشر العديد من الكتب الدينية وكتـ ـب التـ ـراث بأسـ ـعار زهيدة،وقد تم إحالة رواية الكاتب السوري إلـ ـى لجنـ ـة لإعداد تقرير حولها.

(ب)لقد تم سحب الرواية، كما تم منع تداولها من الأس واق لأن بها عبارات تمس الدين والمقدسات.

(جـ .)أكدت وزارة الثقافة أن الرواية لم تسحب من الأس واق ولا أي كتاب آخر، وأن اللجنة التي شـ كلت لا تهـ دف للتحقيق في الرواية بقدر ما تهدف لتقديم قراءة متكاملـ ـة لها.

(د)أصدرت اللجنة المشكلة من التقفين المستقلين بياناً يرفض لغة التحريض على العنف واغتيال الثقافـ ـة والمثقفـ ين ووقع على البيان عدد كبير من كبار المفكرين والمثقفين والأدباء.

(هـ .)أصدر رئيس الوزراء حكمـ ـه بـ أن روايـ ـة الكاتـ ـب السوري تسئ إلى الإسلام ،كما أن البيان الرسمي لوزارة الداخلية أصدر حكمه ايضاً بأن الرواية تضمنت عبارات ماسة بالمعتقدات الدينية،وقرر رئيس جامعة الأزهـ ـر أن الرواية تضمنت عبارات تسئ للمقدسات الإسلامية،وقدم أحتجاجاً رسمياً لوزير الثقافة،ولمجلس الشعب ،طالب فيه مصادرة الرواية،وإجراء محاكمة لمؤلفها السوري أمـ ـام القانون الدولي.

(و)إن المحرضين على اعتيال المثقفين وإهدار دمهم كانوا يعرفون من قبل أن الحكومة سوف تتراجع ، وقد تراجعت بالفعل.

(ز)حين تواجه الحكومة هذه الازمات فهي لا تستخدم إلا الرصاص والهراوات والقنابل المسيلة للدموع- أي الوسائل الأمنية، ولا يسقط إلا الضحايا الأبرياء ،الذين ليسوا في الحكومة ولا في الاحزاب المعارضة، ولا من النخب المثقفة ولا من دعاة التفكير والاغتيال،ولا من المستقلين، بل تراق دماء الصغار الابرياء ومنهم أطفال وبنات لم يقرأن الرواية.

ألا يتكرر هذا الكلام في كل أزمة مرت بنا منذ لودنا وحتي نموت؟ والوجوه التي تتصدر دائماً هي الوجوه ، نراها على الشاشة والمجلات والصحف حكومية وغير حكومية؟! رمبا تتغير مناصبها العليا من حين إلى حين أوتتغير شعاراتها ومقاعدها مع تغير اللحن الموسيقي، من الحكومة إلى المعارضة إلى اللا حكومة أو اللا معارضة! يمسكون العصا دائما من المنتصف ولا نعرف موقفهم في وضوح. ونراهم في كل مكان بارز تحت الأضواء. سواء في

المجالس الحكومية أو الشعبية أو القومية العليا،سواء كانـ ت مجالس تخص الديموقراطية أو التنمية أو المرأة والشباب أو حقوق الإنسان! تصدر قرارات التعيين فيها بقرار حك ومي في أغلب الأحيان.

منذ أيام قليلة، بالضبط يوم ٢٤ مارس ٢٠٠٠ جـ اءني خطاب رسمي مسجل من وزارة الشئون الاجتماعية تـ رفض تسجيل جمعية النهضة الفكرية للمرأة المصرية.لماذا؟

لأن المقر لا يصلح! المقر به كمبيوتر وفاكس وتليف ون ومقاعد للجلوس ونوافذ على الهواء الطلق والسماء. لم يذكر الخطاب الرسمي لماذا لا يصلح المقر. إلا أننا سمعنا شفاهة أن المقر ليس له مدخل مستقل عن صـ احبة البيـ ت وهـ ي عضوة بالجمعية!

كانت الحكومة المصرية منذ سبعة وسبعين سنة أكثـ ر تقدما منها اليوم ، فيما يخص النهوض بالمرأة ،وفي منـ زل هدي شعراوي عام ١٩٢٣ تكون الاتحاد النسائي المصـ ري ،وفي منزلها ذاته الواقع في شارع قصر النيل رقم ٢ وفـ ي الساعة الخامسة مساء يوم الجمعة ١٦ مارس ١٩٢٣ تشكلت لجنة دائمة من النساء بلغ عدد عضواتها ٢٤ امرأة، انتخـ بن

مجموعة منهن لحضور المؤتمر النسائي الدولي فـ ي رومـ ا ،وعلي رأسهن صاحبة المنزل (راجعوا جريـ دة الأهـ رام الصادرة في ١١مايو ٢٠٠٠ صفحة ٧).

واليوم كيف تتخطبالحكومة هكذا؟ وهل ننسي الهجـ وم الضاري الذي شنته وزارة الشئون الاجتماعية خـ لال العـ ام الماضي (١٩٩٩) ضد تكوين الاتحاد النسـ ائي المصـ ري، والذي تشكلت من أجل تكوينه لجنة تحضيرية تزيد عن المائة عضوة وعضو،وكانت وزيرة الشئون الاجتماعية(حينئذ) قـ د تحمست للفكرة منذ بدايتها ،وأمدت اللجنة بقائمة الجمعيـ ات النسائية في مصر التي يمكن ان تنضم إلـ ى هـ ذا الاتحـ اد النسائي المصري؟!

ربما يكون هذا التخبط هو حال الحكومات فـ ي معظـ م بلاد العالم. إن طبيعة تكـ وين الحكومـ ات مـ ن المـ وظفين المطيعين أساساً لا تؤهلها للقيام بعمل خلاق أو جديد يقتضي إعمال العقل المستقل عن عقول الرؤساء أو أصحاب السلطة والنفوذ.

إن المشكلة الحقيقية في هؤلاء النخـ ب المثقفـ ة الـ ذين يتخبطون مع الحكومة ويحملون لقب مفكرين أو مثقفـ ين –

رغم أن معظمهم ليس له فكر مستقل أو رؤية فلسفية أو ثقافة أو موقف نابع من الاقتناع الحقيقي،وليس الولاء لحكومة ما أو حمزب أو فرد.

نحن نعيش هذه المأساة على الدوام،تتكرر في كل عهد منذ الملكية القديمة حتي الجمهورية الحديثة. ولا يروح ضحيتها إلا الأبرياء من الشباب أو الشابات. على حين يتألق الكهول من النخب المثقفة ويزدهرون ،وتطاردنا صورهم الليل والنهار،أصواتهم تعلو وتعلو مع الازمات.

القاهرة ١١مايو ٢٠٠٠

***

عن استراتيجية لثقافة والإبداع

قرات ما نشره الأستاذ سلامة أحمد سلامة بجريدة الاهرام ١٤ يناير ٢٠٠١ وأنا اتفق معه في أن محاكمة أو الحكم على الاعمال الابداعية ليس من وظائف وزارة الثقافة.

لكني اختلف معه في أن يكون قانون العقوبات هو الحكم في مثل هذه الأمور المتعلقة بالابداع الادبي أو الفكري. لان قانون العقوبات يختص بالافعال التي تشد كل اعتداء على الأداب العامة، كالسب والقذف ،قد يحكم القانون بالعدل في هذه الحالات ، إلا أن المجال القانوني(في رأيي) لا يمكن ان يكون هو الدستور الأخلاقي الذي يضبط إيقاع النشاط الإبداعي والفكري كما يقول الاستاذ سلامة.

ومن هنا السؤال: من إذني يتولي الحكم على الإعمال الإبداعية كالروايات مثلاً؟

إن الرواية عمل إبداعي يجمع الخيال والواقع معاً، وهي تقدم للناس أي الشعب،والمفروض أن يحكم الشعب بنفسه على الأعمال الإبداعية ،وأن تكون له حرية القراءة أو عدم

القراءة، أليس الأساس الأول للديموقراطية هو أن يحكم الشعب نفسه بنفسه؟ وأن تكون له حرية النقد والمعارضة،وأن يكون مسئولاً عن اختيار الروايات التي يقرأها؟

ربما يقول البعض إن الشعب في بلادنا لم ينضج بعد حتي يمكنه الحكم على الروايات الأدبية. لكن إذا عجز الشعب عن اختيار ما يقرأ فهل يكون في مقدوره أن يختار من يمثله في البرلمان أو مجلس الشعب أو المجالس النيابية الأخرى؟!

وغذا كنا نعطي هذا الشعب الحق في اختيار ممثليه الذين ينوبون عنه في وضع واتخاذ أهم القرارات السياسية والاقتصادية،فمن المنطقي إذن أن يعطي هذا الشعب الحق في اختيار ما يقرأ من روايات أو قصص ادبية.

إن إعراض القراء عن الرواية هو اكبر عقاب لمؤلفها،وكم من روايات سقطت بسبب إعراض الناس عنها. هذا السقوط أقوي من القرارات الادارية أو الوزارية أو أي قرار يصدر عن المحكمة بمصادرة الرواية. لأن الجمهور

نفسه هو الذي يصادرها بحريت ه واختي اره دون انتظ ار القرارات العليا.

لقد اتضح في معظم بلاد العالم أن الأعم ال الأبداعي ة التي تمنع بالقوة الادارية أو السياسية هي التي تلقي رواج اً بين الجماهير. ذلك الإنسان إلى الخيال مثل حاجت ه للطع ام والهواء ،وبالطبيعة والفطرة يولد الخيال الإنساني قويا ل دي الأطفال يجعلهم قادرين على الإبداع والإحس اس بوج ود العدل أو غيابه، هناك علاقة وثيقة ب ين الإب داع والخي ال والأحساس بالعدل والحرية والحب. لذلك يغض ب الأطف ال ويثورون لأي ظلم يقع على هم.

إلا أن غياب العدل والحرية في أغلب الع ائلات يفس د خيال الاطفال ويقتل قدراتهم الابداعية ،ويصكهم مثل النقود، يصبحوا أدوات لغيرهم ، غير قادرين على الإحساس بالعدل أو الحرية أو الحب ، بمعني آخر عاجزين عن الفض يلة أو الإنسانية الحقيقية ذات الضمير الحي.

وقد اتضح أن الطفلة أو الطفل الذي يتربي في جو م ن الحرية والعدل يكتسب القدرة على الاختيار الصحيح الق ائم على الحرية والعدل ويكتسب الثقة في نفسه ،والحكم بنفس ه

على الاشياء ولا ينتظر الأوامر أو التوجيهات من الجهـات العليا.

هذا هو الحجر الاساسي السليم الذي يمكن أن نبني على ه استراتيجية جديدة للثقافة والابداع في بلادنا. لقد اتضح أن الطفلة أو الطفل الذي يتربي على الخوف مـن العقـاب(أو الطمع في جائرة) يعجز عن الإبداع الحقيقي، لأن لذة الإبداع الحقيقي تتعلق بالعمل ذاته، بالقدرة على إنجـازه وتحقيقـه بالشكل الذي يريده الفنان أو هذا هـو الضـمير الأبـداعي الناعب من الحرية والعدل،وهو الذي يوجه الإنسان المبدع أو الإنسانية المبدعة ، بمعني آخر هو الذي يضـع الضـوابط لصاحبه هو الذي يجعله يختار هذه العبـارة للتعبيـر عـن فكرته،وليس عبارة أخري خالية من الجمال أو الذوق.

لاشك أن الإبداع هو الجديد، وهو يختلف عن القـديم، وقد يصطدم به، إلا أن الحساسية للعدل والحرية النابعة مـن الخيال السليم غير المبتور تساعد الإنسان المبدع على إدراك التوازن والانسجام الفني بين القديم والجديد، أو بـين العـدل والظلم.

وقد قرأت رواية وليمة لاعشاب البحر، وكتبت عنها مقالاً في جريدة الحياة الصادرة في لندن يوم ١١ يوليو ٢٠٠٠ ، تحت عنوان" الخيال المبتور في الادب الشائع". ليس معني ذلك أن من حق الجهات الإدارية أو القانونية مصادرة الرواية أو منعها ، لانها (في رأيي) تمنع نفسها بنفسها ، ليس لأنها تمس المقدسات كما قيل عنها ولكن لأن الخيال فيها مبتور ، بحكم التربية التي يعيشها اغلب المؤلفين في طفولتهم.

منذ الطفولة ندرك أن الرجل بطل القصة، قد تربي عل القنص والصيد، وقتل الطيور والحيوانات،وقد امتد نزعة الصيد إلى جنس النساء، مع ذلك يقدم نفسه كمناظل وطني يؤمن بالاشتراكية والعدالة، إلا انها عدالة نظرية فحسب أو لغوية في الخطب والروايات ولا تمتد أبداً إلى حياته الحقيقية ولا تدخل بيته ولا غرفة نومه.

تمتلئ غرف نوف الرجال في الرواية بالدكتاتورية والأحادية الفكرية والانفصام بين الحياة العامة والحياة الخاصة، هذا التناقض أو الازدواجية الأخلاقية هي التي تفسد العمل الإبداعي كما تفسد الخيال والواقع؛ إن الواقع المشوه

بالظلم في العلاقات بين الن اس (ومنه ا علاق ة الرج ال بالنساء)يؤدي إلى تشوية الخيال وبتره ومنذ الطفولة.

الخيال المبتور في نظري أكثر خط ورة م ن الجس د المبتور الأعضاء. لأن الناس تري الجسد المبتور وتتألم لألمه ، لكن الخيال أو الضمير الإبداعي لا تراه العين ولا ين زف الدم عند البتر.

لقد أدت الضجة التي أثيرت حول رواية" وليمة لأعشاب البحر" إلى انتشارها، وإقبال الناس على شرائها بسبب حب الاستطلاع ، لكني لم أقابل أحداً قرأ الرواية إلا وقال لي أنه لم يكملها ،و تركها منذ الصفحات الأولي . وقد شعرت بهذا الإحساس ذاته وأنا اقرأها، إلا انني واصلت الق راءة بجه د كبير من أجل أن أكتب عنها.

وانا لم أقرا الروايات الثلاثة التي سببت الأزمة الأخيرة بين وزير الثقافة وبعض المثقفين والأدباء والأدبيات، ذلك أن الضجة التي أثيرت حولها ربما جعلت الناس تتس ابق إل ى قراءتها ،ومن ثم عدم وجودها في المكتبات.

لهذا لا يمكن لي الحكم على ها كقارئة ، إلا أن الصراع الذي حدث لا يخلو من إيجابيات ، لقد تأك د الآن أن وزارة

الثقافة يجب ألا تكون هي الحكم على الاعمال الإبداعيـة ، كما يقول الأستاذ سلامة أحمد سلامة.

لكن قانون العقوبات أيضاً لا يمكـن أن يكـون علـى أعمال تاتعلق بالخيال. إن مجال القانون هو الواقـع ولـيس الخيال.

نحن في حاجة إلى قيم جديدة في تربية أولادنا وبناتنـا. قيم قائمة على العدل والحرية والحب، ولابد أن تمتـد هـذه القيم إلى الوزارات جميعاً، وليس وزارة الثقافة وحدها، وإلي جميع المجالات السياسية والاقتصادية ،وجميـع الاحـزاب، حكومة ومعارضة ،وجميع المنظمات غير الحكومية بحيـث يصبح المناخ الثقافي الذي نعيشه صحياً والضمير الإبـداعي حياً منذ الولادة حتي الموت.

* * *

الاحتمال المفيد والاحتمال غير المفيد

منذ أكثر من عشرةأعوام دعاني الاستاذ لطفي الخ ولي إلى اجتماع بجريدة الاهرام ،كان يعد أيامها لعقد مؤتمر أدبي كبير، ذهبت في الموعد المحدد للاجتماع فل م اج د اح داً بالحجرة ، تصورت أن الاجتماع تأجل دون علم ي، لكن ي رايت احد الادباء يدخل ويؤكد لي أن الاجتماع قائم،ووص ل المدعوون متأخرين أكثر من نصف ساعة، وتأخر ال داعي للاجتاع نفسه الاستاذ لطفي الخولي أربعين دقيق ة أو أكث ر ،وجلس في مقعد الرئاس ة ع ن يمين ه الأس تاذ يوس ف العقيد،وبين شفتي كل منهما سيجاراً غليظ اً ينف ث ال دخان الكثيف إلى السقف وبدأ الاستاذ لطفي الكلام دون أن ي ذكر شيئاً عن التأخير، القي كلمة طويلة استغرقت أربعين دقيق ة، ثم صمت قليلاً وأشعل السيجار من جديد وقال:"والآن ن دخل في صلب الموضوع ،وهو الإعداد للمؤتمر الأدب ي الكبي ر والذي نرجو منكم أن تشاركوا فيه".

ونظرت في سـ ـاعتي كانـ ـت الثانيـ ـة عشـ ـر وبضـ ـع دقائق،وكنت على موعد آخر ولا أريد التأخر عن موعدي ، فنهضت من مقعدي ،وحين رآني الاستاذ لطفي اتجـ ـه نحـ ـو باب الخروج سألني مندهشاً"رايحة فين يا دكتـ ـورة نـ ـوال"؟ وقلت: "عندي موعد آخر يا استاذ لطفـ ـي"، قـ ـال: " ألسـ ـت مهتمة بهذا المؤتمر الأدبي الكبير". قلت: "أنا هنا منذ ساعتين ولسيت مسئولة عن تأخركم عن الموعـ ـد". وخرجـ ـت مـ ـن الحجرة ،وبالطبع لم أشارك في المؤتمر الأدبي الكبيـ ـر فقـ ـد حذف لطفي اسمي من قائمة المدعويين. ومرت الأيام ربمـ ـا عام أو عامين والتقيت بالاستاذ لطفي في مؤتمر دولي ثقافي في مدينة بولونيا في إيطاليا ، وقال لي:"علي فكرة أنا زعلت منك أو يا دكتورة نوال ،وانتي أن في مصر لما نقول الساعة عشرة يبقي بين الساعة حداشر.

هي دي العادة في بلدنا"،وقلت: "هذه العادة لابد أن تتغير ولابد أن نبدأ بأنفسنا".

ورمقني الاستاذ لطفي بنظرة كأنما أنا المخطئـ ـة وهـ ـو على صواب.

هذه الحكاية تتكرر دائما وكـ م فقـ دت مـ ن أصـ دقاء وصديقات بسبب هذه العادة الضارة ،وهـ ي عـ دم احتـ رام الموعد ،اذكر أن الاستاذ مكرم محمد رئيس تحرير المصور أعطاني موعداً وتأخر نصف ساعة فأنصرفت وتوقفت عـ ن نشر أش بمجلة المصور وفي يوم أعطاني الدكتور إسماعيل سلام وزير الصحة موعداً وتأخر نصف ساعة فإنصرفت ولم أنتظره وكان الدكتور أحمد بدران ينتظر بمكتب الوزير أيضا وقال لي ، الغايب حجته معاه. وده وزير عنده اشغال هامة، قلت ، كل إنسان عنده أشغال هامة ولابد من احترام وقـ ت أي إنسان. خاصة من الكبار لانهم هم النموذج لأغلب الناس.

وقد عشت في بلاد أخري وعرفت كيف تكون المحافظة على الموعد باعثاً على الراحة والاحترام،ولا شـ ئ يهـ در كرامة الإنسان مثل إهدار وقته في الانتظار دون عمل شـ ئ وفي بلادنا قلما يحافظ احد على الموعد،منذ أيام طلبت مـ ن احد السباكين موعداً ليقوم ببعض أعمال السباكة العاجلة فـ ي بيتي،

وقلت له: ميعادك بكرة الساعة كام يا أسطه؟

قال: احتمال الساعة ستة.

قلت: يعني إيه احتمال؟

قال: احتمال الساعة ستة ونص.

قالت لازم تحدد!

قال: حتمال الساعة سبعة.

قلت: ما فيش حاجة اسمها احتمال لازم يكـ ون المعـ اد مضبوط.

إلا إن كلمة" احتمال" كانت تجري على لسـ انه بحكـ م العادة،ولا يمكنه الإقلاع عنها. ولاحظت أنها دخلت قـ اموس اللغة العامية، ولا يمكن أن يحافظ احد العمال على موعـ ده أو احد الموظفين اوغير الموظفين ،والكل يقول احتمال ،وما أسخفها من كلمة في حالة المواعيد في عالمنا الثالث.

الاحتمال الإيجابي:

وهناك احتمال آخر إيجابي في مجال العمل لم يدخل في إلى بلادنا مع أنه اصبح جزءاً لا يتجزأ من علم الطبيعـ ة أو الفيزياء ،وعمل الفلسفة و غيرهما من العلوم ،لقـ د تغيـ رت قوانين الطبيعة التي درسناها في الجامعات،وتجـ اوز العلـ م الحديث ،أو ما بعد الحديث نظريات ارسطو ونيوتن ودارون

وأينشتاين ،ونظريات الجاذبية والنسبية، تجاوزت المطلق ات العلمية كلها، بما فيها مطلق الزمن الذي توقف عنده نيو وتن، وسرعة الضوء المطلقة التي توقف عندها أينشتاين،والفكرة الحديثة القائلة بأن الكون بدأ بانفجار آخر عظيم ، فكرة أن الكون له بداية ونهاية تجاوزها العلم أيضا، وتحرر العلماء تماما مما سمي باليقين،وتجاوزوه إلى ما يسمي اليوم قانون الاحتمال أو قانون الشك.

لم يعد كوكب الأرض مركزاً للكون، ولا كوكب الشمس ولا أي كوكب آخر ،ولم يعد الإنسان مركز الكون ولا أي كائن آخر ،تزايد الشك بازدياد الاكتشافات العلمية التي اثبتت خطأ هذه الأفكار،وتلاشي اليقين من العلم،وحل مكانه ما يسمي الاحتمالات المتعددة والتي تقترب واحدة منها إلى الحقيقة أكثر من الأخرى.

إذا نظرنا إلى الذرة في الكمبيوتر فلا يمكن لنا أن نحدد أين يكون الإلكتروني في دورانه السريع حول النواة ، لكن نري على الشاشة إلا نقطاً تزداد كثافة في بعض الاجزاء فنقول هنا قد يكون الإليكترون وقد لا يكون ، يمكن احتمال وجوده داخل هذا المسار أو هذا المسار.

لم يعد الإلكتروني شيئاً مادياً يوجد في المكان ،ولا ه و طاقة ضوئية يمكن قياسها بسرعة الزمن كسـ ـر الإلكتـ ـرون الفاصل بين المكان والزمن وبين المادة والروح أو الحركـ ـة، بعبارة أخري تم سقوط الثنائيات القديمة التي فصلت الجسـ ـد عن الروح ،واصبح قانون الاحتمال أو الشـ ـك ه و اليقـ ـين الوحيد.

إن آفاق المعرفة تتسع أكثر واكثر ،ونقترب من الحقيقة أكثر وأكثر عبر قانون الاحتمال والشك.

قد تبدو هذه الافكار العلمية الجديدة غير مفهومة أو غير مقبولة لعقولنا ،تعودت عقولنا منذ الطفولة على كل ما ه و يقيني، تربينا على أن نرث الأفكار كمـ ـا ه ي ، لانملـ ـك الشجاعة على أن نشك فيها لهذا عجزنـ ـا عـ ـن الاجتهـ ـاد والتجريد والابداع، سبقنا الآخرون الأكثـ ـر شـ ـجاعة إلـ ـى الاكتشافات العلمية ، أصبحنا مجرد مستهلكين لما ينتجون من ادوات حديثة، ومنها الكمبيوتر والإنترنت،لا نكاد نعـ ـرف إلا القليل عن الثورة الإلكترونية الأخيرة ، نرفـ ـل فـ ـي خمـ ـول الكسل اللذين داخل اليقين الثابت غير المتغير.

القاهرة١٩٩٨

❋ ❋ ❋

مفهوم الوطن والحب في عيد الأم

كان ذلك منذ عشرة اعوام (بالضبط يـ وم ٢١ مـ ـارس ١٩٨٩).

وجاءتني فتاة في الخامسة والعشرين من عمرهـ ـا مـ ـن قلب الصعيد، من قرية بالقرب من أسوان و قالت لي: أريـ ـد أن أتكلم معك، أريد منك أن تكوني أمي،وقد شرتب من أبي وأمي في الصعيد، حملت حقيبتي في الليل،وركبت القطـ ـار ،وجئت إلى القاهرة لأتكلم معك،وأنا تخرجت فـ ـي الجامعـ ـة كلية الآداب قسم الفلسفة، قرأت كتبا كثيرة وانفتح عقلي على اشياء كثيرة جديدة ،ولم تعد لي حياة داخل اسرة تعيش فـ ـي القرن التاسع عشرة وتؤمن بوجود الجـ ـن والعفاريـ ـت، وأن المرأة نصف الرجل واجبها الطاعة، وظيفتها الاسياسية فـ ـي الحياة الزواج وولادة الاطفال وأعمال البيـ ـت، حتـ ـي أخـ ـي الأكبر الذي تخرج من الجامعة وحصـ ـل علـ ـى الـ ـدكتوراة فرض على زوجته أن تتفرغ للزواج والأمومة ،ويقول لها: الأمومة عطاء وتضحية بلا مقابل مثل حب الوطن،وفالوطنية هي العطاء والتضحية بلا مقابل مثل الأمومة.

كانت الفتاة تنتفض وهي جالسة ، جاءتني مـ ـن محطـ ـة القطار مباشرة ، ليس لها أقارب في القاهرة بشرتها سـ مراء شاحبة،وجهها نحيف. عيناها سوداوتان مملوءتـ ـان بريقـ ـاً، ذكرتني بنفسي حين كنت في اول الشباب والعائلة من حـ ـول متجمعة ، العمات والخالات والأعمام والأخـ ـوال وأبنـ ـاؤهم وبناتهن وجيرانهم،والجميع يهتفون في نفس واحد: الـ ـزواج مصير البنت والأمومة هو الدور الاسمي للمرأة.وإذا تعارض الزواج مع طموحك الشخصي في الطب والأدب فـ ـاخترا ي الزواج والأمومة. لأن المرأة التي لا تكون زوجـ ـة ولا تلـ ـد أطفالا فهي امرأة عقيمة كالشجرة بلا ثمار.

وسمعت الفتاة تقول: لا أريد أن أتزوج ،ولا أريد أن ألد أطفالاً! إن العالم ملئ بالأطفال الجوعي المشـ ـردين! فهـ ـل أضيف إليهم أطفالاً آخرين؟ رأيتهم راقدين على الرصـ ـيف في محطة القطار ، أطفال صغار بلا آبـ ـاء ولا أمهـ ـات ولا عائلات ولا بيوت. ولا مأوي إلا الشارع ورصيف المحطة، احد الاطفال اقترب مني وأنا أهبط من القطار، عمره لا يزيد عن سبع سنوات، يرتدي جلباباً ممزقاً يرتعد تحت ضـ ـربات

الهواء الصاقع ،وانا متدثرة بالبالطو الصوف وتحت البـ الطو بلوفر صوفي، قدماه حافيتان،وانا ارتدي حذاء جلـ دياً متيـ ناً وجوربا من الصوف، كان الطفل يقترب مني ويمد لي يـ ده ينشج بصوت مبحوح" حسنة لله يا ستي" قلـ ت لنفسـ ي"هـ ذا الطفل يشبه طفلي أحوطه بذراعي وآخذه إلى بيتك؟".

قلت للفتاة:" تأخذيه إلى بيتك؟".

قالت: ليس عند بيت في القاهرة ،ولكني أحمل شـ هادة جامعية ويمكن أشتغل وأفتح بيتاً،ويصبح هذا الطفل هو طفلي ، إنه يشبه طفلي ، عيناه بالضبط هما عيناه مملوءتان بالبريق والدموع.

قلت للفتاة: " وهل كان لك طفل؟".

قالت الفتاة: لم أتزوج ولم ألد. لكني كنت أحلم دائما بهذا الطفل يخطر إلى في الحلم بعينين مملوءتين بالبريق والدموع وهو يشبه بالضبط الطفل الذي تقدم نحوري وأنا أهبط مـ ن القطار، أعطيته معطفي الصوفي وخمسة جنيها وطلبت منـ ـه أن ينتظرني في المحطةحتي أعود إليه.

قلت للفتاة: وستعودين إليه؟

قالت:نعم.

قلت وتعودين به إلى بيت أسرتك في الصعيد؟

انتفضت بذعر وقال: يقتلني إبي إذا عدت وحدي بعد أن هربت ، فما بال أن أعودومعي طفل؟ سوف يتصورون أنه طفلي ،وانه ثمرة حب محرم أو حمل سفاح!

قلت: لكن الطفل كما تقولين في السابعة من عمره وانت كم عمرك؟ خمسة وعشرون عاماً؟ معني ذلك انك كنت في الثامنة عشر وقت ولادته ثم كيف يحدث ذلك كله وانت في بيت أسرتك تلميذة بالمدرسة؟ لا أظن أن والدك سوف يشك في الأمر!

قالت الفتاة:أنت لا تعرفين أبي. أنه يشك في أخلاقي منذ ولدت ، لم أخرج من البيت إلا تحت رقابته أو رقابة أخي الاكبر أو أخي الأصغر الذي يصغرني بخمس سنوات وكنت في الخامسة عشر من عمري وأخي الأصغر طفل في العاشرة ،مع ذلك يخرج معي لحمايتي!

قلت: وامك؟ أليس لها دور؟

قالت الفتاة: أمي تخاف من أبي وتعمل حساب أبنها الأكبر ،وتقول لي تحملي يا ابنتي كما تحملت أمك وجدتك وخالتك وعمتك وكل النساء ،هذا مصيرنا يا ابنتي فاصبري

لعل الله يرزقك بعريس الهنا يعوضك عن قسوة ابيك لكني لم اسمع كلام أمي ولم انتظر عريس الهنا ،قررت عدم الزواج وعدم الإنجاب ،وكيف ألد اطفالاً يتعذبون كما عذبت وكيـ ف أضيف إلى هؤلاء الأطفال الراقدين على الأرصـ فة طفـ لاً جديداً؟!

***

كان ذلك في بيتي بالجيزة منذ عشرة سنوات (٢١مارس ١٩٨٩) وكنت أعرف أنه عيد الأم وان الاذاعات تحتفل بـ ـه بالأغاني والهدايا يقدمها الأطفال لأمهاتهم،وقد جاءتني هـ ذه الفتاة من أقاصي الصعيد تطلب مني أن أكون أمها ،وتقـ ول إنها سوف تعود إلى محطة القطار لتحمل بين ذراعيها طفلاً فقيراً يتيماً في السابعة من العمر،سوف تكون هي أمه وسف تشتغل وتفتح بيتاً وتعيش معه، وسوف تعلمـ ـه فـ ي احسـ ن المدارس ولن تفرض على ه القيود التي فرضتها علـ ى هـ ا اسرتها سوف تتركه حراً طليقاً ينعم بالحرية التـ ي حرمـ ت منها وهي فتاة ناضجة في الخامسة والعشرين مـ ن عمرهـ ا تحمل شهادة الليسانس من كلية الآداب قسم الفلسفة ، سـ وف

تشتغل وسوف تتحدي الكون ولن يقف في طريقها أحداً هكذا تقول لي.

وقالت الفتاة: أريد منك أن تكوني أمي.

قلت: وماذا أفعل بالضبط؟

قالت: لاشئ! مجرد إدراكي إنك موجودة في الحياة.

***

كان ذلك منذ عشرة أعوام وقد وضعتني الفتاة امام اختبار صعب في الحياة هل اشجعها على التمرد والتحدي والسباحة في المياة الخطرة ضد التيار؟! أم اتبع نصيحة صديقتي الاستاذة الدكتورة؟!

في مثل هذه اللحظات الحرجة يبدأ الصوت الخافت من أعماقي. قال لي الصوت: الم تكوني في عمر هذه الفتاة وتمردت وسبحت في المياة الخطرة ضد التيار؟ لماذا تحاولين الآن الوقوف في طريقها؟،وليس لك منصب كبير في الدولة يساعدك على البحث لها عن وظيفة في الحكومة وليس لك اصدقاء رؤساء الشركات في القطاع الخاص،وإن حاولت التوسط لها ربما تكون هذه الوساطة ضدها ، لأنك

من المغضوب على هم، ولن تفيديها في شئ ، فاتركيها تشق طريقها في الحياة ولا تثبطي همتها.

كانت الفتاة جالسة امامي لا تزال. عنياه ا سد وداوان مملوءتان بالبريق،. تذكرني بنفسي حين كنت في عمره ا. العينان نافذتان أطل منهما على معدن الغنسان أو الإنسانة ، غمرني إحساس جارف بالثقة في هاتين العيذ ين المشد عتين بالضوء القوي.

قالت الفتاة: لا أريد منك إلا أن تمنحيني الثقة في نفسي ، منذ ولدت وأنا احس أن أبي يشك في أخلاق ي ، يتصد ور أنني مثل الفتيات لا يشغلني إلا الحب أو الرجل، وقد كرهت الرجال جميعاً بسبب أبي ، لم أقع في حب رجل واحد د،ولا اريد أن اتزوج ولا أريد أن أنجب ،سوف أعود إلى الطف ل اليتيم الذي ينتظرني في محطة القطار،وسوف أشتغل وأف تح بيتاً ،وأكون أمه التي يحتفل بها في عيد الأم!

***

مضت الأعوام واضرتني الظروف إلى مغادرة الـ وطن لأعيش المنفي خمس سنوات ،وفي عيـ د الام ٢١ مـ ارس ١٩٩٥ جاءتني رسالة من الفتاة،كانت هي أجمل هدية أتلقاها

في عيد الأم،كتبت في رسالتها تقول:بلغ ت ي اأمي الواحـ د وثلاثين عاماً ، أصبحت مديرة في شركة الملابس القطنية في طنطا، لي شقة جميلة تطل على الحقو لالخضراء ويعـ يش معي ابني عمره الآن ثلاثة عشر عاماً، أعطيته أسم أمـ ي " رجاء " متفوق في المدرسة،ويريد أن يكون عالماً في الـ ذرة ويكتب الشعر، أول قصيدة أهداها لي فـ ي عيـ د الأم منـ ذ أيام،مطلعها: أمي يا أجمل كلمة في قاموس اللغة. وقد رأيت أن أرسل إليك هذه الرسالة وأنت بعيدة عن الوطن. لابـ د أن بك حنيناً للوطن والأهل ، لهذا أكب أليك ،أقول لك: إنني لم أنس اليوم الذي جئت إليك هاربة من ألاهل ، كنت أرتعـ د بالخوف والبرد بعد أن تركت معطفي الصوفي للطفل اليتـ يم لم يعد يتيماً يا أمي ، واصبح اسمه رجاء ،وجاءت أمي مـ ن الصعيد ،ورأت بيتي الجميل في طنطا وفرحت حين سمعتني أناديه باسمها رجاء ،وجاء أبي أيضا واطمأن على ، أكثـ ر ما أسعدة أنني أصبحت مـ ديرة لشـ ركة صـ ناعية كبيـ رة، أتقاضي كل شهر مرتباً كبيراً ثلاثة أضعاف مرتـ ب أبـ ي ، لكن فرحة أمي كانت بحفيدها رجاء الذي يحمـ ل اسـ مها ، أكتب إليك يا أمي قبل عيد الأم بالاسـ بوعين ، أعـ رف أن

البريد في مصر وولاية نورث كارولينا يستغرق على الاقل عشرة أيام، أرجو أن تصلك الرسالة في عيد الأم، لتعرفي أن ابنتك" رشيدة" تذكرك وتذكر اليوم الذي فتحت فيه قلبك وبيتك لها ، كان هو يوم مولدي الحقيقي ،لقد ولدت من جديد فـ ي هذا اليوم ، مملوءة بالثقة في نفسي، قادرة على أن أتحـ دي العالم!

ابنتك رشيدة أم رجاء

***

أمسكت الرسالة في يدي، ألامسها بأطراف أصـ ابعي ، كأنما ألامس وجه الوط، راحت الغربة تبدد الحزن، فتحـ ت نوافذ بيتي لتدخله الشمس، إنها الشمس ذاتها التي تشرق في كل بـ لاد العـ الم ، إفريقيـ ا وآسـ يا وأوروبـ ا وأسـ تراليا والأمريكتين، الوطن ليس قطعة ارض تسقط على ه الراس ، الوطن هو رسالة مليئة بالحب يأتيني من البعد.

***

لا يكون الحب حبا حقيقياً إلا إذا كان متبادلاً. الحب من طرف واحدنوع من العبودية. الهوان والهـ ذاب والاحتـ راق بنار الحب كلها من بقايا عصر الرق والعبيـ د. حـ ين كـ ان يفرض على العبد أن يحب سيده الذي يضـ ربه بالكربـ اج.

ويفرض على المرأة أن تحب زوجها الذي يقهرها ويضربها ويشدها من شعرها.

الحب إن اختلفت أنواعه فهو واحد، منبعه القلب والعقل والجسد والروح في كيان واحد،واساسه الأول ه و الأخ ذ والعطاء ، أي التبادل بالعدل والحرية،وليس بالإجبار والق وة والجبروت.

وإن حدث الحب من أول لقاء أو آخر لقاء فه و ينش د السعادة واللذة والحرية، لا يعيش الحب في التعاس ـة والأل م والقيود لايختلف حب الوطن عن حب الأم أو الاب أو الزوج أو الزوجة أو الابن أو الابنة ،كلها أنواع من الحب لا تعيش إلا بالتبادل المتساوي أخذا وعطاءً.

إن الاب الذي يقسو على أبنائ ـه وبنات ـه لا يمك ن أن يتوقع منهم الحب. إن الوطن الذي يجرد الإنسان من كرامته وحريته وطعامه وشرابه لا يكون وطناً.

الوطن هو حيث يكون العدل ،وحي ث تك ون الحري ة ،وحيث يكون الحب، الوطن ليس هو المكان حي ث مس قط

الرأس ،بل هو دفء الإنسانية والمحبة والتعـاون والصـدق والعمل المنتج،ولذة الإبداع والفرحة بالجديد والتجديد.

لقد مللنا الأغاني الوطنية التي كان يغنيها العبيـد ايـام المماليك والسلاطين،ولم نعد نغني للملك في عيد مـيلاده، أو الملكة في عيد زواجها ،فما هذه الاغاني التـي تشـدنا إلـى الوراء إلى عصور الرق: وما هذه الأصوات التـي تأمرنـا بحب الوطن بالكرباج؟ وكيف أحب رجلاً يـذيقني ألـوان الهوان؟ وما هذه الأغاني في عيد الأم دون أن يكـون لـلأم حقوق الإنسان

***

قليلا من العدل

- قليلاً من العدل ايها السادة.
- قليلاً من المنطق.
- كيف يكون المتهم هو القاضي
- أشكو منه إليه؟
- يقولون لانه الحاكم يملك الأمر والنهي.
- ويقولون لأنه الرجل ولأنك امراة.
- ولأن الله أعطي للرجال
- حق تأديب النساء.
- ولم يعط للنساء حق تأديب الرجال.
- قلت ومن يؤدب الرجل؟
- قالو هو يؤدي نفسه بنفسه في الدنيا
- وفي الآخرة يؤدبه الله.

***

خطوة نحو تحرير المرأة المصرية ولكن...

قرأت بجريدة الأهرام (٥/١١/ ٢٠٠٠) الحكم الجديد الذي أصدرته المحكمة الدستورية العليا بعدم تخويل وزارة الداخلية سلطة منح أو سحب جواز السفر،الغاء قراره باشتراط موافقة الزوج على سفر زوجته.

إلا نني بعد أن أكملت قراءة الخبر أصابني الأسف. لأن هذا الحق الدستوري في السفر ليس مطلقا للمرأة المصرية. بل مقيد بالمادة ١١ من الدستور (عن كفاةل التوفيق بين واجبات المرأة نحو الاسرة وعملها في المجتمع)هكذا يمكن لأي زوج أن يمنع زوجته من السفر بحجة مصلحة الأسرة. ومن يكون الحكم حين يختلف الزوجان حول ما هي مصلحة الأسرة؟

أرادت إحدي صديقاتي الطبيبات أن تسافر إبلي مؤتمر طبي في لندن لمدة اربعة أيام، لكن زوجها منعها من السفر. لماذا؟ لأن الدعوة لحضور المؤتمر جاءت لزوجته فقط،لم

تأت دعوه له وهو طبيب أيضاً. فكيف تتفوق الزوجة الطبيبة عن زوجها وزميلها في العمل؟!

تكررت هذه الحوادث مع نساء متفوقات ف ي مج الات متعددة علمية وأدبية وكم من امرأة متفوقة حرمت من السفر بحجة مصلحة الاسرة،وكيف يمكن الفصل هنا بين مصد لحة الأسرة وأنانية الزوج؟ وهل الزوج أدري بمصلحة الاسـ رة من زوجته الطبيبة مثلا؟ فكيف تكون الطبيبة مسـ ئولة عـ ن أرواح الناس ثم نحرمها من مسـ ئولية الأسـ رة، أو معرفـ ـة مصلحة اسرتها؟

ألم تثبت لنا التجارب والحوادث والقضايا في المحـ ـاكم أن المرأة المصرية أكثر حرصاً علـ ى مصـ لحة الاسـ رة والأطفال من كثير من الازواج؟!

ألا يطلق الرجل زوجته أو يتزوج على ها أمرأة أخري دون مراعاة مصلحة الأسرة؟ وكم طف ـلاً تشـ ردوا وبيوتـ ـاً خربت بسبب حق الرجل المطلق ف ي الطـ ـلاق والـ زواج بأخري، لماذا إذن نضع مصلحة الأسرة في يد الرجل وحده؟ هو الذي يحددها وهو الذي يبددها حسب رغبته ومصـ لحته الخاصة؟

هل مصلحة الاسرة تعني مصلحة الرجل؟! لماذا إذن لا يحق للمرأة أن تمنع زوجها من السفر حرصاً على مصلحة الأسرة؟

لقد أسست المحكمةالدستورية حكمها الجديد عل ى أن حق الإنسان المصري (والمرأة إنسان) في السد فر والتنق ل (واستخراج وحمل جواز السفر) هو رافد من روافد الحريات الشخصية التي يكفلها ويصونها الدستور. وان حرية الانتقال من الحريات العامة فلا يجوز تقييدها وقد عهد الدستور بذلك إلى السلطة التشريعية دون غيرها و الاصل فيها هو الم نح إعمالاً لحرية الانتقال ،والاستثناء فيها هو المنع.

لقد اثبتت المرأة المصرية منذ آلاف السنين قدرتها على التوفيق بين عملها خارج البيت وداخله سواء خرجت للعم ل في الحقول اوالمصانع أو المتاجر أو المكاتب أو المستشفيات أو الوزارات أو غيرها.

فلماذا تظل هذه المادة رقم ١١ سيفاً مسلطاً على رقاب النساء، لماذا تظل الثغرة التي ينفذ منها أي رجل يريد التحكم في زوجته تحت اسم مصلحة الأسرة؟

إنني اضع هذا السؤال أمام جميع النساء والرجال في بلادنا وليس فقط رجال القانون أو المهتمين بتعديل الدستور، فالمسألة ليست قانونية محضة، بل سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية ،إن العدالة الاجتماعية ليست تخصصاً يخص العاملين في مجال التشريع أو القانون، بل هي تخص الشعب المصري كله، بنسائه ورجاله وشبابه وأطفاله، أليس الطفل الذي تربيه أمه على الانانية والسيطرة على أخته البنت هو رجل المستقبل الذي يمنع زوجته من حقوقها الدستورية بسبب الأنانية والرغبة في السيطرة؟

لاشك أن عدالة القوانين هامة وضرورية وقد سررت لهذا الحكم الجديد للمحكمة الدستورية العليا الذي يعتبر خطوة هامة نحو تحرير المرأة المصرية ، إلا أن الطريق أمامنا لا يزال طويلاً ليصبح الحق فوق القوة داخل الأسرة ، ولا تكون هناك ثغرات تسمح لمن يريد أن يسيطر (دون حق) أن يسيطر.

ولا يزال أغلب الآباء والأمهات في بلادنا يفرقون في الحقوق بين البنت والولد وتنشأ البنت على الخضوع والطاعة وينشأ الولد على السيطرة (وأحياناً الغطرسة).

كما تتغير التربية في البيوت والمدارس ، بحيث نربي الضمير في الطفولة ، الضمير الإنساني الذي نيشد العدالة بصرف النظر عن كون الإنسان رجلاً أو امرأة ، أو غنياً أو فقيراً، أو حاكماً أو محكوماً؟

القاهرة ١٥/١١/٢٠٠٠

***

قضية المرأة في الحوار القومي

من الافكار التي شاعت في التاريخ.خاصة خلال القرن الماضي العشرين أن قضية المرأة لا تهم إلا فئـ ـة النسـ ـاء، الأمهات والزوجات والأطفال ،أي أمور الأسـ ـرة الصـ ـغيرة ،ولا علاقة لها بأمور المجتمـ ـع الكبير،وقضـ ـاياه الكبـ ـري المتعلقة بالسياسة أو الاقتصاد.

هذه الفكرة الخاطئة انتشرت في البلاد الأوروبية وفـ ـي الولايات المتحدة الأمريكية روجت لها القوي الأبوية الطبقية التي تحكم المجتمع، ثم انتقلت الفكرة إلـ ـى الـ ـبلاد الأخـ ـرى ومنها بلادناالعربية.ومن هنا الفكرة الخاطئة التي سادت بـ ـأن الحركة النسائية التحريرية قد نشأت في الغرب ثم انتقلت إلى الشرق.

حقائق التاريخ تؤكد أن النساء والعبيد اتحدوا معاً فـ ـي الثورة ضد النظام الفرعوني العبودي في مصر القديمة ، لقد حاربوا معاً نساء وفقراء وأجـ ـراء ضـ ـد بطـ ـش الفراعنـ ـة والآلهة القدامي، كان النظام العبودي أو الطبقي الأبوي قائما على السلطة المطلقة للرجل في العائلة ،والسـ ـلطة المطلقـ ـة

للفرد الحاكم في الدولة، الإله فرعون. لقد حـ دثت ثـ ورات عديدة ضد هذا النظام شارك فيها النساء والرجال والشـ باب والأطفال، لولا هذه الثورات الشعبية لم يكن للعصر العبودي أن يزول.ويحل مكانه العصـ ر الإقطـ اعي ،ثـ م العصـ ر الرأسمالي القديم، ثم الحديث وما بعد الحديث الـ ذي نعيشـ ه اليوم وهو نظام طبقي أبوي في الاساس يقوم على سـ لطة الرجل المطلقة في الاسرة، وسلطة الفرد أو مجموعـ ة مـ ن الافراد في الدولة. تطورت القوانين العامة والخاصـ ة مـ ع مـ رور السـ نين ومـ ع ازديـ اد القـ وة السياسـ ية للنسـ اء والفقراء،اصحبت السـ لطة المطلقـ ة للـ زوج تنـ اقش فـ ي البرلمانات، في محاولة للحد من هذه السلطة المطلقـ ة وقـ د شهدنا مؤخرا الصراع داخل البرلمان المصري للحـ د مـ ن سلطة الزوج فـ ي الطـ لاق، أو فـ ي منـ ع زوجتـ ه مـ ن السفر،وإعطاء المرأة بعض حقوقها الشرعية القديمـ ة مثـ ل الخلع.كما شهدنا أيضا الصراع من أجل الحد مـ ن السـ لطة الدكتاتورية في الدولة ومنح بعض الحريات للشعب أي بعض الديموقراطية.

خلال القرن العشرين بدأت قضية تحرير المرأة في بلادنا تخرج من مفهومها الضيق المحدود بأمور الاسرة والأمومة والأطفال إلى مجالات السياسة والاقتصاد والجنس ،ذلك المجال الذي كان محرماً الكلام فيه ، رغم أن القهر الجنسي للنساء والفقراء الرجال هو الوجه الاخر من القهر الاقتصادي والسياسي.

حسب نظرية المعرفة الجديدة لا يمكن فصل الاقتصاد عن الجنس ولا يمكن فصل الحياة العائلية الخاصة عن الحياة العامة السياسة والاجتماعية الشاملة لنواحي الحياة جميعاً.

إذا رجعنا إلى التاريخ ندرك أن هذا الفصل قد نشأ مع نشوء النظام الطبقي الأبوي ،من أجل تجزئة المعرفة ،وبالتالي تجهيل الناس بما يحدث لهم ، اصبحت المعرفة الكلية نوعاً من الإثم،وقدتم تحريمها على النساء والفقراء والعبيد.

لاشئ يؤهل المرأة اوالعبد للثورة ضد النظام الظالم إلا المعرفة الكلية الحقيقية التي لا تفصل بين الخاص والعام ولا تجل الازدواجية أو الثنائية هي اساس القوانين والأخلاق

والفلسـ فة ، هـ ذه الثنائيـ ـة الراسـ خة فـ ي التـ ـاريخ منـ ذ العبودية،والتي قسمت المجتمع إلى نساء وعبيد، واصـ بحت الاسرة هو النواة الصغيرة التي يسيطر فيها الرجال علـ ى النساء ،والدولة هي المجتمع الأكبر الذي تسيطر فيـ ـه القلـ ـة المالكة للثروة والسلطة على الاغلبية الساحقة من الفقراء.

وأصبحت المراة ترمز إلى الجسـ ـد أو الجـ ـنس غيـ ـر المحتوم ،واصبح الرجل يرمز إلى العقل أو الروح الأعلـ ـي السامي، أصبحت القضايا العامة هي القضايا المحترمة.

اما القضايا الخاصة فهي غير محترمة،ومن هنا النظرة الدونية إلى مشاكلالجسد والجنس والمرأة، والنظرة السـ ـامية الرفيعة إلى المشاكل السياسية والاقتصادية والثقافية العامة.

لابد لنا من دراسة الماضي ورابطة بالحاضـ ـر حتـ ـي ندرك أن الاقتصاد لا ينفصل عن الجـ ـنس، وأن الجسـ ـد لا ينفصل عن العقل عن الروح ،وأنـ ـه لا يمكـ ـن بحـ ـال مـ ـن الأحوال فصل قضايا تحرير النساء عـ ـن قضـ ـايا تحريـ ـر المجتمع كله.

إلا أن النخبة المثقفة في بلادنا من الرجال أوالنساء لا تدرك هذه الحقيقة، وتكرر أخطاءها في فهم قضية المرأة منذ القرن القديم وحتي القرن الجديد الواحد والعشرين.

وقد اتهمت النساء رائدات الحركة النسائية المصرية في بداية القرن العشرين بالاتهام ذاته الذي اتهمت به الرائدات في منتصف القرن العشرين وهو الاتهام ذاته الذي يوجه إلى رائدات الحركة النسائية اليوم،ونحن في بداية القرن الواحد والعشرين.

حين تكلمت مي زيادة وملك حفني ناصف عن تحرير المرأة من القهر الخاص داخل الاسرة تم اتهامهما بالقصور عن إدراك القضايا العامة الهامة الخاصة بالوطن والمجتمع وحين تكلمت درية شفيق عن قضية المرأة المصرية خرجت بعض النساء المصريات في منتصف القرن العشرين ضد ختان الإناث وربطن بين المشاكل الجنسية والمشاكل الاقتصادية قامت الدنيا ضد هؤلاء النساء كيف ينطقن كلمة جنس؟ أو كلمة ختان؟ وتم اتهامهم بالفساد، وتحريض البنات على الحرية الجنسية على غرار الإباحية في الغرب.

وفي يومنا هذا يتكرر الاتهام ذاته ربما على نحو مختلف،إلا أن جوهر الاتهام واحد، والقصور في فهم قضية المرأة واحد، والفصل بين الخاص والعام واحد، واعتبار قضية المرأة قضية اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية عامة وليس لها علاقة بذلك الشئ المستورد من الغرب الذي يندرج تحت اسم الجنس أو المشاكل الجسدية للنساء ،وهي في نظرهم مشاكل ثانوية أو هامشية أو تافهة وليست مشاكل حقيقية محترمة مثل مشاكل الاقتصاد والتنمية الاقتصادية أو الاصلاح الاقتصادي وغير ذلك من القضايا العامة.

رغم مرور اكثر من نصف قرن لا تزال هذه النغمة سائدة تهيمن على عقول النساء من النخبة المثقفة في بلادنا. بل كثيراً ما تقع النساء المتعلمات أنفسهن في هذا المأزق ،وبصرف النظر عن الاتجاهات السياسية أو الحزبية ، يسار أو يمين أو وسط فإن قضية المرأة لا تزال غير مفهومة ،ولا يزال الفصل بين الاقتصاد والجنس قائماً وكذلك الفصل بين الحياة الخاصة والحياة العامة.أو ما يندرج تحت أمور الدولة

وأمور العائلة والاسرة ، رغم أن الاسرة هي النواة والحجر الأساسي الذي تقوم على ه الدولة والمجتمع.

بالأمس فقط قرأت في الصحف كلاماً عن قضية المرأة المصرية يفصل بين قضايا الاقتصاد وقضايا الاسرة والجنس يشبه الكلام الذي قرأته منذ نصف قرن، والذي يتكرر دائم ا في الأزمات أو في مواسم الانتخابات وحين تصد بح قضد ية المرأة كبش الفداء في الصراعات على المقاع د ومراك ز القوة في المجتمع والدولة.

كتبت احدي القيادات النسائية من النخبة المثقفة تقول إن قضية المرأة في بلادنا هي قضية تتعل ق ب الفقر والأمي ة والمطلوب هو إدماج المرأة في مشاريع التنمية والإصد لاح الاقتصادي. اما مشاكل الاسرة والجنس فهي مشد اكل ته م النساء في الغرب وليس النساء في بلادنا. نحن نع يش ف ي بلاد إسلامية لها قيمها وتقاليدها وتراثها وهويته ا الاصد لية وخصوصيتها الثقافية.

يذكرني هذا الكلام بم ا تكتب ه النس اء الأمريكي ات المستشرقات عن قضية المراة في بلادنا وما صدر من كتب جديدة بأقلامهن عن المرأة والإسلام،وقد أكدت بعضهن على

أن ختان المراة وحجابها جزء من هويتها الأصلية ،ويجـ ب عدم التخلي عن هذه الهوية الثقافية في بلاد العالم.

هكذا يتم التضليل فيما يخص قضية المرأة وكأنما التقاليد القديمة كلها إيجابية ولابد من الحفاظ على هـ ا ،ولا توجـ د تقاليد سلبية يجب الإقلاع عنها ، وهل الغـ رب كلـ ه فاسـ د الأخلاق مشغول بالجنس والإباحية والشذوذ؟! وهناك رجـ ال ونساء في الغرب يكدون ويعملون ويخترعون في مجـ الات العلم والفن والأدب ،وأغلب الاختراعات والإبداعات العلمية والفنية حدثت في الغرب. فكيف نطلق هذا التعميم الخـ اطئ على الغرب؟!

كما إن الشرق ليس كله طاهر ونقي ومشـ غول بـ القيم والفضيلة، وهناك رجال ونساء في الشرق يتاجرون بالجنس ويتاجرون بالقيم الاخلاقية والدينية في السوق المالية.

لقد اصبح تقسيم العالم إلى غرب وشـ رق مضـ للاً لا يكشف عن الحقائق أو التنوع بل هي نظرة احادية تعتمد على التعميم من أجل التعتيم على الحقيقة،وقد حدث في الغـ رب مظاهرات شعبية ضد العولمة وضد البنـ ك الـ دولي وضـ د

منظمة التجارة الدولية وغيرها من المؤسسات الاسـ تعمارية الجديدة. هذه المظاهرات لم تحدث في الشرق ، لم تحدث في بلادنا رغم أن بلادنا تعاني من هذه المؤسسات وأكثـ ر مـ ن غيرها وينالها من الفقر والبطالة أكثر مما يحدث فـ ي بـ لاد اخري.

كما أن مفهوم الجنس قد تغير منذ القرن الماضي ، لـ م يعد الجنس مجرد عملية بيولوجية أو كيميائية يمكن تنشيطها بالعقاقير أو الفياجرا ،بل أصبح الجنس عملية إنسانية يشـ عر فيها الإنسان (الرجل أو المرأة) أنه لا يوجد انفصـ ال بـ ين الجسد والعقل والروح، أصحبت العلاقات بين الجنسين أكثر إنسانية واكثر عدالة ووعياً ،واصبح علم الجنس في كليـ ات الطب في العالم لا يقل احترامًا عن علم النفس،وتم التـ رابط في الطب الحديث بين الأمرض النفسية والجسدية لا فاصـ ل بينها.

كما أن مفهوم الاقتصاد قد تغير منذ القـ رن الماضـ ي، وسقوط الفكر الجامد، الذي كان يري أن الاقتصـ اد وحـ ده محرك التاريخ ،وأن رأس المال وحده مشكلة الرأسـ مالية ،

لقد تم الربط بين علم الاقتصاد وعلم الاجتماع والثقافة والتاريخ والفلسفة والطب، وفي جامعات العالم بدأت أقسام جديدة تربط بين العلوم الإنسانية وبين العلوم الطبيعية، بين الاقتصاد والفيزياء وعلم النفس وعلم الجنس واصبح التاريخ الاجتماعي للبشر يشمل التاريخ الجنسي والتاريخ الاقتصادي في آن واحد.

وفي علم الحضارات الجديد بدأ العلماء يرون أنه ما من حضارة نقية خالية من السلبيات فالحضارات الإنسانية متداخلة لا يمكن الفصل بينها والهوية متعددة الجوانب والابعاد وليس لها جانب واحد،وتم الفصل بين الهوية متعددة الجوانب والابعاد وليس لها جانب واحد، وتم الفصل بين الهوية الاصلية وبين استئصال الأعضاء الجنسية في عمليات الختان.

إن الاصالة أو القيم أو الاخلاق لا علاقة لها بالعمليات الجراحية التي تقطع من إجساد الاناث أو الذكور.

رغم كل ذلك لا يزال في بلادنا بعض النخبة المثقفة من الرجال والنساء الذين يرددون المفاهيم القديمة، أو الافكار الاستشراقية الأمريكية الجديدة التي تحاول إعادتنا إلى الوراء

تحت شعارات براقة جميلة. منها الهوية والأصـالة والـدين والخصوصية الثقافية أو التراث أو الاقتصاد وغيرها.

ولا تختلف لهجة النساء في النخبة المثقفة عن الرجـال وفي الطريقة التي ينطقون بها الحروف والكلمات ، خاصـة كلمة " الفقر".

لاشك أن مشكلة الفقر أصبحت خطيرة في كثيـر مـن البلاد ومنها بلادنا ، لكن بدلاً من ضرب القـوي العالميـة والمحلية التي تؤدي إلى الفقر فإنه يضربون قضـية المـرأة ،كبش الفداء، لانها الأضعف في ساحة الصراعات الدوليـة والمحلية ،وتحت اسم الفقر يتم اختزال قضية المرأة ،وفصل المشاكل السياسية والاقتصادية العامة عن المشاكل الخاصـة داخل الاسرة أو بين الجنسين.

كلمة واحدة ينطقها الجميع بلهجة واحدة هي "الفقر" كلهم يتحدثون عن الفقر فمن ذا الذي يمكن أن يعترض أو يفـتح فمه؟! أقل اتهام يوجه إليه أنه يقلد الغرب أو يتحدث في أمور الجنس أو الامور الهامشية.

ألهذا صمت جميع الفقراء من النساء والرجـال خجـلاً وتعففاً؟! لقد عانينا منذ فترة قصيرة من محاولات إهـدار دم

الادباء تحت دعاوي دينية وشعارات أخلاقية، ونحن نع اني اليوم من محاولات واد قضية المراة تحت دعاوي اقتصادية، أو تحت شعار " محاربة الفق ر" ، وه ذه محاول ة جدي دة لاختزال قضية المرأة إلى بعد واحد هو الاقتصاد ،بعد عزله عن المشاكل الاجتماعي ة والاس رية والنفس ية والجنس ية والتاريخية التي تعاني منها الاغلبية الساحقة من النساء ف ي بلادنا وفي بلاد اخري من العالم.

إن كلمة " الفقر" أصحبت براق ة وجميل ة ورقيق ة لا تخ دش حي اء اح د ،وان ك ان م ن رج ال أو نس اء الاعمال(البيزنيس) فهي لا تكلف شيئاً ، كما أن الحديث عن الاقتصاد والتنمية والإصلاح الاقتصادي أصبح حديثاً ش ائعاً وجميلاً وبراقاً.

لكن السؤال الهام: م اذا نعن ي بالتنمي ة والإص لاح الاقتصادي؟ وهل يؤدي هذا الإصلاح الاقتصادي إلى مزيد من الفقر أم مزيد من الثراء؟ ولمن؟

رأيت بعض الشابات الفقريات جالسات فوق الرص يف في الشارع يقرأن عن الفقر في الصحف ، بعد أن رفض ت وزارة الشئون الاجتماعية تسجيل جمعيتهن الجديدة للنهوض

الفكري لدي الشابات المصريات، لمـ ـاذا رفضـ ـت الـ ـوزارة تسجيل الجمعية؟ لأنهن فقيرات لا يملكن إيجار شـ ـقة خاليـ ـة تكون مقراً للجمعية.

طلبت مني الشابات التدخل لحل المشكلة ،وذهبت معهن إلى وزراة الشئون الاجتماعية ، لنكتشف أن القانون الجديـ ـد للجمعيات يرفض تسجيل أي جمعية لا تملك إيجار أو شراء شقة خالية.كيف إذن تدافع الفقيرات أو الفقر عـ ـن حقـ ـوقهم الفكرية؟!

***

كيف نشأ ختان الذكور في التاريخ؟!

مع بداية القرن الواحد والعشرين يتحلي النظام العالمي الجديد بكلمات جديدة براقة يتخفي وراءها أشكال جديدة من الاستغلال والاستعباد للفقراء في العالم وللنساء أيضاً.

اصحبت كلمة العولمة من الكلمات الغامضة الساحرة للكثير من المثقفين في الغرب والشرق أو الشمال والجنوب، إلا أن نتائجها على شعوب العالم ليست إلا مزيدا من الكوارث والازمات الاقتصادية والاجتماعية والحروب الدينية والطائفية المشتعلة في كل بلاد العالم اليوم. وكم من النساء والشباب والأطفال يسقطون قتلي الفتن العقائدية والتي تتخفي وراءها المصالح المادية.

أضعف شرائح المجتمع هم أول الضحايا،وهم النساء والفقراء من جميع الطبقات والفئات والألوان،زادت الهوة من مزيد من العولمة بين الذين يملكون والذين لا يملكون ونبذ الجنس المؤنث والجنس المذكر الذي له السيادة في الدولة والعائلة في ظل النظام العالمي الجديد كما كان في ظل النظام العالمي القديم ،لا يختلف النظام الجديد عن القديم إلا في

التفاصيل والجزئيات ،لكن الجوهر واحد، فهو جوهر النظام الطبقي الأبوي ،يعني ذلك أن قلة من الأفراد تشكل "الطبق ة الحاكمة" تسيطر على مصائر الملايين وأرواحهم وأرزاقهم وأمنهم وأمن أولادهم وبناتهم. هذه القلة القليلة من الأفراد في كل بلد من العالم تملك المال والسلاح والإعلام، الثالوث الذي ترتكز على ه السلطة الدولية أو المحلي ة ، الث الوث ال ذي تبطش به على الأغلبية البشرية المفروض على ه ا الفق ر والصمت ونزع السلاح.

يمكن لمن يدرس التاريخ أن يكتش ف الت رابط ب ين لاسلطة والجنس منذ نشوء العصر العب ودي من ذ انقس ام المجتمع إلى اسياد وعبيد وإلي نساء ورجال.

في مصر القديمة كانت " نوث" هي الإله ة الأم، إله ة السماء ، زوجها "جيب" كان إله الأرض ،وكان ت الأم ه ي التي تعطي اسمها لأطفالها ،لم تكن الأب وة معروف ة ك ان الرجال يتصورون أن الجنين يتكون في بط ن الأم بق درة خارقة غامضة سماوية ثم بدأ العقل البشري يكتش ف ش يئاً فشيئاً علم البيولوجي وعلم الامبريولوجي "الأجنة" وبدأ الرجل يعرف دوره في عملية الأخصاب ، ثم بدأ يكشف" الابوة".

لم يعد يأكل أطفاله أو يغتصبهم كما كان يفعل من قب ل ولم يعد يؤمن أن النساء يحملن بسبب أرواح تهبط إليهن من السماء.

أنعكست هذه الفكرة البدائية في الاساطير القديمة ،وك م قرأنا هذه الحكايات عن الأبطال الش جعان ال ذين ول دتهن أمهاتهن بعد أن نفخت الآلهة المقدسة في أرحامهن، ويصبح المولود مقدساً ،وإن كانت المولودة أنثي أصحبت قديسة أيضاً تنضم إلى زمرة الإلهات المعبودات.

إلا أن المجتمعات البشرية كانت في تحول دائم وصراع دائم للاستيلاء على السلطة والمال والأرض، ظهر الصراع في التاريخ بين الآلهة الذكور والإله ات الإن اث، يكش ف التاريخ القديم عن معارك طويلة بين الألهة المصرية إزي س وأعدائها من خارج البلاد وداخلها، استمرت ه ذه المع ارك الضارية تحاول هدم فلسفة إزيس في مصر (وغيره ا م ن البلاد في الغرب والشرق) حتي عام ٣٩٤ ميلادية حين جاء الإمبراطور تيودور، وحطم تماثيل إزي س ومعاب دها ف ي

الإمبراطورية الرومانية ،وفي مصر ظل اتباع إزيس وكهنتها يقاومون حتي آخر معبد من معابدها في جزيرة فيلة.

كيف تحولت نوث إلهة السماء وازيس إلهـ ـة الحكمـ ـة ومعات إلهة العدل إلى حواء رمز الخطيئة فـ ـي التـ ـوراة؟! لقدارتبط هذا التحول بانتصار النظام العبودي ، أو ما يطلـ ـق علهي اليوم النظام الطبقي الأبوي ،والذي جعل " القوة"هـ ـي التي تحكم وليس العدل وليس المنطق.

أصبح الاله الذكر في التوراة لا يلد إلا الابناء الـ ـذكور ،تقول الأية في الإصحاح السادس (التكوين):

"وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض،وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسـ ـنات. فاتخـ ـذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا.. إذ دخـ ـل بنـ ـو الله علـ ـى بنات الناس وولدن لهن أولادا".

كذلك أصبحت ولادة الأنثي (في التوراه) ذات نجاسـ ـة مضاعفة، لا تطهر الام الوالدة من نجاسـ ـتها إلا بعـ ـد سـ ـتة وستين يوماً (إن ولدت ذكراً تطهر بعد ثلاثة وثلاثين يومـ ـاً فقط).

أما قهر العبيد فقط ارتبط بالجنس أيضـ ـاً و ولـ ـم يكـ ـن للطبقة الحاكمة من الآلهة الذكرو أن يقهروا الاجراء والعبيد دون عمليات جسدية مثل الإخصاء والختان.

كيف نشأ ختان الذكور في التوراه؟

في الإصحاح السابع عشر (تكوين) يعقد الإله مع النبي إبراهيم عهداً ،يقول له:

"أقيم عهدي بيني وبين نسلك من بعدك... عهداً أبـ ـدياً.. أعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً.. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم. يختن منكم كل ذكر.. فتتنون في لحم غرلتكم. فتكونعلامـ ـة عهـ ـد بيني وبينكم.. فيكون عهدي في لحمكم أبـ ـدياً.وأمـ ـا الـ ـذكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرلته فتنقطع تلك النفس مـ ـن شعبها. أنه قد نكث عهدي".

هذه هي الكلمات التي جاءت في التوراه ،تؤكد لنـ ـا أن إله اليهود رفع شعار " الأرض مقابل الختان". وهـ ـو شـ ـعار غريب فماعلاقة الاستيلاء على ارض الغير بالقوة المسلحة وختان الذكور؟!

لا يمكن أن نفهم هذا السر إلا إذا قرأنا مـ ا جـ اء فـ ي التوراه بعد ذلك. كان إبراهيم ابن مائة سنة وزوجته سـ ارة بنت تسعين سنة، لم يكن عندهما ابن يرثهما، اشارت سـ ارة على إبراهيم أن يتزوج جاريتها هاجر لينجب منها الولـ د ، لكن ما أن انجبت هاجر ابنها اسماعيل حتي غيـ رت سـ ارة رأيها ،طلبت من زوجها ابراهيم أن يطرد هاجر وابنها تردد ابراهيم قليلاً ، لكن سارة اقنعته بطردهما بعد أن انجبت لـ ه ولداً قالت إنه من عند الله فسأل ابراهيم الله مندهشاً:"هل يولد لابن مائة سنة وهل تلد سارة وهـ ي بنـ ت تسـ عين سـ نة" (الإصحاح ١٧/ تكوين ١٨) توسل إبراهيم إلى الله أن يجعل ابنه اسماعيل يعيش امامه ، لكن الله رد علىـ ه في التـ وراه قائلا:" فقال الله:بل سارة امرأتك تلد لك ابنا وتـ دعو اسـ مه إسحاق. وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده".

هكذا تمت الخطة حسب تدبير زوجتـ ه سـ ارة خطـ ة استغرقت ثلاثة عشر سنة بسبب تردد إبراهيم وتلكـ ؤه فـ ي طرد زوجته هاجر وابنها اسماعيل. أمرت سـ ارة بتختـ ين اسماعيل قبل طرده وعمره ثلاثة عشر عاماً،كما أمرت أيضا بتختين زوجها إبراهيم وعمره تسع وتسعون عاماَ.

تقول التوراه:" وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن في حلم غرلته وكان اسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته. في ذلك اليوم عينه ختن اب راهيم واسماعيل ابنه وكان رجال بيته ،ولدان البيت والمبت اعين بالفضة من اين الغريب ختنوا معه".

في الإصحاح الثامن عشر نكشف العلاقة الخفية ة ب ين الرب وسارة وزوجة إبراهيم إذ يظهر الر بعند ب اب خيم ة إبراهيم ،ومعه ثلاثة رجال، وسجد إبراهيم إلى الأرض ث م أسرح إلى سارة زوجته داخل الخيمة وق ال لهـ ا" أسد رعي بثلاث كيلات دقيقاً سميذا. أعجني واصنعي خبز مل ة. ث م ركض إبراهيم إلى البقر ،وأخذ عجلاً رخصاً وجيداَ وأعط اه للغلام فإسرع ليعمله. ثم أخذ زبداً ولبنا والعجل الذي عمل ه ووضعها قدامهم. واذ كان واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا".

بعد الأكل سأل الرب إبراهيم عن زوجته فقال له ها هي في الخيمة. "فقال إني أرجع إليك... ويكون لسارة أمرأت ك ابن. وكانت سارة سامعة في باب الخيمة وهو وراءه.وك ان إبراهيم وسارة شيخين متقدمين في الايام. وق د انقط ع أن يكون لسادة عادة كالنساء".

إلا أن سارة تحصل علـ ى ابنهـ ا اسـ حاق كيـ ف؟ لا نعرف،ولماذا كانت تقف وراء الباب تتسمع ما يـ دور بـ ين الرب وزوجها إبراهيم ،ولماذ كان الرب يسـ تجيب لجميـ ع طلباتها ويأمر زوجها إبراهيم بطـ رد هـ اجر وابنهـ ا إلـ ى الصحراء؟! وهل هناك إذلال للرجـ ل وهـ و فـ ي التاسـ عة والتسعين من عمـ ره أن يمسـ كه الرجـ ال يكشـ فونعورته، يقطعون غرلته بالموس أو قطعة من الحجر؟ لقد تلوث جرح إبراهيم ولم يلتئم إلا بعد زمن طويل من الألم والمعاناة ،حتي أنه اشتكي للرب من الألم وطلب منه الرحمة.

ويظل الشعار القديم أو العهد القـ ديم " الأرض مقابـ ل الختان" غير مفهوم وفي حاجة إلى دراسات اعمق لعصـ ور العبودية والصراعات على السلطة والمـ ال والأرض بـ ين الجماعات البشرية المختلفة.

إلا أن عادة ختان الذكور مثـ ل عـ ادة ختـ ان الإنـ اث أصبحت تتوارث عبر الاجيال رغم ما يصاحبها من مخاطر صحية مختلفة.

بل كثيرا ما حاول المجتمع البشري تبرير هذه العمليات الجسدية من أجل استمرارها، كانت السلطة الحاكمة فـ ي أي

مجتمع في حاجة دائمة إلى التحكم في أجساد النساء والعبيد د وتقطع اجزاء منها لاسباب قمعية تتخفي تحت الدين.

ولهذا انتشرت الشائعات حتي بين الاطباء أن عمليات الختان للإناث والذكور ضرورية من اجل النظافة أو الصحة ، أو لمنع بعض الامراض.

* * *

منذ اكثر من ثلاثين عاما حين نشرت كتابي " المرأة والجنس" ثارت السلطة الحاكمة في الدولة. لان الكتاب تضمن بعض الفصول التي تكشف عن المخاطر الصحية الناتجة عن ختان الإناث. كان هذا الكتاب (والذي صدر عام ١٩٦٩) هو فاتحة المشاكل في حياتي،والتي أدت إلى فقداني منصبي في وزارة الصحة في إغسطس ١٩٧٢ رغم ذلك أصدرت الكتاب من بيروت عام ١٩٧١. واعقبته بتكبت اخري على توالي السنين. نشرت كلها في بيروت أو معظمها.

لكني لم أتعرض في هذه الكتابات السابقة إلى المخاطر الصحية الناتجة عن ختان الذكور. كنت مشغولة بما تصورت أنه أهم من ذلك. كماانني لم اكن عرفت بعد شيئا عن هذه

المخاطر الصحية وهي معلومات حديثة نسبياً،لم يتم نشد رها في المجلات الطبية إلا في السنين العشرة الأخيرة.

لحسن حظي وصلت إلى ههذ المعلومات حـ ين كذ ت أستاذة زائرة في جامعة ديوك بولاية نورث كارولينا. بأمريكا الشمالية خلال الاعوام ٩٣، ٩٤، ٩٥ وقـ د شـ هدت هـ ذه السنوات الثلاثة حركة طبية واسعة النطاق،وفي انحاء متعددة من العالم لنشر المعلومات الجديدة عـ ن مخـ اطر خـتـ ان الذكور، وساعدت الثورة الإلكترونية الأخيرة في سرعة نشر هذه المعلومات وتكونت فرق من الأطباء تدعو إلى منع ختان الذكور وتقدم للجماهير العادي ـة المعلومـ ات الطبيـ ـة عبـ ر الإنترنت تحت عنوان:

"الاطباء يعارضون الختان" و بالانجليزية

."Doctors Opposing Cirumcision"

***

في المعركة ضد ختان الإناث انتصرت الحقائق الطبية والعلمية وصدر القرار في مصر بمنع ختان البنـ ات عـ ام ١٩٩٧، وقد حسم المعركة السلطة الدينية في مصـ ر حـ ين

أعلن الشيخ الأزهر أن الختان مسألة طبية من اختصاص الاطباء،وليست مسألة فقهية.

هذه عبارة صحيحة تماماً تنطبق على ختان الأناث والذكور وايضاً. والمفروض أن يطلع الاطباء في مصر على المعلومات الطبية الجديدة التي تؤكد أن ختان الذكور ضار صحياً وليس له أي فوائد كما اشيع قديما.

منذ ثلاثين عاما أو اكثر حين طالبت بمنع ختان البنات حصراً على صحة النساء سخر مني زملائي الأطباء ،وأكدوا أن ختان الإناث عادة صحية من اجل النظافة والجمال والعفة أيضا.

واليوم قد يسخر كثيرون من الاطباء حين نطالب منع ختان الذكور، لقد ورثوا كثيرا من الأفكار القديمة الخاطئة داخل علم الطب ذاته ، كما أن وقتهم الضيق لا يسمح لهم بالاطلاع على المعلومات الطبية الجديدة إن التعليم في بلادنا لا يزال يمشي بخطوة السلحفاة في عصر الالكترون والإنترنت.

المطلوب اليوم من وزارة الصحة ونقابة الاطباء أن تلعب دوراً فعالاً لتعريف الأطباء الشباب بهذه المعلومات

الجديدة ، والتي لا يمكن تلخيصها في مثل ه ذه المق الات الصحفية السريعة.

***

كما أن من حق الناس (من غير الاطباء) أن يعرفوا هذه الحقائق الجديدة حت يحمي الاباء والأمهات أبناءهم من ه ذه العادات القديمة الضارة جسدياً ونفسيا واجتماعياً.

***

أول رحلة بالمترو تحت الأرض في القاهرة

توقفت سيارتي ذات يوم فوقفت في الشد ارع لأرك ب تاكسي إلى الجيزة. كنت أعرف أن الاجرة خمسة جنيه ات، إلا أن صاحب التاكسي أراد أن يأخذ عشرة جنيهات. رفضت وجاء تاكسي ، آخر قال لي السائق ادفعي ما تشد ائين حـ ين ناولته الخمسة جنيها رفض وقال اريـ د ثمانيـ ة جنيه ات. ضيعت وقتا في الجدل مع السائق الذي كان غليظ الصد وت يستخدم لغة غير لائقة مما اصابني بالغضب. لم يكن عنـ دي وقت ولا طاقة نفسية لأواصل الجـ دل فأعطيتـ ه الثمانيـ ة جنيها. كنت اعلم انه يستغل كوني امرأة مثقفة ووقتي ثمـ ين وكرامتي اثمن ولا اريد أن اهدرها في الشارع مـ ع سـ ائقي التاكسيات. لهذا حصل مني على مبلغ لا يستحقه. رغـ م أن هذا المبلغ ثلاثة جنيها فقط إلا أن يومي كله تعكـ ر وسـ ؤال ظل يلح على كيف تركت هذا السائق يستغلني رغم ثقـ افتي ودفاعي الدائم عن العدل؟! تضايقت من نفسي لاني تنازلـ ت عن حقي. كنت أعرف أن أي استغلال لا يمكن أن يحـ دث

دون أن يتنازل الإنسان عن حقوقه، سـ واء كـ ان فـ رداً أو جماعة.

إن الشعب الذي يتنازل عن حقوقـ ـه يخلـ ق الحـ ـاكلم المستبد الظالم في الدولة. إن المرأةالتي تتنازل عن حقوقهـ ـا تخلق الزوج المستبد الظالم في الاسرقب. إن الراكبـ ـة التـ ـي تتنازل عن حقها تخلق صاحب التاكسي المستبد الظالم فـ ـي شوارع المدينة.

تعكر اليوم بسبب هذه الافكار التي تزاحمت في راسي. كنت احضر اجتماعا في جامعة القاهرة اتحـ ـدث فيـ ـه عـ ـن الديموقراطية ،ووجدتني أبدأ الحديث بأن أقول أن الإنسان أو الشعب الذي يتنازل عن حقه في الحرية لا يمكن أن يعـ ـيش الديموقراطية ،وفي الحزب السياسي ،وفي البرلمـ ـان وكـ ـل مكان. وحكيت ما حدث بين وبـ ـين صـ ـاحب التاكسـ ـي،وبدأ الحاضرون جميعاً نساء ورجالاً يحكون تجاربهم الشخصـ ـية ،وكيف انهم تنازلون عن حقوقهم كل يوم وكل لحظـ ـة مـ ـن أجل يهرولوا إلى مواعيدهم وأعمالهم التي لا تحتمل التأجيل.

في طريق العودة إلى بيتي قررت إلا اتنازل عن حقـ ـي ،ولن أدفع اكثر من خمسة جنيهات ،،أن اضـ طررت إلـ ـى العودة سيراً على القدمين. وفعلاً بدات السير وكنت متحمسة لهذه الحركة المتحدية لأصـ حاب التاكسـ يات ،واصـ ـابتني الحركة مع الحماس بشحنة من السعادة،وكانت الشمس مشرقة وهواء مايو منعشاً ، إلا أن المسافة بين الجيزة وحدائق شبرا بـ . دت أمـ . ـامي طويلـ . ـة ،وفجـ . أة رأيـ . ـت محطـ . ـة " المترو"كانت المرة الأولي في حياتي التي أري فيها متـ ـرو في القاهرة. لقد رأيت الكثير من محطات المترو في العـ ـالم وركبت القطارات تحت الأرض (داخل الانفاق) في معظـ ـم العواصم والمدن، توقفت لحظة وقلت لنفسي: ولماذا لا أركب المترو تحت الأرض؟! كنت أري العمال يحفرون شـ ـوارع القاهرة منذ سنوات،واسمع عن أن مدينة القاهرة سوف يكون بها قطارات تحت الأرض أو "مترو الانفاق".

لم يكن لي أن أصدق أن هذا سوف يحدث ،وإن حـ ـدث فلن أركب مترو الأنفاق في مدينة القاهرة! لمـ ـاذا سـ يطرت على الفكرة أن هذا المترو لن يسـ ـير ،وأن سـ ـار فسـ ـوف يتوقف أو يتعطل مثلماً تتعطل كل الاشياء في المدينة ومنهـ ـا

المصعد الذي ياخذني إلى شقتي في العمارة الجديدة في الدور السادس والعشرين وكم توقف بي المصعد حيث كدت اموت في يوم من الأيام وتدربت على الصعود على القدمين ستو وعشرين دوراً تصورت أن مترو الأنفاق لن يك ون احسن حالا من المصاعد الكهربية ،وقد ينقطع التيار في أي لحظة. بل قد يسقط النفق فوق القطار.اوحيدث حريق أو تتسرب مياه المجاري إلى تحت الأرض أو يهمل احدهم وينسي شيئاً فإذا بقطار يصطدم بقطار آخر وكم من حوادث قط ارات ف وق الأرض فما بال تحت الأرض؟!

إلا أن الشمس قد بدأت تشتد حرارتها ،وبدأ الطريق من الجيزة إلى شبرا طويلا وجمعت شجاعتي وهبطت إلى مترو الانفاق.

أصابتني ما يمكن أن يسمي " صدمة حضارية" كأنم ا أصبحت في أجمل المدن وانظفها وأكثرها احتراماً للش عب ،ربما هي مدينة في سويسرا أو السويد ، ليست أب داَ ه ي مدينة نيويورك أو لندن ،حيث أص بحت القط ارات تح ت الأرض ومحطاتها من أقذر الامكنة وأكثرها خطورة، أذك ر أن قطاراً احترق بي في نيويورك ،وقطاراً في لندن اصطدم

بقطار آخر ، واشتعل الحريق حتي كدت اختنق مـ ع الآلاف تحت الأرض لولا حضور بوليس النجدة والإسعاف.

تصورت أنني اصحبت خارج مصر ، لكنـ ـي تـ ذكرت انني داخل محطة مترو الانفاق،وانني واقفة على الرصـ ـيف النظيف أتطلع إلى الاسهم،والعلامات التي ترشدني إلى حيث أذهب. من حسن حظي أن خط الجيزة يذهب مباشـ ـرة إلـ ـى شبرا، رأيت فوق الرصيف زحامـ ـاً مـ ـن طلبـ ـة الجامعـ ـة والطالبات و وفلاحات وخادمـ ـات منـ ـازل يحملـ ـن سـ ـبت الخضار،وموظفين وربات بيوت،وفقراء ومن الطبقة الوسطي وفوق الوسطي ،رايت بعض اساتذة الجامعة وبعض السيدات الانيقات مـ ـن الطبقـ ـة العليا،ونسـ ـاء بـ ـالطرح والحجـ ـاب والنقاب،ورجال بالجلاليب وملابس العمال،كل طبقات الشعب المصري واقفة فوق الرصيف الطويل تنتظر القطار. فـ وق رأسي رأيت جهاز تليفزيون يتحـ ـدث باللغـ ـة الانجليزيـ ـة. اندهشت لماذا الانجليزيـ ـة مـ ـع أن جميـ ـع الركـ ـاب مـ ـن المصريين؟!جاء القطار وهبط الناس وصعد الناس في طابو منظم جميل ذكرني بأوروبا عيون الشباب تتطلع إلى المحطة والقطار بفرح وزهو، أو ربما هي عيوني التي ملأها الفرح

والزهو فتصورت أن كل العيون مثل عيوني. أجمل شئ أن أحدي الطالبات فتحت كتاباً وراحت تقرأ رغم انها كانت واقفة وليست جالسة في مقعد.

تذكرت كم كنت أعجب بالناس في أوروبا حين أراهم يقرأون في القطارات ولا يضيعون الوقت. قلبي يخفق بالفرح والحب لهذه الوجوه المصرية الحميمة والبشرة السمراء بلون بشرتي ، العيون السوداء بلون عيوني، إلا أن الفرح والفخر يملأها وليس الحزن القديم أو الهوان المزمن.

انطلق القطار بالسرعة التي تنطلق بها القطارات في اوروبا وأمريكا، يحملني على جناح السرعة إلى شبرا في دقائق،وانا أتطلع في سعادة إلى جدران المحطات المتعاقبة النظيفة الجديدة وكل شئ يبدو مفرحاً إلا بعد أسماء المحطات التي بدت كلها أسماء رجال حكموا مصر ، كأنما مدينة القاهرة تحت الأرض يملكها الحكام الرجال كما ملكوها فوق الأرض،ما هذا التقديس الموروث منذ الفراعنة لحكام مصر؟

كان يمكن أن تكون هناك محطة واحدة باسم حاكم في التاريخ حرر بلادنا من الاحتلال الأجنبي مثلا لكن أن نضع

اسماء كل الحكام هذا الذي حرر مع هذا الذي لم يحرر فهذا مؤلم فعلا لمشاعر الشعب المصري الذي يـ درك تمامـ ا أن ليس كل حاكم يستحق أن يمتلك محطة تحـ ت الأرض ، ألا تكفي المحطات فوق الأرض؟!

في أوروبا كنت أقرا أسماء كبار العلماء أو الأدبـ اء أو الفلاسفة الكبار الذين غيروا مسار الفكر البشري ليصبح أكثر إنسانية وعدلاً وحرية وجمالاً. أغلبهم رجال بالطبع وقليـ ل جداً من أسماء النساء الفيلسوفات أو الأديبات المرموقات. إلا أن مدينة القاهرة تحت الأرض في متـ رو الأنفـ اق مثلهـ ا كالمدينة فوق الأرض لم أقرأ اسم امرأة مصرية واحدة فوق أحدي المحطات! إلا اسم " سانت تيريزا" (علي خط المـ رج/ حلوان)، والسيدة زينبت!

ألا توجد امرأة واحدة في تاريخ مصر القديم أو الحديث تستحق أن يوضع اسمها فوق احدي المحطات؟! وكم تفخـ ر اوروبا بنسائها المشاركات في تحرير بلادهن أمثـ ال جـ ان دارك ، إلا توجد في مصر امرأة واحدة شاركت في تحرير بلادنا خلال القرون الماضية؟! أو شاركت في الفكر والأدب والعلم؟

وهل ينتقل العالم الذكوري الطبقي من فوق الأرض إلى تحت الأرض بهذا الشكل المؤلم؟ كانم ا بلادن ا مس كونة بالذكور فقط، وكانما أصحاب السلطة يركبون على انفاس نا تحت الأرض أيضا!

هبطت في محطة شبرا القريب من بيتي، قبل أن أصعد إلى الشارع ذهبت إلى ناظر المحطة لأطلب خريطة لخوات القطارات. لا يمكن لاحد أن يعرف طريق ه تح ت الأرض دون خريطة وفي كل مدن العالم يمكن الحصول على ه ذه الخريطة من شباك التذاكر. فوجئت بأن ناظر المحطة ل يس لديه خريطة. وان شبابيك التذاكر ليس بها خرائط. لماذا؟ لم يكن لي أن اعود إلى بيتي دون خريطة استرش د به ا ف ي رحلاتي القادمة داخل مترو الانفاق بعد نصف ساعة تقريباً. وبعد أن قلت أنني كاتبة مهمة جداً استطاع ناظر المحطة أن يحصل لي على خريطة. إنها مطبوعة بالالوان ف وق ورق مصقول لامع ثمين. اندهشت كثيراً لان خريطة مترو الانفاق في أغني بلاد العالم تطبع على ورقة عادية ولتك ون ف ي متناول الناس دون ثمن. سألت ناظر المحطة فقال ل ي م ا أدهشني.قال نحن لا نعطي هذه الخريطة إلا للسياح الأجانب

،ولذلك لابد أن يكون مظهرها براق جميل قلـ ت لـ ـه هـ ذا المشروع " مترو الانفاق" للشعب المصري ، وليس للسـ ياح الاجانـ ب، جميـ ع الركـ ـاب والراكبـ ـات مـ ـن المصـ ريين والمصريات فكيف تطبع الخريطة فقط للأجانـ ب؟ وكيـ ف تكون الاذاعة فـ ـي التليفزيـ ون علـ ـى الارصـ فة باللغـ ـة الانجليزية؟! ابتسم الناظر رقة وقا ل: والله مش عارف!

أشياء صغيرة قد تفسد جمال الاشياء مثل النقط السوداء فوق القلب الأبيض المملوء بالفرح ،قاومت هـ ـذه السـ لبيات القليلة التي يمكن أن تعالج عن طريق الكتابة والنقد من أجل أن يفرح الشعب المصري بمشروع جديد يحرره من عبودية المواصلات فوق الأرض ومنها التاكسيات ،وبـ ـدلا مـ ـن أن ادفع ثمانية جنيهات لصاحب التاكسي دفعت خمسـ ـين قرشـ ـاً (نصف جنيه فقط) ثمن التذكرة من الجيزة إلـ ـى بيتـ ـي فـ ـي شبرا.

أدخلت سيارتي الجاراج،واخرجت أصحاب التاكسـ ـيات من حياتي وقررت ركوب المترو تحت الأرض كل يوم.

مايو ١٩٩٩

أحلام إنسان بسيط

منذ ستين عاما وانت طفلة بالمدرسة الابتدائيـ ـة رأيـ ـت نفسك في الحلم داخل طائرة تسقطين منها القنابل مثـ ـل رذاذ المطر، فوق ثكنات الانجليز على شط قناة السويس.

وانت نائمة لم تحلمي بالعرسة اوالفستان ، أو الفرحـ ـة في عيني ابيك وأمك، قتلوها الاثنان امام عينيك وانت طفلـ ـة واخوك قتلوه واختك ،واطفال الجيران وزميلك في المدرسـ ـة ،والإنسان البسيط الذي خفق له قلبك ثم مات وهو شاب.

وأنت يا علاء رأيـ ـتهم فـ ـي طفولتـ ـك منـ ـذ ثلاثـ ـين عاما،وأنت طفل في الخامسة من عمرك،اصحبت وحدك بلا أم ولا أب ، وأرغمك الفقر على البقاء في مسقط راسـ ـك ، الذي لم يعد وطنك بل الأرض المحتلـ ـة بجـ ـيش اسـ ـرائيل المدجج بسلاح الإنجليز والأمريكان والفرنسيين وغيرهم ممن يحملون جواز سفر عربي.

وكل يوم تمشي في جنازة طفل شـ ـهيد، يحلـ ـم مثلـ ـك بركوب الطائرة وإسقاط القنابل فوق الثكنات المسلحة ، الحلم

الطفولي البسيط يا علاء لكل أطفال الحي الفقير فـ ي رام الله وغزة وغيرهما من المدن والقري.

كان يوم تمشي في جنازة شهيد أو شهيدة ،وتعود إلـ ى زوجتك وأطفالك الخمسة أكبرهم في التاسعة مـ ن عمـ ره ، ينامون بغير عشاء وبغير غطاء يراودهم الحلم الطفولي مثلك ومثلي وكل الأطفال في بلادنا الذين فقدوا الحلم.

حرمك الفقر يا علاء من التعليم فاشتغلت سـ ائقاً تحـ ت سيطرة حكومة الاحتلال، خمس سنوات وانت تقود الباصات كل يوم من الصباح إلى المساء نظير اجر ضئيل تنقل العمال من زملائك وجيرانك في قطاع غزة إلى تلك أبيب، ثم تعود إلى مسكنك الفقير من غرفتين في حي الشيخ رضوان شمال مدينة غزة.

خمس سنوات يا علاء وانت تقود الباصات وتمشي في الجنازات ترقد إلى جوار زوجتك صامتا مرهقا تفكـ ر فـ ي مستقبل اصفالك الخمسة ،وأطفال الجيران،وكل الاطفال الذين قتلوا أمام عينيك.

تنام كل ليلة وانت تفكر في الموت تسأل نفسك في الحلم إذا كان الموت هو النهاية فلماذا لا افعل شيئاً بسيطاً قبل أن أموت؟ ويشتغل عقلك الباطن في النوم ، تري نفسك داخل الباص.الذي لم يعد باصاً بل طائرة تقودها بنفسك،لم تركب في حياتك طائرة لكن قدراتك في الحلم تدهشك ، تقتحم بالطائرة عاصمة الاعداء ،تل أبيب نفسها تدخلها تلك التي لا يدخلها أي جيش عربي ولا جيوش العرب جميعا مجتمعين في القمم وغير القمم ، الجهابذة منهم والاباطرة والاسياد والسادة المؤيدين والمعارضين اليسار منهم واليمين والوسط ويسار الوسط ويمين الوسط فهؤلاء جميعاً يا علاء أصبحوا بغير سلاح إلا فصاحة اللسان في الشعر والخطب والمقالات المحبرة فوق الورق.

تري نفسك في الحلم يا علاء تقود الطائرة من الفولاذ وليس من الورق ، طائرة مصفحة تكاد تشبه الباص الذي تقوده كل يوم من الصباح إلى المساء يهتز بك سريرك وانت نائم حين تقتحم تل أبيب بالباص المصفح ،الذي أصبح يطير في الجو مثل الطائرة تماماً وأنت وراء عجلة القيادة.

في الصباح وجدت نفسك في بيتك موقوفاً عن العم ل.
منذ بداية الانتفاضة طردوك انت وزملاءك أصبحت تخ رج
كل يوم تبحث عن رزق أطفالك الخمسة وتعود فارغ الي دين
ستة شهور يا علاء وانت تمشي في الشوارع وفي الجنازات
، لا شئ أمامك إلا أن تموت أنت وأطفالك ، لك ن قب ل أن
تموت ماذا تفعل؟

هكذا رأوك تمشي في الشوارع شارد الذهن تدوس على
دم الاطفال الشهداء وتمشي تغمض عينيك لحظة تري نفسك
راكباً الباص كالطيارة تنقل زملاءك العمال حت ي مفت رق
اليازور، القرية التي دمرها جيش الاحتلال جنوب تلك ابيب
تدور عجلة القيادة في يدك نصف دورة وتنطل ق كالط ائرة
نحو ثكنات العدو.

تفتح عينيك يا علاء وتري نفسك تمشي ف ي الش ارع
تدوس على دماء لم تجف. تتعث ر ف ي اش لاء الأطف ال
والرصاص يدوي في اذنيك وانت تمشي.. هك ذا تمش ي لا
تعرف إلى أين لم تدخل في حياتك حزبا يا علاء. لم تنض م
إلى تنظيم أو جماعة لم تعلق في بيتك صورة ش هيد ،كن ت

مثال الطاعة والهدوء والعمل دون شكوي ،خمـ س سـ نوات تقود الباصات تحت عيون الرقابة والجنود والضباط المهـ رة المدربين على الاستجواب ولا تحقيق،ورؤساؤك في شـ ركة الباصات ، والجميع شخصوك بأنك إنسان بسيط لا تحيط بك أي شكوك لم يسبق لك أن اعتقلت من قبل جيش الاحتلال أو الشرطة الفلسطينية ،ولم تكن لك مشاكل سياسـ ية أو أمنيـ ـة اوجنائية ، انت إنسان عادي بسيط لك زوجة وخمس أطفـ ـال وليس شابا أعزب طائشاً.

كيف إذن يا علاء يحدث ما حدث صباح الاربعاء ١٤ فبراير؟ منذ ايام قليلة أعادوك إلى عملك ولم تعـ رف لمـ ـاذا اعادوك هل قمعوا الانتفاضة؟ هل مات كل الاطفـ ـال؟ هـ ـل نفدت كل قطع الحجارة من الشوارع؟

خرجت يا علاء ذلك الصباح صـ ـامتاً كعادتـ ـك شـ ـارد الذهن جلست وراء عجلة القيادة داخل الباض أنزلت العمـ ـال جميعاً عند مفترق اليازور جنوب تـ ـل ابيـ ـب وفجـ ـاة دارت عيناك نصف دورة رأيت الفرقة العسكرية ثلاثين من جنـ ـود الاحتلال واقفين هناك أغمضت عينيك كما في الحلم ،تحـ ـول

الباص إلى الطائرة المصفحة انطلقت نحوهم مثل الصد اروخ سقط منه ثمانية قتلي وواحد وعشرين جريحاً.

عقدت الدهشة ألسنة رؤسائك في شد ركة الباصد ات،لم يفهموا كيف يقوم إنسان بسيط مثلك بمثل هذا الهجوم ، لك ن زملاءك البسطاء قالوا: ما حدث لعلاء أمر بسيط طبيع ي ، إن ما نراه في حياتنا كل يوم يجعل الانسان البسيط منا يقوم بأي شئ ما فعله علاء لسي عملاً جنونياً، ولا انتحاري اً ولا أي شئ لقد فعل ما يفعله كل منا وهونائم في الحلم.

القاهرة– ١٥فبراير ٢٠٠١

***

عن توقيق الحكيم في ذاكراه الــ ١٥

أولاً: لأحياء الذكري:

إذا اردنا إحياء ذكري توفيق الحكيم اواي انسـ ـان انـ و انسانة قدمت افكارا جديدة تنتشـ ـل عالمنـ ـا الإنسـ ـاني مـ ـن الحروب أو العنف أو العدوان على حقـ ـوق الأخـ ـرين أو الأخريات ، فإن أفضل ما يمكن أن نفعله هـ ـو أن نـنـ ـاقش افكار هذا الإنسان ،أو هذه الانسانة مناقشة هادئة عميقة،وأن نعيد قراءة هذه الأفكار قراءة متأنية بحيث نكشف ما فيها من إيجابيات فنبرزها ونظهرها ونطرحها للنقاش علـ ـى أوسـ ـع نطاق وعلينا ايضاان نبرز السلبيات أو ما نراه سلبيات ممـ ـا يوضح نقاط الاختلاف في الأراء والأفكار المطروحة وكـ ـم نتعلم أكثر من اختلاف وجهات النظر ،لأن الاختلاف يكشف لنا عن نواحي الغموض " وعدم الفهم" إن العنف في الحوار غالباً ما يكون سبب(هو الذي قدم لي نفسه بصفته إسلامي) وبدأ كلامه لي بصوت غاضب عنيف إلى حـ ـد أن اسـ ـلاك التليفون كانت تهتز من عنف صوته، إلا انني اسـ ـتمعت لـ ـه

حتي النهاية ثم بدأت معه حواراً هادئاً حول نقاط الاخ تلاف بيني وبينه، ثم اكتشفت أنه لم يقرا كتابا واح دا م ن كت ب الاربعين، وأنه استقي معلوماته عني من بع ض الص حف التجارية المنتشرة في السوق هذه السنين، واعتذر الرجل عن عنفه وسوء فهمه أو عدم فهمه لأفكاري.

هذا مجرد مثل واحد لما يحدث في حياتن ا ك ل ي وم. ونحن نقع في هذا الخطأ ونكرره على نحو غريب ويشجعنا على هذا تلك الحوارات العنيفة التي نراها عل ى الشاش ة والقنوات الفضائية المحلية والعربية والدولية ،وق د أص بح" العنف في الحوار"كأنما هو موضه العصر الأمريكي ما بع د الحديث،وأشهر برنامج للحوار في الولايات المتحدة يحم ل اسم "cross fire" " التراشق بالنيران" وفيه يجلس الشخص في مواجهة الآخر ويتراشقان بالألفاظ والأفكار كأنم ا ه ي طلقات نارية فعلا،يحاول المذيع أو مقدم البرنامج أن يف ض العراك على نحو يشبه الحرب.

وهي يمكن أن نقضي عل ى الح روب الاقتص ادية واغتصاب الأرض أو الحقوق المادية للن اس م ن أرض أو

مياه أو انتاج زراعي أو صناعي ونحن نعيش الحرب اليومية حياتنا الفكرية والثقافية والأدبية؟

ربما لهذا لاسبب أكتب اليوم لأناقش فلسفة توفيق الحكيم في ذاكره الخامسة عشر، لقد مرت خمسة عشر عاما عل ى وفاة توفيق الحكيم،ولم أفكر في مناقشة فلسفته إلا اليوم. ربما كتبت مقالاً واحدة أو مقالين خلال حياته، ومثلهما عند وفاته أو في الذكري الأولي لوفاته ثم توقفت عن الكتابة عنه. ربما شعرت كأنما انفخ في قربة مثقوبة كما يقولون ،ولم أجد احداً متحمساً لأفكار توفيق الحكيم بعد موته ،أو ربما قل ة قليل ة كانت متحمسة ، ثم ضعف حمساها مع مرور السنين.

وهذه عادة سيئة نتوارثها جيلا عن جي ل من ذ عه ود الفراعنة ، أو السلطة المطلقة في المجتمع الكبير والعائل ةو الصغيرة ، أن " السلطة السياسية" هي التي تحدد لنا الافكار والقيم والثقافة والادب والفلسفة ، ويطغ ي عل ى الس احة الفكرية رجال ونساء السياسة وليس رجال ونساء الفكر.

ربما لهذا السبب شعرت بالزهد والابتع اد ع ن تل ك الضجة الإعلامية الكبيرة لاعادة مناقشة فلسفة جم ال عب د الناصر وعبد الحكيم عامر،و شعراوي جمعة وغيرهم م ن

القيادات السياسية لثورة يوليو ١٩٥٢ ،وانا بالطبع لست ضد مناقشة أفكار رجال ونساء السياسـ ـة لأن الفكـ ـر والسياسـ ـة والثقافة والاخلاق والاقتصاد وغيرها كلها متشابكة ويجب أن تكون متشابكة نظرياً وفكرياً واجتماعيـ ـاً. فـ ـالواقع اليـ ـومي المعاش يؤكد تشابكها وتلاحمها.

ولكني ضد تركيز الاضواء أو معظم الاضـ ـواء علـ ـى اصحاب السلطة السياسية،واعتبارهم قادة الفكر والفلاسـ ـفة. على حين نهيل تراب النسيان على المفكرين الحقيقيين من الرجال والنساء ، الذين زهدوا في السلطة من أجل التعمـ ـق في الفكر والفلسفة.

وكان توفيق الحكيم واحدا من هؤلاء الزاهـ ـدين ،وقـ ـد عرفته عن قرب شديد في اجتماعات لجنة القصة بـ ـالمجلس الأعلي للفنون والآداب، ولمدة ثلاثة أو اربعة أعوام من عام ١٩٦٩حتي عام ١٩٧٢،وكان هو رئيس اللجنة. وكنت أنـ ـا عضوة بهذه اللجنة آخرين وأخريات من الأدباء والاديبـ ـات. أذكر منهميوسف الشاروني ويوسف إدريس ونجيب محفـ ـوظ ولطيفة الزيات وثروت اباظة وغيرهم. كـ ـان اغلـ ـبهم مـ ـن

الشباب وانا كنت شابة انظر إلى توفيق الحكيم باعتباره مـ ن الكهول بشعره الابيض وشاربه الابيض وعصاه التي يتك ئ بها حين يمشي وصوته المبحوح قليلاً. وأسنانه الصفراء من الدخان ربما ،وخوفه من قيادات السيارات ،وكاذ ت قيـ ادة سيارتي كفتاة شابة تجعلني اكثر استقلالا من توفيق الحكـ يم، إذ أركبها واقودها وحدي إلى بيتي في الجيزة بعـ د انتهـ اء اجتماع لجنة القصة في الزمالك اما توفيق الحكيم فكان ينتظر ثروت أباظة ليأخذه بسياراته إلى بيته.

مع ذلك كان توفيق الحكيم اقرب إلـ ى مـ ن الشـ باب اعضاء اللجنة ، عيونهم كانت باهتة قليلاً إلى جانب عينيـ ه المتقدتين بالبريق الاشبه بالطفولي ، اقرأ في عينيـ ه شـ قاؤه الطفل الذي اصبح كهلاً ومع ذلك يحتفظ بطفولته وسـ ذاجته ومكره وكان توفيق الحكيم مـ اكرا مثـ ل معظـ م الفنـ انين الحقيقيين ذلك المكر النابع من دهاء الفن وذكاء الابداع وكان يحكي لنا النكت السياسية التي تنقد السلطة المطلقـ ة للحكـ م دون أن يتعرض لمضايقات رجال الأمن. وكان مثل الأطفال يضحك على النكتة قبل أن يحكيها لنا،بل كثيراً مـ ا كاذ ت سخريته تمتد من السلطة المطلقة فوق الأرض إلى السلطات

المطلقات في السماوات وإلي الفراعنة الآلهة في مصر القديمة.

وكم اود لو عندي الوقت أن اكتب كتاباً كاملاً عن توفيق الحكيم كإنسان وفنان وصاحب فكر وفلسفة. ربما نشرت بعض الكتب عن توفيق الحكيم ، لم أقراها ربما. إلا أن ما قرأته عن توفيق الحكيم قد سقط عنه اهم عناصر توفيق الحكيم الفكرية أو النية أو الإنسانية.

وفي هذا المقال الموجز عن توفيق الحكيم وفي ذاكراه الخامسة عشر اود أن اناقش فكرة واحدة من افكاره وهي فكرته عن تحقيق السلام فوق الكرة الأرضية هذه الفكرة شغلت المفكرين من النساء والرجال منذ نشوء العبودية وحتي اليوم.

ونحن نعيش اليوم هذه المشكلة الكبيرة المتعلقة بمشروع السلام أو عملية السلام الممطوطة بين دولة إسرائيل والشعب الفلسطيني وكيف يذبح هذا الشعب أمام عيوننا كل يوم تحت اسم السلام وهذه الكلمة " السلام" أصبحت مراوغة وثعبانية ومفزعة ومرعبة اكثر من كلمة "

الحرب" بل قد تبدو كلمة "الحرب" أحيانا بريئة وإنسانية إلى جانب كلمة السلام.

وما أحوجنا اليوم إلى أعادة قراءة افكار توفيق الحكيم وغيره من المفكرية والمفكرات عن كيف يمكن للسلام الحقيقي أن يتحقق في عالمنا الذي يسير نحو مزيد من الحروب والدمار الشامل.

ثانياً: وماذا يقول توفيق الحكيم عن تحقيق السلام؟

كان توفيق الحكيم متحمساً شديد الحماس لفكرة تحقيق السلام، في عالمنا البشري كله وليس فقط في عالمنا العربي ، كان مثل " ارسطو" الذي انشغل طوال حياته بالفكرة ذاتها، وكيف يتحقق السلام فوق الكرة الأرضية. إلا أن ارسطو عاش في العصر اليوناني العبودي (٣٨٤ – ٣٢٢ق.م) وكان جزءاً من هذا العصر وحين يكون الإنسان جزءا من شئ فإنه لا يري إلا هذا الشئ أو لا يراه كله ،العين لا تري نفسها رغم أنها الجهاز الذي يري ،وهذه مشكلة تعترض جميع الفلاسفة من الرجال والنساء، وهناك امرأة فيلسوفة في عصر العبودية خلع عينها لتري أكثر وهناك مثل مصري قديم يقول: إن آلهة السماء أعطوا المعرفة للعميان ،وأكثر الفلاسفة في الريف المصري كانوا من العميان،،من أشهر الفلاسفة في مصر "طه حسين"وكان لايري بعينه ولكن بالعقل والفكر والبصيرة.

ليس معني ذلك اننيب ادعو المفكرين والمفكرات في بلادنا إلى خلع عيونهم ،ولكني أود إن أقول أن العين لا تري نفسها، هذه بديهية تغيب عن عقولنا ضمن بديهيات أخري كثيرة وبسيطة ،ولانها بسيطة فإنها تفوت على نا ونحن نبحث عن المعقد والمركب وهذه عادة فلسفية سيئة ،إذ نتصور أن الفكرة المعقدة المركبة هي الفلسفة. في حين أن الفلسفة الحقيقية هي الواضحة البسيطة بساطة الحياة والطبيعة والجمال الطبيعي وضوء الشمس.

من الاشياء الواضحة اننا لا نري ظهورنا على نحو كامل كما يراها الآخرون والأخريات وكم نحاول من خلال المرآة أن نري ظهورنا دون جدوي وهذه حقيقة شغلتني في أول الشباب ، كنت أحسن نظرات الأخرين والأخريات فوق ظهري بعد أن استدير وأدرك (بغيظ شديد) انهم الغرباء عني اقدر على رؤية ظهري أكثر مني.

وهي مشكلة فلسفية ازلية تعرض لها ارسطو وغيره من الفلاسفة وقد عاش أرسطو القيم العبودية (أو القيم الطبقية الأبوية) ورضعها من أمه في طفولته دخلت هذه القيم والأفكار إلى عقله وجسده مع لبن الأم ،ولهذا عجز ارسطو

عن رؤية النقص في هذه الافكار ،ورغم أنه من رواد "العقل" في الفلسفة ونبذ الخرافات. إلا أن بعرض خرافاته العبوديـ ـة تسربت إلى فلسفته ومنها فكرة أن الله خلق العبيد والنساء من أجل الخدمة والاعمال الجسدية، اما الاعمال الفكرية فهي من اختصاص الاسياد من طبقة النبلاء ومنهم أرسطو.

وربما لو عاش ارسطو في زماننا هذا ما كـ ـان لـ ـه أن يؤمن بهذه الأفكار التي ثبت خطؤها بعد أن تحـ ـرر العبيـ ـد والنساء وظهرت لهم ولهن أعمال فكريـ ـة غيـ ـرت مسـ ـيرة العالم.

وكان النقاش يدور بيني وبين توفيق الحكيم عاجزاً عن رؤية المرأة المفكرة مثله، كان يتصور دائما أن عقل المـ ـراة أقل من عقل الرجل، وان قيمة المرأة في جمالهـ ـا الجسـ ـدي الظاهر وليس في عقلها. كنت أختلف معه في هـ ـذه الفكـ ـرة ،ومع ذلك ظل الحوار بيننا متصلا رغم الاخـ ـتلاف وهنـ ـاك رجال أدباء انقطع الحوار بيني وبينهم بسبب عنفهم في الكلام ،أو اتهامهم لي "بالرجولة" ومنهم يوسف إدريس ،الذي كـ ـان يتصور أن ذكاء المرأة يتناقض مع أنوثتها.

لاشك أن أغلب الأدباء والمفرين الرج ال ف ي بلادن ا عاجزون حتي اليوم عن فهم المرأة الحرة المستقلة عقلياً عن الفكر الذكوري الطبقي ، بمثل ما هو ع اجزون ع ن فه م الرجل الاجير في الأرض اوالمصنع الذي يق اوم اس تغلال الطبقة الاقطاعية أو الطبقية ربما كان توفيق الحك يم اكث ر تحرراً وتقدماً في أفكاره عن كثير من الرجال المعاصرين لنا اليوم وكان يدرك القهر الاقتصادي الواقع على الفقراء ف ي بلادنا وفي العالم كله.وكان يدعو إلى الغاء الفقر أو الج وع كشرط اساسي لتحقيق السلام على الأرض وهذه فكرة هامة ترطب بين الس لام السياس ي اوالعس كري وب ين الع دل الاقتصادي ، إلا انه وقف عن د ه ذه الح دود وعج ز عن تجاوزها بحكم انتمائه إلى قيم عصره الت ي رض عها ف ي طفولته ،وهي القيم الطبقية الأبوية، المختلفة كثيراً عن الق يم التي عاشها ارسطو ، إلا أن الاساس الفك ري له ا يظ ل متشابهاَ.

ويمكن في إيجاز شديد تلخيص فكرة توفيق الحكيم عن تحقيق السلام على النحو التالي:

١- تحقيق السلام عن طريق القضـ ـاء علـ ـى الجـ ـوع ،والغاء الحدود الدولية والخوف وعدم الثقـ ـة بـ ـين الدول.

٢- فصل موضوع السلام عن السياسة والأخلاق والقيم والعواطف.

٣- تحقيق السلام على اساس علمي بحت.

٤- استخدام الخيال العلمي والفني لصـ ـياغة مشـ ـروع السلام.

هذه النقاط الأربعة الاساسية لمشروع توفيـ ـق الحكـ ـيم تستحق الدراسة والتأمل بعمق وبها ايجابيات لاشـ ـك وبهـ ـا أيضا سلبيات وانا اتفق مع توفيق الحكيم في أن الخيال سواء في العلم أو الادب أو الفن يسبق دائما أي مشروع علمي أو أدبي أو فني. وهل يمكنان يكون هناك إبداع جديـ ـد فـ ـي أي مجال دون خيال؟ ولعل أهم ما ينقص النظم التعليميـ ـة فـ ـي العالم هي عجزها عن تنمية خيال الطفل والطفلة ،وتحت اسم المحظورات السياسية أو الدينية أو الاخلاقية.

ومن هنا عدم انفصال الاخلاق عن السياسة وعن الاقتصاد وعن مشروع السلام الذي يمكن أن يتحقق على الأرض. وربما اشير هنا إلى فكرة توفيق الحكيم التي تفصل بين السلام والأخلاق والقيم والعواطف أو التي تفصل بين ما هو علمي بحت وماهو اجتماعي وثقافي واخلاقي. وهل هناك شئ اسمه علمي بحت بعيداً عن السياسة أو الاخلاق والقيم والعوطف؟ وهل يختلف الخيال العلمي عن الخيال الأدبي أو الفني؟ وهل يمكن فصل التفكير عن الأحساس والعاطفة؟ هل يمكن فصل العقل عن الجسد؟!

هنا وقع توفيق الحكيم في الثغرة الفكرية ذاتها التي وقع فيها ارسطو وفصل بين الجسد والعقل وجعل الاعمال الجسدية من نصيب الفقراء والنساء وجعل الاعمال الفكرية من نصيب طبقة النبلاء الاسياد الرجال.

ربما لهذا السبب ظل مشروع توفيق الحكيم مشروعاً خيالياً غارقاً في الوهم والتعميمات دون النزول إلى ارض الواقع.

ظل مشروعه مجرد رواية ادبية مثل أعمال جول فرن وويلز وزيولكوفسكي وغيرها من الأعمال التي استشهد

بها،وهي أعمال ريادية فعلاً في عالم الأدب والفن وربما ساهمت في تغيير مسيرة العالم الإنساني على نحوما ، إلا انها عجز عن تحقيق السلام المنشود الذي نحلم به ويحلم به توفيق الحكيم.

وقد ظل توفيق الحكيم يتحدث عن مشروع للسلام في لجنة القصة بالزمالك وفي مكتبة بجريدة الأهرام ، كان يطلب لي فنجان القهوة (رغم ما اشيع عن بخله) ويتحدث مع الساعة وراء الساعة مشروعه الخيالي لتحقيق السلام في العالم.

–ولكن يا استاذ توفيق مشروعك ده غير قابل للتحقيق.

–ليه يا دكتورة؟(كان خجولاً يتحرج من أن ينطق اسمي).

–لأنك تفصل بين العلم والسياسة والأخلاق.

–لازم نفصل ،إنتي طبيبة درست الطب يمكنك عمل مشروع طبي علمي. لكن انا لم أدرس الطب ولا يمكن أعمل مشروع طبي علمي ،مش كدة؟!

–لا مش كدة يا استاذ توفيق ، لأن دراسة الطب وحده (كعلم منفصل عن المجتمع والسياسة والاخلاق) لا يمكن

تؤهلني لعمل مشروع طبي علمي ناجح يقضـ ي علـ ى الامراض ،ابداً.

–ليه أبدا؟

–لأن الأمراض هي ظواهر سياسية واجتماعية واخلاقية، ولا يمكن اعرف الاسـ باب الحقيقـ ة للأمـ راض الجسـ مية اوالنفسية إلا بدراسة المجتمع والسياسة والاقتصاد مـ ثلا اغلب الامراض في بلادنا بسبب الجوع والفقر.

–برافو انا معاكي الجوع اكبر مشكلة ولذلك لابد من القضاء على الجوع.

–أيوة يا استاذ توفيق. لكن كيف نقضي على الجوع بـ العلم البحث المنفصل عن السياسة والاخلاق والعواطف؟

–انا قصدي لازم مشروع السـ لام يقـ وم علـ ى فـ روض علمية،ووضوح الهدف مثل هدف الصعود إلى القمر ليه ما يكونش هدفنا "الطعام لكل فم" كل الافواه في العالم لو اكلت وامتلأت فإن الحروب تنتهي ويتحقق السلام ،مـ ش كده؟

-لأ مش كدة يا استاذ توفيق، لان المش كلة مش الطعام وخلاص، ولان الانسان رجل وإمرأة لا يمكن يعيش على الاكل بس ،ليس بالخبز وحده يعيش الانسان.

-ده كلام نظر يا دكتورة.

-لا يا استاذ توفيق ده كلام عملي.

-عملي أزاي؟

-مثلا انت عندك طعام مش كده؟

-طبعاً ،خصوصاً صنية البطاطس اهم عندي من ارسطو!

وضحك توفيق الحكيم مقهقهاً وكنت احب فكاهته كثيراً واضحك معه. لكني اعود إلى المناقشة وكان يرمقني بعينيه مندهشاً قليلاً كيف يمكن لامرأة أن تجادله على هذا النحو ،وهي امرأة شابة جميلة كما يقول لي ،وهذه المناقشة العقلية الجادة على هذا النحو وهي امرأة شابة جميلة كما يقول لي ،وهذه المناقشة العقلية الجادة تفسد جمالها وأنوثتها. لكني رغم ذلك كنت أواصل النقاش ، ومن أجل المعرفة الوصول إلى الحقيقة كنت مستعدة للتضحية بشبابي وجمالي وأنوثتي وكل شئ بما فيها الدعوة إلى تناول الغداء.

-إيه رأيك تأكلي معايا صينية البطاطس بدل المناقشة دي؟
-يا استاذ توفيق انا شايقة إن المشكلة ليس فق ط الطع ام صحيح الطعام ضروري، لا يمكن أفك ر أو أكت ب رواية على معدة فاضية ،لكن ممكن آك ل وام لا نفسي بالطعام وظيل عقلي خاوياً وتظ ل ع واطفي خاوية ،واظل أؤمن بالقيم الطبقية الأبوية التي تنظر إلى كامرأة شابة جميلة بلا عقل أو ناقصة العقل!
-انا قلت كده؟ ابدا والله ما قلت كده!
-انت يا استاذ توفيق تفصل بين العلم والعاطفة ، أو ب ين العقل والعاطفة وده مستحيل لان العاطفة جزء م ن العقل ، لأن الخيال جزء من العاطف ة ،ولا يمك ن فصل الخيال عن العقل عن العاطفة.

أنا عندي سؤال لك يا دكتورة؟ هل خيال الرج ل مث ل خيال المرأة؟ هل عاطفة الأم مثل عاطفة الأب؟ الأمومة كلها عواطف وإنسانية، لكن الرجل هو العقل.
-وعدم الإنسانية؟!
-أيوه المرأة أكثر إنسانية من الرجل وأكثر حناناً وعطفاً.
-علي الفقراء والجوعي؟

-أيوه.

-إذن المرأة أقدر من الرجل على عمل مشروع للقضاء على الجوع، لأن العاطفة أو الخيال لازم يسبق التفكير في المشروع زي ما انت بتقول يا أستاذ توفيق؟

-أنا معاكي المرأة أقدر من الرجل إذا اصبح لها فرصة في الحياة أو التحرر من القيود. لكن النساء عندنا عندهم عشق للقيود،المرأة المصرية تفضل الرجل الحمش اللي يخمشها مش كده؟

-لأ مش كدة، فيه نساء مصريات عندهم وعي وكرامة، ويفضلوا الرجل الإنسان القادر على احترام المرأة ومعاملتها كإنسان أو إنسانة كاملة العقل والجسم.

-يمكن الأقلية القليلة لكن الأغلبية

-أيوه الأغلبية خاضعة للقيم العبودية. لكن عدد النساء المتحررات في تزايد مستمر،ولازم نشجعهم لأن المجتمع نصفه نساء ،وأي مشروع للسلام أو للتنمية لا يخاطب النساء ولا يتعرض لمشكلة القهر الأبوي والجنسي مثل ما يتعرض لمشكلة الفقر أو الجوع أو

الفقر الطبقي أو الاقتصـ ـادي لا يمكـ ـن لمثـ ـل هـ ـذا المشروع أن يكون واقعياً ،سيظل مشـ ـروعاً خياليـ ـاً وهمياً لأنه يتجاهل نصف المجتمع الحقيقـ ـي وهـ ـن النساء.

– فيه مجتمعات نسائية ومشـ ـروعات كثيـ ـرة للمـ ـرأة يـ ـا دكتورة.

–أغلبها مشروعات خيرية أو اجتماعية لا تـ ـدخل ضـ ـمن القضايا السياسية الهامة مثل قضية الديموقراطيـ ـة أو قضية الفقر أو الجوع أو فضية السلام أو الاشتراكية.

–إنني ناصرية يا دكتور نوال؟

–لأ.

إنتي ماركسية؟

لأ.

– يا تري إيه خلافك مع كارل ماركس؟

–كارل ماركس لم يشمل نصف المجتمع من النسـ ـاء مـ ـن نظريته الماركسية.

–أنا معاكي ، لكن فريدرك إنجلز كتب عـ ـن النسـ ـاء فـ ـي كتابه" أصل العائلة"مش كدة؟

-ايوه، لكن إنجلز تصور أن خروج النسـ ـاء للعمـ ـل فـ ـي الصناعة سوف يحررهن ولـ ـم يـ ـدرك أن النسـ ـاء الفلاحات يخـ ـرجن للعمـ ـل فـ ـي الحقـ ـوق دون أن يتحررن،وأن الرجال يعملون في الصـ ـناعة دون أن يتحرروا، فالمسألة لسيت مجرد خروج المرأة للعمل بأجر خارج البيت.

-أمال إيه؟ الأجر يعني الطعام، وإذا أطعمت المرأة نفسـ ـها تحررت، مش كده؟

-أيوه،لكن الطعام لا يكفي للتحرر، المرأة إنسان لا يمكـ ـن أن تعيش بالطعام وحده، بالطبع يجب إشباع المعدة. لكن العقل أيضاً في حاجة إلى إشباع عـ ـن طريـ ـق الوعي والمعرفة والفكر والثقافة.

-الأول نملأ المعدة ونملأ الأفواه الجائعة، ثم بعد ذلك نملأ العقول، خطوة خطوة مش كده؟

-لأ مش كده يا أستاذ توفيق ، في رأيي أن نقـ ـدم الغـ ـذاء للمعدة والعقل في آن واحد، هل هناك مانع أن نقـ ـدم مع رغيف الخبز فكرة جديدة تدخل المخ؟

-برافو يا دكتورة،أنا معاكي في عدم فصل الثقافة عن السياسة وده يمكن يكون خلافي مع رجال الثورة.

-لكن إنت تفصل أيضا في مشروعك لتحقيق السلام بين السياسة والثقافة والأخلاق والعواطف ، مش كده؟

-أنا مؤمن بإلغاء الجوع والخوف والحدود الدولية وكل شئ في حياتنا لازم يكون في وحدة كما لو كانت الأرض وحدة بلا فروق بين البشر على أساس الجنس أو الجنسية أو الطبقية أوالدين أو العرق أو أي شئ آخر موافقة يا دكتورة؟

-أيوة يا أستاذ توفيق. لكن دي فكرة أخري غير مشروعك للسلام.

كانت الساعة قد قارت على الثانية والنصف بعد الظهر ،وكان ثروت أباظة قد جاء ليأخذ توفيق الحكيم إلى بيته،وتذكر توفيق الحكيم صينية البطاطس فجأة.

-أنا داعي الدكتور نوال على صينية البطاطس.

واتسعت عينا ثروت أباظة قليلاً وقال:

-أول مرة في حياتي أسمع توفيق بيه يعزم حد ع الغدا!

ولمعت عينا توفيق الحكيم بالبريق الطفولي وقال ضاحكاً:

-أنا عزمتها لكن أنت حادتدفع!

-أنا مستعد ديا توفيق بيه وعندنا صينية البطاطس معتبرة!

-أيوه الصواني الأباظية والألماظية!

-خلاص يا توفيق بيه، الصواني دي كانت مـ ـن عشـ ـرين سنة قبل الثورة المباركة!

-أصله رأسمالي يا دكتورة.

وضحك توفيق الحكيم وهو يمشي مع ثروت أباظة، الـ ـذي كان يسحبه من يده إلى البا،وقبل أن يخـ ـرج توفيـ ـق الحكيم لوح لي بيده مودعاً قائلاَ: أهو انتصر علـ ـى كي وأخذني منك.

كان ذلك آخر لقاء لي مع توفيق الحكيم، لوحت له بيدي مودعة،وأقول له اليوم،"وداعاً" بعد أن تأخرت فـ ـي وداعـ ـك خمسة عشر عامًا.

القاهرة -٢٧يوليو ٢٠٠٢

***

اختيار الصعب

تكشف الحوادث اليومية عن القيم الغائبة في الفكر المعاصر في بلاد العالم وفي بلادنا ينشغل أغلب الناس بالسهل السريع العائد، مثلاً في أمريكا ينشغل أغلب المثقفين بالحمي الانتخابية بين الحزبين المتنازعين على السلطة ،يتبادل المرشحون الاتهامات ، يحاول كل منهم خداع أكبر عدد من الناس بالوعود التي لا يمكن تحقيقها في ظل النظام الحاكم الذي ينطوي جميعهم تحته.

ضحكت وأنا أستمع إلى وعود جورش بوش(الابن) وآل جور (نائب كلينتون)،كلاهما سوف يقضي على الفقر والبطالة.

ألم نسمع المرشحين السابقين يقدمون هذه الوعود نفسها؟ هل قضي أحد منهم على الفقر في أمريكا؟ بل لقد زادت الهوة بين الفقراء والأغنياء!

بالمثل ضحكت وأنا أستمع إلى وعود المرشحين في بلادنا يجولون في الحواري الطافحة بالمجاري ،يقدمون الوعود نفسها للفقراء، سوف نقضي على الفقر والبطالة إن

دخلنا البرلمان أو مجلس الشعب. يقولون ذلك في الصد باح، وفي المساء يجلسون إلـ ى مائـ دة العشـ اء مـ ع الـ وزراء والمسئولين عن السياسة ، لاسباب متعددة منها عدم الفهم لما يسمي الإصلاح الاقتصادي ،أو التنمية التي تؤدي إلى توسيع الهوة بين الفقراء والأغنياء، ومنها الخوف من نقد أصد حاب السلطة، أو تجاوز حدود النقد المرسومة، أو تجاوز الخطوط الحمراء، مما قد يعرضهم للخطر،وليس فقط السد قوط فـ ي الانتخابات.

أغلب الناس في بلاد العالم(ومنها بلادنا) لا يذهبون إلى صناديق الانتخاب، لقد أدركوا اللعبة على مر السنين، منـ ذ نشوء ما سمي البرلمان، وهل نجح البرلمان في القضاء على الفقر والأغنياء وبين النساء والرجال ، تعاني النساء أكثر إلى حد شيوع الظاهرة التي عرفت باسم تأنيث الفقر؟ وهل نجح البرلمان في القضاء على الفروق بين الناس (بسبب الـ دين أو الجنس أو العرق أو اللون أو غيرها) أم أن هذه الفـ روق زادت وانتشرت الحروب والنزاعـ ات الطائفيـ ة والعرقيـ ة والعنصرية؟

ثم لماذا تشجع الحكومات الناس على المشـ اركة فـ ي الانتخابات؟ أليس هذا دليلاً على أن هذه الانتخابات جـ زء من نظام الحكم القائم على إفقار الإغلبية من النساء والرجال وخداعهم؟ وجزء من القيم التي تتحكم العالم القائمـ ـة علـ ى القوة وليس الحق؟ ألسنا في حاجة إلى طرح أسـ ئلة جديـ دة لنفهم لماذا يتراجع اصحاب الحق أمام أصحاب القوة المسلحة أو القوة الاقتصادية؟

أنظروا كيف أصبح القرار الأعلي في يد دولة عسكرية عنصرية مثل إسرائيل تقتل الأطفال ثم تخرج مـ ن السـ احة بريئة، ويصبح الأطفال هم المدانون المعتـ دون؟ فـ ي ظـ ل النظام البرلماني الديموقراطي في العالم يتحول الضحايا إلى جناة ،ويطلق سراح القتلة، أسمعتهم ما قالـ ـه كـ وفي عنـ ان المسئول الأول في الأمم المتحدة؟ لقد أدان الأطفال وطـ البهم بإيقاف عدوانهم على إسرائيل المسكينة، شئ مضحك فعلاً، لكن لماذا نذهب بعيداً وهذا المنطق ذاته يحكم حياتنا اليومية هنا في عقر دارنا؟

منطق القوة فوق الحق!

اقرأوا معي هذا الخبر الذي نشـ رته الصـ حف دون أن يعلق علي ه احد:

قتل موظف ابنته عمرها ١٧ عاماً لأن أحد أقاربه عنده ٥٧ عاماً استدرجها داخل الحقول واعتدي على ها مسـ تغلاً صغر عمرها وضعف بنيانها.ماذا نتوقع من محكمة عادلـ ـة؟ لكن العدل يغيب أمام القوة. تقف المحكمة مـ ع الأب القاتـ ل تتعاطف معه، تقول أنه فقد وعيه لحظة دفاعه عن شـ رفه! هكذا ضاع حق البنت المقتولة ظلماً وغدراً.

لكن هذه المحكمة ذاتها تحكم بالاشغال الشـ اقة عشـ ر سنوات على أم صغيرة عمرها ١٨ عاماً قتلـ ت مولودهـ ا. الذي أنجبته من رجل أخذها عنوة. خدعها بالزواج ثم هرب، وهي فتاة صغيرة فقيرة ليس لها أحد ،من شده حبها لمولودها وخوفها علي ه من قسوة المجتمع حوطته بذراعيها حي مات في حضنها وهي تبكي.لم تتعاطف المحكمة مع الأم الصغيرة الضحية كما تعاطفت مع الأب الكبير الأقوي،وقالت المحكمة إن الأم التي تقتل طفلها امـ رأة تجـ ردت مـ ن العواطـ ف الإنسانية، لماذا لم تقل المحكمة هذا الكلام عن الأب الذي قتل ابنته؟ صورت المحكمة هذا الأب القاتل على أنه ضـ عيف

وفاقد الوعي في لحظة القتل! أما الأم الفتاة الصغيرة الضحية فهي ليست ضعيفة،ولا يجوز لها أن تفقد الوعي مثل الرجل الكبير! كأنما الرجل هو الجنس الضعيف اللطيف الذي يستحق الرحمة،وليس المرأة أو الفتاة الصغيرة ،أي قلب الأوضاع!

لم ينطق أحد مدافعاً عن حق هذه الفتاة الصغيرة التي حكم عليها بالسجن مع الأشغال الشاقة عشر سنوات، ولم ينطق أحد دفاعاً عن الأبنة الصغيرة التي أهد دمها ،وكم من حوادث من هذا النوع تهدر فيها دماء البنات الصغار ظلماً وغدراً دون أن يعترض أحد داخل البرلمان أو خارجه من المدافعين عن حقوق الإنسان.

أليس دم هؤلاء البنات الأطفال مقدسا وثميناً مثل دم الأطفال في فلسطين؟

أليس دم البنت الطفلة المقتولة بيد أبيها مثل دم الطفل المقتول بيد إسرائيل؟ لقد غضبنا عن حق لمقتل الطفل الفلسطيني؟ فلماذا لم نغضب أيضا لمقتل البنت المصرية؟ هل لأنها تعيش في قرية فقيرة مجهولة؟ هل لأن صورتها لم تظهر في الصحف أو على شاشة السي إن إن؟

في طفولتي سمعت أبي يقول: أحترمت نفسـ ي حـ ين خيرتها بين السهل والصعب فاختارت الصعب. ربمـ ا لهـ ذا السبب لا انظر بإعجـ ـاب كبيـ ر لهـ ؤلاء الـ ذين يركبـ ون الموجة،وإذا كان الجميع على رأسهم الحكومات قـ د بكـ وا ولطموا الخدود حزنا على إهدار دم الطفل محمـ د الـ درة ، فلماذا لم يذرف أحد دمعة واحدة على هذه الطفلة المقتولـ ـة وغيرها من البنات الصغيرات المقتولات؟ بالطبع كان البكاء الجماعي سهلاً وميسوراً لا يعاقب علىـ ه احد، ومن السـ ـهل البكاء في الصباح ثم السهر في الليل مع الوزراء وأصـ حاب السياسة التي أدت إلى أهدار دم الطفل الفلسطيني البرئ.

نشهد هذا التناقض في حياتنا كل يوم، ينتابني الغثيـ ـان وأنا اشهد الصراع الدامي حول السلطة تحت اسم النيابة عن الشعب، أصبح البرلمان هو النكان،والانتخابات هي الوسـ يلة ويكيل المرشحون الوعود للفقراء والمعدمين، يعبئـ ون لهـ م الوهم في الزجاجات، من أجل المقعد تحت القبة. ألا تتكـ ـرر هذه الحمي في مواسم الانتخابات مثل مواسم الدودة والكوليرا والحمي الصفرا؟ وهل تحقق وعد واحد من هذه الوعود؟

المسرحية تتكرر ربما يتغير الممثون والممثلات. إلا أن المسرحية هي هي ،والوعود هي هي ، القضاء على الفقر والبطالة، ويظل الفقر بل يزداد ضراوة ،وبالطالة تزيد عاماً وراء عام، ألم تسمعوا عن الشباب المصري الذين يسافرون إلى إسرائيل بحثاً عن عمل؟ ألم تسمعوا عن أم قتلت طفلها لتحميه من الجوع أو الفضيحة فإذا بها تعاق بالسجن مع الأشغال الشاقة؟

هل دافع عضو واحد أو عضوة واحدة في البرلمان عن هذا القطاع من الأمهات المقتولات ، أو البنات البريئات اللائي يهدر دمهن وهن الضحايا؟ هل أدخلهن أحد المرشحين أو إحدي المرشحات ضمن برنامج الدفاع عن حقوق الشعب؟ ألا يدخل هذا القطاع المتزايد العدد على الدوام ضمن قطاعات الشعب؟

لا يمكن. فهذا هو الطريق الصعب الذي يدفع فيه الإنسان ثمناً باهظاً،وليس الطريق السهل الذي يمشي فيه الجميع، ليس الكورس الذي يشارك في المسرحية المعروضة بتصريح ،والذي ينتهي دوره بإنزال الستار والحصول على الأجر.

لاشك أن دماء الأطفال والنساء والشباب المهدرة علـ ى أرض فلسطين تستوجب العمل الجاد والمقاومـ ـة الفعليـ ـة ، وتجميع القوي العربية وغير العربية ضد الاعتداء الإسرائيلي العسكري وغير العسكري ، أصبحت هذه المقاومة ضرورية لحياتنا نحن وليس فقط مـ ـن أجـ ـل فلسـ ـطين، إن الزحـ ـف الإسرائيلي والأمريكي لن يترك بلداً واحداً مستقلا ،ولكن. إن فاقد الشئ لا يعطيه ،وإصلاح البيت من الداخل لا ينفصـ ـل عن إصلاحه من الخارج، والدفاع عن الـ ـدم المهـ ـدر فـ ـي الداخل، فالدم هو الدم بصرف النظر عـ ـن المكان،والطفلـ ـة الفقيرة في القرية المجهولة بالصعيد لها حقوق الإنسان مثـ ـل ابنة الملك أو الرئيس في أي دولة مـ ـن الـ ـدول الكبـ ـري أو الصغري.

أصبحت أتابع صفحات الحوادث اليومية في الصـ ـحف أكثر من أخبار النجوم والملوك والرؤساء، فهي تكشف عـ ـن المآسي التي يعشها المهمشون في الأرض ، عن قاع المجتمع حيث تعاني البنات الفقيرات، اللائي يتعرضن للمـ ـوت سـ ـراً دون أن ينطق أحد، بسبب حساسية ما نسميه الشـ ـرف،وهو

ليس الشرف الحقيقي النابع من العدل والصدق،بل الازدواجية الأخلاقية على المستوي العائلي والمستوي الدولي فـ ي آن واحد ، الازدواجية التي تجعل القوة فوق الحق، القوة الغاشمة التي تقتل تحت اسم الدفاع عن أمر الله أو الأرض الوعودة، بمثل ما تقتل تحت اسم الشرف،أليس الشرف المزيف مثـ ل الأرض الموعودة وشعارها الديني المزيف؟

قال أبي وأنا طفلة في السابعة من العمر: من السهل أن نركب موجة الغضب مع الجميع، لكـ ن مـ ن الصـ عب أن نغضب ضد الظلم حين يصمت الجميع، إنه أمـ ر صـ عب، لكني احترمت نفسي حين خيرتها بـ ين السـ هل والصـ عب فاختارت الصعب.

١

نوفمبر ٢٠٠٠

***

عن جورج بوش وتوني بلير

منذ أوائل سبتمبر ٢٠٠١ وأنا أعيش ف ي "نيوي ورك" وجارتها القريبة منها" نيو جيرس ي" شـ اهدت أحـ داث ١١ ستبمبر٢٠٠١ عن قرب شديد ، وسـ قوط مركـ ز التجـ ارة العالمي في نيويورك ،وعشت مع الشعب الأمريكي الأكاذيب التي تروجها وسائل الأعلام الأمريكية وتوابعها في الشـ رق والغرب. ولا احد هنا يعرف الحقيقة، فهي غامضـ ـة شـ ديدة الغموض ، تكاد تشبه الاساطير الواردة في الكتـ ـب القديمـ ـة وفي مجال " السياسة" كما في مجال " الـ دين" و " الجـ نس" تتناقض التفسـ يرات، وتتضـ ارب الأقاويـ ل، شـ أن كـ ل " المحرمات" الأخرى في العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً.

والحياة في نيويورك متناقضة مثل الحياة في القاهرة أو أي مدينة كبيرة في العالم، مظاهر الفقر والبطالة تزداد. تبدو شوراع نيويورك في الأحياء الفقيرة شبيهة بشوارع بـ ولاق والسيدة زينب وشبرا. ولاشك أن البعد عن الوطن والأهـ ل يزيد من الشوق والحنين، ويطمس الشوق والحنين كل ماهو " غير جميل" في الذاكرة الإرادية أو غير الإرادية. يبدو لـ ي

نهر " النيل أكثر جمالاً وإشراقاً من نهر " هدسـ ون" الـ ذي يفصل نيويورك عن نيو جيرسي. يحمل نهر "هدسون" اسـ م المستعمر البريطاني الذي غزا أمريكا الشمالية وأباد سـ كانها الأصليين الذين أطلق على هم اسم الهنود الحمر.

يغرق تاريخ أمريكا الشمالية بالدم كغيرها من بلاد العالم منذ نشوء العبودية أو النظام الطبقي الأبوي، ينسي الكثيرون هذه الحقيقة ،ويفصلون بين الغرب والشرق، أو بين العـ ـالم الأول والثاني والثالث، والحقيقة أننا نعيش في عـ ـالم واحـ د يحكمه نظام واحد ،وقيم طبقية أبوية واحدة رغم اختلافـ ـات الثقافات والعقائد والأديان.

وفي نيويورك اتسعت الهوة بين الفقراء و الإغنياء كما يحدث في جميع بلاد العالم الرأسمالي وتوابعه فـ ـي الشـ ـرق والغرب ،واتسعت الهوة بين ما يطلق على هم" أهل الخيـ ـر الذيم يخشون الله على رأسهم جورش بوش وتـ ـوني بليـ ـر، وأهل الشر أتباع الشيطان على رأسـ ـهم أسـ ـامة بـ ـن لادن وصدام حسين.

رأيت توني بليز وجهاً لوجه في مصر حين عدت إلـ ـى الوطن في عطلة رأس السنة الجديدة،خلال تجوله في معبـ ـد

سانت كاترينا في نهاية عام ٢٠٠١ وبداية عام ٢٠٠٢، كان ينحني امام سانت كاترينا ويقبل رأسها بعد أن يمسحها القسيس المصري بقطعة من القطن المبللة بالسبرتو الأبيض ، حتي لا تنتقل العدوي إلى فم توني بلير من الأفواه الأخرى التي تتنافس على تقبيل رأس سانت كاترينا قبل شروق شمس العام الجديد.

لقد استطعت اختراق الحاجز البوليسي من الجمهور العادي وبين توني بلير واسرته. كان المفروض أن تكون زوجته هي التي تليه مباشرة في تقبيل سانت كاترينا، إلا انني اخترقت السياج البوليس واصحبت خلف توني بلير مباشرة، وتقدمت من بعده إلى سانت كاترينا وانحنيت عليها متظاهرة انني أقبلها بعد أن مسح القسيس المصري رأسها بقطعة القطن المبللة بالكحول الابيض المطهر للجراثيم، مع ذلك لم أقبلها وانا ضد تقبيل الحجر الأسود والأوثان جميعاً بما فيها الحجر الأبيض والأحمر والأسود والأزرق وغيرها، لقد تخرج أبي من جامعة الأزهر وقال لي منذ الطفولة أن الإسلام جاء ليحرر الناس من عبادة الأحجار والأوثان.

القسيس المصري لم يفطن إلى أنني لم أقبل راس سانت كاترينا، تصورني زوجة توني بليز لأنني أقف خلفه مباشرة ،أو ربما واحدة من أفراد اسرته الذين بلغ عددهم حوالي عشرين رجلاً وامرأة وطفلاً بما فيهم طفل توني بلير الذي حملته إحدي القريبات.

دس القسيس في يدي قطعة القطن المبللة بالمطهر، والتي طوي داخها خاتماً مقدسا من الفضة الخالصة، هدية تمنحها سانت كاترين بعد تقبيل رأسها للعظماء فقط من عائلة توني بلير.

فطن إلى البوليس المصري،وأدرك أنني لست من عائلة توني بلير ،وأنني ربما أكون إرهابية اندلست بين الأسرة البريطانية المالكة أو الحاكمة لتطعن توني بلير من الخلف.

وحدثت مشادة بالصوت العالي بيني وبين البوليس المصري. قلت بجرأة الكاتبة المصرية القديمة التي أكتشفت الحروف الأبجدية قبل أن تكتشفها أوربا كيف تمنعوني من السير فوق أرض مصرية وتسمحون لهذه العائلة الإنجليزية التي استعمرت مصر ٧٢ عاماً،والتي تشن الحرب على أفغانستان والعراق و..... ، اندهش البوليس المصري من

صوتي العالي ، تصوروا أنني مندوبة رئاسة الجمهورية إلى سانت كاترينا ،وتركوني أتجول كما أشاء في المعبد ،وهك ذا تأملت وجه توني بلير طويلاً وهو يمشي بخطوات بطيئة من خلفه قبيلته ،وزوجته التي كانت ترمقني بعيذ ي الص قر ، مندهشة من وجودي بالقرب من زوجها، رغم أنها ل م ت ر وجهي من قبل أبداً ضمن أسرته.

ولم ينفرني وجه توني بلير كثيراً كم ا ينفرن ي وج ه جورش بوش الأبن أو الاب. يبدو وجه توني بلير في الحقيقة أفضل إنسانية من وجهه في الصحف والشاشة، يبدو ش اب رياضي فقير داخل بلوفر رمادي باه ت وح ذاء ك اوتش أبيض، وابتسامة منكسرة ربما لأنه كان في حضرة س انت كاترينا المقدسة،ولابد من الانحناء امامها متظاهرة ب الطهر والبراءة.

أما جورج بوش(الاب أو الابن) ، فقد رأيت وجهه على الشاشة فقط، يشبه الابن أباه في الملامح بحيث أصد بحت لا أفرق بينهما،والصوت أيضا وطريقة الضغط على مخ ارج الألفاظ لتأكيد ما يقوله عن الشيطان أو محور الشر والآي ات

التي يلتوها من الكتاب المقدس ليعلن الحرب في الخل يج أو في أفغانستان.

رأيت وجه جورش بوش الابن قبل أن يعتل ي الحك م، حين كان يصارع للنجاح في انتخابات شبه مزورة. كنت في مدينة" بوكا راتون" في فلوريدا، في الولاية ذاتها الذي كشفت عن مهزلة الانتخابات الأمريكية. كان وجهه منكس راً يك اد يشبه وجه توني بلير وهو يقبل رأس سانت كاترينا. إلا إن ه بعد أن اعتلي العرش تغير وجهه. أصبح يشبه أب اه. كي ف تغير السلطة الوجوه بهذه السرعة؟ كيف تظهر التجاعيد فوق الوجه الذي كان شاباً وكان ناعماً أملس مستديراً يشبه وجوه الأطفال، البذين يرضعون اللبن الصناعي المزود بالفيتامينات الأمريكية.

أصبح وجه الابن بوش نسخة طبق الأصل م ن الاب، تلعب السياسة والوراثة دورها في رسم ملامح الوج ه،ونبرة الصوت،وبربشة العينين الضيقتين مع انقباضة الفم الخ الي من الشفتين.

هذا الفم الرفيع والشفتان ش به المتلاش يتين تش بهان الشفرتين في موسي الحلاقة، هذا الفم يصلح تمام اً لإعل ن

الحرب على الأبرياء ، أو النطق بحكم الاعدام على النساء البريئات تحت اسم الشرف أو القيم العائلية.

هذا الفم يشبه الآله المعدنية الحاده ، أتخيل هذا الفم وهو يقبل زوجته ، هل يمكن لهذا الفم أن يقبل امـ رأة؟! خيـ الي يعجز عن تصوره يقبل شفتي امرأة دون أن يستأصلها مـ ن جذورها مثل شفرتي الموس تماماً.

وقد أصبح جورش بوش بعد أحداث ١١ سبتمبر وبعـ د انتصاره العسكري في أفغانستان كأنما هو بطل الحرب ضد الأرهاب، كما كان أبوه بطل حرب الخليج ضـ د الشـ يطان الغطرسة ذاتها والغرور وادعاء الصلة بالله، التكلم بلغـ ة لا تفصل بين السياسة والدين، وتشـ جيع التيـ رات المسـ يحية واليهودية والإسلامية أيضاً ، بشرط إلا تكون الأخيرة تاعبة لما يسميه الإرهاب الإسلامي، بل تكـ ون مسـ المة وادعـ ة مطيعة للسياسة الأمريكية والديموقراطية وحقوق الإنسـ ان. (الإنسان هنا يعني الأمريكي).

فساد السياسة الرسمالية الذكورية:

أثبتت لي الحياة في نيويورك وفي غيرها من مدنالعامل غربا وشرقا أن هذا النظام الرأسمالي الذكوري الذي يحكمنا دولياً ومحلياً وعائلياً لن يستمر ، لأنه ضد المنطق والعـ دل والحرية والجمال.

إنه نظام فاسد وقبيح يتكثف قبحه مع مرور الأيام، فهذه الفضائح السياسية والاقتصادية والاخلاقية تتكثف عن طريق التسرب إلى الصحف رغم أجهزة الرقابة.

وكم كشفت أحداث انهيار وإفلاس الشركة الرأسـ مالية الكبري " إينرون" عن فساد الشركات العملاقـ ـة الأمريكيـ ـة والمتعددة الجنسيات، وعن ارتباط هذه الشـ ـركات بتمويـ ـل الدعايات الانتخابية لمن يتولون الحكم في الولايات المتحدة ، عن ترابط مكاسب حكام الدول غرباً وشرقاً بهذه الشـ ـركات الرأسمالية العالية. كشفت الصحف الأمريكية عن تورط عدد من قيادات الحزب الجمهوري والديمقراطي معاً في فضيحة شركة إينرون على رأسهم الرئيس الأمريكي الراهن جورج بوش الإبن.

يحاول منافسوا جورش بوش استغلال الموقف. ومه نهم المرشح السابق" جون ماكين" الـ ذي أعلـ ن علـ ى شاشـ ة التليفزيون أن انهيار شركة إينرون سوف يكشف عن كثيـ ر من الخفايا في السياسة الأمريكية الحالية. بالطبع يحلم" جون ماكين" في كرسي الحكم بعد زوال جورش بوش، كما حلـ م جورج بوش بكرسي الحكم بعد زوال بيل كلينتون، وتجـ ري لعبة التنافس على السلطة بأدني الوسـ ائل ، أقلهـ ا الكـ ذب والافتراء وتضليل الجمـ اهير وشـ راء أجهـ زة الاعـ لام. أصبح"لاري كينج" أحد المذيعين على شاشة " السي إن إن " أهم من الرئيس الأمريكي ، أمـ ا المذيعـ ة الأمريكيـ ة ذات الرموش الصناعية على شاشة " السـ ي إن إن" ذاتهـ ا فقـ د اصحبت أهم من أي رئيس دولة مـ ن دول العـ الم الثالـ ث، يجلس امامها ذلك الحاكم أو ذلك الملك الجبار في بلده يجلس أمامها مؤدباً رقيق الصوت مكتوف الذراعين والساقين مثـ ل الفتاة العذراء.

يحاول أعوان جورش بوش كتمان أسرار شركة إينرون وإخفاء أسماء المتورطين فيها من الحزب الجمهوري، رغـ م

أن المنافسين لهم يقودون الراي العام الأمريك ي مط البين بكشف الأسرار وكشف الأسماء. وتدور اللعبة كما دارت في الفضائح السابقة ف ي عص ر نيكس ون وكلينت و وك ارتر وجونسون وروزفيلت وغيرهم وغيرهم. فلا يخلو عهد م ن الفضائح في كل حكومات العالم. الفرق الوحيد بين الغ رب والشرق ،أن الفضائح في الغرب تنكشف أثناء حياة الح اكم، أما في بلادنا فهي لا تنكشف إلا بعد موته.

وكم يتعاون عمداء الجامعات في أمريكا مع الش ركات الرأسمالية الكبري مثل "إينرون" ، التي تشارك ف ي تموي ل هذه الجامعات، وفي الضغط السياسي لتعيين هؤلاء العم داء أو رؤساء الجامعات.وقد اتضح ذلك من تردد عمي د كلي ة الحقوق في جامعة تكساس في الإدلاء برايه عل ى الشاش ة حول شركة إينرون، مبرراً تردده بأنه ل يس خبي راً ف ي القانون، وبدا كلامه متناقضا مضحكاً لأنه عميد كلية القانون في جامعة تكساس.

إن ولاية تكساس هي الولاية التي تسيطر على ها عائلة بوش" الاب،والابن" ،و" الروح القدس"،والت ي لعب ت دوراً كبيراً في حرب البترول في الخليج العربي ، وفي أفغانستان

وبحر قزوين،والحروب البترولية القادمة خلال ع ام ٢٠٠٢ الذي سماه جورج بوش" الابن " عام الحروب" للقضاء عل ى " محور الشر" التي حدثت (العراق وإيران وكوريا الشمالية).

كنت طلفة حين سمعت عن محور الشر" المانيا وايطاليا واليابان" منذ أكثر من ستين عاماً،واليوم يعيد جورج ب وش اللغة القديمة،والثنائيات المزمنة منذ نشوء العبودية، الخير / الشر، الله/ الشيطان، الذكر/ الأنثي، السيد/ العبد، الأب يض/ الأسو،الشرق/ الغرب، الإسلام/ المسيحية.... الخ إلخ.

وفي جامعة نيويورك ونيو جيرسي يتضاحك الأس اتذة والطلبة المتظاهرون ضد سياسة جورج بوش. يقول ون إن هناك دولاً متعددة تعترض لأنها لم تدخل " محور الشر" الذي أعلن عنه بوش ،ومنها سوريا وليبيا وكوبا وغيرها من البلاد التي غضبت على ها الولايات المتحدة زمنا ط ويلا؟ كي ف أفلتت هذه البلاد من غضب الإله الأمريكي الذي أصبح يحدد لنا من هو الشيطان أو الشياطين في هذا العالم؟

لاشك أن " شارون "ملاك طيب مح ب للس لام، ام ا الشياطين في فلسطين ، فهم هؤلاء الأطفال/ الش باب ال ذين

يواجهون الدبابات الإسرائيلية بصدورهم العارية أو بقطع من الحصي والطوب،هؤلاء الشياطين الصغار هم سبب الإرهاب وإراقة دماء الإسرائيلين الإبرياء!!!

ولماذا لم ترد " الصين" في محور الشر؟ هل لأن عـ دد الصينيين أصبح يزيد عن بليون و ٣٠٠ مليون نسمة، ويمكن لهؤلاء أن يزحفوا كالنمل على أي دولـ ـة ومنهـ ـا أمريكـ ـا العظمي ويأكلوها كما يأكل النمل الزرع؟ أم لأن جورج بوش يزور الصين هذه الايام ضمن لعبة السياسة ، وفساد الفلسفة البراجماتية التي تقول: حـ ـاول أن تأكـ ـل عـ ـدوك قبـ ـل أن يأكلك،وكل وسيلة مشروعة حتي القتل من أجل بلوغ الغايـ ـة والهدف؟

تبتلع الصين مرارتها من السياسة الأمريكية ومحاولاتها لخلق الأعداء على حدودها في تايوان والتبت، والفتن الدينية المصنوعة بين الكاثوليك والبروتستات في الجنوب.

يلعب النظام الأمريكي بورقة الدين لتقسـ ـيم الشـ ـعوب وإخضاعها ، على غرار الاستعمار البرطاني القديم. الـ ـذي فجر الفتن الدينية والطائفية من الهند إلى مصر خلال القـ ـرن العشرين.

لكن الصين تشد ارك ف ي اللعب ة ،ولها ا أغراض ها ومصالحها من الحرب ضد الإرهاب في جنوب آسيا وشمال كوريا ،وفي الصراع بين الهند وباكستان ،وفي كسب بعض الأرباح الرأسمالية من التجارة العالمية المشتركة.

وأتابع قراءة الصحف ف ي نيوي ورك خ لال فبراي ر ٢٠٠٢، بعد عودتي من بورت و أليج ري ف ي البرازي ل ،فتصيبني أكاذيب الصحف العالمية والعربية بالغضب، كيف تتخلي الحكومات العربية على مسئوليتها عن ال دفاع ع ن شعوبها بما فيها الشعب الفلسطيني تحت سيل من العب ارات الرنانة الخادعة؟!

أكث ر الناس تشدقا بالقضية الفلسطينية في بلادنا أقلعهم عملاً للدفاع عن حقوق هذا الشعب أو غيره م ن الش عوب العربية ، لتتسع الهوة بين القول والعمل.

الرومانتيكية والغموض في السياسة الفاسدة:

كنت أسمع أبي من طفولتي ع ن " المراوغ ـة " الت ي يستخدمها الاستعمار البرطاني في مفاوضاته مع مصر لإنهاء الاحتلال العسكري لبلادنا. كان أبي يقول دائماً:لا افهم شـ يئاً من كلام هؤلاء الانجليز لأنه غامض وغير محدد وغارق في الكلمات العامة المجردة ذات الرنين العاطفي المزيف!

أتذكر كلمات أبي وأنا أقرأ عن المفاوضات بين إسرائيل والفلسطينيين ، يلعب الإسرائيليون بالكلمات وبالألفاظ العامة الغامضة لمجرد كسـ ب الوقـ ت ولقتـ ل أكبـ ر عـ دد مـ ن الفلسطينيين.

في صحف نيويورك (١٤فبراير٢٠٠٢) أري صورة " شيمون بيريز" وهو يقدم عرضاً جديدا للسلام ، لا يحدد فيـ ه شيئا عن أي شئ يخص القضية الفلسيطينية، حـ دود الدولـ ة المقترحة مثلاً ، أو شيئا عن عاصمة الدولة أو مدينة القدس ، أو مشكلة المستوطنات الاسرائيلية أو غير ذلك من المشـ اكل المزمنة المعلقة ،ويقول للصحف: أجل ايهـ ا السـ ادة، إنـ ي أعرض اقتراحا جديدا غامضا غارقاً في الرومانتيكية ، لكنه الغموض الإيجابي البناء الذي قال به كيسنجر ، حيـ ث إنـ ه

قال: "إن عمليات السلام والحرب تتم دائم ا ف ي الضد وء الخافت ،وليس في ضوء النهار السد اطع، أجد ل ك م ك ان كيسنجر محباً للرومانتيكية والأضواء الخافتة ف ي رحلات ه المكوكية إلى بلادنا في عهد السادات ،وك م أدت عواطف ه الغامضة إلى دمار الوحدة المكوكية إلى بلادذ ا ف ي عه د السادات ،كم أدت عواطفه الغامضة إلى دمار الوحدة العربية والهزائم المتكررة للعرب أمام إسرائيل.

وفي الصورة أري شيمون بيريز يبتسم ويبدو ك الملاك المرسل من السماء لإنقاذ الشعب الفلسطيني من الهلاك. وفي أسفل الصفحة أري العساكر الإسرائيليين يسوقون الأطف ال/ الشباب الفلسطيني العرايا الصدور المغطاة عيونهم بالأربطة، والمقيدة أيديهم وراء ظهورهم بالسلاسل ، تظل على هم من فوق الصفحة ابتسامة شيمون بيريز الملائكية، تودعهم برقة وحنان إلى مثواهم الأخير.

وماذا يحدث في بلادنا العربية؟ هناك خبر يق ول إنه ا مشغولة بأحداث أخري أكثر أهمية وذلك أنها يحاولون تتب ع مسار" القمر" في السماء بالعين المجردة لمعرفة متي يبدا عيد

الأضحي المبارك. وكيف أن القمر الجديد سيولد من القمر القديم ليلة الثلاثاء ١٢فبراير ٢٠٠٢.

تعمدت صحف نيويورك في الشهور الأخيرة منذ أحداث ١١ ستبمبر ٢٠٠١أن تضغط على المملكة العربية السعودية على نحو ريق خفيف ،أو تنشر بعض الدعابات الخفيفة ، ذلك أن اعتماد الأمريكيين على البترول السعودي يجعل اللهجة مؤدبة في التعامل السياسي والصحفي، بخلاف اللهجة القاسية الموجهة لحكومات عربية أخري غير بترولية.

وقد ارتفعت اصوات أمريكية تحرض جورش بوش على عقاب المملكة العربية السعودية كغيرها من الدول التي تساند الإرهاب، أو ما تسميه أمريكا الإرهاب الإسلامي وكتب أحدهم في الصحف منذ أيام يقول"لماذا هذا التراخي الأمريكي للسعودية ، هل لأنها تملك البترول الأرخص والأنقي الذي نحتاج إليه نحن الأمريكيين؟

إلا إن الصحف اتهمت هذا الكاتب بالرومانتيكية أو السذاجة السياسية،وقالت أن الفلسفة البراجماتية الأمريكية لا تعترف بالعواطف الروماتيكية والاحلام المستحيلة في الحب

والسياسة وانه طالما هناك بترول عربي أرخص وأنقي مـ ن أي بترول في العالم فلن تكف الولايات المتحدة عن مغازلـ ـة البلاد العربية الثرية بالبترول، بل إن الولايات المتحدة علـ ـى استعداد للتفاوض مع (السري أو العلني) مع أي دولة عربية بترولية، وإن كانت في محور الشر سابقاً أو لاحقاً كـ ـالعراق أو ليبيا أو غيرهما.

نيويورك – فبراير ٢٠٠٢

***

١-عيد الحب وعيد المسلمين على شاطئ نهر هدسون

أتمشي على شاطئ نهر هدسون ما بين نيويورك ونيو جيرسي ،الشمس تظهر وتختفي تحت السحب ، نحـ ن فـ ي شهر فبراير عام ٢٠٠٢ يقولون عنه الشتاء الـ دافئ. كانـ ت الشمس ساطعة معظم الوقت ،وأنا احب هذه الشمس الدافئة ، تلامس وجهي كأنامل أمـ ي وتـ ذكرني بـ الوطن والحـ ب والسجن،ربما تكون هناك علاقة بين الحب والسـ جن، أهـ ي الحرية نفقدها حين نعيش الحب؟ أو الوطن والحب معاً؟!

جاءني في الصباح صوت ابنتي مـ ن القـ اهرة. يشـ به تغريد عصفورة عند ظهور أول خيوط الفجر:

-كل سنة وانت طيبة يا أمي

-النهاردة إيه يا مني؟

-عيد الحب يا أمي.

إنها ابنتي الكاتبة الأدبية "مني حلمي" الوحيدة في أسرتي التي تذكرني بالاعياد ،ولا احد يتذكر عيد ميلادي إلا هـ ي، ربما يذكرني أحيانا زوجي(الروائي شريف حتاتة) حينما لا

يكون مشغولاً بشئ أهم. أما أبني (عاطف حتاتة، المخ رج السينمائي) فهو ضعيف الذاكرة فيما يخص أعياد ميلاد امه وأبيه وأخته وغيرهم من أعضاء الاسرة البيولوجيه ة،وكنت مثل ابني منذ أربعين عاما وانا في ريعان الشباب. لم أك ن أتذكر عيلاد ميلاد أمي أو أبي ، أو عيد ميلادي ، كان بيتن ا يشهد كل عام مولد طفل جديد، وأبي يزمجر حين يطلب منه الاحتفال بعيد ميلاد طفل من أطفاله ،ويقول ساخراً:

يعني أعمل عيد ميلاد كل شهر ولا أيه؟!

أما أمي السيدة "زينب هانم شكري" حفيدة "طلعت باشا" في اسطنبول فكانت تري أن أبي أفضل من أبيها،وانها ل م تتزوج أبي إلا لتهر بمن بيت أبيها شكر بك!

رغم كل ذلك كانت طف ولتي سـ عيدة مليئ ة بالحـ ب والدفء، أكثر سعادة من طفولة زميلاتي الأمريكيات هنا في نيويورك ونيو جيرسي. واحدة منهن تقول لي في عيد الحب (يسمونه هنا –"عيد فـ الننتين" وهـ ي اسـ تاذة فـ ي جامعـ ة متخصصة في الدين الاسلامي(نشأت منذ الطفولة يا نـ وال في اسرة كاثوليكية وكان أبي قسيساً تمرد عل ى الكنيسـ ة

واعتنق الإسلام، إلا انه كان محافظاً متزمتاً لا يعترف بشئ اسمه الحب).

وكان ابي نقيضا لابيها يؤمن بالحب، ربما كان يعوض بالحب والحنان ما يفتقده الفقراء من ماديات الحياة،وقد أغرق أبي في الحب أمي و حتي أصبحت تلد طفلا كل عام ، ث م ماتت وهي في ريعان الشباب. ممسكة يدي في يدها، وعيناها تملؤهما دهشة طفولية.

–كل سنة وانت طيبة يا ماما.

إنه صوت ابنتي المغردة في الصباح الباكر، وقد أدبـ ر عيد الحب منذ أسبوع وجاء عيد آخر هو " عيد الأضـ حي"، (يوم٢٢ فبراير ٢٠٠٢)، ضحكت مع ابنتي وسألتها ذبحـ تم خروف يا مني؟

لم يكن العيد في طفولتي عيداً دون ذبح الخروف ،الذي كان يرمقني وهو يذبح بعيني متسعتين تملؤهما دهشة طفولية ،وأتصوره طفلا مثلي يذبحه أبي في العيد، وسـ وف يـ أتي الدور على حتما ليذبحني أبي طاعة لأمر الله، كمـ ا فعـ ل سيدنا إبراهيم مع ابنه اسماعيل. كنت في الثامنة من عرمـ ي لا اواظب على الصلاة، وفي أيام القيظ في رمضان اختلس

من وراء أبي رشفة ماء من قلة الفخار الباردة اللذيذة. إذ ـه إبليس يوسوس لي: "رشقة ماء يا نوال لن يلتف إليها ربنا الله الرحيم الغفور لجميع الذنوب إلا أن يشرك به".

لكن أبي كان يؤكد لي أن الله يلتفت إلى ك ل صـ غيرة وكبيرة في هذا الكون، ولا شئ يفوته،وإن كان رشفة ماء أو كلمة واحدة يهمس بها إبليس إلي.. وهكذا تحمل ضميري منذ الطفولة عبء ذنوب كثيرة، وتصورت أنه سوف يأتي عيـ د الأضحي في العالم المقبل (أوالذي بعده) ،ويـ أمر الله أبـ ي بذبحي بدلا من خروف العيد.

وغضبت من زميلتي الاستاذة الأمريكية المتخصصة في الدين الاسلامي، والتي كتبت مقالا تقول فيه إن مشكلة العالم الإسلامي هو أن الإسلام لم يتحضر أو لم يتطـ ور بالقـ در الكافي (كما حدث لليهودية والمسيحية)، وسألتها:

–ماذا تعنين بهذا التحضر يا سيدتي؟!

–قالت: "أعني المـ وديرنيتي" أو "modernity" باللغـ ة الانجليزية.

وطال الحوار بيني وبينها عن معني المـ وديرنيتي أو " الحداثة" باللغة العربية.

سألتها ماذا تعني بالحداثة؟ وهل أثر هذه الحداثة على " اليهودية" ما يحدث في إسرائيل من ذبح للفلسطينيين الأطفال مثل خروف العيد؟ وهل أثر هذه الحداثة على "المسيحية" ما يحدث اليوم في أفغانستان من قتل المدنيين نساءاً ورجالاً؟

–فقالت الاستاذة الأمريكية: "هناك فرق بين "اليهودية" ودولة إسرائيل وهناك فرق بين "المسيحية" وحكومة الولايات المتحدة الأمريكية".

–وقلت: " وبالمثل أيضاً يا سيدتي ، هناك فرق بين الإسلام وبين الدول الإسلامية اوالعربية".

إلا أن هذه الاستاذة المتخصصة في الدين الاسلامي،والتي يدعونها إلى بلادنا العربية لتكون ضيفة الشرف في الاحتفالات والمهرجانات النقابية والأعياد بما فيها اليوم العالمي للمراة،(وهي متخصصة أيضا في موضوع المرأة والإسلام) هذا الاستاذة لم تدرس الإسلام دراسة صحيحة، لان دراسة الدين الاسلامي في الولايات المتحدة (وفي جامعات أوروبا أيضا) تقوم على دراسة القرآن والأحاديث وغيرهما مما يتعلق بالاسلام والتاريخ الإسلامي فحسب، ويتخرج الاساتدة (نساءً ورجالاً) ويصبحون خبراء

في الدين الإسلامي دون أي مقارنة بين الأديان السد ماورية الثلاثة. لكن الدراسة المقارنة للأديان هي الوسد يلة الوحيد دة لفهم هذه الاديان، خاصة الأديان السماوية الثلاث ـة ، والت ي يتزعمها شخص واحد هو " النبي إبراهيم" وتتشابه مبادؤه ـا تشابهاً كبيراً.

٢- سيل المقالات والكتب عن الإسلام والمسلمين

منذ أحداث ١١ ستبمبر ٢٠٠١ وضرب مركز التجـارة العالمي في نيويورك (والنتاجون في وشطن)،وهناك سيل من المقالات والكتب المنشورة في الولايات المتحدة حول الإسلام وعلاقته بالغرب، هنام مقالات وكتب تصور الإسـلام(دون غيرها من الاديان السماوية وغير السماوية) كأنما هو دين " متعطش للدماء" يرحض على قتل المخالفين له باعتبـارهم "الكفار" ويحرض على "الارهاب" تحت اسم "الجهـاد فـي سبيل الله" ويقهر "النساء" ويفرض على هن الحجاب والختان، وتعدد الزوجات، وضرب الأزواج.. الخ الخ.

إلا أن الدراسة المقارنة للأديان تؤكد الجهل الذي يغرق فيه المتخصصون في الدين الاسـلامي ، ذلـك أن الديانـة اليهودية مثلا حسب الآيات في كتاب "التوراه" تحرض شعب الله المختـار" علـى قتـل أهـل كنعـان (فلسـطين) الكفار،والاستيلاء على أرضهم تحت اسم" الأرض الموعودة من الله إلى آل إبراهيم" مقابل قطع الغرلة أو ختان الـذكور، كما أن فكرة " حجاب المرأة" نشأت من آية في التلمود تؤكد أن "شعر المرأة العاري مثل جسدها العاري"،وأن "حواء" هي

سبب "الإثم" وخروج آدم من الجنة ،وقد عاقبها الله "بالاسـ ـي والالم" (في ولادة الأطفال)" والخضوع"لزوجها.

رغم ذلك فإن الكتب والمقالات تتهم ـر كالسـ ـيل(منـ ـذ أحداث سبتمبر) تصور الإسلام والمسلمين كأنهم هم قوم من القتلة والجهلة المتخلفين ،وأن علاجهم الوحيد هو " التحضر" أو الموردرنتي ،باللغة العربية "الحداثة".

حاولت الرد على بعض المقالات التـ ـي نشـ ـرت فـ ـي النيويورك تايمز ،والتي لا تزال تنشر حت ياليوم، إلا انهم لا ينشرون مقالاتي رغم تشدقهن بالديقوقراطية "الوحيـ ـدة" فـ ـي الشرق الأوسط.

ويضحك الطلاب والطالبات في " اللجنة ضرب الحربط التي تم تشكيلها في الجامعة التي احاضر فيها في ولاية نيـ ـو جيرسي ،ويقولون: أجـ ـل أيهـ ـا السـ ـادة،هذه الديموقراطيـ ـة الأمريكية والإسرائيلية تشبه ديموقراطية الحكومة العنصرية "الابارثايد" في جنوب إفريقيا التي صورت نفسها للعالم سنين طويلة على أنها الديموقراطية "الوحيدة" في قارة إفريقيا".

ولاشئ يواسيني على البعد عن الأه ل وال وطن إلا هؤلاء الطلبة والطالبات. اشعر بالبهجة حين أدخل الفصـ ل وأري وجوهم الباسمة وعقولهم المتفتحة للإبداع ، قلت له م في أول حصة:"أنا أكره التدريس ، كما أن الابداع لا يمكـ ن تدريسه، وكل ما سأفعله هنا في الفصل ه و: أن اسـ اعدكم على نسيان ما لقنه لكم المدرسون منذ طفولتكم".

وفي احتفال الجامعة بقدومي من مصر في أول ستبمبر ٢٠٠١ وكانت الأدارة كلها حاضرة" صاحبة السلطة"، ردت هذه العبارة السابقة، التي أدت إلى "عدم تجديد العقد"لي مـ رة أخري. إنهم يدفعون لي راتبا كبيـ راً كـ ي ألقـ ن الطـ لاب الأمريكيين دروسا تمكنهم مـ ن الإبـ داع، لكنـ ي لا أومـ ن بالتلقين،وقد مارست الإبداع في حياتي دون تلقين من احـ د ، اللهم إلا جدتي الفلاحة في قرية كفر طحلـ ة، التـ ي كنـ ت أراها(وأنا في الخامسة من العمر)واقفة امام العمـ دة حافيـ ة القدمين شامخة الرأس مكشوفة الوجه، تشوح بيديها الكبيرتين المشققين المحروقتين بالشمس في وجهه هي تقول:

–احنا مش عبيد يا عمدة،وربنا هو العدل عرفوه بالعقل!

٣-غياب الذكاء الفطري

لم تكن جدتي الفلاحة قد ذهبت إلبي المدارس وتعلم ت القراءة والكتابة ، لم تقرأ جدتي القرآن أو أحاديث الرسـ ول (ص) لكنها أدركت بالذكاء الفطري أن الله هو العـ دل ،وأن العقل هو منبع الإيمان بهذه الفلسفة الرفيعة المستوي، والتـ ي لا يفطن إليها إغلب الاساتذة من حاملي الـ دكتوراه ،والـ ذين يفقدون الابداع أو الذكاء الفطري عن طريـ ق التلقـ ين فـ ي المدارس في الغرب والشرق.

ويدور حوار من خلال شاشة الإنترنت فـ ي جامعتنـ ا حول أمور السياسة والفكر والإبـ داع وغيرهـ ا، أصـ حبت الشاشة الصغيرة في مكتبي أو بيتي تنقل إلى من كل أنحـ اء العالم مختلف الآراء والأفكار ،ادوس على " الزر " كل يوم ، وتضئ الشاشة أمامي واتابع كل ما يحدث في العالم ،وكل ما يصدر من كتب جديدة ،ومناقشات حولها احدث هذه الكتب من تأليف استاذ امريكي (برنار لويس) وهو متخصص فـ ي الدراسات الإسلامية. الكتاب عنوانه:"ما هو الخطأ في علاقة الإسلام بالغرب؟" يغلف المؤلـ ف أفكـ اره المبتـ ورة غيـ ر

الموضوعية بكلماتعامة رنانة عن عشقه للشـ رق والإسـ لام ،والحضارة الاسلامية التي ازدهرت في القـ رون الوسـ طي حين غرقت أوربا في الجهل والتعصـ ب محـ اكم التفـ يش والحروب الصليبية...الخ الخ، ثم يتساءل المؤلف:مـ ا الـ ذي حدث لينقلب الوضع وتتفوق المسيحية والحضـ ارة الغربيـ ـة على الاسلام والمسلمين؟! لماذا حدثت جميـ ع الاكتشـ افات العلمية في الغرب المسيحي وليس في الشرق الإسلامي؟!

إنها أسئلة واردة للعقل يمكن الرد علـ ى هـ ا بالـ ذكاء الفطري ، فالمشكلة ليست دينية أو الاختلافات في الاديان أو الثقافة أو اللغة ، بل هي مشكلة سياسية واقتصادية اساسـ اً ، ذلك أن الاستعمار القديم والجديد قد تعـ اون مـ ع حكوماتنـ ا المحلية من أجل إضعاف ذلك الاستعمار القديم والجديد قـ د تعاون مع حكوماتنا المحلية مـ ن أجـ ل إضـ عاف قـ دراتنا الابداعية في العلوم والفنون ، أصبح التعليم في بلادنا أحـ د الأجهزة البوليسية لقمع الخلق والابداع وتدمير الذكاء الفطري منذ الطفولة ، يكفي أن مفكر مبدع في بلادنـ ا قـ د عـ رف زنزانة السجن مرة واحدة على الاقل في حياته.ينطبق ذلـ ك على النساء ولارجال ، إنه المجال الوحيدة الذي تتساوي فيه

المرأة بالرجل ،ويكفي أن متوسطي الذكاء هم الذين يصعدون إلى مقاعد الحكم،وهم الحكم ،وهم الـ ذين يحصـ ولن علـ ى الجوائز النقديرية. والحوافز والمناصب وكل شـ ئ ، حتـ ي الأضواء الأعلامية.

لكن السيد برنارد لويس (مثل غيره من فلاسفة ما بعـ د الحداثة) يتجاهل وجود شئ اسمه استعمار أو احتلال أجنبـ ي ،ويفصل بينه وبين الحكومات المحلية ، كأنما هي فقط وحدها مسئولة عن المشكلة ، أو الشعوب ذاتها هي المسئولة ،وهو يضع كل المسلمين في العالم في سلة واحدة ثم يصدر احكامه المتورة ،واتهاماته للمسلمين ، بأنهم تخلفـ وا عـ ن موكـ ب الحضارة لأن العيب فيهم هم وليس في القـ وي الخارجيـ ة. ويقول في كتابه:"لقد انتهي الاستعمار منذ نصف قرن،وأصبح العالم الإسلامي يعيش في عصر ما بعد الاسـ تعمار(-Post Colonial) لكن المسلمين لا يزالون يعلقون لامشكلة على شماعة الاستعمار ويتساءلون على الدوام (من فعـ ل بنـ ا هذا؟) كأنهم ضحايا طول الوقت للقوي الخارجية،والمفروض

أن يسألوا أنفهسم ما الخطأ فينا نحن،وما نفعل لنغير أنفسنا ، أما أن يحملوا الخطأ علبي غيرهم فهذا هو الخطأ.

وهناك بعض الحقائق التاريخية في يكتاب برنارد لويس ، كما أنني أتفق معه في أن النقد الذاتي ضـ روري ، لكن ي اختلف في فكرته أننا نعيش "عصر ما بعد الاستعمار" ه ذه خديعة فكرية كبيرة، لاننا نعيش عصر " الاستعمار الجدي د" (New-Colonial) وليس ما يسمونه(Post-Colonial).

في الجامعات الأمريكية يسود هذا التعبير الخاطئ ع ن "عصر ما بعد الكولونالية" وتنقله الجامعات العربية والإفريقية عن الجامعات الأمريكية دون تحليل أو نقد علمي.

وتكمن الخديعة أيضا في أن " برنارد لويس" يعتبر هذ ا في أمريكا من أهم الخبراء في الإسلام وأكثر المدافعين ع ن الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية في العصور الوس طي ،وهو يختلف هنا عن مفكرين آخ رين (م نهم هنتنجت ون وفرانسيس فوكاياما) الذين يرون أن المشكلة ف ي الإس لام ذاته، وأنه دين يناقض الحضارة والتحضر ، وفي حاجة إلى تغيير جذري حتي يتحضر.

ويدافع بعض النخب العربية والإسلامية عـ ن برنـ ارد لويس (وأمثاله) لأنه لا يدين الإسلام ذاته، لكن منطق برنادر لويس لا يقل خطورة عن منطق الأخرىن ، لأنه يتجاهل أهم الأسباب التي أدت إلى ضعف البلاد العربية والإسلامية فـ ي مواجهة أوروبا وأمريكا ، على رأسها الاستعمار الأوروبي والأمريكي (الاقتصادي والسياسي والعسـ كري والفكـ ري) والحكومات المحلية المتعاونة مع هذا الاسـ تعمار والقـ اهرة لشعوبها رجالاً ونساءاً وأطفالاً.

٤- التجول في مسارح برودواي

علاقتي بمدينة نيويورك قديمة منذ صيف عام ١٩٦٥ ، بالضبط أغسطس ١٩٦٥، فقد جئت لأحصل عل ى درج ة الماجيستير من جامعة كولومبيا، وقد عشت ف ي نيوي ورك أحداث حرب فيتنام ،وخرجت مع الطلب ة والطالب ات ف ي المظاهرات ضد هذه الحرب، التي انتهت بانتصار الش عب الفيتنامي نساءً ورجالاَ ،وكنت أري الفتي ات والفيتامي ات الصغيرات (مثل الأطف ال الفلسد طينيين الي وم) يرش قون الطائرات الحربية الأمريكية الضخمة،ويسقطونها إلى الأرض ببندقية فيتنامية صغيرةز لقد انتصد ر إرادة الش عب نس اءً ورجالاً على أقوي الاسحلة العسكرية في العالم ، فلم اذا لا يتكرر ه ذا فيم ا يخ ص الش عب الفلسد طيني؟! س وف يتكرر!لابد! وها هي دولة إسرائيل (وجيشها المدعم بأمريكا) تقاوم الانتفاضة الفلسطينية محاولة القضاء عل ى ه ا دون جدوي.

منذ جئت هذه المرة إلى نيويورك ونيو جيرس ي ف ي أوائل شهر ستبمبر وأنا أبحث عن رواية جديدة أو مس رحية تستحق الرؤية أو فيلم سينمائي جيد اوأي شئ م ن الأب داع

الفني ، دون جدوي هناك جذب غريب يسود العـ ـالم غربـ ـاً وشرقاً، فيما يخص الأعمال الابداعية الجديدة، حتي الصحف في نيويورك والمجلات أصحبت خاوية حتي مـ ـن الاخبـ ـار الصحيحة،وكنت في عام ١٩٦٥ أجدها دسمة مليئة بالمقالات النقدية العميقة.

والسؤال يدور فر رأسي وأنا أتجول بين مسارح شارح برودواي: هل كنت في عام ١٩٦٥ فتـ ـاة غريـ ـرة تبهرهـ ـا مسارح نيويورك وأنشطتها الثقافية رغم سطحيتها؟ أم أنـ ـي اليوم في عام ٢٠٠٢ امرأة ناضجة العقل لا يبهرها شئ وإن كان عميقا؟

هناك تنافس واضح بين مؤلفي الدراما الدينية والـ دراما الجنسية على مسارح برودواي ،والعناوين الضخمة تشد به الاعلانات التجارية عن بضائع الشركات المتعددة الجنسيات وقررت أخيراً مشاهدة مسرحية دينية واخري جنسية من أجل الترويح عن النفس وقد أديت جميع الواجبات والمسـ ـئوليات تجاه الله والوطن والعائلة وكل شئ ، لم أحصل في حيـ ـاتي على إجازات من العمل خارج البيت أو داخله واليوم إجازة عيد الاضحي ، حين كنت طالبة في جامعة كولومبيـ ـا منـ ـذ

سبعة وثلاثين عاما لم تكن الجامعات في نيويورك تحت رم إجازات المسلمين، وكان على نا أن نشتغل في أيـ ـام العيـ ـد الكبير والصغير ، ثـ ـم نأخـ ـذ أجـ ـازات اعيـ ـاد المسـ ـيحين واليهود،يمكن القول أن نيويورك مدينة يهودية ومسـ ـيحية ، نيويورك تغيرت بعد أحداث ١١ سـ ـبتمبر وسـ ـقوط برجـ ـي التجارة العالمية في مانهاتن ، بدأت جامعـ ـات كثيـ ـرة تهـ ـتم بدراسة الإسلام والمسلمين والعرب، بل ارتفعـ ـت اصـ ـوات تطلب إدخال اللغة العربية ضمن المقرارات فـ ـي المـ ـدارس الأمريكية على أساس: أعرف عدوك!راجت الكتـ ـب التـ ـي تحمل عناوين من نوع الإسلام والغرب، والاسلام والمـ ـرأة والإسلام والعنف... إلخ إلخ.

وايضاً ببدأت بعض الجامعات تعطي إجازة في أعيـ ـاد المسلمين للطلبة والأساتذة وربما هذه واحدة من إيجابيات ما بعد سقوط البرجين في ١١سـ ـبتمبر فقـ ـد بـ ـدأ الأمريكيـ ـون يحترمون المسلمين (وأعيادهم) باعتبار انهم أصحبوا قادرين على توجيه ضربات إليهم تسقط أعلي ابراجهم الشامخة في السماء.

درات المسرحية الدينية حول فتاة صغيرة اسمها " كاتي" ولدت من أم مسسيحية وأب يهودي ،وأصبحت الفتاة حـ ـائرة بين الدين المسيحي واليهودي، ثم زادت حيرتها حين امره ـا بوها ذات يوم بألا تذكر اسم " المسيح" أمام جدتها. واندهشت الفتاة وسألت عن السبب، فقال أبوها: "لان جـ ـدتك لا تحـ ـب المسيح" ، وتصورت الفتاة الصغيرة أن جدتها العجـ ـوز قـ ـد قابلت في شبابها المسيح ولم تحبه منذ ذلك الحين.

توحي المسرحية منذ البداية الدرامية بالعمق الفلسـ ـفي. إلا أنه للأسف تضيع الفلسفة ويضيع العمق (ربمـ ـا بسـ ـبب الرقابة الخفية التي تمارسها أدارة جورج بوش)، إن جـ ـورج بوش الابن قد ورث عن ابيه النزعة الدينية، والإيمان بـ ـأن التيارات الأصولية في الخارج والداخل (في الداخل تتجسـ ـد قوي الشر فـ ـي الحركـ ـات الطلابيـ ـة المعارضـ ـة للحـ ـرب والحركات النسائية المطالبة بتحرير النساء الأمريكيات مـ ـن اليمين الأمريكي بزعامة الحزب الجمهوري).

تتهكم الفتاة الصغيرة على ما تقرأه في الكتب على أن الكاثوليك لا يستحمون! إما والدها اليهودي فقد تخلي عن دينه من أجل زوجته المسيحية، "لورا" وكانت لورا تخفي تـ ـاريخ

زوجها الماضي عن النسا كأنما هو " عورة" وتحاول ك اتي الصغيرة أن تشرح للشاب الذي تحبه لماذا يذهب الكاثوليك إلى كرس الاعتراف أمام القسيس في الكنسية. ويسألها صديقها:ولماذا يذهبون للاعتراف؟

وترد الفتاة الصغيرة: من أجل أن يقترفوا كل الآثام ثم يمسحونها بالاعتراف من حين إلى حين.

ويذكرن هذا المشهد بقصة كتبتها عام ١٩٤٤ وأنا تلميذة صغيرة ، عنموانها " مذكرات طفلة اسمها سعاد". كانت سعاد تعيش في أسرة شديدة الدين ، تلقت تعاليم الصلاة والصوم منذ السابعة من عمرها ، وأيضا تعلمت التوبة ،وكيف تتوب عن ذنوبها عن طريق الطقوس المتكررة،وهكذا تكررت آثامها وتكررت توبتها لتمسح الذنوب من حين إلى حين.(نشرت القصة بالعنوان ذاته بعد ثلاثين عاما من كتابتها).

أما صديقها الفتي الصغير فيقول لها في براءة إن مشاكل اليهود تكمن في أن الغدد في اجسامهم تفرز

هرمونات أكثر من المسيحيين. ويضحك الجمهور الأمريكي على تلك الفتاة الصغيرة "كاتي" التي تحتفل بعيد ميلادها (حين تبلغ الرابعة عشر من عمرها) بعد أن تتوقع من صديقها أن يفض بكارتها في أو لممارسة جنسية كما تفعل زميلاتها في المدرسة.

تحمل المسرحية عنوان "السلم الذهبي" ولم أشترك مع الجمهور في الضحك على هذه الفتاة الصغيرة الحائرة بين الأديان،والتي تحاول البحث عن هويتها الدينية.

لقد طغت فكرة تأكيد الهوية الدينية في أمريكا منذ أعتلي جورج بوش العرش،وبدا يستخدم اللغة الدينية في جميع الأمور السياسية والأقتصادية بما فيها الحرب ضد محور الشر ،والرقابة على الإعلام والفكر والرأي ، مع إطلاق حريات الاديان والأموال في البورصة والشركات العابرة للقارات.

اما المسرحية الثانية فهي تحمل اسم " مونولوج المهبل" ويعتبرونها ناجحة بسبب الاقبال على ها" وكلمة "المهبل" كلمة طبية تعني احد اعضاء المرأة التناسلية/ الجنسية،ومنذ نجاح هذه المسرحية (المؤلفة والممثلة أمرأة اسمها إيف

إنسلر) بدات مسرحيات أخري تزحف إلى برودواي تحمـ ل أسماء الاعضاء الجنسية للرجال والنساء، وأيضـ ـا الجهـ ـاز البولي ، هناك مسرحية اسـ ـمها " مدينـ ـة البـ ـول" (Urime Town) ومسرحية أخري تحمل اسـ ـم "ديـ ـالوج القضـ ـيب" وغيرها.

ويتساءل الناس في نيويورك ونيوجيرسي: أهو التدهور الذي اصاب الفكر والثقافة بعد ضربة ١١ ستبمبر. أم أنهـ ـا الحضارة الرأسمالية تتهاوي مع تهاوي رمزها التجاري؟

نيويورك ٢٠٠٢

***

قرن النساء أم قرن الإسلام؟

وإجهاض ثورة الإجهاض

شوارع نيويورك تغطيها الثلوج رغم اننا اصبحنا في شهر الربيع، شهر مارس أصبح يحمل اسم " شهر المرأة" منذ أن اعلنت الأمم المتحدة أن ٨ مارس يوم الاحتفال بعيد المرأة العالمي. تأتيني الدعوات من القارات الخمس للمشاركة في احتفالات النساء ، أو القاء المحاضرات ، أو تلقي الجوائز تحت اسم الغيمنيست الكبيرة والكاتبة والطبيبة التي ساهمت في تحرير النساء خلال نصف القرن الاخيرة ،أمشي فوق الثلوج داخل معطف صوفي أسود من تحته بلوفر رمادي من صوف الغنم، من تحته بلوفر آخر من الصوف المصري لونه أبيض كالقطن،من تحته قميص من الفانلة السميكة القريبة من الصوف، من حول رأس طاقية من الصوف السميك ، من حول عنقي كوفيه من فروة الثعلب أو النمر ، خطواتي فوق الاسفلت قوية سريعة ، تجاوت السبعين عاماً في شهادة الميلاد فحسب، لكن جسدي كما كان في ريعان الشباب، شعري أبيض بلون الثلج ، لكنه لا يزال

غزيراً كثيفا متمرداً مثل الاسلاك الكهربائية ، الدقات تحت ضلوعي قوية منتظمة مع دقات حذائي المتين فوق الأسفلت عيناني لا أراهما إلا حين أتوقف أمام مرآة في احد المحلات ، يجذبني البريق الخاطف في هاتين العينين السوداوين ، كأنهما هما عينا امرأة اخري لا أكاد اعرفها، أذناها تطريقان لسماع كلمات الغزل من الرجال والنساء قلبها يخفق حين تقع في الحب، وكم وقعت في الحب، وكم من الرجال وقعوا في حبها ، مع ذلك تبدو مثل فتاة عذراء لم تعرف الحب بعد رغم بلوغها السبعين من العمر.

شوارع نيويورك في شهر مارس تغرقها الثلوج البيضاء رغم أن الشمس ساطعة تنعكس أشعتها الذهبية على الثلج الأبيض.. يمتزج اللون البرتقالي القريب من اللون الأحمر بذلك البياض الناصع الشاهق ، تنعكس الاشعة فوق السطح المثلج الصلب ، ثم ترتد عنه بعد أن تتكسر إلى ملايين الذرات الملونة، يشتعل الكون من حولي بالألوان المضيئة وأنا أمشي نحو شارع برودواي، إنه شارعي المفضل في مدينية نيويورك ،حيث الملاهي والمسارح ودور السينما ، وأكشاك الصحف والمجلات ،ومطاعم البيتسا والهامبيرجر

والشاورمة والفلافل، تتصاعد رائحة الفلافل إلى انفي ومعها صوت فيروز تغني يا مدينة القدس. أتذكر مدينة بيروت وأنا أمشي في الحمرا أو الروشا ومدينة القاهرة ودمشق وبغ داد وتونس والجزائر والرباط والخرطوم والمنامة وغيرها مـ ن المدن في بلادنا. إلى جواري تمشي زميلتي الاسـ تاذة فـ ي الجامعة واسمها " الدكتورة ماريا" تدندن مع فيروز بالاغنية ، تقول إن صوت فيروز يشبه قطرات الألوان المتفجـ رة مـ ن شعاع الشمس حين ينعكس فوق سطح جوهرة من الفيروز أو قطعة من الثلج، تقوم الدكتورة " ماريا" بتدريس "فن الدراما" ، المسرح والسينما والأدب، وتضيف إليهـ ـا فـ ن التصـ وير والرسم والموسيقي وأيضا فن العلاقات الإنسانية على رأسها " الحب"، تربط زميلتي "ماريا" بين نشوة الحب ونشوة الابداع ،تصغرني بعشرين عاماً ، لم تتزوج ولم تنجـ ـب أطفـ ـالات لكنها انجبت كثيرا من الكتب وكثيراً من الطلبة والطالبـ ـات الذين تحولوا إلى مبدعين ومبدعات على يديها. تتألق عيناها الخضروان وهي تتأمل العنـ ـاوين والإعلانـ ـات فـ وق دور السينما والمسرح ، تضحك بمرح الأطفا لحين تري الإعلان عن مسرحية " مونولوج" المهبل" وتقول:

-لا لا يانوال ، لقد سئمت من المهبل والقضيب وكل ما يتعلق بالجنس ، أريد أن أري فيلما أو مسرحية رومانتيكية!

العودة إلى الرومانتيكية:

الإغراق في الجنس أو في الحب العذري الرومانتيكي بدون جنس وجهان لعملة واحدة هي الرأسمالية الذكورية ، المتوارثة عن النظام العبودي ، منذ انفصل الجسد عن الروح والعقل،وانفصل الحب عن الجنس واصحبت المرأة ترمز إلى الجسد/ الإثم/ الشيطان،ويرمز الرجل إلى العقل/ الروح/ الإله.

هذه واحدة من أفكار الفكر النسائي الحديث وما بعد الحديث،والتي لعبت دوراً في مقاومة الفكر العبودي الرأسمالي خلال القرن العشرين،وترتكز القدرة الابداعية على القدرة على الغاء الفصل بين الذكر والأنثي وبين الإله والشيطان وبين الجسد والروح والعقل.

كيف يتحول الذكر إلى انسان؟ كان هذا السؤال يدور برأسي دائما على مدي عمري من أول اصبا والشباب حتي اليوم ولم يكن لي أبداً أن اقع في حب رجل لا يري في إلا الانثي.

ودار السؤال في راسي وأنا جالسة إلى جوار صديقتي " ماريا" نشهد معاً مسرحية بعنوان" الصبي الذهبي" في شارع برودواي.يتمشي البطل فوق خشبة المسرح بقامته الطويلة وعضلاته القوية الذكورية يزيدها قوة وذكورة بالرياضة العنيفة، "المصارعة" يرتدي قفازه ويصارع الذكور الاشد متغلبا على هم، مصمماً على أن ينتصر على مدينة نيويورك الكبري، أن يشق طريقه من الأزقة الفقيرة في مانهاتن السفلي إلى حيث الطبقة العليا ذات المال والمجد. إنه يؤمن بالفلسفة الأمريكية البراجماتية التي تقول: كن عملياً ولا تفكر في المبادئ ، فالوسيلة تبرر الغاية.

هذه الفلسفة الرؤية غير الإنسانية هي الصالحة تماما للمجتمع الرأسمالي الذكوري الفاسد ،ويدرك " ألفونسو" بطل المسرحية أن الفساد لا يقهره إلا الفساد ، إلا أنه يلتقي بأمرا' اسمها " لورنا" يقع في حبها. تتغلب في الحب طبيعته الإنسانية الأولي ، فهو في الاصل إنسان رقيق الطبع حساس يمتلء قلبه بالحنان والحب والعدل والجمال، لكن الحبيبة " لورنا" كانت على علاقة حب برجل آخر اسمه " توم" ،وهي

تعشق شرب الخمر ،وحين يتهمها "توم" بالإدمان تقول له: "في حلقي يا حبيبي عصة أريد إزالتها بالخمر!".

وتتصاعد الموسيق الغاضبة مع غضب الفتية المصارح ألفونسو حين يكتشف أن المرأة التي يحبها مشغولة بغيره،يرتدي قفازه ليبارز الذكور المنافسين له في مجال الحب أو المال أو الشهرة ، تلعب الموسيقي في المسرحية دوراً رئيسياً للتعبير عن الغضب والغيرة والتمرد والثورة. تتنافس الآلات باختلاف انواعها الحديثة والقديمة،مع الطبول وأناشيد الثورة الزنجية التحررية ضد السيد الأبيض، وألحان الكنائس المصاحبة لتراتيل الإنجيل.

ويختف يوجه مؤلف المسرحية وملحنها موخرجها تحت وجه الممثل " الونسو ريبيرو" ذي الحضور القوي الذي يخطف البصر ،بقامته الطويلة الممشوقة ، وقوته الهائنة مع الرقة الشديدة والعذاب في الحب حتي الموت. ومنذ عام ١٩٨٣ اشتهر اسم ألفونسو في مسارح برودواي تحت اسم " الطفل النجم" إلا أنه اليوم أصبح رجلاً في الثلاثين من العمر ،ممتلئء الصوت، يخترق صوته الرجولي قلوب النساء مثل السهم ينفذ به" المصارع" إلى عين غريمه"الثور".

تعبر الموسيقي بدرجاتها واصواتها المتعددة عن صوت واحد هو هو صوت المقاومة العينفة لأخر معاقل العبودية والعنصرية ،ذلك أن البطل " ألفونسو" أسمر البشرة من اصف فقير مثل غيره من السود في حي "هارلم" وهو ينافس الرجل الأبيض لامتلاك امرأة بيضاء.

تجتمع القوة الذكورية مع الرقة والحنان، تمتزج الرومانتيكية مع المثالية والبراجماتية والثورية والإقدام والأحجام في تآلف موسيقي شفاف يهز القلب والجسد والروح والوجدان.

وتهتز إلى جوراي صديقتي " ماريا" وهي تغني مع البطل:"أريدك معي يا حبي" يسري اللحن في دماغي أيضا يدغدغها،وأتذكر أنني في مدينة نيويورك.والمدينة كلها نائمة في الليل إلا شارع برودواي ،ويدب الفونسو بقدميه فوق خشبة المسرح وهو يرقص ،وصوته يردد من الإيقاع:" لا تسنو الشارع ١٢٧، احد شوارع هارلم".

وتظل الموسيقي في أذني حتي أعود إلى غرفة نومي في بيتي على الضفة الأخرى من نهر هدسون ، موسيق

الفنان" شتراوس" مع صوت" الفونسو ربيرو" وألحان الجـ ـاز
النزجية تنطلق من شوارع هارلم عام ١٩٦٥ حـ ـين كنـ ـت
طالبه شابة في جامعة كولومبيا في مدينة نيويورك.

زيارة أمرأة سوداء ترتدي الحجاب:

إحدي الدعوات النسائية في شهر مارس ج اءتني م ن جماعة منن المسلمين يعيشون في نيويورك ونيوجيوس ي ، يزيد عدد المسلمين فيهما عن مليون ونصف شخص، حملت الدعوة إلى بيتي شابة سوداء تلف رأسها بحجاب تقول عنه" الحجاب الاسلامي". وحين نظرت إلى شعري غي المغط ي بحجاب قلت لها: اسمعي يا عزيزة (اسمها عزيزة أيضا) لقد تخرج المرحوم والدي من الأزهر ودار العلوم وكان له ستة من البنات لم يطلب من واحدة منهن ارتداء الحجاب،وارسلنا جميعاً إلى الجامعات حيث جلسنا إلى جوار الرج ال نتلق ي العلم والطب والفن والأدب.

هذه الشابة في الخامسة والعشرين من عمرها، طالب ة بجامعة نيويورك تعد لنيل درج ة ال دكتوراه ف ي ال دين الإسلامي ،ولدت في حي هارلم حيث هاجر جدودها الس ود من الجنوب طلباً للرزق ، اعتنق وا الإس لام ح ين انتش ر الإسلام بين المهاجرين في هارلم وبروكلين وغيرهم ا م ن أحياء نيويورك الفقيرة ، شابة طويلة القامة نحيل ه الجس م

شاحبة اللون قليلاً. لكن عيناها السوداوان الواسعتان تشد عان بضوء الحماس النابع من الإيمان بقوة في السماء.

جاءت عزيزة تدعوني لإلقاء كلمة ف ي عيد د المرأة العالمي ٨ مارس ، وقالت لي إنهعا " فيمنيسد ت مسد لمة" ، تؤمن تبحرير المرأة حسب الشريعة الاسلامية ،وطلبت منها أن توضح علامة الإسلام بحجاب المرأة ، إلا انها عج زت عن ذلك تماماً، ثم قالت أنا أرتدي الحجاب لتأكيد الهوية أكثر من تأكيد الدين،ودار الحوار بيننا ع ن معذ ي " الهوي ة" ، وأخيراً سألتني عزيزة:"وماهي هويتك يا دكتر الساداوي؟"قلت لها: هويتي ليست احادية، بل هي متعددة الجوانب ،إذ تجري في عروقي دمءا مصرية وإفريقية وآسيوية وتركية وقبطي ة وحبشية وإسلامية وبوذية من أج دادي الهذ ود، إن دم ائي مختلطة يا ابنتي عزيزة ،وأنا لا أومن بالدماء النقي ة عل ى غرار الفلسفة النازية حيث آمن هتلر بنق اء الد دم الألم اني ،وهي فكرة عنصرية تسري على نقاء الدم بمثل ما تسد ري على نقاء الحضارة،فلا توجد حضارة نقية ل م تخصد بها حضارات اخري من الشروق والغرب والشد مال والجذ وب

والسود والبيض والصفر والحمر وكل الاشد كال والأل وان والأديان. المفروض يا عزيزتي عزيزة ألا نبالغ من الفروق بين البشر على اساس الدين أو الجنس أو الجنسية أو العرق أو اللون تحت أي اسم أو شعار وإن كان " الهوية".

إلا أن الشابة الأمريكية المسلمة" عزيزة" لم تسد توعب كلامي. كانت ترمقني باتساع الدهشة في عينيها وتهز رأسها في عجب. لقد نشأت " عزيزة" في أسرة أمريكية لا تعـ رف اللغة العربية ولا تفهم الاسلام كما فهمـ ـه أبـ ي الأزهـ ري الدرعمي (نسبة إلى دار العلوم) ،وهي تنتفض حماساً وهـ ي تقول لي: "سوف يكون القرن الواحد والعشرون هـ و قـ رن الإسلام رغم أنف جورج بوش، الذ يصور الإسلام على أ،ه دين الإرهاب،ويحاول القضاء على ديننا الحنيـ ف لتتنصـ ر المسيحية". قلت لها: لا يا ابنتي عزيزة ، إن جـ ورج بـ وش (الابن) لا يحاول القضاء على الإسلام. بل إنه يدعم كثيراً الحكومات الإسلامية التي تقف معه في حربه ضد الأرهـ ـاب ،وهو يشجع النعـ رات المسـ يحية والإسـ لامية واليهوديـ ـة أيضا،ويزيد من الأموال الممنوحة للمـ دارس الدينيـ ـة فـ ي أمريكا. سواء كانت مسيحية أو اسلامية أو يهودية.

وملأت عينيها الدهشة اكثر وأكثر ،وقالت: كيف ه ذا؟ ولمذا يدعم جورج بوش الإسلام؟ من مصلحة جورج بوش أن يقضي على الإسلام، إليس كذلك يا دكتر الساداوي؟ قلت لها: لسي من مصد لحة ج ورج ب وش أن يقض ي عل ى الإسلام.أو حتي إضعافه ، أو التشكيك فيه،لأن التشكيك ف ي دين واحد يتبعه التشكيك ف ي الأدي ان الأخ رى، خاص ة المسيحية التي يدعمها ج ورج ب وش، ويس تخدمها ك أداة للسيطرة على الشعب الأمريكي ،خاصة بع د أح داث ١١ سبتمبر وضرب مرك ز التج ارة ال دولي ف ي نيوي ورك والبنتاجون في وشنطن.

دار الحوار طويلاً ، ثم أخرجت عزيزة م ن حقيبته ا دعوة لي لأتحدث في ٨ مارس عن المرأة والإسلام. لكن ي كنت قد ارتبطت قبل بدعوة أخري للتحد دث ف ي البرلم ان الأوروبي في بروكسل عن "مستقبل النساء في القرن الواحد وعشرين"،وقد دعيت للحديث معي نس اء م ن أفغانس تان وفلسطين وتونس وغيرها من البلاد. س ررت لأن ه ؤلاء النساء خاصة المرأة الفلسطينية ، استطعن الربط بين قض ية تحرير النساء وقضية تحرير الأرض من الاحتلال الأجنب ي

،وهل يمكن أن يتحرر نصف المجتمع(من النساء اوالرجال) في بلد محتل بالجيوش الأجنبية الإسرائيلية أو الأمريكيـ ـة أو غيرها؟

أما المرأة الافغانية فقد كشفت عن الترابط بين الاحتلال الأمريكي لبلدها والاحتلال الثقافي والفكري والتعليمي ، لقـ ـد صرفت الولايات المتحدة (تحت اسـ ـم المعونـ ـة التعليميـ ـة لأفغانستان) ٥١ مليون دولار من عـ ـام ١٩٨٤ حتـ ـي عـ ـام ١٩٩٤ ،ووزعت أكثر من أربعة ملايين كتاب مدرسي على التلاميذ،وملايين من الكتب الأخرى المليئة بالآيات القرآنيـ ـة والتفسيرات الخاطئة لهذه الايات، من أجل تشجيع الأطفـ ـال والشباب الأفغاني على قتل الكفـ ـار (الاتحـ ـاد السـ ـوفيتي) وغيرهم من الشيوعيين الماحدة. لقد سعت الحكومة الأمريكية عن طريق هذه المعونات الثقافية لتشجيع القتـ ـل والتعصـ ـب على حساب الدين الإسلامي، واليوم بعـ ـد سـ ـقوط الاتحـ ـاد السوفيتي وانتصار الجيش الأمريكي فـ ـي أفغانسـ ـتان علـ ـى نظام الطالبان وخلايا القاعدة أوالمجاهدين الإسلاميين بقيـ ـادة اسامة بن لادن، بدات حكومة الولايات المتحدة نفسها تمسـ ـح

من الكتب ذاتها التي شحنتها إلى كابول، بدأت تمسح منه ا جميع الآيات أو التفسيرات التي تحد ض عل ى الحـ رب والجهاد في سبيل الله ،وتضع مكانها آيـ ات تحـ ض عل ى المحبة والسلام.

وفي جامعة نيويورك وجامعة نيوجيرسي وغيرهما من الجامعات الأمريكية ترتفع الاصوات الطلابية في المظاهرات ضد الحرب وسياسة جورج بوش(الابن): "إن الحكومة فـ ي وشنطن تبدد الاموال التي تجمعها من الضـ رائب ، والتـ ي ندفعها من عرقنا ودمنا في تشجيع الفتن الدينية ، خلقت فـ ي أفغانستان خلال عشرة اعوام أجيالاً من الشباب المتعطشـ ين للدماء تحت ستار الاسلام".

وتسهم الأمم المتحدة عن طريق منظماتها " اليونيسيف" في صرف هذه الكتب والمعونـ ات التعليميـ ة تحـ ت اسـ م المساعدات الإنسانية للشعوب الفقيرة لتقوية الروح الدينيـ ة لدي الاطفال والتلاميذ.

وقد خصصت الحكومة الأمريكية ٢٦٩ مليـ ون دولار معونة تعليمية لإرسال كتب أخري جديـ دة ومسـ ح الكتـ ب

القديمة ،وأمام موظفي اليونسيف في أفغانستان نصف مليون كتاب يدرس العنف والإرهاب تحت اسم الجهاد الاسلامي ،وأمامها أيضا ميزانية قدرها ٢٠٠,٠٠٠دولار أمريكي لنسف هذه الكتب وتدميرها تماماً لتختفي من الوجود ومئات الموظفين من النساء والرجال في اليونسيف مشغولات اليوم بمسح الصور في الكتب التي تصور البنادق يحملها المجاهدون الأفغان ،والكلانشكوفات، تستبدلها بصور الزهور والبرتقال وحمامات السلام.

لي صديقة تعمل في مكتب اليونسيف في نيويورك عادت مؤخراً من أفغانستان وراحت تحكي ما يحدث اليوم في أفغانستان المحرر بأيدي الأمريكان والتحالف الشمالي، تطرق صديقتي برأسها وتقول:"اشعر بالخزي والعار يا نوال ،وسوف أنشر هذه الحقائق رغم أن النشر قد يحرمني من وظيفتي التي أعيش منها، إلا أن ضميري يعذبني".

وأمشي في شهر مارس في شوارع نيويورك فوق الثلج البيضاء أنشد رؤية شئ من الفن العميق يريح عني آلام الغربة والبعد عن الأهل والوطن.

نيويورك/ مارس ٢٠٠٢

❋ ❋ ❋

إبليس في ارض الخوف

١-قبل أن أري الفليم:

وأنا لست ممن يحكمـ ون علـ ى الأعمـ ال الإبداعيـ ة بالجوائز في المهرجانـ ات أو تكـ ريم الـ دول ، إن أعظـ م المبدعين والمبدعات في التـ اريخ البشـ ري مـ اتوا دون أن يطرف جفن العالم ودون أن يمشـ ي فـ ي جنـ ازاتهم احـ د ،وبعضهم مات في السجون أو المنفي أو أقدم على الانتحار.

مع ذلك قررت أن أري هذين الفيلمين ، فإنا أعيش حالة من البحث المرهق على عمل فني جيد أطـ رد بـ ه القـ بح والأعمال الهابطة. لقد سافرت غربا ًوشرقا ً وشمالاً وجنوباً وفي كل بلد ابحث عن فيلم جيد دون جدوي ، مـ اذا حـ ث للعالم؟ كيف تطغي الأفلام الأمريكية على سـ طح الشاشـ ة الكبيرة والصغيرة بهذا الاسهال المريض؟ حتي مدينة باريس التي كانت تزهو باستقلالها الفني اصحبت افلامها الأمريكية ابطالها رعاة البقر ومدينة لندن الأكثر رصانة غرقت أسواقها بأفلام بطلاتها العاريهات يمسكن المسدسات. ومدينة القاهرة

أصحبت كأنما هي مدينة أخـ ـري لا أكـ ـاد أعرفهـ ـا تغطـ ـي جدرانها الأفلام الأمريكية أو المصرية لا أكاد أعرف هـ ـذه من تلك ، فالكل يدور حول قصص غارقة في الخيـ ـال ، أو في دخان المخدرات ،وبطلات لا هم لهن إلا الرجال ورجال لا هم لهن إلا النساء! أتكون هذه هي حيـ ـاة الملايـ ـين مـ ـن الجرال أو النساء امثالي أنا؟

تذكرت أنني رايت فيلماً منذ سنوات أخرجه داود عبـ ـد السـ ـيد وقـ ـررت المجازفـ ـة والخـ ـروج مـ ـن بيتـ ـي إلـ ـى الشارع،والسير على القدمين حتي السينما التي تعرض فـ ـيلم أرض الخوف. لن اتحدث عن الشارع وما فيه ومـ ـا خـ ـرق اذني من كلمات السباب ، تنطلق من أفواه الصبية الجالسـ ـين على المقاهي، أو السائرين على الارصفة ،كيف يعاكسون البنات في الطريق ، السـ ـافرات والمحجبـ ـات علـ ـى قـ ـدم المساواة ، الشابات والكهلات من مثيلاتي ، صفعت رجـ ـلاً على وجهه حاول مغازلتي ،وشتمت ولدا يركـ ـب دراجـ ـة حاول أن يدهسني ، كدت أعود إلى البيت لكنـ ـي واصـ ـلت السير إن التحدي يجري في دمائي منذ الطفولة،ولن أتراجـ ـع عن هدفي مهما صادفني من مشاق.

٢-خلال رؤية الفيلم:

دفعت خمسة وعشرين جنيهاً ثمن التذكرة، كدت أردها وأسترد أموالي ،كيف تتضاعف الأسعار بهذا الشكل؟ وهي سينما عادية. المقاعد فيها عادية والباغيث أيضا عادية ولاجمهور عادي ، أغلبه من الشباب والصبيان ،إلي جواري فتاة ترتدي الحجاب يحوطها رجل بزراعه ويقبلها في الظلمة.

وظهر احمد زكي. له وجه مصري صميم وذكورة واضحة تقليدية، الرجولة المتحفزة للدفاع عن نفسها في أي لحظة. التي تتصور أن ما امراة في العالم إلا وتسقطي بين ذاعيه هياماً وعشقاً. لكن المخرج داود عبد السيد استطاع أن يقلم قليلاً من أظافر هذه الرجولة ، رأيت مشاهد نقيض بالحنان والرقة حين يتعامل أحمد زكي مع النساء، حتي تلك المرأة التي عاشرها لمدة ليلة واحدة ، بمقدم الصداق ثم طلقها في اليوم التالي بمؤخر الصداق، والتي أحبته دون أن تعرفه،وبكت بالدموع لانه سيفارقها ،كيف أحبته في ليلة واحدة؟ أهي الرجولة الفتاكة؟! وتلك المراة الأخرى الفنانة

المستقلة التي تترك بابها مفتوحاً فيدخل أحمد زكي فإذا بهـا تقع صرعي الحب من أو لنظرة ،وتلك الأخرى والأخرى ،نماذج من النساء فوق الشاشة المصرية والأمريكية نساء يتلاشي استقلالهن في لحظة خاطفة أمام نظرة ذكورية مقتحمة من نوع نظرات احمد زكي ، لم تظهر امراة واحدة في الفيلم بشخصية أخري غير تقليدية. وهذا عيب عام في الأفلام المصرية والأمريكية على حد سواء ، فالرجل تتغير شخصيته مع تغير الصراع الذي يعيشه مع النظام الحاكم في الدولة ، لكن المرأة هي المراة ولا شئ يشغلها إلا الرجل ،أن كانت فنانة مبدعة مثل بطلة الفيلم.

يدور فيلم ارض الخوف حول موضوع هام وخطير ،وقد نجح دأو عبد السلام في تصويره من خلال قصة تقليدية احمد زكي ضابط بوليس يتلقي امراً من رئيسه أن يسعي لاكتشاف اوكار تجار المخدرات متنكراً في شخصية أخري مثلهم يؤدي أحمد زكي يمين الطاعة والولاء من أجل خدمة وإنقاذ الشباب من برائن المخدرات ، لكنها مهمة شاقة خطيرة يؤديها مدي الحياة ، فلا طريق للعودة ولا أمل في الخلاص، لقد صدر الأمر الاعلي وانتهي الأمر، عليه أن

يؤدي دوراً شريراً شبه بدور إبليس ، وهو إنسان لا يحـ ب الشر، قلبه دافئ يحن إلى الحب والحياة الآمنة المستقرة لكن الدور الشيطاني قد فرض على ه بق رار اعل ي كالمصـ ير المحتوم يؤدي المهمة يحاول التمرد احيانا من شدة التعب إلا انه لا يملك حياته، فالقرار بيد سلطة كبري لا يكاد يعرفهـ ا ولا يصل إليها مهما سعي، إنه مثل البطل في قصص فرانز كافكا، الإنسان المحكوم على ه دون أن يعرف مـ ن أصـ در الحكم ، لكن الحكم ينفذ كيف يكون الإنسان قشة فـ ي مهـ ب الريح، أداة في يد الجهاز السلطوي الأكبر ، جهاز غـ امض الوجوه والاسماء كل شئ فيه مجهول ،جو المخابرات العامة والمباحث ، الوجوه المتنكره ذات الأقنعة تتحرك كـ العرائس الممسوكة من أعلي المسرح بخيوط غير مرئية، لكنها خيوط قوية متينة ترطب الإنسان بمصيره الأبـ دي حتـ ي المـ وت مقتولاً أو قاتلاً، أو مهاجراً متنكراً ، مطارداً.

هذا هو حال احمد زكي في الفـ يلم ،وقـ د ادي الـ دور ببراعة واتقان اصبح تاجر مخدرات ناجحاً، ولكنه لـ م يفقـ د قلبه الدافئ والحنين إلى الحب الجميـ ل والصـ دق والحريـ ة وكلها تبدو كالأحلام المستحيلة ، مثل أحلام إبليس حين أراد

أن يعلن التوبة لكن الأرادة الالهية الاعلي لم تقبل توبته،والا كيف يعيش الناس بدون شيطان؟!

لقد تجاوز داود عبد السلام في هذه الفليم بعض الحدود على الفكر الإنساني- على الاقل في بلادنا – تذكرت وانا اشاهد الفيلم قصة قصيرة لتوفيق الحكيم، تدور القصة حو لمأساة إبليس حين قرر أن يتوب عن الشر،وذهب إلى الانبياء جميعاً ،واحد وراء الآخر يطلب منهمالتوسط بينه وبين الإله الأعلي من أجل أن يقبل توبته. تنتهي القصة كما انتهي فيلم أرض الخوف. أن إبليس يظل إبليس بالأمر ولا سبيل إلى الخلاص. إنه القضاء والقدر لا راد له.

لكنها في الفيلم إرادة على ا أخري ليست دينية، إرادة الدولة اوارادة الجهاز الأكبر في الدولة الذي أصدر القرار المخابرات.

في نهاية الفيلم يدور الحوار بين أحمد زكي ورئيسه ، يتمرد أحمد زكي (ابليس) على رئيس ويصفعه ويركله يود أن يقتله ، لكن ماذا يفيد ذلك، فهناك رئيس آخر فوق هذا الرئيس ،وهناك فوق ذلك رئيس آخر ،ولا يمكن لاحد أن

يصل إلى قمة الهرم فهي تختفي وراء السحاب كما تختف ي الآلهة.

يكشف الفيلم في مواقف متعددة ع ن كي ف تتع اون الشرطة مع تجار المخدرات وكي ف يت اجر الرج ل ف ي المخدرات ، ثم يركع ويصلي لله يطلب التوبة،وكيف يستخدم تاجر المخدرات ورقة الدين ليبرر اعمال ه، كي ف يت زوج المرأة ليلة واحدة فقط ثم يطلقها في اليوم التالي بعد أن يدفع لها المقدم والمؤخر ، أي تلاعب بورقة الدين وفكرة التوب ة والصلاة وسمح الذنوب أولاً بأول.

الفكرة جيدة تكشف الكثير من الزيف في حياتنا السياسة والدينية ، أراد لها داود عبد السيد أن تصل إلى قلوب الناس وعقولهم فهل وصلت؟! ربما،،وربما لا، لأنه ك ان يمش ي بحذر شديد فوق الألغام،ولم يشأ أن ينفجر في ه لغمل،وك ان الإخراج ناعماً رقيقاً بلا صدمات ولا دم كثي ر، ولا خ دش أصاب احمد زكي رغم حياته الخطرة لقد نال كل شئ ف ي الحياة عن طريق الشر، نال المال والنس اء. إلا ان ه فق د السعادة وراحة البال. مثل إبليس الشقي الذي اصابته لعنه الله إلى الابد.

أتوقع أن يفوز هذا الفيلم بجائزة في البحرين بسبب الأخراج الناعم المتقن وجاذبية احمد زكي الشيطانية ،ولم لا. لقد تمتع إبليس بجاذبية كبيرة لافساد النساء والرجال، وإلا فلماذا هو بالذات الذي صدر له الأمر الإلهي؟ ولماذا أصبح الابداع أو الفن يحمل اسم الشيطان؟!! ألا نقول" شيطان الفن" أو " شيطان الشعر؟!

هذه فيلم جيد في السينما المصرية يستحق الرؤية ،وهو فيلم طويل ربما يكون افضل لو تم اختصاره قليلاً وحذفت بعض الاجزاء غير الضرورية والتي تجعل الفيلم مملاً احياناً، خاصة الاستعراض المصنوع لذكورة احمد زكي وعلاقاته النسائية المتعددة وذلك المبالغة في اظهار بطولته الخارقة وكأنه طرزان.

لولا هذه الاجزءا لأصبح هذه الفيلم حدثاً في تاريخ السينما المصرية

القاهرة/ ١٩ مارس ٢٠٠٠

***

عن الحقوق المدنية والسياسية

حقوق الإنسان وأسطورة النظام العالمي الجديد

١-الملاحة اولي

لاحظت أن عبارة الحقوق المدنية اصحبت تتردد فـ ي بعض بلادنا العربية ،وخاصة في مصر أو الجزائر أو تونس أو غيرها من البلاد التي تتمتع بشئ مما أطلـ ق علـ ى هـ ا الديموقراطية " أو مما تسـ مح بوجـ ود بعـ ض الاحـ زاب السياسية إلى جانب حزب الحكومة ،واصحبت افكر في هذه الظاهرة الجديدة التـ ي فرضـ ت نفسـ ها فـ ي المـ ؤتمرات والندوات، بل في الاحاديث العادية، إذ ما أن أقابل احداً مـ ن المثقفين في بلادنا أو تجمعني جلسة ببعضهم حتي أسمع كلمة الحقوق المدنية،والمجتمع المدني أو القوانين المدنية.

بل إنني ذات يوم وأنا اسير في الشارع المجور لمنزلي استوقفني احد الجيران،وهو يعمل بمديرية ألأمن ، ربما مدير أو مدير عام لا أعرف بالضبط، وكان حين يقبلني لا يقرئني السلام إلا نادراً و وقد يحرك رأسه الناحية الأخرى وكأنه لا

يعرفني، لكنه هذا الصباح ابتسم في وجهي واستوقفني وبـ دأ يشكو من المشاكل والأزمات التي تعـ اني منهـ ا الحكومـ ـة والشعب نائم لا يفعل شيئاً. واختتم كلامه قائلاً:خـ ـلاص يـ ـا دكتورة الشعب مات وموش عاوز يتحرك.

كنـ ـت عائـ ـدة لتـ ـوي مـ ـن مكتـ ـب البريـ ـد لأسـ ـجل خطاباً،ورفض الموظف تسجيله،وحين سألته لماذا اشار إلـ ـى قطعة من " السيلوتيب" ألصقت بها المظروف وقـ ـال: هـ ـذا ممنوع وقلت بدهشة: ممنوع ليه؟ قال مش عارف والله. هي دي التعليمات.

وكان عل يأن أطوف المكتبات في الجيزة باحثـ ـة عـ ـن زجاجة صمغ الصق بها المظروف بدلاً من السيلوتيب".ولكن الصمغ كان مثل املاء وقلت لنفسي حتي الصمغ مغشـ ـوش ،وأجهدت عقلي في البحث عن اسباب منع تسـ ـجيل خطـ ـاب بالبريد لمجرد أنه مغلق بقطعة مـ ـن " السـ ـيلوتيب" ولـ ـيس الصمغ العادي،ولم أصل إلى شئ وكلما أسـ ـأل واحـ ـد مـ ـن موظفي البريد يرد على قائلاً: مش عارف والله لكن هي دي التلعيمات.

كنت عائدة لتوي من مكتب البريد بعد أن ضـ ـاع منذ ـي نصف الصباح في البحث عن زجاجة صمغ غير مغشوشـ ـة. وفي تسجيل الخطاب ،وما أن سمعت مدير الأمن يقـ ـول أن الشعب مات حتي قلت على الفور: طبيعي كان لازم يموت.

كنت أشعر في تلك اللحظة أن جميـ ـع حقـ ـوق المدنيـ ـة والإنسانية تنتهك كل يوم حين أحـ ـاول ممارسـ ـة الاعمـ ـال الضرورية في الحياة مثل تسجيل خطاب أو تجديد رخصـ ـة القيادة أو جواز السفر ، أو دفع فاتورة الكهرباء أو التليفون. أو أي عمل آخر يتطلب على الدخول إلى مكتب من مكاتب الحكومة ، أشعر كأنني عدة فجأة إلى عهـ ـود العبوديـ ـة ، أو انني مثل ذبابة سقطت في عش العنكبـ ـوت، وأن التعليمـ ـات أواللوائح اوالقوانني بلا عقل وبلا منطق إلا السيطرة العمياء والرقابة الأكثر غباء فـ ـالمفروض أن السـ ـيلوتيب" لا يمنـ ـع الرقيب من فتح الخطابات بل إنه اسهل في الفتح ولا يتـ ـرك أثراً واضحاً ، كالصمغ العادي الذي لا يفتح عادة إلا بتمزيق المظروف ، أو بواسطة بخار الماء وقد عرفت هذه الحقيقـ ـة فيما بعد من مدير الأمن الذي ابتسم في وجهي الصباح وقال إن الشعب قد مات.

٢-التجربة الذاتيةوالموضوعية:

سألت نفسي وأنا جالسة إلى المكتب أفكر في هذه الورقة المطلوبة مني عن الحقوق المدنية ، هل أكتـ ـب شـ ـيئاً عـ ـن تجربتي الذاتية ، أم أدخل في الموضوع مباشرة كمـ ـا يفعـ ـل اساتذة الجامعة اوالبحوث الاكاديمية؟

لكن نزعتي الأدبية أو الروائية تغلب دائما،وتؤكد لي أن الذات جزء من الموضوع.

وفي الثقافة العربية مبدأ يقول إبدأ بنفسك،وفاقد الشئ لا يعطيه ، وإذا كنت أريد التحدث للآخرين عن حقوقهم المدنية فهل أنسي حقوقي أنا؟

وباختصار شديد يمكن أن أقول إن جميع حقوقي المدنية قد انتهكت تماماً منذ الولادة،وفي جميع مراحل العمر حتـ ـي اليوم.

حين ولدت واكتشفت الناس من حولي نوع الجنس الذي انتمي إليه تبددت الفرحة وعلا الوجوه الوجوم والهم. وقبـ ـل أن تنتهي مرحلة طفولتي كاد جدي لامي أن يزوجني الرجل يكبرني بثلاثين عاما لأنه يملك ثلاثين فداناً. وفي الشارع أو الاوتويس كانت عيون الرجـ ـال وايـ ـديهم تنتهـ ـك حقـ ـوقي

المدنية، وفي المدرسة والجامعة كان المدرسـ ون يفرضـ ون على الحفظ دون الفهم أو الجدل والنقاش.وف يالزواج ك ان على أن اخضع لسيطرة الزوج المطلقة أو الط لاق. وف ي عملي داخل الحكومة كان على أن أطيع المدير أو الـ وزير بلا نقاش وإلا الاضطهاد والطرد. وفي الكتابة والنشر ك ان على الأ امس المحظورات أو الموروثات منذ الآف السـ نين وألا اقترب من قريب أو بعيد من قمة السلطة الهرمي ـة، أو فرعون الأكبر،وإلا فالعقاب معروف ومكتوب في القانون أو غير مكتوب،مجرد إشارة تليفونية تحملني العربة المصـ فحة إلى السجن.

حين أعود بذاكرتي إلى الوراء اندهش كيف مررت بكل هذه التجارب،وكيف انتهكت حقوقي المدنية دون أن انتمـ ي إلى حزب سياسية أو داخل حلبة الصراع عل ى السـ لطة؟ ولمجرد رغبتي الطبيعية في الانتماء إلى الج نس البشـ ري وممارسة حقي الأول كإنسانة لها عقل تود التعبير عنه.

٣-نموذج من الحياة الواقعية الحالية:

حين جلست لأكتب هذه الورقة، وكان ذلك فـ ـي أوائـ ـل شهر اكتوبر الماضي دون جرس التليفون وجاءني صـ ـوت أحد المحامين المتطوعين في القضية المرفوعة في مجلـ ـس الدولة ضد وزارة الشئون الاجتماعية بسبب صـ ـدور قـ ـرار إداري في يونيو الماضي بحـ ـل جمعيـ ـة تضـ ـامن المـ ـرأة ومصادرة أموالها وتحويلها إلى جمعية اخري اسمها نسـ ـاء الاسلام.

وقال لي المحامي بصوته الواثق: سنكسب القضـ ـية يـ ـا دكتورة في الجلسة الأولي ٣١ أكتوبر ١٩٩١ لأن قرار الحل صدر بلا اسباب وبلا تحقيق وبلا حكم قضائي. وهذا انتهاك لجميع الحقوق المدنية. وانتهاك للدستور التي تـ ـنص المـ ـادة رقم (٦٦) منه على أنه لا يجوز فرض عقوبـ ـة دون حكـ ـم قضائي.

وتفاءلت اخيراً وبدات اكتب الورقـ ـة ، لكـ ـن جـ ـرس التليفون دق مرة أخري وجاءني صوت محامي أخر متطوع في القضية نفسها ،وقال بصوته المخضرم العجوز:لن نكسب القضية في الجلسة الأولي، ولا الجلسة العاشرة ،إن مثل هذه

القضايا في مجلس الدولة تستغرق الشهور والسنين وقد نخسر القضية في النهاية. لأن المادة رقم (٩٦) من قانون الجمعيات رقم ٣٢ لعام ١٩٦٤ تمنح وزير الشئون الاجتماعية سلطة أكبر من سلطة رجال الضبطية القضائية الذين لا يملكون حق مصادرة الأموال إلا بأمر من النيابة العمومية ، أو في حالة التلبس بجريمة قتل أو جريمة مخدرات.

وتساءلت بدهشة: فين الحقوق المدنية؟

وقال المحامي ساخراً: حقوق مدنية أيه يا دكتورة؟ إن وزارة الشئون الاجتماعية وهي الجهة الاساسية المعنية بالحقوق المدنية للشعب تسلب هذه الحقوق من الشعب بواسطة قانون الجمعيات. اقرئي المادة رقم ٩٧ من هذا القانون،فهي تنص على الحبس مع الاشغال الشاقة لكل من أنشأ أو نظم أو أدار جميعة تدعو إلى مناهضة نظام الحكم، أو الحض على كراهيته! حتي الكراهية يا دكتورة غير مطلوبة ،وعليك أن تفتحي قلبك لحب نظام الحكم!

وقلت لنفسي: إذا كان هذا هو حال الحقوق المدنية ف ي مصر، فما بال تلك البلاد العربية التي لا تعرف شيئاً اس مه حقوق مدنية ،ولا يسمح فيها للرجال بتك وين الجمعي ات أو المؤسسات الشعبية لحل مشاكلهم، ولا يسمح فيه ا للنس اء بالخروج من البيت للاشتراك ف ي الجمعي ات أو الأنش طة المدنية العامة أو حتي مجرد قيادة سيارة؟

٤- ما الفرق بين الحقوق المدنية والحقوق السياسية؟

منذ ولدت وانا اسمع كلمة الحقوق السياسية تردد من حولي ،ثم عرفت حين كبرت قليلاً أنني محرومة من هذه الحقوق لأنني انتمي إلى جنس آخر ،وأن النساء يطالبن بهذه الحقوق من خلال الجمعيات النسائية ،وأن هذه الحقوق تتعلق بحق الترشيح والانتخابات في البرلمان وفي عام ١٩٥٦ حصلت النساء في مصر على هذه الحقوق. وحدث أيضا في عدد من البلاد العربية فيما عدا بعض البلاد العربية في الخليج العربي. حيث لا تزال النساء محرومة من التصويت في البرلمان.

وفي بلادنا العربية نشأ مفهوم الحقوق السياسية بمعناها المعاصر المتعلق بدخول البرلمان أوالاحزاب السياسية والحكم نتيجة الصراع بين الحركات الوطنية والقوي الاستعمارية الخارجية وأعوانها من الحكومات الدكتاتورية المحلية.

وقد سيطر نخبة المثقفين من الرجال عل ى الحرك ات الوطنية في بلادنا بحكم النظام الطبقي الأبوي ال ذي أبع د النساء والفلاحين والعمال والفقراء عن النشاط السياسي.

وتنتمي هذه النخبة في معظم الاحيان إلى الطبق ات أو الشرائح العليا أو الوسطي الرأسمالية بجذورها الإقطاعية أو القبيلة أو العائلية ،وبالتالي كاذ ت نظرته ا إل ى الحق وق السياسية محدودة بحدود مصالحها التي تساعد على الوصول إلى الحكم بأسرع الطرق وأقصرها ،وهو طريق الانتخاب ات للبرلمان التي تشبه في بعض الوجوه الليبرالية ف ي ال بلاد الصناعية الرأسمالية في الغرب ، ولم تهتم هذه الطبقة المثقفة بحقوق الطبقات والفئات الأخ رى ف ي المجتم ع كالنس اء والشباب والفقراء والأجواء في الريف والمدن. والتي كاذ ت تمكنوا لو حصلوا على ها من المشاركة معهم ف ي الحك م، وفي تسيير شد ئون ال بلاد وشد ئونهم الخاص ة ،وتغيير ر المجتمع،وبناء المؤسسات الشعبية التي تساعد عل ى ه ذا التعبير ، أي خلق الادوات والمنظمات الت ي تس مح له م

بالحصول على حقوقهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسـ ية والثقافية والإعلامية وغيرها.

لكم الحقوق السياسية ظلت مقصورة علـ ى الشـ ريحة العليا الصغيرة في المجتمع واطلق على هـ ـا اسـ م رجـ ـال السياسة أو الساسة أو القيادات ،وسقطت الاغلبية الساحقة من الرجال والنساء تحت اسم آخر مثل الناس العاديين اوالمدنيين أو القطاع المدني.

ومن هنا جاء اصطلاح الحقوق المدنية،وهي الحقـ وق السياسية التي حرمت منها الملايين أو اغلبية الرجال والنساء والشباب ، لأنها تنطبق على ذلك القطاع المدني أو القواعد المحرومة من المشاركة السياسية الحقيقية.

واصبحت الحقوق المدنية هي التي تعطي هذه الفئـ ـات والطبقات الشعبية قدراً من الحرية يساعدها على التغيير في بناء المجتمع وتطويره من داخل مؤسساتها. ثقافية كانـ ـت أو اقتصادية أو اجتماعية ، والتي تخرجم من نطاق الاحـ زاب السياسية والبرلمان ومؤسسات الحكم التشـ ريعية والتنفيذيـ ـة والقضائية.

٥-السلطة الرابعة:

هذه هي السلطة التقليدية الثلاث للحكم،وقد اضيف إليها في عصرنا الحديث سلطة رابعة هي الصحافة والاعلام.

وتمثل هذه السلطة الرابعة تطويراً خطيراً في سيطرة المؤسسات الحكومية على عقول الناس، سواء في بلادنا أو في العالم اجمع.

لقد دخل " التليفزيون" إلى كل بيت في القري والمدن،وأصبح لأي سلطة مركزية محلياً وعالمياً أن تتحكم في عقول ونفوس الملايين من البشر. رجالا ونساءً.شباباً وأطفالاً،ويمكن عن طريق احتكار وسائل الاعلام الالكترونية أن تغير العقول أو تغسلها تماماً تماماً، وتملؤها بالأفكار المزيفة والحقائق المعكوسة مما يخدم مصالح القلة الحاكمة محلياً وحلفاءهم في الخارج.

في بلادنا العربية لا يمكن للقطاع المدني أن تكون له قناة تلفزيون خاصة غير تلك التي تملكها الحكومة ،ولا يمكن

أن تكون له محطة راديو غير تلك التي تملكها المؤسسـات الحاكمة.

كذلك الصحف الكبري والمجلات دور النشر الكبيرة لا تزال كلها مؤسسات حكومية ،وتعمل وزارات الثقافـة مثـل وزارات الاعلام مثل وزارة الشئون الاجتماعيـة والداخليـة على الرقابة والتحكم في البشر أكثر مما تعمل على الثقافة الحقيقية ، التي لا تتحقق إلا بتبادل الافكرا وحريـة الجـدل والنقاش.

وقد حاولنا أن نصدر مجلة المرأة" نون" عـن جمعيـة تضامن المرأة. لكن قانون الصحافة في مصـر وقـف لنـا بالمرصاد،وجاءنا خطاب رسـمي مـن المجلـس الاعلـي للصحافة بتاريخ ١٣ مارس ١٩٨٩ برفض الترخيص للمجلة لعدم توافر الشروط القانونية التي تستلزمها الفقرة الثانية من المادة ١٩ من القانون رقم ١٤٨ لسنة ١٩٨٠ بشـأن سـلطة الصحافة.

وهكذا يحرم القطاع المدني في مصر من وسائل تبادل الرأي أوالثقافة عن طريق عدم القدرة على إصدار المجلات إلا لمن يملكون السلطة والأموال.

أما الجدل في الأمور السياسية فهو ممنوع أيضـ ا ع ن القطاع المدني في مصر ،إذ ينص البند رقم ٣ مـ ن لائحـ ة النظام الأساسي للجمعيات " أنه لا يجوز للهيئة أن تجادل في الأمور السياسية أو العقائد الدينية". وقد ارسلت إلينـ ا وزارة الشئون الاجتماعية خطاباً رسميا في ٢٢ نوفمبر ١٩٩٠ يؤكد لنا هذا المعني على شكل تحذير أو إنذار.

وكان قد راينا في جمعية تضامن المرأة على أن نربط بين قضايا المجتمع من النساء بالقضايا الأخرى الاجتماعيـ ة والسياسية والاقتصادية والثقافيـ ة والدينيـ ة وغيرهـ ا مـ ن مجالات الحياة غير المنفصلة في الواقع والحقيقة. وأدركنا أن هذا الربط" شرط ضروري" للوعي بحقوق النساء والرجـ ال على حد سواء، خاصة ذلك القطاع الذي يطلق على ه اسـ م القطاع المدني.

٦-أهمية الحقوق المدنية اليوم:

رغم خطأ الفصل بين الحقوق المدنية والحقوق السياسية إلا أنها ذات أهمية بالغة في المرحلة الحالية ، لأنها يمكن أن تتيح للمدنيين من الرجال والنساء فرض تنظيم انفسهم داخـ ل

الجمعيات والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ،كما تمنحهم إمكانيات الحركة لأحداث تغييرات في حيـ ـاتهم مـ ـن خارج البرلمان والاحزاب السياسية. لأنها يمكن أن تتغلغـ ـل في كل نـ ـواحي الحيـ ـاة الخاصـ ـة والعامـ ـة والاجتماعيـ ـة والاقتصادية والثقافية، ويمكنها – رغم القيـ ـود الحاليـ ـة– أن تلعب دورها السياسي وتقلل من احتكار السـ ـلطة بواسـ ـطة رجال الحكم والأحزاب والساسة ورجال الصحافة والإعلام.

وربما تستطيع أيضا في بعض البلاد العربية المتقدمـ ـة نسبيأو والتي تسمح بتعدد الأحزاب أن تغيـ ـر طبيعـ ـة هـ ـذه الاحـ ـزاب ونظـ ـام الحكـ ـم والبرلمـ ـان، وبالتـ ـالي تحقيـ ـق الديموقراطية عن طريق المشاركة الأوسـ ـع لجميـ ـع فئـ ـات الشعب من القاعدة إلى القمة.

٧-علاقة الثقافة العربية بالحقوق المدنية والسياسية:

لا يمكن للإنسان أن يمارس حقوقه دون أن تك ون لـ ه إرادة قوية واعية بهذه الحقوق والمسئوليات وق ادرة عل ى تحقيقها من خلال حركته الفردية والجماعية داخل المؤسسات التي يعمل فيها أو ينظمها مع غيره من الناس.

لكن هذه البديهية غائبة تماما أو مغيبة في المؤسس ات الثقافية والتعليمية الرسمية. وفي الاحزاب السياس ية أيض ا حتي المتقدمة منها الواعية بالحقوق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للناس. فإن الثقافة ظلت بعيدة. منفضلة وهامشية.

وقد أدت الحقوق السياسية دون الحقوق المدنية والثقافية الحقيقية إلى ديمقراطية شكلية أبعدها أغلبية الرجال والنس اء عن المشاركة الحقيقية في السياسة أو الحك م أو الثقاف ة أو غيرها.

وأفرزت هذه الديموقراطية الشكلية في بلادنا رجالاً أقل ثقافة وأقل ذكاء على الدوام،بسبب انش غالهم الـ دائم ف ي الصراع حول السلطة ولعبة السياسة والانتخاب ات ،وص نع

القرار بسبب ق دراتهم الاقتصـ ادية ونف وذهم الاجتم اعي والسياسي الناتج عن سوء توزيع السلطة والثروة في البلاد.

وترتبط مشكلة الثقافة في بلادنا العربية بمشكلة السلطة الحاكمة المستبدة غير المؤمنـ ـة بالحريـ ـة أو الديموقراطيـ ـة الحقيقية والتي تعتبر الثقافة والإعلام من شـ ئونـها الخاصـ ـة تفرض من خلالها أفكارها على الناس.

وهكذا تنتشر القيم الأبوية الطبقيـ ـة ، الاقطاعيـ ـة ، أو القبلية ،أو الرأسمالية، أو الاشتراكية القائمة على الدكتورية ، أو التسلط البيروقراطي أو التستر تحت شـ عارات دينيـ ـة لفرض الطاعة لأول الأمـ ـر ، والـ ولاء للمـلـ ـك أو الحـ ـاكم ،ووضع الحجاب على العقول والرؤوس واعتبار المعارض للسلطة خارجاً على القانون أو مسـ ـيئاً للـ وطن، وفـ ـرض سيطرة الرجل داخل الاسرة على النساء والأبناء والبنات.

٨-الحقوق المدنية ومشكلة التربية:

تتعاون السلطة المطلقة في الدولة مع السلطة المطلق ـة للرجل داخل العائلة على قتل أي مبادرة أو نشاط، أو حقوق للملايين من النساء والرجال والشباب.

ويعتبر النظام الطبقي الأبوي وما يفرزه من قيم وأفكار داخل الأسرة وخارجها معادياً للحقوق المدنية للنساء والشباب والأطفال ، لأنه يصادر حرياتهم ،ويخضعهم لسـ لطة الفـ ـرد الواحد أو الراي الواحد في الدولة ولسلطة الأب المطلقة فـ ـي البيت أو الزوج ،ويغرس فيهم منذ الطفولة مفهوم مركزيـ ـة القرار والطاعة والخوف من الجدل، وبالتالي يقضـ ـي علـ ـى بذور الحرية أو الديموقراطية ،ويقتل فكرة الحقوق المدنيـ ـة في مهدها ، فلا يمكن لمن تربي على الطاعة والخـ ـوف أن يمارس الجدل والشجاعة بقرار إداري.

ولهذا تتحول الديموقراطية في بلادنا العربية والحقـ ـوق المدنية إلى مجرد حبر على ورق،أو كلام في الخطب تحت قبه البرلمان.

٩-بعض خصائص الثقافة العربية:

تتميز الثقافة العربية الشعبية المتوارثة عبر الأجيال شفهياً بأنها أكثر إنسانية وأكثر مرونة وحرية من الثقافة المكتوبة في سجلات المؤسسات الرسمية والمدارس الحكومية.

وفي الثقافة الشعبية الشفهية مفهوم للدين الإسلامي أكثر حرية وإنسانية من المفهوم الرسمي الحكومي الذي يدرس الدين للتلاميذ على أنه نصوص تحفظ عن ظهر قلب وطاعة ولا تقبل الجدل.

وتتسم الثقافة الرسمية بالجمود والثبات ، لكن الثقافة الشعبية الشفهية متغيرة لانها غير ثابتة في الكتب. ولأن الشعب العاد يستطيع دائماً أن يطور تفكيره وفقا لاحتياجات حياته العميلية المتغيرة ،ولهذا فهو أكثر مرونة من حكامه.

وكانت جدتي لأبي أمرأة ريفية فقيرة لا تعرف القراءة لم تذهب إلى المدرسة، ولم تقرأ القرآن ،وكنت أسمعها تقول: ربنا هو العدل ،وليس نصوصاً تتنازع على تفسيرها

المؤسسات الدينية والتيارات السياسـ ية المتصـ ارعة علـ ى الحكم.

وتساعد الثقافة الشعبية على أن يكون كل رجل وكـ ل امرأة – وإن كانت لا تعرف القراءة ولا الكتابة– مشاركة في إنتاج الثقافة. فالثقافة هي تبادل الراي والخبـ رة والمعرفـ ة بشئون الحياة. وفي هذا المجال تتفوق الثقافة الشعبية ، لكـ ن هذه الثقافة الشفهية غير المكتوبة تنفرض على الدوام،وتحل محلها الثقافة الرسمية المكتوبة، المفروضة من أعلـ ي بـ لا حوار ولا جدال ،والتي تحول الاغلبية الساحقة من الرجـ ال والنساء إلى امستمعين فحسب أو متفرجين ، أو مسـ تهلكين للثقافة لا يشاركون في انتاجها ،ولا يملكون وسائل المشاركة فيها.

إن الثقافة العربية السائدة في معظم بلادنا لا تسود مـ ن موقع التبادل في الراي أو الحرية أو القدرة على الاقناع ،بل من موقع القهر السياسي و الإقتصادي، واحتكار جميع اجهزة الأعلام والثقافة.

وفي التراث الثقافي الإسلامي مدرستان. واحدة رسمية تفرض القيود عل بالعقل ،والأخرى معارضة تق اوم القيو ود وتتبني الأفكار المرنة المتحررة مثل "لا أكراه في الد دين"، " مفن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر". وإذا تعارض النص م ع المصلحة غلبت المصلحة على الـ نص لان الـ نص ثاب ت والمصلحة متغيرة وأن الناس سواسـ ية كأسـ نان المشـ ط، وخلقناكم من نفس واحدة ذكر وأنثي ،وان الله العدل والحـ ق وداخل كل انسان قبس من روح الله،وإن كان امرأة فقيرة أو رجلاً أجيراً،والشريعة من وضع البشر ،ومصـ در القـ وانين العقل والمصلحة ليس الدين والإمامية عقد يتم برضاء الناس وينفسخ بـ إرادتهم ، والشـ وري ملزمـ ـة وليسـ ت معلمـ ـة فحسب،والإنسان سيد نفسه وله عقل يرشده. ومقارعة الحجة بالحجة وليس بالسيف ،والتعددية في الآراء ضـ رورة" انـ تم أعلم بشئون دنياكم" ،وكان الشيخ محمد عبده في بداية هـ ذه القرن ينادي بالمجتمع المـ دني والحقـ وق المدنيـ ـة للنسـ اء والرجال.

لكن هذه المدرسة الثقافية حوربت علـ ى الـ دوام مـ ن جانب المؤسسات الحاكمة في بلادنا العربية وطغت المدرسة

الدينية الرسمية التي فرضت الموت على المرتدين والكفرة وقدست النص المكتوب لذاته واختارت من النصوص ما يلائم مصالحها وجعلت الحاكم مندوب الله على الأرض ،وحاربت التعددية والمعارضة والمبادرات الجماهيرية للمشاركة في الحكم، وحرمت التجديد والإبداع ،ومن أبدع فينا فليس منا وكل بدعه ضلالة ونشرت الأفكار التي تشجع القدرية والسلبية وترك الأمور لأولي الأمر، باعتبار أن الخير يأتي من فوق على شكل هبة أو منحة من الحاكم أو علاوة ، والأرزاق بيد الله. يعطي من يشاء بغير حساب ،وبالتالي لا دور للناس في تحسين اوضاعهم الاقتصادية أو المشاركة في الحكم لاعادة توزيع السلطة والثروة. وتشجيع فكرة إذا بليتم فاستتروا ،واستخدامها في غير موضعها، من أجل تشجيع أخفاء العيوب والانغلاق على النفس وعدم إباحة المكاشفة أو الصراحة أو النقد للأخطاء وخاصة أحكام الحكام.

١٠-الازدواجية وفصل السلطة عن المسئولية:

تحرم الثقافة العربية الرسمية الكشف عن اخطاء الحاكم اونقده في حياته وبعد موته أيضا اذكروا محاسن موتاكم،ولا داعي لنبش القبور. وهكذا يعيش الحـ ـاكم ويمـ ـوت دون أن يحاسبه الناس على اخطائه.

والمفروض أن المسئولية تزداد بازدياد السلطة ، لكـ ـن العكس هو الصحيح في بلادنا العربيـ ـة إذ تقـ ـل المسـ ـئولية بازدياد السلطة حتي تنعدم المحاسبة تماماً عند القمـ ـة حيـ ـث يتربع الحاكم على العرش ، فلا يمكن لاحـ ـد أو هيئـ ـة أن تحاسبه على الخطأ بل تخفي الاخطاء تحـ ـت وابـ ـل مـ ـن التبريرات ، فإن فشلت وانكشف الخطأ تحت وطأة الأزمـ ـة الاقتصادية أوالهزيمة العسكرية يقدم كبش فداء يتلقي العقاب.

وقد روجت الثقافة الرسمية في بلادنا لكلمـ ـة " الفـ ـداء" وكنا في طفولتنا نغني كل صباح للملك المفدي ،واذ درجت في مدارسنا كلمة " الولاء" والطاعة" ضمن الفضائل، مع انها بعض الكلمات المتوارثة من الـ نظم العبوديـ ـة والاقطاعيـ ـة حينكان العبد أو الاجير يذبح ويقدم قرباناً لصاحب الأرض ، أو فدية للملك ،وكلها موروثات العصور العبودية التي قلبـ ـت

القيم الإنسانية الطبيعية رأسا على عقب،واندرجت النساء مع البقر مع العبيد في قائمة الاشياء وليس البشـ ر ، واصـ حبت العبودية مرادفة لكلمة الـ ولاء والاسـ تكانة للـ ذل فضـ يلة، ومحاربة إصلاح الحكم رزيلة أو شذوذ أونوع من الجنون.

وأصبحت المعرفة إثماً يعاقب علـ ى ه الإنسـ ان كمـ ا عوقبت حواء في العصر العبودي الأول حين مدت يدها إلى شجرة المعرفة.

١١-التيارات الدينية المتطرفة:

بالرغم من أن الثقافة الاسلامية في اصولها الأولـ ي لا تعرف شيئاً عن شجرة المعرفة فالقرآن لم يذكر في قصة أدم إلا كلمة الشجرة فقـ ط دون أن يسـ ميها. وحـ اول بعـ ض المفسرين الأوائل تخمين نوع الشجرة، وقال بعضـ هم إنهـ ا شجرة تين أو عنب أو فاكهة أخري. لكن القرآن لم يذكر أنها شجرة المعرفة كما جاء في التوراة. وبالتـ الي فـ إن تـ أثيم

المعرفة لم يعرف في التراث الاسلامي بمثل ما عرف في التراث المسيحي واليهودي.

لكن المشكلة ليست في الدين ،وإنما في الأنظمة السياسية والمؤسسات الحاكمة المستبدة التي تستخدم الدين وسيلة لتحريم المعرفة أو الوعي. وضرب القوي الشعبية المدنية أو السياسية الأخرى ، التي تحاول اعادة توزيع السلطة والثروة في البلاد بشكل أقل ظلمًا أوأجحافاً بالاغلبية الساحقة من الناس.

لقد أدت المؤسسات الحاكمة المستبدة في بلادنا العربية بصفة عامة إلى هذه النتائج الستة:

١- مزيد من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

٢- ازدياد الهوة بين الاثرياء والفقراء.

٣- مزيد من التبعية للقوي الاستعمارية الغربية.

٤- مزيد من التيارات الدينية المتطرفة.

٥- مزيد من الشعارات عن الديموقراطية والحقوق السياسية والمدنية وحقوق الإنسان.

وهذه النتائج الست مترابطة كالحلق ات ف ي سلس لة واحدة. وقد يحـ دث التن اقض بـ ين الواحـ دة والأخـ رى ، كالتناقض الذي يحدث احياذ ا بـ ين المؤسس ات الحاكم ة والتيارات الدينية المتطرفة أو المعتدلة نسبياً، تحاول كل منها ضرب الأخرى. إلا انها فتـ رات مؤقت ة حـ ين تتع ارض المصالح، وسرعان ما يعنود التعاون علناً أو سراً، ذل ك أن العوامل التي تجمعها أكثر من العوالم التي تفرقها ، وعل ي رأسها الميل للاستبداد بالراي ومركزي ة الس لطة وقدس ية الحاكم أو الامير ،وسيطرة فرد على الجماع ة ،وإخض اع النساء للذكور في الاسرة.

١٢-ملاحظة اخيرة:

في ختام هذه الورقة عادت إلى صورة مدير الأمن الذي ابتسم في وجهي على غير العادة ذات صباح ،واخذ يش كو من سلبية الشعب ،وعدم تحركه للتعاون مع الحركة في حـ ل المشاكل والأزمات الاقتصادية والاجتماعية الملحة. ومنه ا مشكلة الفتنة الطائفية وانتشار التيارات الدينية المتطرفة وقال لي بالحرف الواحد: خلاص الشعب مات.

وأدركت أن المؤسسات الحاكمة في بلادنا تريد د م ن الشعب أن يتحرك ويحل المشاكل التي عجزت ع ن حله ا. لكنها في الوقت نفسه تخشي إن تحرك الشعب ألا يكفي بحل المشاكل فحسب ،ولكنه يحاول القضاء على اس باب ه ذه المشاكل. وأولها هذه المؤسسات الحاكمة ذاتها.

ومن هنا ذلك التناقض بين الشد عارات المرفوع ةعن الديموقراطية والحقوق المدنية وتشجيع مب ادة الجماهري ة ، وتلك القيود المكتوبة وغير المكتوب ة الت ي تفيد د حرك ة الجماهير.

وتذكرت أن بعد أحداث الفتنة الطائفية في أبي قرق اص منذ عامين أن اجتمع في مقر تضامن المرأة ما يزيد د ع ن المائة وخمسين من المثقفين ف ي مصد ر ، رج الاً ونس اءً مسلمين وأقباطاً وشرعنا في تكوين جمعية لمحارب ة الفتن ة الطائفية سميناها جميع الوحدة الوطنية.

لكن وزارة الشئون الاجتماعية رفضد ت إشد هار ه ذه الجمعية وتعرض بعض اعضائها الذين نشد طوا لمط اردة رجال الأمن.

كنت أنوي إنهاء الورقة عند هذه الفق رة. ل ولا انن ي تذكرت الابتسامة التي رأيتها ذلك الصباح على وجه م دير الأمن. لقد أدركت بعد أن تأملتها أكثر انها كان ت ابتس امة متناقضة، لم تشمل إلا بعض عضلات الف م، لك ن ملام ح الوجه كانت جامدة. وصوته كان أشد جم وداً وه و يق ول بغضب: خلاص الشعب مات!

وكانما الشعب هو المسئول عن موت نفسه ، أو كأنم ا أنا المسئولة عن موت الش عب ول يس ه و، أو المؤسس ة الحاكمة!

***

المرأة في الالفية الجديدة

١-وجهان لنظام عالمي واحد:

تتحكم القوة الدولية الرأسمالية الأبوية في حياتنا من خلال حكوماتنا المحلية التي تبطش بنا في أي وقت نمثل فيه خطورة عليها أو على استقرار النظام الحاكم.

إننا نعيش في أمان نسبي أو في خطورة نسبية حسب قدرتنا على تغيير النظام الحاكم. ولا يمكن فصل النظام الدولي عن المحلي ،ولا يمكن فصل ما سمي العالم الأول عما سمي العامل الثالث ، فنحن نعيش في عالم واحد يتحكم فيه سياسياً واقتصادياً وعسكرياً ٤٤٧رجلاً يملكون أكثر مما يملكه نصف سكان العالم.

أصبحت قلة قليلة من الرجال يعيش معظمهم في الولايات المتحدة الأمريكية يملكون ويتحكمون في المال والسلاح والاعلام هذا الثالوث القادر على قتل البشر جسدياً وعقلياً ونفسياً. ويتضاعف نصيب النساء والفقراء من هذا

القتل الجماعي الذي نشهده كل يـ ـوم. خاصـ ـة فـ ـي بلادنـ ـا الإفريقية والعربية.

أن القوة هي التي تحكم دولياً ومحليـ ـاً ولـ ـيس العـ ـدل ،وليس الله– إن كان مفهوم الله هو العدل– لكن الحكام فـ ـي عصر العولمة الحديث أو مـ ـا بعـ ـد الحـ ـديث لا يمكـ ـن أن يستمروا في الحكم دون الاستعانة بالله أو الاديان ، حتي تظل الاغلبية من النساء والرجال المقهورين أن هذا القهر. وهـ ـذا الفقر وهذا الموت إنما هو حكمـ ـه الله أو أرادة الله وليسـ ـت إرادة حفنة قليلة من المليارداري الأمريكية والأوروبيين.

إن هذه الظاهرة التي يسمونها العولمة ،والتي توصـ ـف بأنها جديدة ليست جديدة بل هي جزء من التـ ـاريخ البشـ ـري منذ نشوء الاستعمار ، أو بلغة اصح" الاسـ ـتخراب " وكلمـ ـة الاستعمار مضللة لانها مشتقة من الفعل يستعمر، أو ما يؤدي إلى العمار أو العمران ، وفي حين أن الكلمة الملائمة هـ ـي " الاستخراب" لأن الاستعمار الأوروبـ ـي والأمريكـ ـي القـ ـديم والجديد قد جلب الفقر والخراب لبلادنا الأفريقيـ ـة والعربيـ ـة وليس العمار.

لكنها اللغة المضللة التي يستخدمها الغزاة دائما حتي لا يكشف أهل البلاد الخدعة ويتصورون أن هؤلاء الغزاة قد جاءوا لحمايتهم وليس لتدميرهم.

جاء الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ باسم "الحماية" وتضرب الصواخري الأمريكية وقد تم تدمير قوة الشعب العراقي مادياً ونفسياً منذ حرب الخليج عام ١٩٩١ ، وتم هذا التدمير تحت اسم تحرير الكويت ، في حين أنه لم يكن هدفه سوي اغتصاب البترول ،واحتلال بلاد الخليج عسكرياً واقتصادياً.

هل يتغير الاستعمار الجديد (الاستخراب الجديد) في القرن الواحد والعشرين عنه في القرن العشرين؟ ربما يكتسب مهارات خداعية أكبر وقدرات عسكرية وإعلامية أكبر مع التقدم المطرد في تكنولوجيا السلاح والإعلام. ربما يحتاج أكثر إلى الله والأديان والروحانيات حتي لا يدرك النساء والرجال ما يحدث لهم من كوارث اقتصادية وعسكرية.

لهذا لا أتوقع شيئاً إيجابياً من القوي الاستعمارية في العالم ومؤسساتها الاقتصادية مثل الشركات المتعددة

الجنسيات أو البنك الدولي أو صندوق النقد، أو تلك الاتفاقات الدولية التي تتم تحت أسماء خادعة مثل التنمية أو التعاون أو الاصلاح الاقتصادي أو الاصلاح الهيكلي ، بل أتوقع مزيـ داً من الكوارث والحروب الاقتصادية والعسكرية ومزيداً مـ ن الدمار الشامل والإبادة الجماعية للفقراء والضعفاء من النساء والأطفال والعجائز في بلادنا خاصة.

لكن ادرك أيضا أن العنف يولد العنف ،وأن ليس مـ ن السهل قتل البشر دون أن يهبوا للدفاع عن انفسهم وقد أدرك الناس في بلادنا أن العدو اصبح عالمياً ومحلياً وان النضال لابد وان يكون عالمياً ومحلياً أيضا.

لم يعد العالمي منفصلا عن المحلي وهذه واحـ دة مـ ن الايجابيات ، اصبحنا نعيش في عالم واحد، بـ ل فـ ي قريـ ة واحدة بفضل التطور التكنولوجي الهائل لوسائل الاتصال.

ويمكن لسكان هذه القرية في الشمال والجنوب والشرق والغرب أن يتواصلوا ويتجمعوا وينظموا صفوفهم من أجـ ل النضال ضد الظلم والجوع والموت.

ربما لهذا السبب أشعر بالتفاؤل رغم الردة التي نعيشها في كافة مجالات الحياة. رغم هذا الفقر الذي يصيب النسـ اء

اكثر من الرجال، حتي اصبح اصطلاح "تأنيث الفقر" كأنما هو سمة عصر العولمة ما بعد الحديث.

مع ازدياد نسبة البطالة تطرد النساء من سوق العمل قبل الرجال ، خاصة مجالات العمل ذات الأجور المرتفعة ،والتي تتطلب مهارات خاصة ، اما الاعمال الدنيا ذات الأجور المنخفضة ،والتي لا تتوافر فيها أية ضمانات نقابية أو صحية أو قانونية فإن اعداد النساء تزداد فيها عن الرجال ، كذلك الاعمال التي بلا اجر على الإطلاق مثل الاعما المنزلية فتقوم بها النساء اللائي يحملن لقب زوجة أو ربة بيت أو أم ، هذه الفئة من النساء يتعرضن لاضطهاد اقتصادي أكثر من خدم وخادمات البيوت الذين يتقاضون أجوراً على أعمالهم.

في مصر أصبحت أجور الخدم في البيوت اعلي من الأجور التي يحصل على ها خريجوا الجامعات والمعاهد العليا. لقد زادت البطالة بين حاملي الشهادات العليا.

وفقد التعليم الجامعي قيمته في ظل قيم السوق والتجارة والمكسب المالي السريع أو تراكم راس المال، ولأن السوق هي عصب النظام الراسمالي أو عصر العولمة فإن تشجيع

الاستهلاك مطلوب لتصريف البضائع ،ويلعب الأعلام دوره التضليل لتصبح النساء أدوات استهلاكية لشراء منتج ات لا يحتجن إليها منها ادوات الزينة والتجميل والزخرفة ويتزاي د الفهم المفرط بين الطبقات الوسطي العليا في الأكل والمل بس والج نس والمكيف ات والس جائر والخم ور والمخ درات والمنبهات.

ل م ينتب ه علم اء الاقتص اد وم نهم الماركس يون اوالاشتراكيون إلى دور النساء في الأعمال خ ارج نط اق العمل الرسمي مثل الفلاحين وربات البيوت، ولم يكن كافي ا اضافة هؤلاء النساء إلى قوة العمل المنتج، بل لابد من تغيير مفهوم العمل، وإلغاء فكرة تقسيم العمل على اساس الجنس.

إن التقدم التكنولوجي قد ساعد على خلق انواع جدي دة من العمل الإنتاجي الذي يتم داخل البيوت ، أصحبت الم رأة ربة البيت قادرة على كسب بعض المال من عملها الانتاجي دون أن تخرج من بيتها. وسوف يساعد هذا التغي ر عل ى تسهيل الحياة نسبياً خاصة للأسر المهاجرة والطبقات الفقيرة.

إلا أن الهوة بين الطبقات تزداد ما تزداد التفرقة ب ين الجنسين ،ومع ازدياد الفقر وازدياد تصاعد التيارات الديني ة

المحافظة اصحبت المرأة ضحية التمزق بين تيارين متضادين في الظاهر فقط لكنهما وجهان لنظام واحد، التيار الديني الذي يدفعها إلى التحجب والعزلة في البيت والتيار الاستهلاكي الانفتاحي الذي يدفعها إلى الشراء والمتعة والجنس والتزين. بل والدعارة أيضاً.

إن انتشار الدعارة والتجارة بالجنس والنساء (خاصة الفتيات والشابات الصغيرات) قد اصبحت ظاهرة عالمية وعملية واضحة وسافرة أو مستترة تحت انواع جديدة من الزواج التي انتشرت في بلادنا في السنين الأخيرة، مثل الزواج العرفي وزواج المسيار وغيرهما.

ترتكز العولمة والسوق الدولية في مكاسبها على التجارة في السلاح والدعارة والمخدرات وأدوات الزينة ووسائل الترفية والأعلام والأقلام القائمة على الجنس والجريمة. كما ترتكز على الأزدواجية والكيل بمكيالين في كل شئ. سواء كان في السياسة الدولية أو في الحياة الجنسية الخاصة داخل الاسرة ، لهذا السبب يحتاج نظام العولمة ما بعد الحديث إلى الاديان ، إذ ترتكز الاديان على الازدواجية

نفسها التي ترتكز على ها العولمة ،فهناك مقاييس اخلاقي ـة واجتماعية واقتصادية وقانونية خاصة بالرج ـال ومق ـاييس اخري خاصة النساء وهناك تفرقة بين الناس عل ـى اس ـاس الطبقة وتأكيد على أن الله خلق الن ـاس درج ـات وطبق ـات بعضها فوق بعض ،وجعل الرجال قوامين على النساء.

تتغلغل القيم الطبقية الابوية في ص ـلب الأدي ـان وف ـي صلب النظام العالمي والمحلي، وليس هناك ما ي ـدل عل ـى حدوث تغيير كبير في القرن القادم ، ما لم ت ـنهض النس ـاء للدفاع عن حقوقهم وتنظيم انفسهم محلياً ودولياً.

لقد خرجت حركات تحرير المراة في بلادنا وفي معظم بلاد العالم بسبب ما ح ـدث م ـن ردة اقتص ـادية وثقافي ـة وإعلامية. ولم تعد الاغلال والقيود مرئية ،بل أصبحت داخل عقل الإنسان المرأة أو الرجل بسبب عمليات تزييف ال ـوعي المستمرة من خلال اجهزة التعليم والاعلام.

٢-مشكلة الاعلام والتعليم:

في مصر تمتلك الحكومة أجه ـزة الاع ـلام بالكام ـل ، خاصة الراديو والتلفزيون.

معظم الصحف الكبري تملكها الحكومة أيضـ اً. هنـ اك بعض صحف معارضة إلا انها معارضة في نطاق محـ دود إن خرجت عنه فهي مهددة بالاغلاق. كما حـ دث لمجلتنـ ا "نون" التي كانت تصدر عن جمعيتنا التي اغلقتها الحكومـ ة عام ١٩٩١ بسبب معارضتنا لحرب الخليج،ولأنـ ا انتهجنـ ا سياسة نسائية تحريرية تختلف عن سياسة الحكومة.

لقد سيطر الاعلام الأمريكي على كثير من بلاد العـ الم ،منها بلادنا العربية والافريقية. يلعب الاعلام الرسمي فـ ي بلادنا الدور نفسه في تلهية الناس عن مشاكلهم الحقيقية.

وكم ينشغل الناس في بلادنا بالحكايات الجنسية التافهـ ة للرؤساء والأميرات والأمراء. لقد طغت أخبار الأميرة ديانـ ا والحكايات عن كلينتون ومونيكا على أخبار الشعوب التـ ي تقتل بالالاف في بلادنا بسبب الحروب العسكرية والاقتصادية المستمرة.

وقد اصبح الاعلام الرسمي في بلادنـ ا يشـ جع الفكـ ر الديني المحافظ منذ السبعينيات وحتي اليوم. أصـ بح نجـ وم التلفزيون من رجال الدين، والمشايخ الذين يروجون الـ دعوة إلى تحجب النساء. رغم إغراق الناس بالاعلانات الجنسـ ية

الفاضحة لترويج البضائع الاجنبية أو المنتجة محليا ً تحـ ت سيطرة الشركات المتعددة الجنسيات.

ويلعب الأعلام الأمريكي والدولي دوره لمساندة الـ ردة الدينية والسيايسة التي تخدم مصالح السوق والعولمة وتضـ ر بمصالح النساء والرجال من الشعوب خاصة في بلاد الجنوب أو بلادنا.

في جريدة لوس أنجلوس تـ ايمز (الصـ ادرة ٥ ينـ اير ١٩٩٩) نشر موضوع يدعم المدارس الخاصة للبنات التـ ي انشاتها الحكومة في بلادنا مؤخراً. أبـ رزت الجريـ دة رأي المسئولين في وزارة التعليم. ومنهم من أعلن أن البنات فـ ي هذه المدارس الجديدة يتلقين دروساً مضيئة تتمشي مـ ع دور المرأة في الحياة ،ومنها تنظيم الاسرة والصـ حة والنظافـ ة والحفاظ على البيئة ومنع ختان الاناث والخياطـ ة والطـ بخ وحفظ الأطعمة.. الخ، وأن تدريس هـ ذه المـ واد للتلميـ ذات يعتبر خطوة متقدمة حسب قول الجريدة:

"it has helped to mould a good citizen who can be the mother of future geuera. Tion of Egypiant"

هكذا تحدث الردة التعليمية وتكريس فكرة تقسيم العمل على اساس الجنس تحت اسم "الامومة".

رغم هذا التمجيد الخادع للأمومة فإن حقوق الأم أصحبت تتناقص حتي في وزارة التعليم ذاتها، وفي مايو ١٩٩٨ أصدرت هذه الوزارة قرارها رقم ٢٤٢ بحرمان الأمهات من حق عضوية الجمعية العمومية لأولياء أمور التلاميذ والتلميذات في المدارس القومية، واصبح هذا الحق قاصراً فقط على الأباء بعد أن كان يشمل الأباء والامهات معاً.

إلا أن الجريدة الأمريكية لم تذكر شيئا عن هذا. بل راحت تمجد فكرة تدريس مواد خاصة للبنات تحت اسم "الامومة" وتؤيد فكرة إنشاء مدارس خاصة للتلميذات بحجة أن الآباء يرفضون ارسال بناتهم إلى المدارس العادية خوفاً من الاختلاط.

لكم حسب الاحصاءات الرسمية في مصر فإن نسبة البنات في المدارس الحكومة الختلطة ٤٦ % من جملة عدد التلاميذ والتلميذات. ومن المعروف أن الاختلاط داخ المدارس لا يشكل خطورة على البنات بسبب الرقابة

المدرسية المستمرة. كما أن الاختلاط يحدث في الشوارع والمواصلات العامة والمجلات والأسواق وكل مكان.

إلا أن الافكار المحافظة التي تشجع التفرقة بين الجنسية قد انتشرت منذ السبعينيات ، في ظل حكم السادات الذي شجع تصاعد القوة الدينية والسياسية والمحافظة لضرب القوي الناصرية والاشتراكية، وبدأت ظاهرة الحجاب تنتشر بين تلميذات المدارس والجامعات.

حين كنت تلميذة بالمدرسة الثانوية منذ نصف قرن (عام ١٩٤٨) لم يكن في مدرستي تلميذة واحدة ترتدي الحجاب أو تلف شعرها بإيشارب.

اليوم (في فبراير ١٩٩٩) إن تصادف مروري بمدرسة ثانوية للبنات أثناء خروج التلميذات فإني أري مشهداً غريباً ، مئات أو آلاف التلميذات مرتديات الحجاب أو الايشارب حول رؤوسهن.

تخدم العولمة والقوي الاستعمارية الجديدة هذه الاتجاه المعادي لتحرير نصف المجتمع من النساء والمعادي أيضا لتحرير النصف الأخر ، من الرجال إلا أن القيود على الرجال ليست مرئية مثل حجاب الرأس للنساء، ذلك أن

"حجاب العقل " اشد خطورة ولا يري بالعين، كما أن تغير السياسة الاقتصادية في البلاد وإخضاع الاقتصاد المحلي لمصالح الاقتصاد العالمي وتعرض النساء لهذا الاستغلال أيضا مثل الرجال بالاضافة إلى الاستغلال الخاص الواقع إلى المرأة لمجرد أنها امرأة.

ضرب حركات النساء والفكر النسائي المتقدم:

لقد ضربت حركات النساء التحريرية في العالم ومنها الحركة النسائية الأمريكية خرجت اجيال جديدة من النساء يتنكرن لحركة امهاتهن وجداتهن صدرت كتب باقلام نساء يمجدن الأمومة والعودة إلى دور المرأة الطبيعية لخدمة الأطفال والاسرة. وقد ترجمت بعض هذه الكتب إلى اللغة العربية في السنين الأخيرة ، رحب بها الرجال في بلادنا من العلماء وأطباء النفس، وما يطلق علىهم المثقفون أشادوا بهؤلاء الكاتبات الأمريكيات الجديدات اللائي عدن إلى الله والطبيعة الأنثوية بعد الانحراف عنها في الحركات النسوية المتطرفة الشاذة التي انتشرت خلال القرن العشرين.

وفي مصر فإن ٢٠% على الاقل من العائلات تعولها نساء. أي أن المرأة تقوم بالدورين معاً: الأمومة والأبوة، ولا احد يعترض على ذلك. بل تشجيع المرأة على الانفاق على الاسرة والعمل خارج البيت بأجر وبشرط ألا تقتصر في واجباتها المنزلية.

أكثر القوانين ظلماً للمراة في بلادنا هو قانون الزواج، تتحول الزوجة في ظل هذا القانون إلى قاصر. يملك زوجها حق الولاية على ها حسب مبدأ الاحتباس ، أي للزوج الحق في حبس زوجته في المنزل. وعدم التصريح لها بالخروج إلى عملها أو السفر إلى خارج البلاد ، أو استخراج جواز سفر.

وقد أجاز القانون المصري للمرأة أن تعمل خارج البيت بإذن زوجها ،وبرط ألا يؤدي عملها إلى تقصيرها في اداء واجباتها المنزلية ،ومنها رعاية شئون الزوج والبيت والأطفال.

علي هذا يمكن للمراة المصرية أن تخرج للعمل بشرطين أثنين:

١- أن يسمح زوجها بذلك.

٢- أن تجمع بين عملها خارج البي ت وعمله ا داخ ل البيت.

إلا أن الزوجة المصرية التي تعمل بـ اجر يمكنه ا أن تتحرر من قانون الاحتباس بالانفاق على نفسـ ها واطفاله ا والاستغناء عن نفقة الزوج ، لا، القانون يعطي الرجال حـ ق الاحتباس مقابل النفقة. كما يمكن للزوجة أن تطلق زوجه ا عن طريق مبدأ الخلع في القانون إن تنازلت عن حقها فـ ي النفقة ومؤخر الصداق. المشكلة التي يصعب حلها إذن تتعلق بالنساء اللائي يعملن بدون أجر واللائي يعشن عالـ ـة علـ ى ازواجهن وفي حاجة إلى نفقة. وبالتالي يشكل الطلاق بالنسبة لهن مشكلة اقتصادية واجتماعية. ولهذا تعيش معظم النسـ اء الفقيرات. خاصة المسلمات منهن في خوف دائم من الطلاق.

لا يزال الطلاق بالنسبة للزوج المسلم أمراً سهلاً، يكفي أن يقول لزوجته انت طالق فإن طلاقه يقع. سـ واء جـ اءت عبارة الطلاق عبر اسلاك التليفون أو ارسها الـ زوج إلـ ى زوجته في شريط كاسيت أو شريط فيديو، وبغض النظر عما إذا كان الزوج جاداً في إيقاع الطلاق ام هازلاً وذلك حسـ ب

الحديث النبوي: " **ثلاث جدهن جد وهـ زلهن جـ د النكـ اح والطلاق والعتاق**".

نشرت هذه المعلومات في أكبر جريدة مصرية رسـ مية (الاهرام في ٢٠ نوفمبر ١٩٩٨) وبلسان المستشـ ار نائـ ب رئيس هيية قضايا الدولة.

إلا أن نضال النساء المصريات ضد هـ ذه القـ وانين لا يزال مستمراً حتي اليوم– رغم العقبات التـ ي توضـ ح فـ ي طريقهن. وهناك مكاسب حققتها النساء عبـ ر السـ نين وقـ د استطاعت قوة النساء الواعيات أن تخفف من وطـ أة الظلـ م الواقع على النساء خاصة الفقيرات منهن. اللائي يتعرضـ ن لمخاطر متعددة منها الاغتصاب الجنسـ ي ،وكانـ ت الفتـ اة ضحية الاغتصاب هي التي تعاقب لأنها هي التي تفقد غشاء البكارة أو الشرف أما الرجل فهو لاي فقد شيئاً لان ليس لـ ـه غشاء بكارة.

بعد نضال طويل ضد هذا المفهوم القاصر للشرف بدأت السلطة السياسية والدينية في مصر تغيـ ر موقفهـ ا لتحمـ ي هؤلاء الضحايا من الفتيات ، خاصة بعد أن تزايد عددهن في

السنين الاخيرة مع تزايد الفقر والبطالة وعدم ق درة اغل ب الشباب على الزواج أو تأسيس أسرة وبيت.

لقد اصدر مفتي الديار المصرية مؤخراً بعض الفت اوي لصالح ضحايا الاغتصاب منها حق الفتاة الحامل منهن ف ي الاجهاض(قبل أن يكمل الجنين ١٢٠ يوماً داخل الرحم)والغاء المادة ٢٩١ من قانون العقوبات التي كان ت تطل ق س راح المغتصب وتسقط عنه التهمة نهائياً إذا تزوج من الضحية.

ولا تزال الضغوط النسائية مستمرة لانت زاع الحق وق المسلوبة منهن ومنها عدم حق الأم المصرية ف ي اعط اء اسمها اوجنسيتها لاطفالها وعدم احقيقة الم راة ف ي ت ولي منصب القاضي ،وولاية الزوج على زوجته وغير ذلك من الأمور.

إلا أن القوي السياسية والدينية المسيطرة تضع العقبات امام حركات تحرير المراة في بلادنا وتوجه إليها الض ربات الواضحة أو المستترة.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية أصابت الردة النس اء أيضاً بسبب تصاعد القوي المسيحية المحافظة.

ملخص لورقة عن المرأة في الالفية الجديدة ٢٠٠٢

١-الفتاة الفلسطينية التي تتحدي الحكومات العربية

قرأت أسمها في الصحف الصادرة في نيويورك يوم ٣٠ مارس ٢٠٠٢ وصورتها التي ذكرتنـ ي بـ الملامح العريقـ ة الجذابة والعينين السوداوين الخارقتين في قوتهمـ ا لمعاقـ ل الكذب الدولي والعربي ،ونفـ اق الحكومـ ات فـ ي الغـ رب والشرق، اسمها كمـ ا قرأتـ ه بالانجليزيـ ة آيـ ات أو حيـ اة الأخرس. عمرها ثمانية عشر عاماً. فجرت نفسها يوم قتلـ ت معها اثنين فقط من الجنود الاسرائيليين (أو ربما اثنين مـ ن المدنيين في السوق في مدينة القدس ،وجرح ثلاثون شخصـ ا كما قالت الصحف الأمريكية.

وكنت مثلما تماماً ، رغم أنني اعيش هذه الايـ ام فـ ي نيويورك وليس فلسطين لكني احلم كل ليلة انني فجرت نفسي في معقل الجيش الاسرائيلي وقتلت معي الجيش كله ولـ يس أثنين فقط.

ويعلن جورج بوش واعوانه أن هـ ذا هـ و الارهـ اب الفلسطيني الذي يفسده مسيرة السلام و أي سيرة وأي سـ لام

أيها القتلة في اسرائيل وامريكا؟ أهو سلام السد يد شد ارون القائم على الظلم واحتلال الأراضي وأقامة المسد توطنات؟ أهو السلام المبني على ابادة الشعب الفلسطيني حتي يتحول إلى حفنة من اللاجئين الخاضعين لمنطق الق وة العسد كرية الباطشة؟

أليس الموت افضل من الأهانة المتكررة كل يـ وم كـ ل ساعة كل دقيقة؟ إلا يفعل ياسر عرفات وغيره من القيـ ادات العربية ما فعلته آيات أو حياة الاخـ رس؟ أن يلف وا حـ ول اجسادهم المفرقعات ويموتون فداء الوطن بـ دلاً مـ ن إدلاء الخطب والبيانات؟ بدلا مـ ن ضـ رب الشد باب والشد ابات العربيات اللائي يرغبن في السفر إلى رام الله وتفجير أنفسهن هناك في مواجهة الجيش الأسرائيلي!

لو أن الحكومات العربية بما فيها الحكومـ ـة المصد رية فتحت أبوابها ليخرج الشباب والشابات إلى فلسطين للـ دفاع عنها ضد الدبابات الإسرائيلية؟

وقد تركت حياة الأخرس شريط تسجيل تقول فيه: أيتها القيادات العربية أتواصلون الفرجة على نا ونحـ ن النسـ ـاء نقاوم العدوان الإسرائيلي؟ ألا تخجلون؟

حين تصل الثورة الشعبية إلى النساء والبيانات فلابد أن ينتصر العشب على اقوي قوة في العالم وإن كانت نووية!

٢-أوقفوا مسيرة القتل والموت

وتغلي الدماء في عروقي إلى حد الانفجار ، أكاد انفجر أو أخف قنبلة طائرة والقي بها فوق رأس هؤلاء الذين يقبلون الأوضاع ، الذين يتعاملون ع ن احلقيق ة الواقع ة ال ذين يصرحون في الصحف الأمريكية أن مشكلة العنف والدماء المراقة كل يوم في الأرض المحتلة وقطاع غرة تق ع عل ى عاتق الفلسطينيين ، أما إسرائيل الدولة المحتلة الت ي ت دل البيوت وتقتل الشباب والنساء والأطفال بالدبابات فهي بريئة لأنها تدافع عن نفسها في مواجهة الأرهاب الفلسطيني! إليس هذا هو الكذب أو الجنون؟!

ويقعد الطلبة والطالبات اجتماعهم في اللجن ة الثوري ة ضد الحرب ،يصرخ أحدهم غضباً وهو شاب امريكي اسمه " جون":

–يا زملائي ما جدوي ه ذه الاجتماع ات والخط ب الثورية ضد الحرب، جيش الاحتلال ف ي إس رائيل يه دم البيوت بالدبابات ويقتل النساء والاطفال والشباب وحكومتن ا الأمريكية برئاسة جورج بوش تلقي اللوح على الفلسطينيين أنهم يلومون الضحية ايها الزملاء والزميلات ، لانهم خائفون

من " اللوبي اليهودي" هنا في نيويورك وفي جميع الولايات الأمريكية، إنهم حريصون على " أصوات اليه ود" ف ي " الانتخابات" ولهذا يقبلون الحقائق ويكذبون،ونحن نش اركهم هذه الجريمة ، هذه المؤامرة لإبادة الشعب الفلسطين صاحب الأرض وصاحب الحق في دولة مستقلة حرة مثل غيره م ن الشعوب ، ما جدوي هذه الاجتماعات والخطب والكلام؟ على نا أن نفعل شيئاً!

وصاح طالب من الصفوف الخلفي ة يرت دي الكوفي ة الفلسطينية:

-وماذا نفعل يا زميل؟ قل لنا ماذا نفعل ونحن نفعله الآن؟

-علينا أن نسافر إلى فلسطين.نسافر إلى رام الله أيها الزملاء ، كما سافر إليها ستمائة شاب من فرنسا م ن الفلاح ين والعمال والطلبة ، ذهبوا إلى رام الله ليواجهوا الد دبابات الإسرائيلية بأجسادهم، ويناضلون مع الاطفال الفلسطينيين ضد الاحتلال الاجنبي والاستعمار ، هيا أيه ا الش باب الأمريكي ،تحركوا إلى رام الله!

وصاح طالب آخر واسمه "جورج" وهو طالب عن دهم في فصل الابداع والتمرد:

–ولماذا نسافر إلى رام الله يا زميل ،وليس معنا سد لاح ولا دبابات ولا قنابل ولا طائرات حربية ، الافضل أن نجمع انفسنا بالآلاف ونحاصر البيت الابيض في وشنطن هنا ف ي بلدنا ، أن حكومتنا في وشنطن هي التي تحد ارب الشد عب الفلسطيني،وهي التي تشجع إسرائيل على إبادة هذا الشد عب الذي عاني الويلات منذ تآمر الاستعمار البريطاني والفرنسي والامريكي على هذا الشعب الفلسطيني ف ي بداي ة القد رن العشرين ،اقاموا دولة دينية عنصرية هي إسرائيل ،انا مد ن اصل يهودي ايا الزملاء والزميلات ،وقد هاجر ج دي مد ن المانيا النازية بسبب العنصرية ،ولهد اذ ارف ض أي دول ة عنصرية قائمة على الدين أو العرق أو أي عنصر آخ ر ، على نا أن نجمع ألف طالب وطالبة ، ونركب القط ار إل ى وشنطن ونحاصر البيت الأبيض!

وبدات لجنة الطلبة ضد الحرب توزع على نا الإع لان عن المظاهرة الكبيرة في وشنطن يون ٢٠ إبري ل القد ادم، ستبدأ المظاهرة الساعة العاشرة والنصف صباحاً في قاع ة مسرح سيلفان، على الجانب الجنوبي الغربي لتمثال وشنطن التذكاري ، سيبدأ الاجتماع الساة الحادية عشرة صد باحاَ ث م

تتحرك المظاهرة الساعة الواحدة بعد الظهر إلى الكـ ـابيتول مركز الحكومة.

ينظم المظاهرة عدد من المنظمات الشـ ـبابية والعماليـ ـة والنسائية في نيويورك وغيرها من المدن منها:

– الجبهة الطلابية من أجل السلام القائم على العدل.

–الجبهة العمالية ضد الحرب.

–جبهة النساء الاشتراكيات الردايكاليات.

–حزب الخضر في الولايات المتحدة الأمريكية.

–جماعة الشباب من أجل عدالة عالمية.

–رابطة الشباب الاشتراكي الديموقراطي.

–جمعية الطبقة العاملة في مدينة نيويورك المناهضة للحرب.

–جبهة الطلبة المسلمين.

–جبهة الشباب المناهضين لتلوث البيئة.

–الشبكلة الدولية ضد الاسلحة النووية.

– جبهة نيويورك ونيوجيرسي من أجل عالم عادل ديقراطي.

– الاتحاد الدولي ضد العولمة والمؤسسات الرأسمالية.

– الرابطة النسائية الدولية من أجل السلام والحرية والعدل.

ولا يتسع المجال لذكر الهيئ ات الأمريكي ة والدولي ة المشاركة في هذه المظاهرة في وشنطن(ي وم ٢٠ إبري ل ٢٠٠٢) لإيق اف الح رب داخ ل أمريك ا وخارجه ا،في أفغانستان، وفلسطين ،والعراق ،والصومال، وكوريا، وغيرها وغيرها من الحروب في جميع أنحاء العالم ،ومن أجل م اذا كل هذه الحروب؟ من أجل جشع حفن ة م ن التج ار ف ي الشركات الرأسمالية ومنظمة التج ارة العالمي ة التج ارة العالمية والبنك الدولي؟!

في مظاهرة واشنطن ٢٠ إبريل ٢٠٠٢ سنطالب الحكومة الأمريكية بالآتي:

١- إيقاف حرب "بوش" داخل امريكا وخارجها.

٢- توجيه الأموال التي ندفعها من عرقنا (عل ي ش كل ضرائب) لإصلاح حال التعليم والص حة والس كن وتوفير فرص العم ل للع اطلين ول يس للح رب والسلاح.

٣- إيقاف صرف أموالنا الموجهة للتس ليح والح روب والبحوث العسكرية.

٤- إيقاف الاضطهاد العنصري داخل امريكا وخارجها تحت اسم الدين أو اللون أو العرق أو الجنسية أو الجنس أو غيرها.

٥- الدفاع عن حقوق المهاجرين ومساواتهم بالأخرين في الحقوق والواجبات ، وتعديل القوانين لتحقيق العدالة بين المهاجرين والسكان الأصليين.

٦- المساواة بين المواطنين جميعاً. بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو العرق أو العقيدة أو الدين ، وتحقيق العدالة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والجنسية لجميع الأفراد دون أي تفرقة بينهم.

٧- إيقاف الأموال التي توجهها إدارة جورج بوش لتدعيم الأديان باختلاف اشكالها في المدارس والكنائس والجوامع وفصل الدين عن الدولة في كل شئ.

٨- إلغاء التعليم الديني في المدارس العامة والخاصة، بحيث ينشأ الأطفال بروح انسانية عالية خالية من التعصب والعنصرية.

وينشط الطلبة والطالبات في توزيع هذا الأعلان عن المسيرة الكبيرة في وشنطن ،وتسألني أحدي طالباتي في

فصل الابداع الروائي واسمها " كاترين": هل تشاركين معنـ ا في مظاهرة وشنطن يا دكتر ساداوي؟ وقلت لها: نعم بالطبع سأكون معكم في مسيةر وشنطن يـ وم ٢٠ إبريـ ل القـ ادم، سأغادر بالقطاعر محطة نيوجيرسـ ي ("نيويـ ورك" للسـ كة الحديدية) صباح يوم ١٧ إبريل ، لأشـ ارك فـ ي المحكمـ ة الشعبية الدولية للديون التي تعقد في وشنطن يوم ١٨ إبريل ٢٠٠٢ وهي الجلسة النهائية لهذه المحكمة التي قررنا عقدها في ختام اجتماعاتنا في "بورت أليجري" بالبرازيـ ل يـ وم ٢ فبراير ٢٠٠٢ ، بعد أن اخطرنا المتهمين (البنـ ك الـ دولي ومنظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولي والحكومـ ات المساندة لهم) بقرار هيئة المحلفين ضد سياساتهم الاقتصادية التي تسبب الديون الخارجية للبلاد الفقيرة في آسيا وأفريقيـ ا وأمريكا اللاتينية ، كما تسبب الحروب العسكرية أيضا مـ ن أجل الاستغلال الاقتصادي ونزف موارد الشعوب الطبيعيـ ة وقالت كاترين: هل يمكنني أن اشهد هذه الجلسة؟

قلت لها: بالطبع، يمكنك الحضور

وسألتني: وما دورك في هذه المحكمة؟

قلت: أنا واحدة من القضاة الستة الذين تم اختيارهم من شعوب العالم للحكم بشأن مشكلة الديون الخارجية التي تتراكم على كاهل البلاد الفقيرة فيما يسمي على "الاسباب" التـ ي تؤدي إلى وجود هذه الديون ،وعلي راسها النظام التجـ ـاري العالمي القائم على القوة العسـ كرية ، تحـ ـت اسـ ـم حريـ ـة التجارة، أو حرية السوق ، أنهـ ـا حريـ ـة الأقـ ـوي ليـ بطش بالاضعف ،وليست الحريةالقائمة على العدالة بين لـ ـدول أو الأفراد اوالجماعات.

٣-قاعة برخت الثورية

وفي قاعة " بريخت" يتجمع النساء والرجال من احيـاء نيويـورك الفقيـرة مـن بروكلين،وهـارلم ،وكـونيير ، و البرونكس،ومن مانهاتن السفلي حيث حكام مركـز التجـارة الدولية وما يسمي اليوم " الأرض زيزو" ومن مانهاتن العليا أيضا حيث انتشر الفقر بين سكان المدينة كلها في الاجـزاء العليا والسفلي من نيويورك. لقد هرب الاثرياء بأموالهم مـن مدينة نيويورك إلى الضواحي الهادئة الخالية من تلوث الهواء فيما وراء نهر هدسون والنهر الشرقي بعيدا عن مظـاهرات الشباب والسود والنساء والصفر والحمر وغيرهم وغيـرهم، تضاعف اعداد الفقراء والفقيرات في نيويورك وتناقص عدد الاثرياء فالاموال الرأسمالية تتركز أكثر وأكثر فـي ايـدي الأقل فالاقل من الأفراد والشركات.

وفي قاعة بريخت في الدور العاشر من الشـارع رقـم ٢٧ في مانهاتن السفلي جلست استمع إلى الفتـاة الأمريكيـة وهي تعز الجيتار وتغني ضد الحرب وضد الفقر والبطالـة والعنصرية اسمها " شارلين ليهـي (Sharleen Leahey)

فتاة بيضاء شابة طويلة القامة نحيفة الجسم تحتضن الجيتار كالأم تحتضن طفلها الحبيب وتغني من كلماتها والحانها اغنية اسمها" اختاروا السلام القائم على العدل" ومن بعض ابياتها الاتي:

- تشجعوا يا رفاقي لمقاومة الحرب والعدوان.
- لمقاومة قتل الابرياء والاطفال من فلسطين إلى العراق والارجنتين والبرازيل.
- من شوارع نيويورك إلى شوارع واشنطن.دي.سي.
- نحن الطلاب والطالبات ، والمدارسون وعمال المطافئ والراهبات في الكنائس.والخدمات والعاملات في المصانع والمطاعم.
- نحن نمشي في الشوارع نحمل اللافتات والاحلام.
- نحن نحلم بعالم آخر يبني على العدل وليس الجشع.
- ونحن نقول لهؤلاء في مركزه القوة والمال والسلاح!
- اطفئوا اجهزة الراديو والتفزيون والاعلام!
- استمعوا إلى الاصوات الأخرى غير اصواتكم.
- الصمت هو الموت.
- الأن لابد للحق أن ينطق.

– في شوراع نيويورك يموت الآلاف.

–بسبب الفقر والبطالة والمخدرات والحزن.

– ونحن نقول لكم يا من لا تكنون عن الجشع.

–اطفئوا شاشات التلفزيون واخلعوا عن عقول الناس حجاب الكذب

– اوقفوا سيرة القتل والموت.

–استمعوا إلى اصواتنا نغني من أجل الحياة.

–كان مارتن لوثر كينج انسانا شجاعاً.

–وقف وتكلم عن العدل والحرية.

–عارض الحرب في فيتنام وقال ماذا تفعلون يا حكامنا؟

– اتحاولون السيطرة على العالم؟

– المجرد أنكم تملكون اكبر القنابل؟!

– اتركوا الاطفال يعيشون!

– اتركوا الاحلام تنمو!

– والظهور تزدهر!

– اكسروا حاجز الصمت يا رفاق!

– يا كل المقهورون في العالم والمقهورات ،

–بسبب اللون أو الجنس أو الدين.

- دعوا اليأس والحزن.

-وهيا معنا على طريق العدل والحرية والسلام.

٤- إجهاض الثورة في الأفلام الأمريكية

وقد اخترقت الرصاصات صدر مارتن لوثر كينج وهو يخطب في جماهير نيويورك عام ١٩٦٨،كما قتل من قبلـ ـة بثلاث سنوات مالكون إكس في عام ١٩٦٥، حين كنت طالبة في جامعة كولومبيا في نيويورك، ايقظتني زميلتي الأمريكية ماريون فورر وهي تصيح:قتلوه يا نوال؟

قلت: من هو؟

قالت: مالكوم إكس.

كان شابا من السود المهرجين اليائسين ،إلا أن الثـ ورة جذبته فأصبح أحد قياداتها ضد قهر الزنوج، ومات مقتـ ولاً مثل " بياتريس لومومبا" في الكونجو، وقد رأيت الفيلمين عن " مالكوم أكس " وعن " لومومبا" إلا أن السينما عجزت عـ ن تصوير الدراما الحقيقية لحياة أي منهما ، فالواقع أكثر تأثيراً من الخيال ، أو ربما لان السينما الأمريكية لاتزال خاضـ عة لتاثير هوليود والإثارة السطحية على حساب الفن الرفيع.

لقد بحثت عن مسرحية أو فيلم يسد تحق الرؤيـ ـة فـ ـي نيويورك في شارع برودواي أو الشوارع الأخرى الممـ دودة خارج برودواي ، لم يعد شارع برودواي اليوم هو المكـ ـان

حيث المسارح والأفلام الجيدة ، اصبحت شد وارع أخ ري كثيرة تنافس برودواي ، حول حـ ي جـ رينتيش ووشـ نطن سكوير بالقرب من جامعة نيويورك ،وحول مي دان التـ ايمز وشارع ٤٢ وغير ذلك من الأماكن الجديدة والقديمة المجددة.

وكم قرات من الدعايات حول الفيلم بعنوان "عقل جميل" (A beautiful mind) لقد حصل هذا الفيلم على جـ ائزة الأوسكار كأحسـ ن فـ يلم لعـ ام ٢٠٠١ وقـ ررت أن أراه، تصورت أنني سأري فيلماً عظيماً ، إلا انني جلست أكثر من ساعتين أشهد فيلما طويلا مملا رغم أن القصة جيدة تنـ اول موضوعاً هاماً هو:

- كيف يمرض العقل الذكي الجميل بانفصام الشخصية أو الشيزوفرينيا في مجتمع امريكـ ي مبنـ ي علـ ى المـ ال والسلاح والمخابرات؟ بطل الفيلم استاذ في جامعة كبيرة في نيوجيرسي (برينستون) يتعرض للهلاوس بسبب الخوف من مطاردة المخابرات الأمريكية له وهو لا يريد أن يبيع عقلـ ه الذكي الجميل في سوق المال والسـ لاح والقهـ ر والجشـ ع الرأسمالي وكم ضاعت هذه الفكرة الجميلة وضـ اع العقـ ل

الجميل في فيلم امريكي قائم على الاثارة السد طحية الت ي تسيطر على ها هوليوود.

نيويورك/ مارس ٢٠٠٢

٥-سلاح البترول والمقاطعة

ولماذا لا تستخدم الحكومات العربية سلاح البترول كما استخدم في حرب ١٩٧٣ وكاد يقلب ميزان الحرب لصالح فلسطين والبلاد العربية؟ وفي القمة العربية الماضية (في بيروت) كان يمكن استخدم سلاح البترول ، فماذا لم يحدث ذلك؟ ومن هي الحكومات أو القوي العربية الحاكمة التي وقفت ضد استخدام سلاح البترول؟

من هي الحكومات العربية التي وقفت ضد مصالح شعوبها،وخضعت لمصالح الولايات المتحدة وإسرائيل؟ّ!

لكن الشعوب في النهاية قادرة على المقاومة والانتصار،وأمام الشعوب العربية اليوم اختبار كبير لمدي وعيها وقوة إرادتها على الاستمرار وعدم التراجع امام الغاز المسيل للدموع أو الرصاص المسيل للدماء.

ويمكن للشعوب العربية أن تضرب المصالح الأمريكية الاسرائيلية في بلادنا بالاتحاد والتضامن لمقاطعة جميع البضائع الأمريكية الاسرائيلية في بلادنا وهذا سلاح في أيدي الناس جميعاً . نساءً ورجالاً شباباً وشيوخاً. أن يمتنع الناس

عن شراء البضائع الأمريكية والاسرائيلية ،ه ذه المقاطع ـة الاقتصادية الجماعية ربما تكون أقوي الاسلحة للقضاء عل ـى الهيمنة الاستعمارية الأمريكية،وبالتالي الهيمذ ـة العسـ كرية والاسرائيلية.

مونت كلير ٧إبريل ٢٠٠٢

***

رسالة إلى وزير الصحة

مسئولية وزارة الصحة:

لأنك على رأس الوزارة المسئولة عن صحة الناس في بلادنا اكتب هذه الرسالة إليك بصفتك المسـ ئول الأول عمـ ا يحدث للأطفال منآلام وجروح تحت اسم الدين أو النظافة أو منع الأمراض. ومنذ أربعين عاماً حين طالبت بمنـ ع ختـ ان الإناث بصفتي طبيبة أدرك مخاطر هذه العمليات الجراحيـ ة عارضني زملائي فـ ي نقابـ ة الاطبـ اء ووزارة الصـ حة، وتعرضت للهجوم والأذي الكثير من رجال الـ دين ووزيـ ر الصحة حينئذ، وكان لابد من مرور أربعين عاماً حتي تتضح الحقيقة ويصدر القرار بمنع ختان الإناث منذ عامين.

واليوم تتكرر المأساة إذ اثبتت الحقائق الطبية أن ختـ ان الذكور عملية ضارة لا علاقة لها بالدين أو النظافة أو منـ ع الأمراض، وقد كتبت في هذا الشأن منذ عـ امين وصـ درت الكتب العلمية التي تنشر هـ ذه الحقـ ائق باللغـ ات الاجنبيـ ة والعربية ، إلا أن الشعب المصري لا يزال يغذي بالمعلومات

الخاطئة عن طريق أجهزة الاعلام والصحافة المصرية التي تنقل عن الصحف الأخرى دون دراسة، كما أن وزارةالصحة لم تتكلم في هذا الموضوع،ولم ترشد الناس إلى مخاطر هذه العمليات – رغم أن بها إدارة كبيرة مهمتها الثقافة الصد حية ،كما أن نقابة الأطباء لم تعلب دورها المطلوب في مثل هذه القضايا الهامة التي تتعلق بصحة المبلاي ين م ن الـ ذكور والإناث في بلادنا.

بل إن بعض الأطباء راحوا يرددون المعلومات القديمة والإشاعات الجديدة التي تنشرها الصد حف ع ن أن ختـ ـان الذكور يمنع مرض الإيدز، وهذه فكرة مغلوطة تـ ـروج لهـ ـا بعض الدوائر السياسية الإسرائيلية الأمريكية. وقـ ـد وقعـ ـت بعض الصحف المصرية مؤخراً في هذا الخطأ،وراحت تنشر هذه الأكاذيب ،وتعيد نشر الأنباء الواردة إليها من الخـ ـارج والإسرائيليات القديمة والجديدة دون تفكير أو دراسة.

وفي الوقت الذي تنكر فيه إسرائيل علاقة الدين اليهودي بهذه العمليات الجراحية الضارة فإنها تحاول أن تلصق ختان الذكور بالدين الإسلامي، كما يحاولون أيضاً أدعاء أن هـ ـذه العمليات نبعت من مصر القديمة،أو أنها نبعت من إفريقيـ ـا.

وهذه كلها ادعاءات لا علاقة لها بالتاريخ الصحيح لعمليات ختان الذكور أو الإناث.

فلماذا لا تتصدي وزارة الصحة لهذا المووضع إنقاذا لصحة الملايين من الأطفال الذكور.كما تصدت لإنقاذ صحة الملايين من الأطفال الإناث، أم اننا ننتظر أربعين عاماً أخري حتي تدرك وزارة الصحة هذا الخطر؟

وقد نشرت جريدة الأهرام، في ٤ يوليو ٢٠٠٠،وهي أكبر جريدة في مصر مقالاً في صفحة ٣١، توقيع محمود القنواتي، تحت عنوان : أبحاث علمية تؤكد ختان الذكور يمنع الإصابة بالإيدر، ونشرت أعلي المقال صورة تقول فيها: هذه نقوش على الحجارة تؤكد أن قدماء المصريين مارسوا ختان الذكور ، أكثر من ذلك ، لم تذكر الجريدة شيئاً عن علاقة الدين اليهودي بختان الذكور . رغم أن هنا نص واضح في التوراةيؤكد عي ختان الذكور مقابل أرض كنعان أو فلسطين، بل نسبت الجريدة ختان الذكور إلى الدين الإسلامي فقط،وأنه دعا إلى ختان الذكور منذ أكثر من ١٤٠٠ عام، رغم أنه لا توجد آية ولا نص واحد في القرآن يدعو إلى ختان الذكور.

بل هناك آيات تؤكد أن الله لا يخلق إلا الكامـ ل، (لقـ د خلقنا الإنسان في أحسن تقويم).(التي –٩) وأعظـ م علمـ اء الإسلام عارضوا ختان الذكور،وقالوا إنه عادة يهودية وردت في التوراة ولا علاقة لها بالإسلام.

وقد نشرت جريدة " القاهرة" في ١٣ يونيو ٢٠٠٠ مقالاً في الصفحة الأولي تحت عنوان: أحـ دث مفاجـ أة علميـ ة: الختان يحمي من الإصابة بالايدز ،ونشرت صحف مصـ رية أخري طوال السنين الماضية مثل هذه الانباء الخاطئة ، مثلاً نشرت صحيفة عقيدتي في ١٩٩٥/٩/٥ تحت عنوان: وشهد شاهد من أهلها: الختان يمنع الاصابة بالإيدز بقلم د. أحمـ د شفيق،وفيه يؤكد أن الدوائر الطبية في أوروبا أفـ ادت بـ أن الختان يمنع الإصابة بالإيدز ،وهـ ذا أبلـ غ رد علـ ى مـ ن يعارضون الختان، وغرضهم الهجوم على الإسـ لام الـ ذي يؤكد عملية الختان (للإناث).

ونشرت صحيفة الأمة فـ ي ١٩٩٧/٩/٩ مقـ الاً تحـ ت عنوان : الختان يحمي الأنثي منالإيدز ، يقول فيه : الـ دوائر الطبية الغربية توصلت إلى أن الختان يحمـ ي مـ ن الإيـ دز وسرطان العضو الذكر.

هكذا تنشر الصحف المصرية عن الدوائر الغربية هـ ذه الإشاعات تحت اسم الأبحاث العلمي ـة الجدي دة، فلم اذا لا تتصدي وزارة الصحة وترد على هـ ذه الاكاذي ب بـ العلم الصحيح لصحة الناس وصحة عقولهم أيضاً؟

المعلومات الجديدة الصحيحة:

لمـ ـاذا لا تحـ ـاول وزارة الصـ ـحة الحصـ ـول علـ ـى المعلومات الطبية والعلمية الجديدة التي تؤكد على مضـ ـار عمليات الختان للذكور والإناث ،وتنشرها على الناس فـ ـي بلادنا من أجل نشر الوعي الصحي السليم؟!

وقد صدرت العديد من النشرات الطبية والكتب بالعربية والإنجليزية التي تناولت هذا الموضوع ،وهناك أيضـ ـاً فـ ـي شبكة الإنترنت مواقع طبية وصـ ـحية جديـ ـدة تنشـ ـر هـ ـذه المعلومات ،ومنها الآتي :

http:// www.nohrmm.org
http:// www.nocric.org
http:// www.norm.org

وهناك علماء عرب يعيشون في أوروبا ،ويكتبون باللغة العربية والإنجليزية في هذا الموضوع، وعلي سبيل المثـ ـال فإن الأستاذ الدكتور سامي الديب هو مسئل القسـ ـم العربـ ـي بالمعهد السويسري في جينف ، واصدر عدداً من المؤلفـ ـات حول مضار ختان الذكور (والإناث) آخرها الكتـ ـاب الـ ـذي صدر باللغة العربية عام ١٩٩٩ ،هو كتاب من ثلاثة أجـ ـزاء كاملة في هذا الموضوع الهام.

والمطلوب الآن من وزارة الصحة (ونقابة الاطباء) في مصر أن تشكل لجنة من لأطباء والعلماء لدراسة هذه الكتب وتوصيلها إلى الناس والصحف وأجهزة الأعلام.

يقــوم الــدكتور ســامي الــديب في كتابــه (ص ١٦٤)الآتي:

"بعد إلقائي محاضرة في مـ ؤتمر عـ ن الختـ ان عـ ام ١٩٩٤في الولايات المتحدة فوجئت باستلام عدة رسائل مـ ن يهود لم يسبق لي التعرف على هم،وتبـ ين لـ ي أن إحـ دي المشاركات في ذلك المؤتمر قامت بتوزيع محاضرتي علـ ى هم دون إذني وبين مراسلي كان رئيس التعليم الطبـ ي فـ ي جامعة بن غوريون الإسرائيلية ،واسمه "شيمون جليك" وهـ و منالمؤيدين لختان الذكور،وقد تبادلت معه عدة رسـ ائل حـ و ختان الذكور، وأحدي تلك الرسائل تضمن مقـ الاً يـ دعي أن الختان يقي من مرض الإيدز ،شبكها مع ورقة كتب على ها بالانجليزية عبارة تقول: "إذا أمر الله عمل شئ فلا يمكن لهذا العمل أن يكون مضراً"

ويوماً أرسل لي "برنارد لافري" نشيط يهودي في جنيف رئيس للجنة ضد معادة السـ امية ،قصاصـ ـة مـ ـن جريـ دة (Nouvean Quotidien) السويسرية بتاريخ ١٩٩٥/٨/٢٣ تشير إلى أن ختان الذكور يحمي من مرض الإيـ دز وهـ ذا الخبر منقول عن "هيئة الاخبار الفرنسية" التي نقلتـ ـه عـ ـن " يومية الطبيب" الفرنسية ،وهذه الاخيرة نقلته عن خبر صادر عن هيئة أخبار أمريكية بتاريخ ١٩٩٥/٨/٢٣ ،وقد أبلغـ ـت هذا الخبر إلى السيدة "مـ ـاريلين مـ ـايلوس" رئيسـ ـة منظمـ ـة Nocirc والسيد" تيم هاموند" رئيس منظمـ ـة "Noharmm" وهما منظمتان أمريكيتان معاديتان لختان الذكور،وقـ ـد ردت السيدة " مارلين مايلوس" بتاريخ ١٩٩٥/٩/١ما يلي:

"إن مرض الإيدز ليس سببه الغلفة بل الجـ ـراثيم التـ ـي تنتقل من خلال علاقة جنسية غير سليمة،وقطع الغلفـ ـة لـ ـم تثبت فائدتها في الوقاية من الإيدز في الولايات المتحدة حيث أكثر ضحايا هذا الداء هم من المختونين.

إن الحجج الطبية التي استعملت لتبرير واستمرار بتـ ـر الأعضاء الجنسية في الغرب كانـ ـت دائمـ ـا تتماشـ ـي مـ ـع الأمراض المرعبة في الوقت التـ ـي اسـ ـتعملت فيـ ـه تلـ ـك

الحجج،وهكذا استعمل الخوف في العادة السرية في اواسط القرن التاسع عشر ، ثم استعملت حجة النظافة في بداية القرن العشرين عندما وضعت نظرية الجراثيم، وفي اواسط القرن العشرين أصبحت الحجة الخوف من سرطان القضيب والرحم، واما اليوم فهم يستخدمون حجة مرض الإيدز كوسيلة لتبرير عادة وحشية ونحن الذين نعتبر تعسفاً ضد الأطفال التشويه الجراحي لأعضائهم دون موافقتهم ، يمكننا أن نفهم المقصود من تلك الحجج، فالعار كل العار لمن يستخدم مثل هذه الحجج.

وقد رد تيم هاموند بتاريخ ١٩٩٥/٨/٣٠مايلي:

إن الختان لا يحمي من مرض الإيدز ، والإيحاء بأنه يحمي من الإيدز يعتبر رسالة خطيرة للمختونين، تعني أنه في إمكانهم ممارسة الجنس دون اتخاذ الوسائل الكفيلة لحمايتهم من هذا المرض. وأضاف في رسالته بأنه إذا كان صحيحاً أن الختان يحمي من الإيدز ، فيجب في هذه الحالة ختان كل من الذكور والإناث البالغين.

يقول د. سامي الديب في كتابه إن ما سبق يوضح أن مؤيدي الختان بين اليهود ومن يساندهم قد وجدوا في الإيدز ضالتهم للدفاع عن ختان الذكور، فحولوا الخوف من الإيدز إلى سلاح للتأثير على الرأي العام، وقد سارعت الصحف المصرية (والعربية) ونقلت هذه الأنباء . كما نقلت في الماضي كثيراص من الإسرائيليات دون أي تحقيق واعتقدوا أن ختان الذكور والإناث من صحيح الإسلام ،وهذا غير صحيح.

إن القرآن المرجع الاساسي للمسلمين ليس فيه آية واحدة تشير إلى ختان الذكور.

الكتاب الوحيد الذي ينص على ختان الذكور هو كتاب التوراة في الإصحاح السابع عشر (تكوين) يعقد الإله مع النبي إبراهيم عهداً ، يقول له" اقيم عهد بيني وبين نسكل من بعدك عهداً أبدياً .. أعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك لك أرض كنعان ملكاً أبدياً.. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم ،فيكون عهدي في لحمكم أبدياً.. وأما الذكر الإلف الذي لا يختن في لحم غرلتكم فتقطع تلك النفس من شعبها . إنه قد نكث عهدي".

هذه هي الكلمات التي جاءت في التوراة، تؤكد لنـ ا أن إله اليهود رفع شعار" الأرض مقابل الختـ ان" وهـ و شـ عار غريب ، فما علاقة الاستيلاء علـ ى أرض الغيـ ر بـ القوة المسلحة وختان الذكور؟!

وفي محاضرة لي بجامعة نيويورك العام الماضي سألت هذا السؤال فانسحبت بعض النساء اليهوديات اعتراضا على تساؤلي ، وغضبت أخريات ، لكن بعض اليهوديـ ات ايـ دن كلامي وقالت إحداهن: نعم هذا سؤال وارد تماماً،وأعتقـ د أن بعض المؤيدين للصخيونية والاستيلاء على ارض فلسطين ، الأرض الموعودة يؤيدون أيضا ختان الذكور رغم أنهـ م لا يتنون أطفالهم، لكن يخافون من الاعتـ راض علـ ى ختـ ان الذكور ،وبالتالي يسقط حق اليهود في ارض فلسطين، بسـ بب ترابط الوعد الإلهي بالأرض بختان الذكور.

من هنا ندرك كيف توجه كثير من القوي الإسـ رائيلية (والأمريكية) بعض البحوث الطبية لإثبات أن ختان الـ ذكور يحمي من السرطان والإيدز تعزيزاً للآية في التوراة وتعزيزاً للاستيلاء على ارض فلسطين.

الجدل الطبي السليم ضد الختان:

لماذا لا يتابع الاطباء في بلادنا ما يدور في العالم من أبحاث علمية سليمة تؤكد مضار الختان للذكور والإناث؟! ولماذا تسكت وزارة الصحة ونقابة الأطباء كأنما الأمر لا يعنيهما في شئ ؟! وأرجو من وزي الصحة أن يطبع كتاب الأستاذ الدكتور سامي الديب. ويوزعه على الاطباء حتى يعرفوا أن ختان الذكور عادة ضارة بالجسم والنفس والمجتمع،وأن ملايين الرجال ليسوا مختنين وليسوا مصابين بالإيدز أو السرطان، وأن نظرية الوقاية من الأمرضا بقطع الأعضاء في الطفولة نظرية مناقضة للعقل والصحة والدين الصحيح، لأن الله كامل لا يخلق إلا الكامل، وخلقناكم في أقوم تقويم.

يفند الأستاذ الدكتور سامي الديب. نظرية الوقاية من مرض الإيدز عن طريق الختان بالأدلة العلمية (ص ١٦٨) كالآتي:

في نهاية الثمانينيات ادعت بعض الدراسات الافريقية الصغيرة أن هناك علاقة بين فيروس فقد المناعة والذكر الغير مختون. وقد اغتنم مؤيدو الختان هذه الطريقة فقاموا

بحملة دعائية بدأت برسالة بعثها طبيب يهودي اسمه (اروف فينك) إلى مجلة طبيـ ـة عـ ـام ١٩٨٦ Fink: A possible explanation for heterosexual nale infection with AIDS، United Press International release date:October ٢٩، ١٩٨٦ إلا أن هذا الطبيـ ـب أوضـ ـح لصحفي بأنه لا يمكنه إثبات هذا الأمر ،وهذا الطبيب هو من كبار الداعيين لإجراء الختان على جميع الأطفال. وقد سبق وحاول الضغط على جمعية الطب في كاليفورنيا لك تتبنـ ـي مثل هذا البرنامج. وقد فشلت محاولته عـ ـام ١٩٨٧ ،ولكـ ـن نجح في إمرارها عام ١٩٨٨ بصوت واحد من قبل ممثلـ ـي هذه الجمعية دون الرجوع إلى الهيئة العلميـ ـة . ولـ ـم تكـ ـن حجةالإيدز هي الحجة الوحيدة التي حاول إمرارها أمام تلـ ـك الجمعية لممارسة ختان الذكور بصورة روتينية ، فمثلاً لـ ـم يتمكن من إمرار قرار بالختان الروتيني كوقاية من مرضين همـ ـا B streptococcal disease و sand balanitis وقد دعم فكرة الختان الروتيني للأطفال بحجة الوقايـ ـة مـ ـن مرض الإيدز عدد من الأطباء أكثرهم، إن لم يكن كلهم، من اليهود Hodges: A short history، P.٣٥ نـ ذكر مـ ـنهم: Francis A.

، Stephen Moss،Plummer. J.Nekl Simonsen
Joan K.Kreiss،Allan R.Ronald

وقد أعتمد أصحاب هذه النظرية على ملاحظة التوزيع الجغرافي للختان ومرض الإيدز ، واسد تنتجوا أن المد اطق التي تمارس الختان أقل عرضة للإصابة بهذا المرض

وقد ارتكزوا على معطيات من نهاية الخمسينيات، وكأن تلك المعطيات أكيدة ولم تتغير. إلا أنهم أهملوا عوامل طبية، مثل وجود أمراض جنسية . كما أهملوا عوامل اجتماعيـ ـة مثـ ـل العمر الذي تتم فيه العلاقة الجنسية الألوي،ووجـ ـود ختـ ـان للإناث، ونظام تعدد الزوجات. وهذه العوامل قد تلعب دوراً فـ . . .ي انتشـ . . .ار مـ . . .رض الإيـ . . .دز Van howe:Neonatal.coircumcision and HIV infrection pp.٩٩- ١٠٠

كما أن بعضهم قام بمراقبة مجموعة معينة مثل سـ ـائقي الشاحنات. إلا أنهم لم يتأكدوا من أن هؤلاء كانوا مختونين أم لا. معتمدين في فرضياتهم على النسبة الوطنية . كما أنهـ ـم لم يأخذوا بالحسبان عوامل أخري. بعضهم راقب المتـ ـرددين على عيادات الأمراض الجنسية مستنتجين أن من كان لـ ـه غلفة كان أكثر عرضة للامـ ـراض الجنسـ ـية متجـ ـاهلين أن

الإصابة بقرحة جنسية تلعب دوراً أكبر في انتشار الإيدز مع وجود الغلفة أو عدمه. وأحدي تلك الدراسات اعتمدت عل ى مراقبة اشخاص غير مختونين يمارسون الجنس مع مومسات في دولة (كينيا) بأفريقيا. وقد رأت هذه الدراسات أن غير المختونين أكثر عرضه للإصابة بمرض الإيدز من المختونين . ولكن دراسة أخري بينت أن سبب ارتفاع الاصابة في هذه الحالة هو أن غير المختونين يجدون صعوبة في الزواج بسبب نطرة المجتمع السلبية ضدهم فيقومون بالحبث عن علاقة جنسية مع المؤسسات مما يجعلهم أكثر عرضة لمرض الإيدز.

ويؤخذ على هذه الدراسات انها فضلت الاعتماد عل ى معطيات إفريقية بدلا من المعطيات في الولايات المتحدة التي تمارس الختان بشكل واسع. والدراسة الوحيدة التي تمت في هذا البلد حول هذا الموضوع هي تلك التي نشرها " كرايس" عام. ١٩٩٢ Kreiss: Hopkins The association between circumcision وهذه الدراسة لم تأخذ في حسابها الختان إلا بالدرجة ١٤ بين العوامل الأخرى مما يبين التحيز للختان بين الباحثين وناشري المجلات العلمية. وقد

نشوا أن ارتفاع نسبة الاصابات بمرض الإيدز عند غير المختونين هنا قد يكون بسبب تدني الثقافة والحالة الاجتماعية بينهم. فمن المعروف أن الطبقة المتدنية لم يكن في إمكانهم ختان أولادهم،ولم يكن من السهل لهم اللجوء إلى العناية الصحية الروتينية. وهناك ارتفاع عال لمرض الإيدز بين الطبقات المتدنية. وهذه الدراسة التي تريد ربط الختان بالوقاية من مرض الإيدز تفشل في القول أن أنتشار هذا المرض إنما هو بسبب التصرف غير السليم في العلاقات الجنسية وتدني مستوي النظافة وليس في شكل القضيب . pp.٣٩٣-٣٩٦،Fleiss: An analysis of bia

وبعض الأبحاث حاولت إعطاء صبغة علمية لاستنتاجاتها. فقد كتب (جان ماركس) في مجلة Science أن وجود غلفة سليمة يخلق محيطاً حامياً ورطباً يساعد في بقاء الفيروس حياً ويساعد على دخوله. فالفيروس قصير الحياة في محيط جاف حسب قول باحث فيروس الإيدز (سيمونسون). وهذا البحث يبين أن بالختان تصبح الحشفة أكثر قسوة،وهذا يحميها من التجرحات الصغيرة خلال العلاقة الجنسية مما يساعد دخول فيروس الإيدز، كما ان

الغلفة في حال بقائها عرضـ ـة للصـ ـدمات خـ ـلال العلاقـ ـة الجنسية. Mark: Circumcision may protect againdt the AIDs virus.

وهذه الفكرة مرتبطة بكفرة أخري وهي أن الجلد يحتوي على خلايا المناعة تـ ـدعي Langerhans cells . باسـ ـم مكتشفها. وقد ادعت دراسة قام بها الدكتور" وايس" بأن بطانة الغلفة تحتو يعلي قدر قليل من تلك الخلايـ ـا ممـ ـا يضـ ـعف استجابتها للمضادات الحيوية. وقد اقترح إجراء الختان فـ ـي الصغر كوسيلة وقائية واعتبر إجراء الختان لهذا السبب حق مـ ـن حقـ ـوق الإنسـ ـان Weiss: the distribution and density of langerhans وهناك دراسة ثانيـ ـة قـ ـام بهـ ـا (حسـ ـين) و (لينيـ ـر) فـ ـي نفـ ـس الاتجـ ـاه parative in vestigation Hussain، Lehner:com.

ويؤخذ على هاتين الدراستين أنهما تمتا علـ ـى غلـ ـف دون موافقة اصحابها دوناستشارة اللجنـ ـة الأخلاقيـ ـة فـ ـي المستشفي الذي تمت فيه لعمل المراقبة الضـ ـرورية حـ ـول خلوها من المحاباة. وهاتان الدراستان تمتا على نسيج جلدي ميت. بينما كان أحري بهما أن تتم على نسيج حي . وحجم

العينات صغير لا يسمح في استنتاج سليم. وهي في حقيقته ا محاولة لتأكيد موقف مسبق مؤيد للختان(كما هو واضح م ن الانتماء اليه ودي والإسـ لامي لمؤلفيه ا) ولـ يس دراسـ ة موضوعية . ويضيف الناقد أن بقطع الغلفة يتم إزالـ ة ع دد كبير من خلايا المناعة.أما تأثير الختان على الشحفة وخلايا المناعة فلم يتم دراستها بعد وتتطلب بحثا اضافيا . والمنطق السليم يستنتج أن قطع جزء من جلد الذكر ، بالإضافة إلـ ى مضارة الجنسية ، يؤدي إلى انتقاص الوقاية ، كما في الجلد في أي جزء من الإنسان، هو عضـ و ذو مناعـ ة . انظـ ر تفصيلاً حول هذه النقطة في :Cells

Williams: the significance and function of preputial langerhans Cold& Taylor:the prepuce pp- ٤١

وتجدر الإشارة إلى أن الدراسات في هذا المجال تقـ وم على إحصائيات وحسابات معقدة تخلق انطباعاً بصـ رامتها ولكنها لا تخلو من النقد. وقد يؤدي التحقيق منها إلى نتـ ائج عكسية. ولا مجال هنا إلـ ى الـ دخول فـ ي متاهـ ات هـ ذه الحسابات. ويقول الـ دكتور (فـ أن هـ و) بعـ د اسـ تعراض ٣٦دراسة من المجلات المحكمة حو لعلاقة الإيدز بالغلفـ ة،

بأن النتائج غير متلائمة. فهناك دراسات أجريت في العيادات التي تداوي الأمراض المنتقلة جنسياً(والتي يلجأ إليها ع ادة الطبقات الدنيا من الشعب) وتبين أن الغفلة قد تزيـ د خط ر الغصابة بالايدز أما الدراسات الأخرى التي تجـ ري علـ ى عينات من الناس وهي أكثر صدقا فإنها تبـ ين أن الرجـ ال المختونين أكثر عرضة لمرضي الإيدز . وبعض الدراسـ ات لم تـ تمكن مـ ن إيجـ اد فـ ارق بـ ين المختـ ونين وغيـ ر المختونين.ولكن يجب معرفة أن الولايات المتحدة تملك أعلي معدل من المختونين. وفي نفس الوقت أعلـ ي معـ دل مـ ن المصابين بمرض الأيدز بين لدول المتقدمة. وهذا يبين أنـ ه من غير الممكن الربط بين الغلفة وبين مرض الإيدز. Van p. ٥٨: Van ،Howe:Does circumcision influence Howe:
،Neonaial circumcision and HIV infrection
pp. ١٠٠- ١٢٠

الارقام اثبتت عكس ذلك:

أعلي دولة غربية في نسبة ختان الذكور هي الولايات المتحدة. وفي هذا البلد غالبية الرجال في سن النشاط الجنسي

مختونين. ولو كنت النظرية السابقة صحيحة فكان يجـ ب أن تكون بين الدول الأقل انتشاراً لمرض الأيدز . ولكن الارقام تبين أن الولايات المتحدة هي سادس اكبـ ر دولـ ـة لانتشـ ـار الإيذز في العالم . واعلي دولة بين الدول المتقدمة ،ومؤيـ ـدو نظرية الإيدز بيطعة الحال يتجاهلون هذه الحقيقـ ـة. ونحـ ـن نعطي هنا عدد المصابين بين ١٠٠,٠٠٠ كما بينتها منظمـ ـة الصحة العالمية عام ١٩٩٥.

زمبابوي	٩٦,٧
كونجو	٥٨,٤
مالاوي	٤٩,٢
كينيا	٢٤,٨
تشاد	٢٠,٢
الولايات المتحدة	١٦,٠
إيطاليا	٨,٩
سويسرا	٦,٥
الدانمارك	٤,٤
فرنسا	٣,٥
هولندا	٢,٧

ألمانيا	٢,٢
النمسا	٢,٠
السويد	٢,٠
فنلندا	٠,٩
بولندا	٠,٢
المجر	٠,٢

ويشير معارضو الختان بأن الدول الأوروبية المتقدمـ ـة التي فيها نسبة الإيدز عالية هي تلك الدول التي تعرب نسب هجرة مسلمة عالية وعمال من الخارج.

مما سبق يتضح أن الولايات المتحدة تعرف أعلي نسبة للختان ،وفي نفس الوقت أعلي نسبة بالاصابة بمرض الإيدز بين الدول النامية .وقد قدرت منظمة الصحة العالمية أن بين ١٨,٥ مليونمصاب بهذه الجرثومـ ـة فـ ـي العـ ـالم ، هنـ ـاك ١,١مليون شمال أمريكي وبينما أوروبا الغربيـ ـة لا تعـ ـد إلا ٦٠٠,٠٠٠ مصاب . وقد بينت دراسة أمريكية أنه بين كـ ـل ٢٠ شخص هناك مصاب بهذا المرض عام ١٩٩٤. وقرابـ ـة

كل المصابين بهذا المرض في الولايات المتحـ دة هـ م مـ ن المختونين.

Fleiss:An analysis of bias، pp .٣٩٣- ٣٩٤

ويذكر طبيب أمريكي بأن الولايات المتحدة ٥% مـ ن سكان العالم،ولكنها تحتوي على ٦٥% من حالات الإصابة بمرض الإيدز في العالم . Ritter:say no to circumci-sion، ٢-٣٣ . p

الختان قد يكون عامل انتشار للإيدز:

وفي غياب دراسة جدية تثبت أن الختان عنصر وقاية من الإيدز. يجب على نا أن نرجع إلى البـ ديهيات البسـ يطة التي يمكن أن يتقبلها العقل، دون الدوخان في أرقام وحسابات معقدة لا نهاية لها. وهذه البديهيات هي :

–الختان يجعل جلد الذكر أكثر انشداداً وخشونة وأقـ ل رطوبة ،ويرتك فيه ندبا وبالتالي فإن المختون يكـ ون أكثـ ر عرضة للتجرح ودخول فيروس الإيدز في الجسم.

–المختونون أكثر ميلاً لممارسة الجـ نس مـ ن خـ لال الشرج والفم، كما أنهم أكثر ميلاً للعلاقات الجنسية الشـ اذة،

كما رأينا سابقاً. وهذا عامل يزيد في إمكانية التجرح ودخول الفيروسز

-المختونون أكثر ميلاً إلى البحث عن عدد أكبر من شريكة العلاقة الجنسية وتعرض أكبر للفيروس.

-المختونون أقل ميلا لاستعمال العازل .واحد الاسباب التي تقدم لذلك هو انه يضعف من الحساسية بسبب تغليف القضيب. والمختون يكونعامة قد فقد جزءاً من تلك الحساسية بيبب الختان وسنين احتكاك الحشفة بالملابس وتحرق ونشفان في القضيب، فإضافة طبقة أخري على القضيب يزيد في إضعاف الحساسية . كما أن الختان يقلل من مدة المداعبة قبل الولوج،وهذا يؤدي إلى تجريح أكبر في الأنسجة

Rit-ter:Sa no to circumcision،p.٣٥-١،Van Howe:Does circumcision influence،p.٥٩

-حتي وغن قبلنا بأن الختان قد يحمي من مرض الإيدز فإنه يجب عمل ٢٣١٤٨ ختاناً في الولايات المتحدة بتكلفة ٩,٦ مليون دولار لكي يقي من إصابة واحدة بمرض الإيدز. وهذا يعني اننا سوف نعرض عددا كبيراً لمخاطر الختان الأخرى ومن بينها الوافاة لوقاية فرد واحد. وفي دول العالم

الثالث مخاطر الختان أعلي مما هي علـ ى ه فـ ي الـ دول المتقدمة . والدراسات تبين أن وجود غلفة ليس عاملاً مهمـ ـا في مدي انتشار الفيروس. وإن كان عاملاً فالمخاطر الناتجة أكبـ ـر مـ ـن الفوائـ ـد المرجـ ـوة: Van howe Neonatal circumcision and HIV infection، pp.١٠٠-١٢٠

القول بأن الختان يقي من الإيدز قد يفهمه البعض بأنـ ـه يعطيهم مناعة ضد هذا المرض فلا يأخذون حرصـ ـهم منـ ـه ويمارسون الجنس بكل حرية مع أشخاص مصـ ـابين بهـ ـذا المرض.

مما سبق يتضح أن الختان ، ختان الذكور والإناث ليس للوقاية من الإيدز لا بل قد يكون عاملاً لانتشاره. والوقايـ ـة من مرض الإيدز تكمن في حمايـ ـة الفـ ـرد مـ ـن التعـ ـرض للجراثيم الناقلة لهذا المرض. وتثقيف الناس علـ ـى العلاقـ ـة الجنسية السليمة وليس بقطع أجزاء سليمة من جسم الإنسـ ـان Ritter:Say no to circumcision، p.٣٣-٢

* * *

أود أن اسأل وزير الصحة هذا السؤال :

لماذا لا تلعب وزارة الصحة دورها فـ ي نشـ ر هـ ذه المعلومات الهامة على الاطباء وعلي الناس ،وقد رأيـ ت أن من المهم أن أرسل هذه الرسالة إليك وفيها أجزاء من كتـ اب علمي قام بنشره استاذ عربي وليس أجنبي ،وعنـ ده نسـ خة واحدة من هذا الكتاب الهام.

***

أبحاث علمية غير سليمة:

كيف يدافع المختونون من الرجال أنفسهم وكيف تدافع النساء المختونات عن انفسهن؟ من المعـ روف فـ ي الطـ ب النفسي أن الإنسان الذي يتعرض للقهر الجسدي من أي نوع ،مثل قطع جزء من جسمه في الطفولة يشعر بالحزن العميقو يحاول أن ينكر ما حدث له،كانماهو المسئول عنه ،قد يتحول هذا الإحساس بالنقص إلى زهو أو مبعث فخر،أو على الأقل أنهذه العملية الجراحية لم تضره في شئ بل أفادته صحيا أو منعت عنـ ه الأمـ راض، أو أكسـ تبه هويتـ ه الأصـ لية أو خصوصيته الثقافية أو قيمه الأخلاقية أو الحضارية.

وكم تتفاخر كثير من النساء بالحجاب رغم أنه أحد وسائل القهر المفروضة على بعض النساء تحت اسم الدين أو الاخلاق.

ويلعب التعليم والاعلام دوراً في التجهيل بمضار هذه العمليات التي تشوه الأجسام والعقول،ويستخدم وسيلة للتجهيل أيضا تحت اسم البحوث والدراسات التي تجري أحياناً لأهداف سياسية وليس من أجل البحث عن الحقيقة.

مثلاً لعب الأعلام الدولي والعربي دوراً في ترويج حبوب الفياجرا. استطاعت الشركات العالمية للأدوية التي تنتج هذه الحبوب أن تمول أبحاثا علمية تثبت فعالية هذه الحبوب وقدرتها على تنشيط القوة الجنسية للرجل، واستخدمت رجالاً مشهورين في عالم السياسة أو الفن دفعت لهم الملايين من أجل أن يتحدثوا في التلفزيون عن فوائد حبوب الفياجرا، ويحكون تجاربهم الخاصة، ربما تكون هناك بعض الحقيقة فيما يقولون ،وفي بعض الابحاث العلمية ، إلا أنها حقيقة جزئية ،وقد تلعب الحقيقة الجزئية دوراً في تشوية الحقيقة أكثر من أي شئ آخر، لانها تبدو للناس حقيقة علمية ومقنعة ، ولأن الناس يفتقدون المعرفة أو النظرة الكلية

للأشياء فإن هذه الحقائق الجزئية تخـ دعهم كثيـ راً دون أن يدركوا ذلك.

منذ خمسة وثلاثين عاما حين كتبت ضد عمليات ختـ ان البنات في مصر هاج زملائي الأطباء غضباً وقالوا إن ختان البنت ضرورةو صحية من أجل النظافة ومنع الأمرضا، قلت لهم كيف نقطع عضوا من الجسم من أجل النظافـ ة؟ ألـ يس الأفضل أن نغلسه بالماء والصابون بدل من بتره بالمشرط أو الموس؟!

وكم من أبحاث طبية خرجت تثبت أن ختان البنات مفيد صحياً، وأنه يمنع أمراض السـ رطان وأمـ راض الزهـ ري والسيلان،وأن المومسات المختونات أقل تعرضا للأمـ راض من المومسات غير المختونات. لا تنفصل القوي المسـ يطرة على العلم على القـ وي المسـ يطرة سياسـ ياً واقتصـ ادياً وعسكرياً وإعلامياً، كما أن شركات الأدوية في العـ الم لهـ ا سطوتها وقوتها ويمكن أن توجه الابحـ اث الطبيـ ة لخدمـ ة ارباحها وترويج منتجاتها.

وكم من بحوث عن فوائد حبوب الفياجرا لتقوية الفحولة الجنسية عند الرجال،وقد اتضح مؤخرا مضار هذه الحبـ وب

على القلب،وقد تعرض بعض الرجال للموت بعد تعاطيها أو لازمات قلبية.

وكم من بحوث عن فوائد ختان الذكور، وأنها تحمي الرجال من الإصابة من السرطان، وأخيراً الحماية من مرض الإيدز، وأنه في أحدث دراسة علمية قام بها باحثون في استراليا أكدوا فيها أن الرجل غير المختون يكون أكثر عرضة بمرض الايدز،وأن عملية ختان الذكر أفضل وقاية من هذا المرض ومن أمراض أخري تنتقل عن طريق الجنس مثل السيلان والسفلس (الزهري) ويؤكد رئيس البحث البروفسير روجر شورت أن الختان هو افضل وسيلة للحماية من هذه إلامراض الآن، بينما البديل الوحيد المتاح للرجال غير المختونين هو وسائل الحماية الكيميائية.

وإذا كانت هناك وسائل كيميائية أي أدوية وكيماويات للوقاية من الإيدز والأمراض الجنسية فلماذا نبتر أجزاءً من أجساد الذكور بالموس أو المشرط وهناك وسائل اخري افضل مثل الادوية والكيماويات.

مثلا هي نقطع أذن إنسان حتي لا تصاب الأذن بمرض من الأمراض أم نستخدم الأدوية والكيماويـ ـات إذا أصـ ـيب الأذن بالمرض؟!

كما أن أغلب هذه البحوث العلمية لا تأخذ في اعتبارها العوامل المتعددة التي تلعـ ـب دوراً فـ ـي إصـ ـابة الرجـ ـال بالامراض الجنسية أو مرض الإيدز مثلاً . ربما تقل نسـ ـبة الأمراض الجنسية في الرجال المختونين لأنهم ينتمون إلـ ـى ثقافة أو دين معين يمنعهم من ممارسة الجنس مع المومسات مثلاَ، إذن هناك عامل غير الختان قد يحمـ ـي الجـ ـرال مـ ـن الإصابة بالايدز أو الامراض الجنسية ، مثلا لوحظ أن النساء المختونات أقل أصابة بالأمراض الجنسية أو الايـ ـدز مـ ـن النساء غير المختونات. ويرج ذلك إلى القيـ ـود الثقافيـ ـة أو الاجتماعية التي تفرضها ثقافة معينة أو ديـ ـن معـ ـين علـ ـى حرية النساء الجنسية.

إن غياب عضوا أو جزء من الجسم لا يمكن أن يكـ ـون له فوائد وقائية من أي مرض ، بل العكس هو الصحيح، إن اكتمال الأعضاء أواكتمال الجسم عنصر هـ ـام فـ ـي اكتمـ ـال

الصحة الجسدية والنفسيية والجنسية لأي إنسـ ـان رجـ ـل أو امرأة. وكل عضو في الجسم وإن كان صغيراً لـ ـه وظيفـ ـة وفوائد– حتي الزائدة الدودية لها فائدة – يلعـ ـب دوراً فـ ـي تعرضه للأمراض، مثلا إذا عاشت امرأة داخل أربعة جدران لا تمارس الجنس إلا مع رجل واحد هو زوجها تكون أقـ ـل تعرضا للأمراض الجنسية من غيرهاالتي تتمتعبحرية جنسية أكبر ،وكذلك الرجل المتعدد العلاقات أكثر عضة من الرجـ ـل الذي يسيطر نزواته.

إن التعددية الجنسية أو الاباحية الجنسية دون ضـ ـوابط هي التي تعرض الرجال والنساء للأمراض الجنسـ ـية ،ولأن هذه الاباحية أو الحرية الجنسية منتشرة بين الرجـ ـال غيـ ـر المختونين فإن إصابتهم بالايدز أو الامراض الجنسية أكثـ ـر من الجرال المختونين.كذلك تعرض النساء غير المختونـ ـات للإيدز أكثر من غيرهن.

هذه من أهم مشاكل البحوث الطبية فـ ـي العـ ـالم ، لأن البحوث الطبية تبحث في أمور الجسـ ـد فقـ ـط، أو الأمـ ـور البيلوجية والفيزيائية. لكنها لا تبحث فـ ـي امـ ـور السـ ـلوك والعادات الثقافية والأخلاقية.هناك فصل دائم في علوم الطب

بين الجسم والمحيط الاجتماعي والثقافي الذي يعيش فيه هذا الجسم ،ومن هنا انفصال الأمراض الجسـ مية عـ ن البيئـ ـة والثقافة والدين والأخلاق. لم نتعلم في كلية الطب أن نـ ربط بين الجسم والعقل والنفس والمجتمع والسياسـ ـة والاقتصـ ـاد والفلسفة والدين والتاريخ والجنس وغيرها من العوامل الهامة التي تؤثر في سلوك الرجال والنساء و بالتالي تـ ؤثر علـ ـى صحتهم وسلامتهم.

وتنشر الصحف والأعلام أخباراً مضـ ـللة عـ ـن هـ ـذه الابحاث الطبية ،والتي تروج لها القوي السياسية الإسرائيلية الأمريكية وشركات الأدوية الكبري في العـ ـالم، أو القـ ـوي السياسية التي تجني الارباح من قبل هذه البحوث المضللة.

لاشك أن عمليات الختان سواء للذكور أو الانـ ـاث مـ ـن العادات الضارة الموروثة منذ العبودية ،ولها فـ ـي عصـ ـرنا الحديث من يستفيدون منها ويكسبون الأموال ، أنها واحـ ـدة من المافيات في العالم، مثل مافيا التجارة بالجنس ، وما فيها تروريج حبوب الفياجرا واخيرا مافيا التجارة فـ ـي حبـ ـوب الصويا التي نشر عنها مؤخرا انها مثل حبوب الفياجرا تزيد

من قوة الرجل الجنسية،وتمنع ما يسمي الوصول إلـ ى سـ ن
الياس عند الرجال.

القاهرة / ١٠ يوليو ٢٠٠٠

***

رسالة إلى وزيرة البيئة

لأن صورتك الباسمة الرقيقة الناعمة تطالعني من لـ ك مكان فقد اصحبت كأنما اعرفك،وأراك في الن وم وأح لام اليقظة حين أتمدد فوق الكنبة في الشرفة،وأطل على شارعنا القصير الذي يحمل اسم " معهد ناصر" في حي شبرا القديم. وكان شارعنا هذا القصير نظيفاً إلى حد كبير قبل أن تنش أ وزارة البيئة ذلك أنه يحمل اسم ناصر ويج اور المستش في الابيض الفاخر الذي يحمل اسم معهد ناصر أيضاً.

وكان جدك مكرم عبيد يتراءي لي أيضا في النون وانا طفلة، استمتع إلى احاديث جدي وأبي عن الكت اب الأس ود والعهد الملكي الأكثر سوداً : كانت الصحف واقلام الادب اء الكبار تكيل المدح والثناء للملك فاروق الأول ، ملك مص ر المعظم، أدامه الله ذخرا للبلاد ،حيث يرفل الشعب المص ري الكريم في النعيم أو الخير ،الذي ينعمه الملك عل ى عب اد الله . وأسمع أبي ينفث بالغضب ويقول إننا نسير من فقر إلى فقر رغم انه موظف في الحكومة فما بال الفقراء ،وأس معه يهتف في البيت يسقط الملك يسقط الإنجليز و ثم يمضي إلى عمله يائساً صامتاً ثقيل القلب مكبوت الغضب. كنت تلمي ذة

بالمدرسة وسألت أبي يوما: لماذا لا تثور يـ ا أبـ ي إلا فـ ي البيت؟ لماذا لا تهتف في الشاعر يسقط الملك يسقط الإنجليز! كان أبي يضحك ويقول: سيقول الناس عني مجنون.

وهذا هو ما حدث لي بالضبط بعد نصف قرن، وبعد أن مات أبي منذ أربعين عاماً. وجدتني امشـ ي فـ ي شـ ارعنا الصغير وأهتف بأعلي صوتي يسقط الملك يسقط الانجليـ ز! وتجمع الناس حولي وقالوا: مجنونة! كان اليوم هو ٤ مـ ايو عام ٢٠٠٠ ، وكانت الاعلام مرفوعة في الاحـ تفلات بعيـ د الربيح واعياد قومية اخري والزبالون والكناسـ ون غسـ لوا شارع النيل وميدان التحرير وشارع الحرية والديموقراطيـ ة ومعهد ناصر ومدينة السادات وأكاديمية مبارك وغيرها مـ ن المعالم الوطنية ، إلا أن شارعنا الصغير الذي يحمـ ل اسـ م معهد ناصر لم يكن له نصيب في هذه الاعياد.وجدتني ذلـ ك اليوم الربيعي أتعثر وأنا امشي في أكـ وام مـ ن الصـ ناديق الفارغة والقمامة وأكياس النايلون وعلب الصفيح تفوح منهـ ا رائحة بولييبف عفنه.

عرفت أن هذه الاكوام الجديدة من الزبالـ ة مصـ درها السوبر ماركت الجديد الذي فتح منذ فترة قصيرة في العمارة

المجاورة لنا، والذي يحمل اسم " سنيسبري " وقد احتل الدور الارضي من العمارة ،له واجهة عريضة مزينة باللون البرتقالي الزاهي ومدخل من البلاط المصقول اللامع ، يغسله كل يوم في الصباح الباكر شبابا يرتدون البدل البرتقالية الأنيقة،فوق صدورهم شارة باللون البرتقالي تحمل الاسم الانجليزي العريق" سينسبري"، يروحون ويجيئون داخل المحل وخارجه بنشاط غير عادي، خطوتهم فوق الأرض سريعة يدبون فوق البلاط المغسول بكعوب مثل العساكر الانجليز أيما لاملك و يرمقونني باحتقار لأنني امشي في الشارع فوق قدمي داخل حذاء كاوتش لويس داخل سيارة طويلة أمريكية أو بريطانية ،أو لأنني لا أدخل إلى السوبر ماركت العظيم ،واذهب إلى البقال الفقير في المحل الصغير المجاور.

لكني ذلك اليوم ٤ مايو دخلت إلى السوبر ماركت لأول مرة، رايت الؤوس تنحني لي باحترام وتقودني عبر الممرات بنعومة شديدة ، توجهني إلى المشتريات المنظمة في صفوف فوق الرفوف ، لكني لم أدخل للشراء، بل توجهت إلى مكتب المدير الذي تصورته إنجليزياً ، لكنه مصري يتكلم العربية

بلكنة أجنبية ، وقف احتراماً خالياً من الأدب كعادة الأجانب مع أهل البلاد. وقلت له بغضب أن السوبر ماركت قد جعل في شارعنا ملقف قمامته ،وانه لا يفعل ذلك في لندن لأنه يحترم الإنجليز، أما نحن سكان حي شبرا القديم! قاطعني المدير معتذراَ متأسفا معلنا أن العربة التي تحمل القمامة تعطلت هذا اليوم، وأنه في الغد سوف يكون شارعنا نظيفاً كما كان.

إلا أن الغد جاء وقمامة الانجليزي سينسبري لا تختفي من شارعنا،بل يتضاعف حجمها يوماً بعد يوم، حتي جاءني بعض الجيران،وقالوا: هذه القمامة زادت عن الحد ونحن فقراء في حالنا وليس لنا واسطة في وزارة البيئة ، ألا تعرفين أحد في الحكومة أو في احزاب المعارضة؟ لاحظت انها لا يفرقون بين هؤلاء وهؤلاء وقد رأو صورة السيدة وزيرة البيئة تتوسط احتفالات الاحزاب المعارضة بمثل احتفالات الحكومة وقلت لهم أنني لا أعرف أحداً ،ولكني سأحاول أن أكتب شيئاً.

وتذكرت أنني منذ أيام قليلة قرأت شيئاً عن أن وزارة البيئة أو وزارة الصحة قد جعلت قضية الحفاظ على البيئة

قضية تهم كل مواطن مصري ،وذلك عن طريق الشرط الجديد لاتمام أجراءات أي ترخيص لفتح أي محل تجاري أو عيادة طبية وإن كانت عيادة نفسية، هذا الشرط الجديد يقتضي الحصول على ترخيص من صحة البيئة يسمي" ترخيص تداول النفايات" ولا يمكن لاحد أن يفتح محلاً أو حتي عيادة نفسية دون الحصول على هذا الترخيص يثبت به صاحب المحل أو صاحب العيادة الطبية (بعد أن يدفع مائة جنيه رسوم) أنه تعاقد مع محرقة لحرق النفايات والقمامة الناتجة عن المحل أو العيادة،وأنه يدفع اشتراكاً شهرياً لهذه المحرقة مما يؤكد عد وجود نفايات خارج المحل أو داخله.

كان المقال الذي قرأته عن هذا الموضوع قد نشر في جريدة الأهرام يوم ٢ مايو ٢٠٠٠ ، تحت عنوان " محرقة للنفايات النفسية" بقلم سلامة أحمد سلامة ، بعد أن أرسل إليه طبيب نفسي يشكو صعوبة الحصول على هذا الترخيص، والتعاقد مع محرقة ودفع اشتراك شهري يترتب على عدم دفعه ولو لم توجد نفايات (مثل عيادة نفسية) الغاء التعاقد وسحب الترخيص.

وإذا اختم رسالتي الودية إلى وزيرة البيئة الرقيقة، اود أن أسأل هذا السؤال البسيط: هل يا تري أن "سينسبري" قد حصل على هذا الترخيص؟ وإن كان كذلك فلماذا تتراكم النفايات في شارعنا القصير أما السوبر ماركت؟! ألم يتعاقد مع محرقة لحرق النفايات ؟ ام أن المحرقة تعطلت كما تعطلت اشياء اخري كثيرة في حياتنا دون أن ينطق احد.

القاهرة ١١ مايو ٢٠٠٠

***

نشؤ الفيروسات والحرب البيولوجية الخفية

من المهم لنا أن نعيش خارج الوطن بعـ ض الوقـ ت ، لندرك بعض الحقائق التي لا تصـ ل إلينـ ا إلا بعـ د فـ وات الأوان،ولنقرأ بعض الكتب الجديدة التي تصدر بلغات أجنبية ،والتي لا تترجم إلى اللغة العربية إلا بعد عدة سنوات، حين تضيع على نا فرصة معرفة الحقيقة في وقتها،ونصبح ضحايا لأشياء لا نعرفها.

وقد اصبح نصف سكان القارة الإفريقية تقريباً ضـ حايا وباء مرض الإيدز دونان يعرفوا شيئاً عن هـ ذا الفيـ روس الخطير،وهل جاء عن طريق قرود الغابة الإفريقية، أم عـ ن طريق الغابة البشرية الأمريكية.

وقد بدأ عدد من الأطباء الأمريكيين (من ذوي الضمير الإنساني الحي) أن يكشفو أخيراً عن الحقائق التي تم إخفائها على مدي الثلاثين عاما الماضية ،وأن يقدموا دلائل علميـ ة جديدة عن أن فيروس الإيدز قد تم خلقه بالمعامل وآن آثاره الخطيرة على صحة البشر كانت معروفة ،وتم التبنؤ بها قبل اندلاع الوباء في إفريقيا، وتم التكتم على الأمر.

من أهم الكتب التي صدرت في هذا المجال كتاب بعنوان" الفيروسات الناشئة"(Emerging viruses) وهو بحث علمي هام قام به طبيب أمريكي اسمه الدكتور " ليونارد هورويذر"، (Leonard Horowitz) صدر الكتاب عام ١٩٩٧ باللغة الاجنبية ومن المهم ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية ، حتي تصل بعض هذه الحقائق العلمية إلى الناس في بلادنا.

ولا أعرف هل تتابع وزارة الصحة ما يصدر في الخارج من معلومات عن نشء مرض الإيدز في إفريقيا؟ وهل هناك خطة صحية ما لمنع تسرب هذا الوباء إلى مصر ؟! خاصة وأن أهم علاج لهذا المرض هو الوقاية منه.

منذ عام ١٩٨٦ أعلن أحد العلماء الأمريكيين ،وهو الدكتورل "ناثانيل ليهرمان" (Nathanied Lehrman) عن وجود علاقة بين بعض فاكسينات التطعيم ومرض الإيدز، وأن شركات الأدوية الأمريكية أخفت هذه العلاقة حرصاً على أرباحها المالية.

كما أعلن في الوقت نفسه الدكتور" وليم كامبل دوجلاس" (William Campell Douglas).

يوضح الدكتور ليونارد هورويدز في كتابه أن وزارة الصحة الأمريكية ومنظمة الصحة العالمية ، وشركات الادوية ، والبنتاجون(وزارة الدفاع الأمريكي) شاركت وتعاونت في إجراء أبحاث هدفها " تخفيض المناعة عند الإنسان" كجزء من الابحاث الخاصة بالحرب البيولوجية ، تحت اسم حماية الجنود الأمريكين ضد أي حرب بيولوجية قد يتعرضون لها.

ومن المعروف طبياً أنه يكفي أن تتخفض المناعة في جسم الإنسان حتي تشتعل اوبئة ناتجة عن الميكروبات الموجودة بشكل طبيعي في البيئة المحيطة بنا.

أثناء هذه التجارب ظهر فيروس الإيدز في المعامل التي كانت تجري فيها هذه الابحاث ،ويؤكد الدكتور ليونارد هورويدز(بالبراهين والأدلة العلمية الدقيقة) أن فيروس الإيدز وصل إلى سكان إفريقيا بسبب هذه الأبحاث ، وعن طريق الفاكسينات التي وزعتها شركات الأدوية على الأفارقة ، لاختبارها (كأنما الأفارقة خنازير تجارب) وتحت اسم مشروعات تطعيم (مجهولة الأثر) رغم إدراك هذه الشركات لخطورة هذه الفاكسينات.

بعض معامل منظمة الصحة العالمية التي شاركت فـ ي توزيع هذه الفاكسينات قد شاركت في قتل سكان إفريقيا بوباء الإيدز ،كما أعلن بعض الأطباء عن ذلك.

منذ منتصف الثمانيات كانت الصراعات داخل الولايات المتحدة الأمريكية على اشدها حول مخاطر الفاكسينات التي تعطي للأطفال ضد بعض الامراض ومنها شـ لل الأطفـ ال، وبدأ الأهالي ينظمون أنفسهم داخل قـ وة سياسـ ية لحمايـ ة اطفالهم من شركات الأدوية المنتجة لهذه الفاكسـ ينات،ومنها شركة ميرك(Merck).

وتكونت منظمة اسمها "مؤسسة الاهـ الي المتـ ذمرين" (Dissatisfied parents) الذين طالبوا بمنع التطعيم تمامـ ا حماية للأطفال.

وفي عام ١٩٨٦ وقع الرئيس الأمريكي (رونالد ريجان) ما سمي بـ . . (The Nation .al Childhood Vaccine Injury Act) وكان الأهالي الأمريكيون قد أثاروا الموضوع في الكونجرس. إلا أن شركات الأدوية الأمريكية بما لها من قوة سياسية واقتصادية (وعسكرية) وإعلامية. استطاعت أن تنتصر على منظمة الأهالي . عن طريق التمويه الإعلامي

،ودفع بعض تعويضات مالية لإغراء الأهالي بالتنازل ع ن القضايا التي رفعوها ضد هذه الشركات في المحاكم.

ربما كان التمويه الأعلامي الأكبر هو الموجه إلى البلاد الافريقية أو ما يسمي بلاد العالم الثالث، وتم تغيير اللغ ة المستخدمة لتسويق ما يسمي المعونـ ات الأمريكيـ ة لفقـ راء العالم،ومنها امصال التطعيمات للأطفال ووسائل منع الحمـ ل للنساء ، واختفت من الكمبيوتر بعض الكلمات المثيرة لغضب الشعوب ،من نوع " التحكم فـ ي السـ كان" (Population Control) إلى كلمات بريئة أوجميلة ، من نوع " مشروعات صحة الأم والطفل" (Maternal and Child Health).

تحت هذه العناوين الإنسانية الصحية يتم توزيع عقـ اقير ضارة بصحة النساء والأطفال والشعوب الإفريقيـ ة ،ومنهـ ا عقاقير ممنوعة بحكم القانون من التوزيع داخل أمريكا اليوم، بعد اكتشاف ضررها ،وشكوي الأهالي منها.

تنهزم في غابة الجشع الرأسمالي قيم العدالة والإنسانية في مواجهة القوة الاقتصادية للشركات التجارية والتي تدعمها القوة العسكرية مع الحروب البيولوجيـ ة. ويـ تم التضـ حية بحقوق الفقراء والنساء والأطفال لصالح الاثرياء الأقويـ اء،

كما يتم التضحية بالشعوب المنزوعة السلاح المسلوبة الموارد مثل الشعوب الافريقية ،وبلاد العالم الثالث حين يكون الوعي منخفضاً ،والقوانين غائبة أو عاجزة عن حماية الشعب، و وزارات الصحة بلا إمكانيات للوقاية أو الوعي بأساليب الوقاية الجديدة،وحيث تتعمد شركات الأدوية إخفاء الحقائق على الناس والمسئولين عن الصحة في تلك البلاد ،أو تقدم لهم الاغراءات أو الرشاوي للتغاضي عن تطبيق القوانين الصحية أو الاجراءات الضرورية قبل الموافقة على استيراد أي شحنة من أمصال التطعيم أو وسائل منع الحمل أو غيرها من العقاقير.

وفي مجلة المصور ، الصادرة بالقاهرة ، دار الهلال ٨ نوفمبر ١٩٨٥ ،نشرت موضوعاً مفصلا تحت عنوان" الخطر الغامض، حقائق جديدة حول حقن منع الحمل" ومنها حقنة" الديبو بروفيرا" التي ثبت ضررها على صحة النساء،ومنعت السلطات الأمريكية استخدامها داخل الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن شركة"إيجون" توزع هذا العقار في بلاد عديدة في إفريقيا ومنها مص، حتياليوم ونحن في شهر اكتوبر ٢٠٠٢ وقد وجدت هذه الحقن في قريتي كفر طحلة ،

محافظة القليوبية، داخ ل م ا يس مي مركز صحة الأم والطفل .حيث تحقن النساء الفلاحات بهذه الحقن الضارة منعاً للحمل.

وفي عام ١٩٨٥ عرضت الامر على وزير الصحة في مصر (كان هو الدكتور حلمي الحديدي) وتوقع ت أن ي تم إخراج هذه العقاقير الضارة من قائمة وسائل منع الحمل التي توزع في بلادنا، إلا أن النتيجة كانت إخراج وزي الص حة من قائمة الوزراء في تلك الحكومة في منتصف الثمانينات.

وفي جريدة الأهرام ٩ أكتوبر ٢٠٠٢ (ص ١٠) تح ت عنوان من قريب ، كتب الأستاذ سلامة احمد س لامة ع ن مشكلة الأستاذ بكلية الصيدلة بأحدي الجامع ات المص رية والذي حصل على منحة بحثية من جامعة يوتا الأمريكي ة ، ممولة من المعهد القومي للصحة (NIH) للعمل في مشروع بحثي لتشييد مضادات للإيدز باستخدام تكنولوجي ا الع لاج الجيني المتقدمة.

ثم جاء الأستاذ المصري في اجازة عائلية سريعة إلا انه عجز عن العودة إلى أمريكا بس بب ع دم حص وله عل ى تاشيرة دخول من القنصلية الأمريكية بالقاهرة ، رغم استيفائه

جميع الأوراق المطلوبة، ورغم تـ دخل الأسـ تاذ الأمريكـ ي المسئول عن البحث والذي طلب سـ رعة إجـ راءات سـ فر الأستاذ المصري" منعاً للضرر الذي لحـ ق بـ ـه وبمشـ روع البحث ، رغم ذلك مضي أكثر من أربعة شهور ولم يحصل الأستاذ المصري على التأشيرة حتي اليوم.

ومن المعروف أنه منذ نشر كتاب نشوء الفيروسات عام ١٩٩٧ للطبيب الأمريكي ليونارد هورويدز، وهناك محاولـ ـة للتمويه على الحقائق وإخفاء أسباب نشوء وباء الإيدز فـ ي إفريقيا،وكذلك إحاطة جميع البحوث المتعلقـ ـة بالايـ دز فـ ي الولايات المتحدة الأمريكية بالسرية الشديدة وعدم تسريبها إلى الاطباء أو الباحثين في بلاد اخري وعلي الاخـ ص الـ بلاد الافريقية.

ألهذا السبب تحاول السلطات الأمريكية وضع العقبـ ـات أمام هذا الأستاذ المصري للسفر مرة أخري إلـ ـى الولايـ ـات المتحدة،وإكمال بحوثه في مجال تشييد مضادات الإيـ دز ؟! أهو الخوف من انكشاف المستور؟ أم محاولة السيطرة علـ ـى المعلومات بما فيها تلك الخاصة بعلاج الإيدز والتي تحتكرها الشركات الأمريكية وتبيعها للبلاد الأفريقية بأضعاف الثمن؟!

القاهرة ١١ أكتوبر ٢٠٠٢

***

نخة فلسفة إنسانية لإحياء الضمير

الورقة المقدمة في افتتاح المؤتمر الدولي السادس

لجمعية تضامن المرأة العربية

(القاهرة ٣-٥ يناير (٢٠٠٢)

"لا أوصي ابنتي التي سلتي العرش من بعدي أن تكون إلهة لشعبها لتستمد سلطتها من قداسة الألوهية . بل اوصيها أن تكون حاكمة رحيمة عادلة".

من نوت إلهة السماء لابنتها إيـ زيس (مصـ ر القديمـ ـة ٤٩٨٨ق.م)

١-تحت اسم المقدس أو القداسة:

هذه الوصية من نوت لابنتها إيزيس تعبر عن الفلسـ ـفة السابقة لنشوء النظام العبودي في مصر القديمة منذ خمسـ ـة آلاف عام قبل ظهور الديانة اليهودية والمسيحية.

كان الحكم يقوم على العدل والرحمة ،وليس على القوة أو السلطة السياسية والاقتصادية والعسكرية التي استمدت قوتها من السلطة الدينية أو قداسة الألوهية.

إلا أن هذه الفلسفة الإنسانية قد اندثرت (إلا قليلاً) في مصر القديمة والحديثة تحت ضربات القوي الطبقية الأبوية الصاعدة الرافعة شعار" قداسة الألوهية" وقد تخفي الحاكمالفرعوني تحت زي الإله ، ،اصبح مقدساً لا يجوز نقده أو محاسبته، مما أدي إلى صعود القوة الحاكمة فوق الحق والمنطق ، حتي يومنا.

إن الدكتاتورية أو السلطة المطلقة ليست سمة الحكومات في بلادنا العربية أو ما يسمونه اليوم الشرق الأوسط (الأوسط بين من ومن) بل هي سمة الحكومات جميعاً غرباً وشرقاً ، تختلف درجة الدكتاتورية من بلد إلى بلد. حسب ظروف كل بلد وقد تحظي بعض الشعوب في أوروبا وأمريكا بحريات شخصية أو فردية تحت أسم الديموقراطية ، لكنها ديموقراطية هشة سطحية لا تشمل الحياة السياسية والاقتصادية العامة أو الخاصة ووقد تقتصر احياناً على الممارسات الجنسية،مما يؤدي إلى هذه الديموقراطيات

المشوهة أو التناقضات الصـ ـارخة التـ ـي تعيشـ ـها النسـ ـاء والرجال في بعض البلاد.

نحن نعيش فـ ـي عصـ ـر الاسـ ـتعمار الجديـ ـد Neo-colonial وليس في عصر مـ ـا بعـ ـد الاسـ ـتعمار (post - colonial) كما هو شائع في الجامعات الأمريكية والأوربية ،ورغم أنها مجرد كلمة إلا أن اللغة تكشـ ـف عـ ـن القـ ـوي الحاكمة في العالم ،وهي تحكم من خلال المؤسسات السياسية والاقتصادية . بالإضافة إلى المؤسسات الإعلامية والتعليمية ومنها الجامعات.

منذ طفولتي في الثلاثينات من القرن الماضي ،وحتـ ـي اليوم في بداية القرن الواحد والعشرين وانا اشـ ـهد عمليـ ـات القتل الفردية والجماعية تحت اسم الله اوالوطن أو الملـ ـك أو الملكية التي تغير اسمها فقط إلى جمهورية أو جماهريـ ـة أو شعبية أو ليبرالية ديمقراطية أو غيرها من الكلمـ ـات التـ ـي تصف بها الحكومات نفسها فـ ـي الغـ ـرب والشـ ـرق علـ ـى السواء.

تلعب اللغة دورها في إخفاء الحقيقة التي نعيشها ،فـ ـإذا بالدكتاتورية تتخفي تحت اسم الديموقارطية،والاستعمار القديم

والجديد يتخفي تحت اسم الحماية أو المعونة أو التنمية أو التحديث، والازدواجية أو الفساد أو الكذب يتخفي تحت الشرف والاخلاق والصدق.

حين نطق الإنسان (المراة والرجل) في بداية التاريخ غير المكتوب كانت اللغة تهدف إلى الايضاح والتعبير عن الرغبات الطبيعية على رأسها الحب والتعاون وحل المشكلات التي تعترض الحياة في الواقع المعاش. كيف تحولت اللغة من أداة للوضوح والفهم والمعرفة إلى اداة للإخفاء والتموية والتعمية؟

اللغة هي رموز تهدف إلى التعبير عن الواقع،واختزال الاشياء الضخمة الحجم إلى رسومات أو أرقام أو حروف يمكن قراءتها على الحجر أو الورق أو الشاشة أو ديسك الكمبيوتر.

وهنا تكمن خطورة اللغة أو غيرها من الرموز التي تشكل الفكر والدين والفلسفة والتاريخ والأدب والطب والهندسة وغيرها من الفنون أو العلوم الإنسانية والطبيعية.

لقد انفصل الواقع المعاش أو الحقيقة الحية التي يعيشـ ها النساء والرجال عن اللغة والدين والفلسفة والتـ اريخ والأدب والطب وغيرها واستطاعت الأنظمة الحاكمة فـ ي الشـ رق والغرب منذ نشوء العبودية (حتي يومنا هذا) أن تستغل هذا الانفصال بين الرمز واحلقيقة من أجل طمس الحقيقة وتعمية عقول النساء والرجال عن الواقع المعاش، ممـ ا يمكـ ن أن نسميه " حجاب العق" وهو أخطر من حجاب الوجه لأنه غير مرئي بالعين وغير ملموس باليد،وبالتالي يبدو كأنمـ ا غيـ ر موجود.

حين تختفي اداة القمع أو القتل يصحب مـ ن الصـ عب التصدي لها ومقاومتها ،ومن هنا خطورة حجاب العقل الذي فرض على النساء والرجال تحت اسم الفكر أو الفلاسـ فة أو الاخلاق اوالسياسة أو الثقافة أو غيرها.

منذ بدايةالتاريخ المكتوب دخلت القيم العبودية أو الطبقية الأبوية داخل علم الفلسفة والأخلاق والقانون العام في الدولة والقانون الخاص فـ ي الاسـ رة ، اصـ بحت الازدواجيـ ة والثنائيات العبودية هي اساس التفكير الفلسفي أو مـ ا سـ مي بالعقل.

هكذا تختف تحت اسم العق ل فلس فة غي ر عقلاني ة ،وبالتالي غير إنسانية فرضتها الإنظمة الحاكمة وأتباعها من الفلاسفة والمفكرين منذ حكومة الإله آمون في مصر القديمة حتي حكومة ج ورج ب وش الأب والأب ن ف ي الحكوم ة الأمريكية الحديثة. وفي اليونان الق ديم س يطرت الفلس فة العبودية على عقلو الفلاسفة من أمثال أفلاط ون وارس طو الذين عاشوا في حماية السلطة الحماكم ة، ام ا الفلاس فة الآخرون الذين قاوموا هذه الفلسفة غير الإنسانية فقد انتحروا في السجون أو قتلوا تحت تهمة المساس بالذات العليا المقدسة الملك أو الامبرطور الذي تخفي تحت زي الإله في السماوات أو الملكوت الاعلي.

وهنا كانت الخطوة ولا تزال حتي اليوم ، تح ت اس م المقدس، ثم اندثار الفلسفات الأكثر إنسانية والأكثر عقلاني ة التي قاومت الفكر العبودي بأشكاله المختلفة الت ي تط ورت عبر القرون لتصوغ الفلسفة الرأس مالية الطبقي ة الابوي ة الحديثة وما بعد الحديثة هذه الفلسفة الت ي تعتب ر فيلس وف العبودية في اليونان القديم مثله ا الاعل ي، وه و ارس طو

(٣٨٤-٣٢٢ق.م) الذي تصور أن العبودية أمر عادل تتطلبه طبيعة العبد وطبيعة المرأة.

أصبحت العبودية هي العدل،وهي الطبيعة ،وهي العق ل أو الفلسفة أو المنطق ودخل الظلم في الت اريخ تح ت اس م العدل، ودخل اللا منطق تحت اسم المنطق أو العقل،وك ان لابد من تشويه الطبيعة وتطويعها لتواكب هذه الفلسفة غي ر الإنسانية غير المنطقية.

لقد ادي حجاب العقل إلى تشويه العقل والجسد والروح في تلاحمها الطبيعي داخل الإنسان(المرأة والرجل) وان تش رفي التاريخ (من النساء والرجال)الذين قاوموا العبودية من ذ نشوئها حتي اليوم، منذ ت وت وإي زيس وإخن اتون وت ي ونفرتيتي وهيباثيا الذين تم القضاء على هم وتحطيم فلسفاتهم الأكثر إنسانية في مصر إلى ديموقريتس في اليون ان واب ن رشد في شمال افريقيا ،حتي المفكرين في يومنا ه ذا م ن النساء والرجال الذين يقاومون الفك ر الراس مالي الطبق ي الأبوي الذي يتخفي تحت اسم براق جديد هو الفلسفة ما بع د الحديثة ،تلمع فيها اسماء من أمث ال ص مويل ه انتجتون

،وتلعب تكنولوجيا الاتصالات والأقمار الصناعية في نشر أفكارهم شرقاً وغرباً.

هكذا يصبح حجاب العقل مشكلة عالمية وليس فقط مشكلة عربية أوإفريقية أو إسلامية كما يتصور بعض الناس، أو كما يحاولون تصوير التخلف الحضاري كأنما هو مرتبط بالاسلام، أو كأنما الاسلام هو وراء الفكر الفلسفي العاجز عن مواكبة الحداثة أو ما بعد الحداثة ،وأعتبار عصرنا هو عصر الارهاب الاسلامي أو الصراع بين الاسلام والغرب.

وتكمن خطورة هذا الفكر المفروض علينا بالآلة الاعلامية الرأسمالية الأبوية إنه يحجب عن عقولنا الاسباب الحقيقية للصراع الدموي الذي يسود العالم،ويسوق أسباباً سطحية ومزيفة تزيد من كثافة حجاب العقل، إلى الحد الذي اصبحت فيه اللغة المكتوبة في الصحف السائدة غير مفهومة حتي لمن يكتبونها. سألت احد الكتاب المصريين المعروفين جداً (ينشر مقالا أسبوعياً طويلاً في جريدة كبري مع صورة كبيرة) عن معني ما يكتبه عن العولمة فإذا به لا يفهم ما يكتبه واحمر وجهه بالغضب مني لأني أوجه إليه الأسئلة

،وهو فوق الستاؤل أو المحاسبة مثل الآلهة والملوك ورؤساء الدول.

٢-ولن نحمل الزكائب إلى الابد؟

إن المشكلة الاسياسية التي تواجهنا هي كيف نرفع هـ ذا الحجاب الكثيف عن عقل المفكرين الكبار قبل غير رهم مـ ن عامة الشعب؟ أو كيف نصوغ فلسفة إنسانية لأحياء الضمير الذي أصابه الضمور أوالموت؟ لا أحد يمكـ ن أن ينكـ ر أن العدل غائب في عالمنا الراهن دولياً ومحليـ اً ،وان الحريـ ة غائبة أو الديموقراطية الحقيقيـ ة،وأن المـ ذابح البشـ رية لا تكف،والعنف أو الارهاب يتسع ليشمل البلاد شرقاً وغربـ اً، ومع ذلك فإن أغلب المفكرين لا يزالـ ون يلوكـ ون مبـ ادئ الفلسفة الطبقية الأبوية الرأسمالية في الغـ رب والشـ رق،وقد عشت في نيويورك ونيوجيرسي خـ لال الشـ هور الأربعـ ة الماضية وشهدت أحداث ١١ سبتمبر عن قرب شديد ،وعشت مخاوف الشعب الأمريكي مما اطلق علىـ ه اسم " الارهـ اب الاسلامي"، وعدت إلى الوطن منـ ذ اسـ ابيع قليلة،وعشـ ت مخاوف الشعب المصري والشعوب العربية مما أطلق علىـ ه

" الارهاب الأمريكي والاسرائيلي"،وهنـ ـاك مـ ـن يسـ ـمونه " الحرب الصليبية المسيحية واليهودية". يغذي هـ ـذا الصـ ـراع الذي يتخذ شكل الصراع الحضاري بين الغرب والشرق، أو الصراع الديني بين الإسلام والمسـ ـيحية واليهوديـ ـة أغلـ ـب المفكرين في بلادنا العربية الذين يعيشـ ـون داخـ ـل الغـ ـرف المغلقة غارقين في المجردات ، أو ناقلين عن مفكري الغرب دون فهم ، أو دون تحليل عميق للأحداث الجارية في الواقع المعاش.

وقد سالت المفكر المصـ ـري الشـ ـهير (الـ ـذي ينشـ ـر صورته ومقاله الطويل اسبوعيا) عن رأيه في قضية طفـ ـل نزف حتي الموت بعد عملية الختان، ورأيه في قضية طفلـ ـة قتلها أهلها لأنها خلعت الحجاب،ورأيه في قضـ ـية حـ ـبس أو محاكمة كاتب لانه مس الذات العليا.ورأيه في قضية استيلاء احد رجال السلطة في قريتي على قطعـ ـة ارض صـ ـغيرة تملكها احدي الفلاحات ،ورمقني المفكر الكبير وهـ ـو يمـ ـط شفتيه إلى الامام معلنا أنه لا ينشغل بهذه القضايا الصـ ـغيرة لأنه مشغول بالقضايا الكبـ ـري ، علـ ـى رأسـ ـها العولمـ ـة، وتذكرت " ارسطو" حين ذهب إليه أحد الفلاحين يشكو احـ ـد

رجال السلطة في اليونان لانه استولي دون حق على قطعة ارض صغيرة كان يملكها ويزرعها لإطعام إطفاله ، صرف أرسطو قائلاً إنه مشغول بالكرة الأرضية كلها، وليس قطعة أرض صغيرة.

لقد استطاع ارسطو منذ القرن الرابع قبل ميلاد المسيح أن يدخل قهر المرأة ووضعها اللأدنى في الفلسفة والقانون ، حين أعلن أن المرأة لا تساهم في صنع الجنين إلا بمادة خام غير حية(وعاء الرحم) أما الرجل فهو وحده الذي يمنح الحياة للطفل.

هكذا اصبح الحق القانوني للاب فقط، أصبح اسم الأب هو الذي يعطي للاطفال الحياة والشرف والشرعية والجنسية والدين. وضاع حق الأم تماماً واندثر اسمها وفكرها وجهودها في التاريخ القديم والحديث حتي يومنا هذا.

لقد ضربت الحركات النسائية شرقا وغرباً التي حاولت التصدي للعبودية والقيم الطبقية الأبوية المدعمة لها،وتم تحطيم فلسفة " نوت" المصرية التي سبقت الفلسفة العبودية ،ومنحن الإنسان امرأة ورجلاً واجبات وحقوق متساوية في الاسرة الرابعة.

وقد انهارت هذه الفلسفة الإنسانية مـ ـع نشـ ـوؤ النظـ ـام الأبوي الطبقي ،وفقدان مصر استقلالها الفكري والاقتصادي تحت غزوات الاستعمار القديم والجديد. ولم تكـ ـف النسـ ـاء المصريات عن المقاومةحتي اليـ ـوم،ولم يكـ ـف الفلاحـ ـون الاجراء عن المقاومة حتي اليوم، وقد عبرت بعض الاغاني الشعبية المصرية القديمة عن قهر الفلاحات والفلاحين تحت نير السلطة المحلية والأجنبية ومنها هذه الاغنبية:

أهو قدرنا المفروض على نا أن نحمل فـ ـوق ظـهورنـ ـا طوال اليومالشعير والقمح الابيض لا تزال المخازن مكدسـ ـة بتلال الغلة

ولسوف نحمل الزكائب إلى الابد

في طفولتي في القرية كنت أسير بجوار عمتي الفلاحة وهي تمشي إلى الحقل حاملة زكيبة القطن فوق رأسـ ـها ،أو الزلعة الكبيرة المملوءة بماء النيل، وأسمعها تغني مثل هـ ـذه الاغنية ، إلا أن عبارة " فوق ظهورنا" تغيرت إلـ ـى عبـ ـارة أخري هي " فوق رؤوسنا".

٣-إنها حضارة واحدة:

يلعب حجاب العقل دوراً كبيراً في تـ رويج الثنائيـ ات والقيم المزدوجة وما يصاحبها من أفكار مضللة ،ومنها فكرة الصراع بين الحضارات ، أو بـ ين الحضـ ارة الإسـ لامية والحضارة الغربية ، مما يحجب عنا الحقيقة،وهي اننا نعيش في عالم واحد وليس ثلاثة وحضارة واحدة هـ ي حضـ ارة رأسمالية ابوية نبعث وتطورت من العبودية القديمة القائمـ ة على الثنائيات الباطلة ، على رأسها ثنائية السـ يد والعبـ د. المالك والمملوك.الملاك والشـ يطان ، الحـ اكم والمحكـ وم، الروح والجسد، السماء والارض ، المؤمن والكافر، والخيـ ر والشر، الخطيئة والفضيلة ، الذكر والأنثي.

لو أننا تأملنا لغة جورج بـ وش الأبـ ن بعـ د أحـ داث ١١سبتمبر ٢٠٠١ لاكتشفنا انها لغة دينية مسيحية تسـ تخدم اسم الله لتعلن الحرب في أفغانستان ضد الشيطان اسامة بـ ن لادن وأعوانه في تنظيم القاعدة ، ولا يكف جورج بوش عن الغناء في الكنائس مع أعوانه هذه الاناشيد الدينية السياسـ ية في أن واحد.

١–نحن امة واحدة تحت الله (One Nation Ynder God)

٢–نحن نثق في الله (In God We Trust)

٣–فيبـ ـارك الله فـ ـي امريكـ ـا (God Bless America)

ويردد مثل هذه الاناشيد الدينية السياسية رجال الفاتيكان على رأسهم "البابا" الذي اسرع بزيارة اوزبكستان وغيرهـ ـا من البلاد المحيطة بأفغانسـ ـتان وبحـ ـر قـ ـزوين منشـ ـداً الله والمسيح والروح القدس. ساعياً إلى توحيد المسيحيين ضد ما أسماه الارهاب الاسلامي ،وتمهيد الطريق تحـ ـت اسـ ـم الله للقوات العسكرية الأمريكية والبريطانية لغزو أفغانستان.

وهل تختلف لغة جورج بوش الدينية أولغة البابا عن لغة اسامة بن لادن واعوانه في تنظيم القاعدة؟! ألا يصور كـ ـل منهم الآخر على أنه الشيطان الشـ ـرير أوالارهـ ـابي غيـ ـر المتحضر؟! ألا يدعي كل منهم أن الله معه في حربه المقدسة من أجل الخير والعدل والسلام والتحضر.

وأي حضارة هذه التي تؤدي إلى هذه المذابح البشـرية في أفغانستان أو العراق أو الصومال أو غيرها؟ كيف تخفت المذابح لابادة الشعب الفلسطيني تحت اسم معاهدات السلام؟

منذ نشوء النظام الطبقي الأبوي وحتـى اليـوم تـراق الدماء البرئية من الشعوب نساء ورجـالاً وأطفـالا تحـت شعارات دينية وطنية ،لا يوجد فاصل بين الدين والوطن في الشرق والغرب ، في الإسلام أو المسـيحية أو اليهوديـة أو غيرها، ينظر جورج بوش إلى العساكر الأمريكيـة الـذين يقتلون في أفغانستان على أنهم إبطـال الـوطن وشـهداء المسيحية ،وينظر إسامة بن لادن إلى القتلي من أعوانه على أنهم شهداء الاسلام،وماذا يدهشنا في ذلل التشابة في اللغـة والسلوك والهدف بين القادة السياسين الذين يستخدمون الدين وسيلة لتحقيق اهدافهم العسكرية والاقتصادية ،عن الدين يخدم السياسة منذ نشوء الدين والسياسة ،وتشمل الكتب الدينية على نصوص سياسية وثقافية واقتصادية وعسـكرية . بالاضـافة إلى النصوص الاخلاقية والاجتماعيـة والشخصـية. ربمـا أوضح مثال على ذلك هوما جاء في كتاب التـوراه عـن التفرقة الصارخة على اساس الجنس ،واعتبار حـواء هـي

المسئولة عن إثم المعرفة تستحق عقاب الله وذلك بأن يسد ود على ها زوجها، من هنا ارتدت السلطة الابوية ـة الذكوريـة رداء مقدساً توارثته الاديان الأخرى من بعدها ، وفي التوراه أيضاً جاءت الآية التي شرعت العنصرية بأن رفعت الشعب اليهودي إلى درجة أعلي من شعوب العالم، فأصحب يحم ل لقب شعب الله المختار، وفي التوراه أيضا جاء النص الـ ذي يدعو فيه الله شعبه المختار للإستيلاء عل ى أرض كنعـ ان (فلسطين) وإبادة سكان هذه الأرض لمجرد أنهم لا يؤمنـ ون بإله اليهود ، إنها الأرض الموعودة التي منحهـ ا الله لليهـ ود مقابل ختان الذكور كما نصت التوراه ، هكذا شرعت التوراه الحرب المقدسة من أجل الأرض تحت اسم إبادة الكفار غير المؤمنين . كما شرعت ختان الذكور كعهد مقدس بينهم وبين الله.

ما علاقة الاستيلاء على أرض الغير بالقوة المسـلحة وقطع الغرلة من حول راس العضر الذكري؟

وقد دخلت فكرة " حجاب المرأة" ضمن المقدسات منـ ذ نشوء الديانةاليهودية وينص التلمود على أن شـ عر المـ رأة العاري مثل جسدها العـ اري ،وتعتبـ ر الـ زوج هـ و راس

المراة،والمراة بدون زوج هي مجـ ـرد جسـ ـد بـ ـدون رأس ،ويصلي الرجل الرهودي كل صباح قائلاً: احمـ ـدك يـ ـارب لأنك لم تخلقني امرأة.

مع ذلك فقد اسـ ـتطاعت الآلـ ـة الإعلاميـ ـة الأمريكيـ ـة الإسرائيلية أن تحجب هذه الحقائق التاريخية عن عقول الناس لتصور الإسلام وحده على أنه مصدر حجاب المرأة رغـ ـم انه لا يوجد نص واحد في القرآن يدعو إلى ختان المـ ـرأة أو تغطية رأسها أو شعرها،ولا يوجد نص واحد يقول إن حواء هي سبب الإثم والخطيئة لأنها أكت من شجرة المعرفة كمـ ـا ورد في التوراه.

إن القوة العسكرية المدعمة بقوة إعلامية قـ ـادرة دائمـ ـا على قلب الحقائق أوإخفائها ،ومادامت القوة هي التي تحكـ ـم فلا يمكن لعالمنا البشري أن يعيش في سلام حقيقي قائم على العدل والحرية،ولابد من كشف هذا التزييف الفكري ،أو رفع الحجاب عن عقول الملايين شرقاً وغربا.

إن الدراسات المقارنة للأديان تؤكد لنا التشـ ـابه الكبيـ ـر بين الدبابات ،خاصة الأديان السماوية الثلاثة، وهناك الكثيـ ـر من المبادئ الإنسانية في هذه الاديـ ـان كالعـ ـدل والرحمـ ـة

والمحبة والسلام تكاد تشبه مـ ا ورد فـ ي فلسـ فة إيـ زيس ونوت،وهناك نصوص في كتاب التوراه تشبه اناشيد اخناتون ونفرتيتي ،وصورة العذراء مريم تحمل المسيح تكاد تكـ ون نسخة مكررة من صورة إيزيس تحمل طفلها حورس ، وقـ د تحول الثالثوث المقدس بعد نشوء النظام الطبقي الأبوي إلـ ى الأب والابن والروح القدس (الأم المختفية وراء حجاب) بعد أن كان في الاصل: الأم والابنـ ـة والـ روح القـ دس (الاب المجهول).

كان الاب في بداية التاريخ البشري مجهولاً،ولهذا كـ ان أغلب الانبياء بدون أب ، النبي موسي لم يكن له أب وكانت أمه هي التي انقذته من الموت على يد فرعون وهي التـ ي ارضعته وعلمته وجعلته نبي اليهود،والمسيح لم يكن له أب ،وكانت أمه السيدة مريم هي التي أنقذته من الموت وهربـ ت به إلى مصر ثم جعلته نبي المسيحية ونبي المسلمين "محمد" ماتت امه وهو طفل ، لكنها تنبأت بنبوته وهو فـ ي رحمهـ ا ،وتزوج في العشرين من عمره من السيدة خديجة التي كانت تكبره بعشرين عاماً، فأصبحت له بديل الام ربتـ ـه وعلمتـ ـه وأنفقت علىـ ه من مالها وعلمها،حتي نزل علىـ ه الوحي في

غار حراء فأسرع إليها ينتفض قائلاً: "دثروني دثروني"، فأخذته في حضنها كالأم وطمأنته، وكانت أول من ناداه باسم رسول الله.

إلا أن مساهمة الأم ودورها في أعداد الانبياء قد اندثر في التاريخ الأبوي الطبقي ،واصبح " الاب" هو الاصل وهو الاساس ،وتذوب صورة الأب في صورة الإله في اليهودية والمسيحية ،وهناك نص في كتاب التوراه يقول: "وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض ،وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لانفهسم نساء من كل ما اختاروا".

وهنا نري كيف ولد الآلهة ذكوراً فقط مما اكد السمو والسيطرة الذكورية واندثرت حقوق النساء والأمهات وانخفضت مكانتهن. وقد اختزل كتاب التوراه عمر الإنسان على كهر الأرض إلى مدة لا تزيد عن ٣٣٨٩ سنة،وتم اختزال تاريخ مصري ليكون تاريخ التواره، إلا أنه في عام ١٨٢٩ تم اكتشاف رموز اللغة المصرية الهيروغليفية ،وتم اكتشاف أن عمر البشرية أقدم من التاريخ الذي حددته التوراة لخلق آدم ونوح وإبراهيم، ويكشف علم الكون الجديد العام

وراء العام عن الاخطاء العلمية والفلسفية التـ ي وردت فـ ي الكتب الدينية المختلفة تحت اسم الحقائق الثابتة غير القابلـ ـة للنقد أو التغيير.

لقد استطاع علم الكون الجديد وما صاحبه مـ ن تقـ دم تكنولوجي كبير في وسائل الاتصال والإعلام أن يجعل هـ ذا العالم بمثابة القرية الواحدة ،واصحبت الأحداث في أي مكان في العالم مقروءة ومرئية في اللحظة نفسها فـ وق الشاشـ ـة الصغيرة في قرية مصرية على ضفاف النيل مثـ ل قريـ ـة أخري على ضفاف نهر المسيسيبي وغيرهما مـ ن الأنهـ ـار والقري والمدن في العالم شرقا وغرباً.

إلا أن هذا التقدم العلمي التكنولوجي لم يحقق السلام ولا العدل ولا الحرية ولا الحب،بل أصـ بح فـ ي خدمـ ـة الآلـ ـة العسكرية التي تخدم مصالح النظام الرأسمالي والأبوي الذي لايهدف إلا إلى الربح على حساب ارواح الآلاف والملايين من البشر.

وقد شهدت في حياتي منذ ولدت في بداية الثلاثينيات من القرن الماضي عدداً من الحـ ـروب الاسـ تعمارية ، حـ ـرب

١٩٤٨ لإنشاء دولة إسرائيل وقتل وتشريد الشعب الفلسطيني ، حرب ١٩٥١ ضد الاحتلال البريطاني في قنـ اة السـ ويس ،وحرب ١٩٥٦ حين غزت مصـ ر الجيـ وش الانجليزيـ ـة والفرنسية والإسرائيلية ومن خلفها الولايات المتحـ دة ، ثـ م حرب ١٩٧٣ حيث كاد الجيش المصري أن يسـ ترد الأرض المسلوبة في سيناء لولا التدخل الأمريكي لتدعيم إسـ رائيل ، ثم حرب الخليج١٩٩١ حيث هاجم العراق ثلاثون جيشاً تحت القيادة الأمريكية وكم قتل من الشاب المصري والعربي فـ ي هذه الحروب ، ونحن نشهد اليوم ماذا يفعله النظام الأمريكي لإبادة الشعب الفلسطيني ،وماذ فعل في أفغانستان منذ الحرب المقدسة ضد الإلحاد في الثمانينيات منلاقرن الماضي، كيـ ـف لجأ إلى زراعة الأفيون والاتجـ ـار بـ ـه لتمويـ ـل العمليـ ـات العسكرية وزيادة الارباح الرأسمالية ، إلى حـ ـد أن أصـ ـبح إنتاج الأفيون في أفغانستان يمثل ما يزيـ ـد مـ ـن ٧٥% مـ ـن أفيون العالم ،ويشجع هذا النظامعلي نشر البغاء والمخـ ـدرات بين الشباب والشابات وتحطيم حياتهم وعقـ ـولهم لـ ـيس فـ ـي أفغانستان وحدها بل في العالم كله.

وقد نقل الاستعمار الأمريكي الجديد عن الاستعمار البريطاني القديم هذه الوسائل البربرية غير الإنسانية للإبادة الجماعية لأجساد وعقول وارواح البشر. ألم يلجأ الاستعمار البريطاني إلى حرب الأفيون في الصين، ألم يلعب بورقة الدين لخلق الصارعات وتزيق وحدة الشعوب من أجل السيطرة والاستغلال؟ أليس مبدأ " فرق تسد" هوالسائد في الماضي والحاضر عالمياً ومحلياً؟ والم تلجأ الحكومات المحلية بما فيها الحكومات العربية لفرض التفرقة والانقسامات بين الشعب الواحد من أجل السيطرة والاستغلال؟ وهل تختلف الحكومات المحلية أو العربية عن غيرها من الحكومات؟ السيت هي حضارة واحدة غير متحضرة هي التي تحكم العالم شرقا وغرباً؟

من يدعم ويساند الحكومات الدكتاتورية الابوية في الشرق أو الجنوب بما فيها الحكومات العربية ؟ اليست هي الحكومات الرأسمالية الأبوية في الغرب، وعلى رأسها الحكومة الأمريكية ؟ ومن الذي دعم وساند التيارات الدينية الإرهابية الإسلامية أو المسيحية أواليهودية أو الهندوكية أو غيرها؟ ألم تكن هي حكومات الغرب على رأسها الولايات

المتحدة الأمريكية؟ حتي نظام الطالبان في أفغانستان وتنظيم القاعدة بقيادة أسامة بن لادن، ألم تكن كلها صناعة امريكيـ ـة لضرب أعداء الرأسمالية؟

أليس هو نظام عالمي واحد وحضارة واحـ ـدة تحكمهـ ـا بفلسفة طبقية أبوية غير متحضرة؟ لاشك أن هناك اختلافات في السلوك وبعض العادات من بلد إلى بلد إلا أنها اختلافات في الفرع وليس الأصل.

وقد آن الأوان لإدراك أن الغرب لـ ـيس كلـ ـه صـ ـليبياً مسيحياً يهودياً ،وان الشرق ليس كله إسلامياً إرهابيا عـ ـاجزا عن التحضر،هذه التقسية" غرب/ شرق" اصبحت مضللة مثل غيرها من التقسيمات.

٤-سقوط الديموقراطية الليبرالية:

تتصاعد المظاهرات الشعبية في عواصم العـ ـالم غربـ ـاً وشرقاً منذ المظاهرات في مدينـ ـة سـ ـياتل نـ ـوفمبر ١٩٩٩، وتتميز هذه المظاهرات بقدرتها على تجاوز التقسيمات التي فرضت على البشر لتمزيق وحدتهم الإنسانية تحـ ـت اسـ ـم الدين أو الجنس أوالجنسية أو العرق أو اللون أو الطبقـ ـة أو

المهنة أو الشهادة العلمية أو غيرها. لقد ذابت هذه الف روق المصنوعة بين الناس من أجل مقاوم ة الظل م الرأس مالي الأبوي الذي تجسد في قوانين منظمة التجارة الدولية والبن ك الدولي وغيرهما من المؤسسات المسيطرة عل ى ش عوب العالم غرباً وشرقاً.

بدا الشعوب تدرك أنها تعيش في عالم واحد تحت ني ر حضارة واحدة تؤدي إلى مزيد من الفقر ومزيد م ن القت ل ومزيد من التضليل.

هذه الحركات الشعبية الجديدة في طريقها إل ى النم و واكتساب مزيد من القوة والوعي والتنظ يم كلم ا تكش فت مخاطر هذه الحضارة الرأسمالية الأبوية وقد اكتس بت ه ذه الحركات الشعبية اسماً جدي داً،هو " العولم ة م ن أس فل" أوالعولمة من قاعدة اله رم لمقاوم ة العولم ة الرأس مالية الاستعمارية القابعة فوق قمة الهرم. والتي تمل ك الاس لحة النووية والشركات التجارية الكبري المملوكة لقلة قليلة م ن الأفراد يمثلون الطبقات الحاكمة غرباً وشرقاً.

إن ثروة أغني ثلاثة عائلات في العالم تزيد عن دخ ل ٦٠٠ مليون شخص . ومن أجلحماية هذه القلة الثرية ينف ق العالم سنوياً ٧٠٠ بليون دولار على الحرب والتسليح. وهي تساوي أربعين ضعفاً لما ينفق على الصد حة أو التعل يم أو توفير الماء النقي.

تعتمد الفلسفة الطبقية الأبوية منذ العبودية عل ى م ا يسمي المساعدة أو المعونة للفقراء والمعد دومين واليت امي والمساكين ،تحت اسم الرحم ة أو الشد فقة ،وه ي كلم ات تضليلية توحي بالإنسانية ،وهي في حقيقتها كلمات تزيد م ن إذلال الفقراء . فاليد العليا خير من اليد السفلي، وهي كلمات مضللة أيضاً لأنها توحي للفقراء انهم يعيشون م ن فضد ل الاثرياء ومن كرمهم ومن خيرهم، أو على حسد ابهم ،ف ي حين أن العكس هو الصحيح، ذلك أن ثراء الاغنياء ليس له مصدر إلا العمل المنتج الذي يقوم ب ه النس اء والرج ال الفقراء في الحقول والمصانع وغيرها من مؤسسات العم ل في مختلف بلاد العالم،وهو عم ل يك اد يشد به السد خرية لانخفاض الأجر بالنسبة للجهد الذي يبذل فيه والإنتاج الد ذي يصدر عنه.

وتقوم النساء في العالم بالانتاج الزراعـي والصـناعي والخدمات بما يزيد عن ٦٥% من العمل المنتج، مع ذلك لا يحصلن ألا على ٥% فقط من دخل العالم. مما يفرض على هن أن يعيش عالة على الرجال داخل الاسرة، على حـين أن الحقيقة غير ذلك، لأنإنتاج النساء داخل البيوت وخارجها اكثر من إنتاج الرجال ، لكن أغلب الاعمال النسـائية غيـر مدفوعة الأجر.

وقد بدأت الحركات النسائية في مختلف الـبلاد غربـاً وشرقاً تكشف هذه الحقيقة كما بدأ فقراء العالم في البلاد التي أطلق على ها البلاد الفقيرة (فيما سمي العالم الثالث) تكشـف عن زيف الحقائق التـي تروجهـا الحكومـات الرأسـمالية الاستعمارية، على رأسها أن فقراء العالم الثالـث يعيشـون على معونات العالم الذي أطلق على ه العالم الأول ، وكأنما العالم الثالث يعيش عالة على العالم الأول كما تعيش المرأة عالة عل الرجل ، لكن الحقيقة غير ذلك ، وهي أن مـوارد العالم الثالث ق نهبت بواسطة الاستعمار القديم والجديد ،وان هذه المعونة ليست إلا جزءاً يسيراً من الأمـوال المنهوبـة، بالإضافة إلى أن جزءًا كبيرا من هذه المعونة أو القـروض

يعود بالفائدة على القوي المسيطرة دولياً ومحلياً ،ولا يصل إلا الفتات اللمعدمين المساكين.

لهذا بدأت الشعوب في العالم الثال ث ، أو م ا يسد مي الجنوب ترفض هذه المعونات والق روض فه ي تسد تنزف الكرامة والموارد المادية تحت اسم تسد ديد فوائ د ال ديون، وارتفع شعار " عدالة وليس المعونة (Fair Trade and not aid) وتزايدت المظاهرات الشعبية لإلغاء ديون العالم الثالث، وفي المظاهرات النسائية العالمية في ٨ مارس ع ام ٢٠٠٠ ارتفع شعار يقول: كيف نقارن ديون العالم الثال ث بخمسد ة قرون من النهب الاستعماري وقتل الشعوب في الحروب؟

وقد اصبحت مظاهرات النساء المتكررة كل ع ام ف ي اليوم العالمي للمرأة (٨مارس) من أهم المظاهرات الشعبية ، يشارك فيها النساء من مختلف بلاد العالم ،وهي ج زء م ن الحركة الشعبية العالمية التي تضرب ف ي ج ذور النظ ام الرأسمالي الأبوي في الغرب والشرق وتكشف عن الت رابط الوثيق بين القهر الطبقي والجنسي منذ التاريخ العبودي القديم و حتي اليوم.

ويلعب الأعلام الاستعماري العالمي دوراً في تضـ خيم حجم المعونات إلى الشعوب الفقيرة تحت اسـ م المسـ اعدات الإنسانية (Humanitarian Aid) من أجل التمويه على ما يحدث من قتل وتدمير لهذه الشعوب ذاتـ ه، ألـ م نـ ر تلـ ك العربات اللوري فوق الشاشة التي كانـ ت تحمـ ل المعونـ ة الأمريكية وزكائب الدقيق إلى الشعب الأفغاني، فـ ي الوقـ ت الذي كانت تسقط فيه القنابل من الطائرات الأمريكيـ ة علـ ى هذا الشعب ذاته،وقد شهدنا هذه الصورة نفسها منـ ذ أعـ وام قليلة في حرب الصومال،والحروب الاستعمارية الأخرى في بلاد مختلف من العالم.

وتقود القوي الرأسمالية الأبوية حملة عالميـ ة ومحليـ ة تدعو إلى جمع التبرعات أو المنح المالية أو الدراسية للشعب الأفغاني ،وهو حملة تمويهية تغطي على جـ رائم الحـ رب وتعطي واجهة إنسانية رحيمة لنظام بالغ القسوة والظلم وقـ د رفضت بعض القطاعات الشعبية الواعية في أفغانستان هـ ذه المعونات، وارتفعـ ت أصـ وات بعـ ض الرجـ ال والنسـ اء الأفغانيات يقولون: "لا نريد المعونات التي لا تفعـ ل شـ يئا سوي تصويرنا على إننا شعب مـ ن الشـ حاذين المتخلفـ ين

،وكل ما نريده هو أن يرحـ ل عنـ ا الاحـ تلال الأمريكـ ي العسكري الاقتصادي وأعوانـ ه ممـ ن يسـ مون" التحـ الف الشمالي" أليس التحالف الشمالي جزء من نظام الطالبان الذي يتاجر بالدين؟ ويقتل النساء تحت اسم الشرف والأخلاق؟

لقد سمعت بأذني عبر أسلاك التليفون هـ ذه الأصـ وات النسائية الواعية في أفغانستان، إلا أن الأصـ وات الأخـ رى المسيطرة على الإعلام العالمي والعربـ ي تتجاهـ ل هـ ذه الأصوات أو تفرض على ها الصمت.

وقد أصبح الصوت مع الصورة فوق الشاشة الصـ غيرة أكثر انتشاراً في العالم من الكلمة المطبوعة ،و أكثر تأثيراً . خاصة في بلادنا حيث ترتفع نسبة من لا يعرفـ ون القـ راءة وتتنافس الدول الكبرى والصغرى علـ ى أنشـ اء القنـ وات التلفزيونية والفضائية . يتغلب في هذا المضمار الدولة الأكثر ثراء وقوة وهي الولايات المتحدة الأمريكية.وقد أصبحت قوة الأعلام الأمريكي الأوروبي تساند قوة السلاح وأصبح تدمير العقل لا يقل خطورة عن تدمير الجسد .

وتشتد المقاومة من أجل الحياة ضد آلة الحرب والقتل كما تزداد الرغبة في المعرفة والفهم ضد محاولات التضليل والتمويه.

وقد نمت بوادر فلسفة إنسانية جديدة نابعة من الحركات التحريرية ضد الحضارة الرأسمالية الأبوية غربا وشرقاً ،وهي فلسفة بسيطة واضحة متسقة مع المنطق الطبيعي السليم أساسها البديهيات التي طمست منذ العبودية على رأسها أن الخلق فوق القوة ، والشعب فوق الحكومة، والبشر في الأصل والطبيعة متساوون في الحقوق والواجبات،لا فرق بين رجل وامرأة أو أبيض واسود أو حاكم ومحكوم أو مالك ومملوك أو غيرها من الثنائيات ،وأشكال التفرقة على أساس الجنس أو اللون أو العرق أو الجنسية أو الطبقة أو الدين أو العقيدة أو اللغة أو المهنة أو غيرها.

لقد سافرت إلى الولايات المتحدة قبل أحداث ١١ ستبمبر ٢٠٠١ بأسبوع واحد وعشت فيها ثلاثة شهور أقوم بالتدريس في جامعة مونت كلير ،والتي لا يفصلها عن برجي مركز التجارة العالمية في نيويورك إلا نهر هدسون، أوساعة

واحدة بالسيارة وهكذا عايشت الأحداث عن قرب،وتجولـ ت أيضا في عدد من الجامعات لإلقاء المحاضرات أو المشاركة في المظاهرات الطلابية الجامعية على الساحل الأطلسي في بوسطن ونيويورك. إلى الساحل الباسيفيكي أو أوكلاند وسان فرانسيسكو ،وفي جامعة موتنت كلير تكونـ ت لجنـ ة ضـ د الحرب في أفغانستان تضم عددا مـ ن الطلبـ ة والطالبـ ات والأساتذة و الأستاذات ،وكنت واحدة من هؤلاء وقد منحنـ ي هذا النشاط السياسي داخل الجامعة كثيراً مـ ن الأمـ ل فـ ي المستقبل. رغم خطورة الأحداث وتزايد الصراع العسـ كرية في أفغانستان حول المصالح البترولية في منطقة بحر قزوين وآسيا الوسطي والبلاد العربية من العراق إلى الصومال.

وقد أدت هذه الحركة السياسـ ية التحريريـ ة المعاديـ ة للحرب والتي يشارك فيها النساء والرجـ ال والشـ باب مـ ن مختلف البلاد والجنسيات إلى بوادر هذه الفلسـ فة الإنسـ انية المناهضة للرأسمالية الأبوية، وهي فلسفة جديدة وقديمة قـ دم نشوء " الضمير الإنساني" الذي يحمل اسم " الله " عند بعض الشعوب،وهو الصوت العميق داخلنا الذي يحاسبنا ويرشـ دنا إلى العدل والحرية والحب والرحمة والجمال.

أدت الفلسفة العبودية غير الإنسانية على مدي الق رون إلى إضعاف الضمي الإنساني الفردي والجماعي، عن طريق تحويل الصراع ضد الظلم الخارجي السياسي والاقتصد ادي إلى الصراع داخل الإنسان بين العقل والجسد، أو بين الجسد والروح، وأصبحت الروح تعني الفضيلة وترمز إل ى الإل ه الذكر،والجسد يعني الرذيلة وترمز إلى الانثي الآثمة.

وسقطت الفلسفة السائدة المكتوبة في العصور العبودي ة صريعة هذا الصراع اللانهائي بين الروح والعقل والجس د. أصبحت الفلسفة غارق ة ف ي المج ردات غامض ة أش به بالسفسطة الفارغة داخل المغلقة بعيدا عن الحياة في البي ت والشارع والمظاهرات الشعبية ضد النظام الحاكم.

بعبارة اخري انفصلت الفلسفة الرس مية الس ائدة من ذ ارسطو حتي اليوم عن "رجل الشارع"، أو جماهير الش عب في حركتهم اليومية الحية ونشاطهم في نواحي الحياة خاصة النواحي السياسية والثقافية.

وتنطوي كلمة "رجل الشارع" عن القيم الس ائدة الت ي تجعل النشاط السياسي خارج البيت أو في الشارع السياس ي هو من نصيب الرجال فقط، لأن كلمة "أمرأة الشارع" تعني "

المومس" أو " البغي" وليس المرأة النشطة سياسياً أو ثقافيا خارج بيتها وكأنما المرأة إلا تخرج إلى الشارع إلا لممارسة الجنس،وهو مفهوم قاصر على النساء الفقيرات أو الجواري أو الإماء اللائي كن يخرجن إلى العمل لتوفير الخبز والطعام لأطفالهن ،ويفرض على هم المجتمع الطبقي الأبوي المهن السفلي ،ومنها الخدمة في البيوت ، وتلبية حاجات الرجال الجنسية في بيوت البغاء.

كان العمل خارج البيت مهيناً للمراة ، فهو لا يعني أنها فقيرة ،وبلا رجل يوفر لها الحماية والمأوي ،لكن حركة النساء التحريرية في الغرب والشرق قد غيرت هذا المفهوم ،واصبح لعمل المراة خارج البيت قيمة إنسانية لا تقل كثيراً عن قيمة عمل الرجل، كما خرجت النساء إلى الشوارع في المظاهرات الشعبية والنسائية ولم يعد الشارع مكان الموسات فحسب.

نزلت المراة إلى الشارع دون أن تفقد احترامها،وبدأت الفلسفة أيضا تنزل إلى الشارع دون أن تفقد احترامها.

لم يعد التفكير مهنة يمارسها قلة محظوظة من المفكرين أو الفلاسفة وبدأت القيم الطبقية الأبوية تتساقط مع مشد اركة الجماهير من النساء والرجال في الأنشطة السياسية والثقافية ،وبدأت الفواصل بين الرجل والمراة تتلاشي ومعها تتلاشد ي الفواصل بين لجسد والروح وغيرها من الثنائيات الموروث ة منذ العبودية

وهناك محاولات قمع هذه الحركات السياسية والفكري ة الجديدة ،فالأجهزة القمعية البوليسية لا تقل شراسة وعنفاً عن الأجهزة العسكرية في العالم غرباً وشرقا، ربما تختلف درجة القمع أو نوعه من بلد إلى بلد أو يكون مستتراً مث ل القم ع النفسي الذي يمارس على النساء الثائرات ويقود المرأة منهن إلى الانتحار ، أو المستشفي النفسي وليس السجن.

وقد كشفت الحركات النسائية والشعبية الجديدة عن زيف القيم السياسية والأخلاقية للنظام الرأسمالي الأب وي. عل ى رأسها ما سمي بالديموقراطي ة الليبرالي ة الت ي صد ورها المفكرون في الغرب من أمثال فرانسيس فوكاياما على أنها أفضل الاساليب لتنظيم المجتمعات الإنسانية ،وأنها مس تقبل

البشرية لأنها تتسق مع الرأسمالية واقتصاديات السوق الحرة وأنها تقود العالم إلى الحرية والعدالة والسلام والحب.

لقد أتضح خلال القـ رن العشـ رين الماضـ ي أن هـ ذه الديموقراطية الليبرالية لا تقود العالم إلا إلى الحروب والعنف والإرهاب ،وأنها لا تستند على المشاركة الفعليـ ة الشـ عبية للنساء والرجال الفقراء،بل على التصويت فـ ي انتخابـ ات شكلية خاضعة لأصحاب الأموال والقوي الطبقية الذكوريـ ة في المجتمع الرأسمالي.

وثبت لنا . خاصة بعد أحـ داث ١١ سـ تبمبر وحـ رب البترول والأفيون الدائرة في أفغانستان أن الحضارة الغربيـ ة التي أعطت نفسها اسم الديموقراطية الليبرالية في جوهرهـ ا حضارة طبقية أبوية ،ولن تؤدي إلى السـ لام القـ ائم علـ ى العدل، ولا الحريات السياسية والاقتصادية لأغلب قطاعـ ات الشعب ، ولا إلى مشاركة الشعب الفعلية في الانتخابات.

وقد عشت الشهور الثلاثة التي تلت أحداث ١١ ستبمبر في الولايات المتحدة، وشهدت كيف تراجعت هذه الديمقراطية الليبرالية لتفرض القيود على الشعب الأمريكي تحـ ت اسـ م الأم. كيف اجتمع جورج بوش بالمسئولين الكبار في أجهـ زة

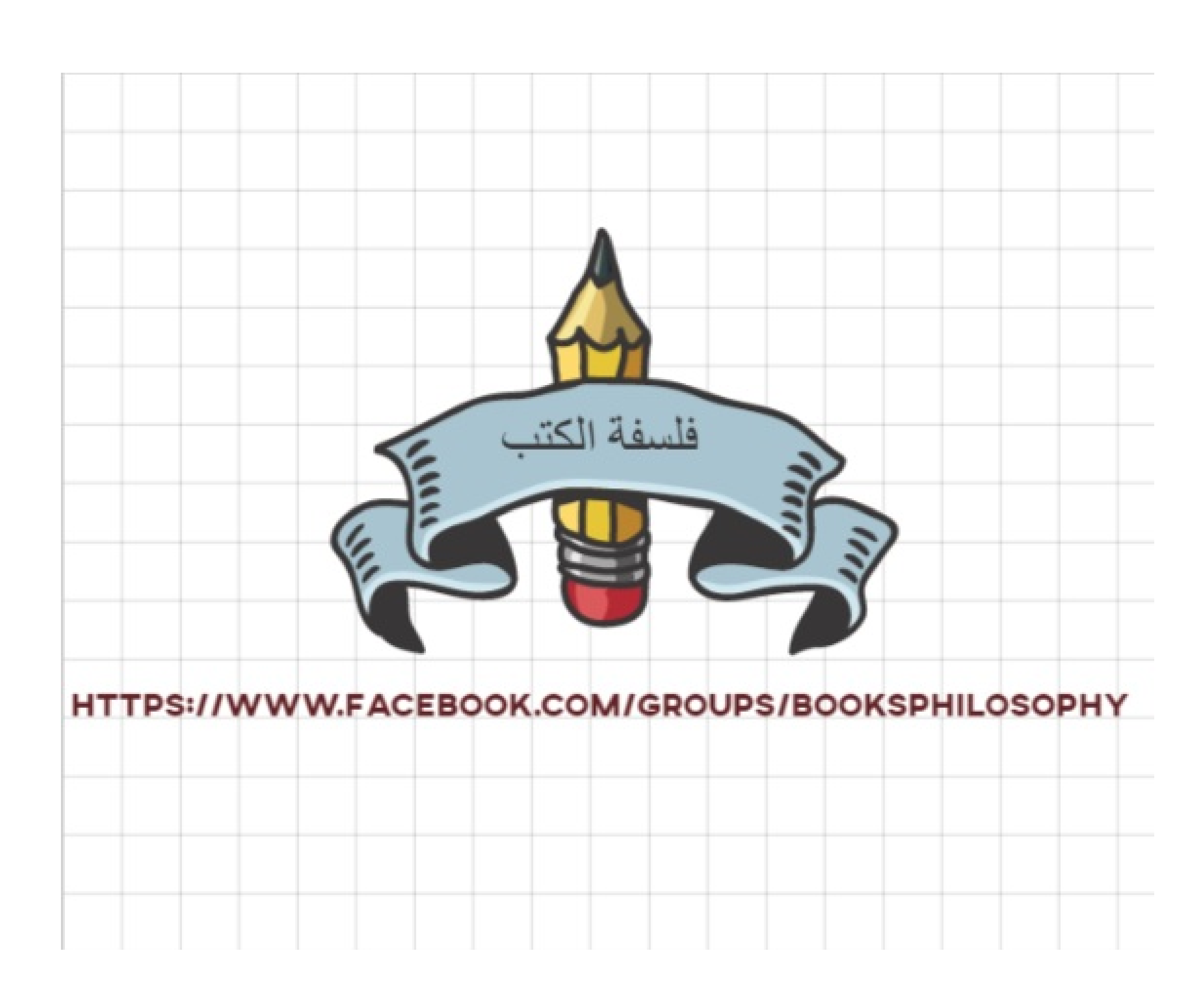
الإعلام وطلب منهم فرض الرقابة على ما ينشر ويذاع على الشعب الأمريكي كيف تنكرت الحضارة الأمريكية للمبادئ الديموقراطية الليبرالية التي تشدقت بها منذ القرن قبل الماضي ،كيف شرعت الحكومة الأمريكية الاعتقال دون دليل لمجرد وجود شبهات ؟ كيف زجت في السجون أبرياء من الرجال والنساء من دون تحقيق،وتقديمهم للمحاكمة السرية أمام المحاكمة العسكرية دون أن يكون لهم حق الدفاع القانوني ؟ كيف لجأت إلى تكنولوجيا التعذيب الجسمي والعقلي والنفسي للمسجونين والمسجونات للحصول على المعلومات؟ وهذا يؤكد أن هذه الديموقراطية الليبرالية هشة ومزيفة ولا تختلف كثيراً عن الفاشية ونظم الحكم الشمولية والدكتاتورية العربية وغيرها ،ولا غرابة في ذلك. فهي قائمة على الظلم والازدواجية ، أساسها القيم الرأسمالية الطبقية الأبوية الموروثة عن العبودية.

كشفت الحركات النسائية والشعبية الجديدة في الغرب والشرق أن العالم ي حاجة إلى فلسفة إنسانية تقضي على القيم الطبقية الأبوية ،وتبني قيماً إنسانية جديدة قائمة على

العدل والسلام والحب ،وإلغاء جميع الثنائيات والتقسيمات بين البشر.

القاهرة يناير ٢٠٠٢

***



الهوامش:

(١) مسرحية إيزيس ، دار المستقبل العربى، الق اهرة ١٩٨٢، ص ٥.

(٢) عن المرأة، دار المستقبل العربى، القاهرة ١٩٨٨، ص ٢٤.

(٣) سلمان رشدى، جريدة نيويورك تايمز ، نيوي ورك تايمز، نيويورك ٢ نوفمبر ٢٠٠١.

(٤) صموئيل هانتجتون، مجلة نيوزويك، العدد السنوى الخاص، ديسمبر ٢٠٠١، فبراير ٢٠٠٢.

(٥) عن المرأة، ص ٢٥.

(٦) عن المرأة، ص ١٨.

(٧) عن المرأة، ص ٢٠.

(٨) توأم السلطة والج نس، دار المس تقبل العرب ى، القاهرة ١٩٩٩، ص ٢٣٣.

(٩) فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، (خلبيل عبد الكريم)، دار مريت للنشر، القاهرة ٢٠٠١.

(١٠) كتاب التواره، الآية رق م (١)، (٢)، الإص حاح السادس، تكوين ٥، ٦.